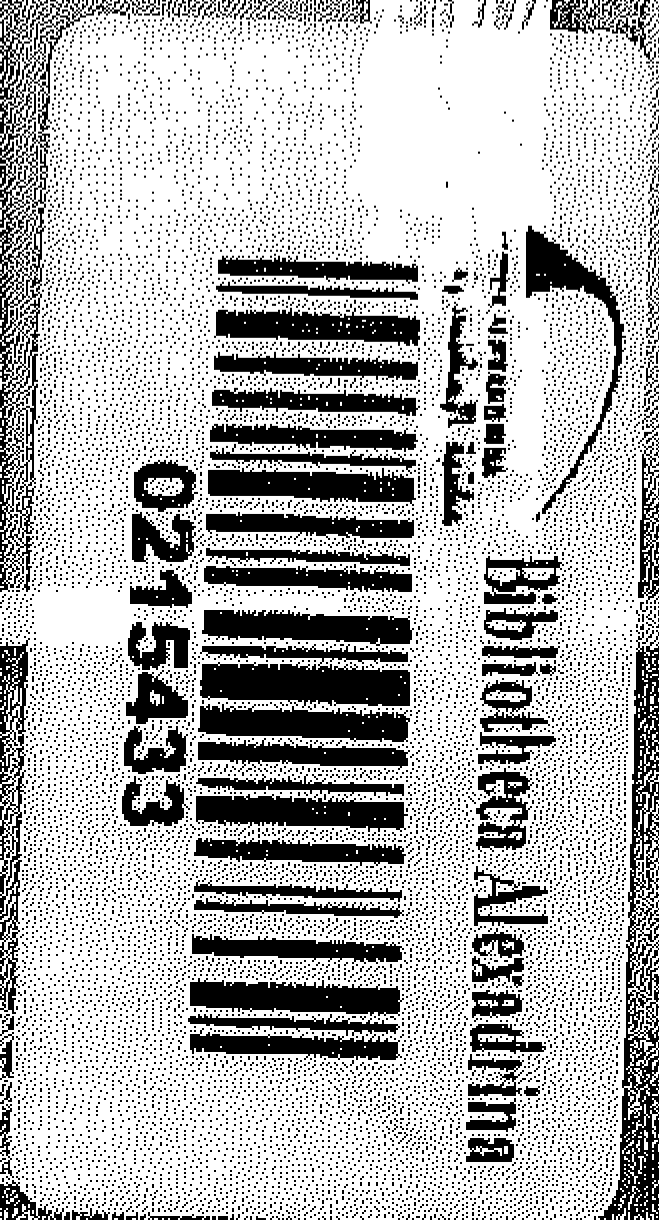
تاريخ نجد

ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

(السلفية)

تأليف: سنت جون فيلبي

تعريب: عمر الديسراوي



مكتبة مدبولي

تاريخ نجد

ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

(السلفية)

تاريخ نجد

ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

(السلفية)

تأليف

سنت جون فيلبى

تعريب

عمر الديسراوى

مكتبة مدبولى

القاهرة

الطبعة الثانية

١٤١٨هـ/١٩٩٧م

مكتبة مدبولي MADBOULI BOOKSHOP

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت: ٧٥٦٤٢١

5 Talat Harb SQ. Tel:756421

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة دار النشر

لاشك أن القارىء والمتأمل للتاريخ الاسلامى يستدعى انتباهه الأحداث التى مرت بشبه جزيرة العرب قلب العالم الاسلامى، ولذا اضطلع كثير من الباحثين والمؤرخين بالاهتمام بتاريخ هذه المنطقة سواء منهم العرب وغير العرب .

ونحن بدورنا كدار نشر نقدم لقرائنا الاعزاء أجل ما كتب عن تاريخ شبه الجزيرة ، حتى يستجلى القارىء العبر التاريخيه والسياسية من جراء معرفته للاحداث التى تمر بها الأمم ، والدول الصغرى منها ، والكبرى - فى أيام خلقها الله فى الزمان وجعلها جزءا منه ، واول هذه الزمان فى المكان ، وفى ذلك يقول تبارك وتعالى فى محكم آياته : ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم الذين آمنوا ويمحق الكافرين** ﴾

(آل عمران ، ١٤٠:١٤١)

فالغاية من التاريخ ، والأحداث السياسية هو استخلاص واستنتاج العبر السياسية ، والأخلاقية التى تحيا عليها الأمم ، فتتعلم من الماضى ، وتوظف احداثه لحاضرها ومستقبلها ، وهذا ما نتعلمه من ذلك السفر الجليل الذى بين أيدينا للعلامة (ست چون فيلبى) .

ولكن عند قراءتنا لهذا الكتاب وجدنا أنه تنقصه الخرائط الخاصة ببعض المعارك الحربية الهامة التى ذكرت فى هذا الكتاب ، لذا قامت دار النشر بتزويده بتلك الخرائط نظرا لأهميتها التاريخية، والسياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، قد يعجب القارىء حينما نقول : أهميتها الاجتماعية والاقتصادية ، ولكنه عندما يطلع على هذا الكتاب فسوف يجد صدق ما نقول من جهة هاتين الاهميتين بالذات ، ولاسيما فى منطقة الشرق الاسلامى كله.

أما الملاحظة الثانية:

فهى عدم ذكر المراجع والمصادر التى اعتمد عليها المؤلف ، ولذا عملت دار النشر على تدريب هذه المراجع والمصادر فى مؤخرة الكتاب تيسيراً على القارىء العزيز فى الرجوع إليها.

وأخيرا ، ونحن إذ نقدم إلى القراء هذه المنشورات الجليلة بغية نشر اللثقافة والوعى الفكرى فى عالم الاسلامى ، لا نرجو من وراء ذلك إلاالتوفيق والأجر من الله تبارك وتعالى، والله من وراء القصد ، وهو يهدى إلى سواء السبيل.

مع تحيات

مكتبة مدبولى

الفصل الاول

بسم الله الرحمن الرحيم

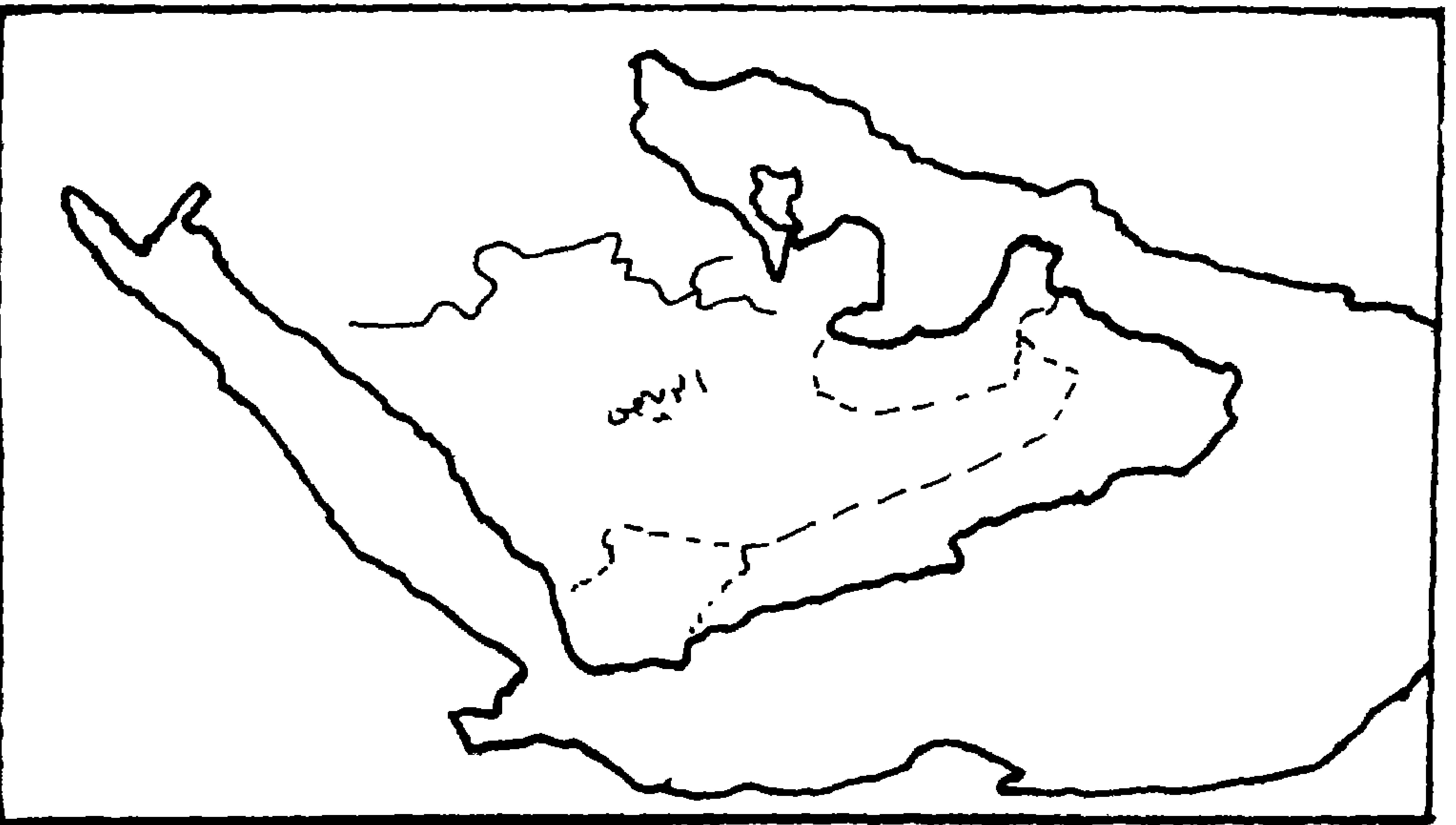
وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون

صدق الله العظيم

إمارة الدرعية

لم يكن قد مضى على وفاة تيمور لنك الا اقل من نصف قرن ، وكان لا يزال مقدرا للعرب أن يبقوا فى اسبانيا نصف قرن آخر ، وقبل أن يكتشف كولومبس اميركا بنصف قرن ايضا - حين توجه سنة ١٤٤٦ مواطن من عامة اهل القطيف ، ومن ضاحية هناك تسمى الدرعية ليزور ابن عمه ، ابن درع الذى كان قد استقر منذ زمن بعيد فى منفوحة . وهى قرية بقرب الرياض فى أواسط الجزيرة العربية .

وكان ابن عمه هذا زعيم عشيرة الدروع الذين كانوا يقطنون فى القرى المهجورة من جزع وهجر اليمامة فى الوقت الحاضر . وكان رجلا موسرا ذا ممتلكات واسعة تحتاج الى عناية وتطوير . فأقطع ضيفه قطعتين من الأرض تبعدان اثنى عشر ميلا فى أعالى الوادى عن أراضيه ، إحداهما تدعى «**الغصيبة**» والثانية «**المليبد**». وعلى هذه الصورة البسيطة بدأت هجرة الدروع إلى ذلك الوادى واستقرارهم فيه .



إستقرار الدروع في منطقة "الغضيبة" في قلب شبه الجزيرة العربية

ثم تقادم العهد حتى صار يعرف باسم الدرعية تخليدا لذكرى القرية الأم التى نشأ فيها أجداد سكانه ، قرب الخليج الفارسى (العربى) .

ولا يمكن الجزم ، بشخصية من أُغدقت عليه هذه الأملاك ، أهو مانع المريدى نفسه ، وهو الذى ابتدر الاتصال مع ذلك الغريب على التحقيق ، ام أنه أباه ربيعة . وعلى كل حال فقد كان ربيعة هو الذى وضع أساسات تنمية رقعة ذلك المهجر وتوسيعه العداوانى على حساب جيرانه ، الا أن الفضل يعود الى مانع وابنه ربيعة فى كونهما أسبق الأسلاف المعروفين للبيت السعودى . وهو البيت الذى سيطر على مسرح السياسة فى الجزيرة العربية طوال المائتى سنة الأخيرة .

وما سعود الذى منح اسمه للبيت السعودى بعد أن أسسه ، الا الحفيد الخامس فى سلسلة أحفاده . اما ملك المملكة العربية السعودية الحالى فهو سليله من الصلب للجيل الخامس عشر . هذا فى حين أن البيت الذى انشأه ذلك الرجل يبدو مضمون البقاء إلى الأبد ، فمجرد بلوغه الجيل السابع عشر ناسلا مثل هذا العدد الكبير من الأفراد يضمن له دوام الحياة إلى عصور لانحلم برؤيتها .

ولا يذكر تاريخ شبه جزيرة العرب سبباً معيناً جعل وادى حنيفة يجذب اهتماما عظيما من اكثر من ناحية فى اواسط القرن الخامس عشر.

ففى أواسط ذلك القرن حظى وادى حنيفة بالاهتمام العظيم فى تاريخ الجزيرة . وكان سكان ذلك الوادى فى تلك الأثناء ، يملكون واديهم كاملا من ممر الحيسية حتى الخروج ، وهم فرع من قبائل آل يزيد الحنيفيين . ومن المفروض أنهم تنازلوا عن أملاكهم الى ابن درع الآنف الذكر قبل زيارة مانع بمدة قصيرة، كما أنهم فى عام ١٤٤٦ ذاته باعوا أراضى العُيينة الواسعة إلى حسن بين طوق من بنى ملحم . وهو جد آل معمر ، امراء تلك الناحية الذين ظل نجمهم فى صعود فى أواسط الجزيرة العربية حين غاب عن العيون حين طلع بدر السعوديين فانتشر نوره .

كان ما تبقى الآن لآل يزيد من ممتلكاتهم فى وادى حنيفة ، عبارة عن جزء من الوادى يمتد من شمالى الغصيبة حتى أرض «جبيلة» والقرية المعروفة بذلك الاسم فيشملها . وكانت مناطق سكناهم الرئيسية قريتى الوصيل، والنعمية إلا أنه لم يقدر لهم أن يبقوا فيها طويلا ، فقد طمع ربيعة بكرومهم فابتد أهم بالعدوان .

ثم جاء بعده ابنه موسى فأخضعهم . وكان هذا قد عزل والده واغتصب منه الزعامة ، ثم حاول قتله فلم ينجح فى ذلك . وحينئذ فر الوالد المثخن بالجراح الى العيينة ، حيث استقبلة حمد بن حسن بن طوق استقبالا رائعا وأكرم وفادته . أما عشيرة آل يزيد فقد ولت الأدبار امام هجوم موسى ، مخلفة وراءها ثمانين قتيلا . ومنذ ذلك الزمن لم يرد لهم ذكر فى تاريخ وادى حنيفة الا أن عائلة دغيشر التى تقطن الدرعية تدعى أنها تحدرت منهم .

وهكذا لم ينقض جيلان ، حتى غدا النازحون الذين جاءوا من القطيف سادة فى هذه المنطقة التى آوتهم . وكانوا يمتازون بمواهب بناءة ، اذا آثرنا أن لا نستعمل كلمة ميول عدوانية ، بالنظر الى أن الأساليب العنيفة الصارمة التى كانوا يستعملونها كانت شيئا عاديا مألوفا فى الجزيرة آنذاك.

وفى بداية القرن السادس عشر ، اى عندما خلف إبراهيم أباه موسى ، كانت قد تمت سيادة هذه الأسرة على الوادى إلى الجنوب من جبيلة ، وكانت جبيلة وجميع الأراضى الواقعة شمالها بما فى ذلك هضبة طويق ، تدخل ضمن حدود إمارة بنى حسن بن طوق وأميرهم فى ذلك الوقت مغمر بن حمد مؤسس اسرة عيينة . نقول هذا وان كان انحاء الجزء المتعلق بهذه الناحية من مخطوط تاريخ ابن بشر المعروف، يجعلنا على غير يقين من ذلك، وكانت هذه «الدويلات» الاكبر قليلا من الامارات المحلية ، تمتد موازية للامارة الخاضعة لأجود بن زامل الجبرى ، على طول ساحل الخليج الفارسى فى مقاطعة الاحساء ، وفيما عدا الامارات السالفة يبدو أنه لم يكن هناك كيانات سياسية منظمة بالمعنى الصحيح فى الصحراء العربية، بالرغم من وجود عدد من الممالك المدينية المستقلة أستقلالاً كاملا الى جانب هذه التجمعات الكبيرة الطموح . ومن هذا القبيل كنت حرمة والمجمعة اللتان يرجع تاريخ انشائهما الى سنة ١٣٦٨ م و ١٤٢٦ م على التوالى . هذا بينما كانت الرياض ومنفوحة واليمامة

تشكل عنصرا هاما فى كيان الجزيرة السياسى فى تلك الحقبة من التاريخ وكذلك كانت جاليات السُدير والقصيم وجبل شمر . ونحن وأن كنا لا نعرف الكثير عن تاريخها فى الفترة التى ندرسها الا أنا نجد تاريخ ملحمة الدرعية يأتى على ذكرها بشكل عابر على نحو ما جاء فى ملحمة هوميروس .

واذا ما عدنا الى ما يهمنا من مجرى التاريخ ، طالعنا ابراهيم بن موسى يوطد حكمه فى اماراته الصغيرة ثم يأخذ فى التطلع الى التوسع فيما وراء حدودها العتيقة.

لقد كان مطمئنا الى عدم وجود قوة خارجية تهدده ، وهكذا رحل ابنه عبد الرحمن الى ضُرمه ، حيث اسس هناك بلدا قُدِّرلها أن تلعب دورا هاما فى تاريخ البلاد فيما بعد . وذلك لما اشتهر به ابناؤها من شجاعة وحب شديد فى الاستقلال . فقد كان يوجد عشيرة «أل ابو يحيى» التى استوطنت موقع «ابا الكباش » الى شمال الدرعية . وهى اليوم عبارة عن خرائب تتألف من جدران وابراج متداعية كانت لحصن قديم .

اما عبد الله ، الابن الثالث لابراهيم فقد كان جد « آل واطب» وحامولات اخرى ليست ذات شأن فى هذه الايام . ويبقى مرخان الابن الرابع لابراهيم وهو يستحق الذكر والصدارة . ولم لا ، وهو مؤسس البيت السعودى المعاصر ، عن طريق حفيده محمد بن مقرن والدسعود الاول .

ويبدو أن هجرة عبد الرحمن ، اكبر ابناء ابراهيم الاربعة الى ضرمه كانت مشروطة بتنازله عن حقوقه فى الدرعية . وكذلك كانت هجرة سيف الى ابى الكباش مع ان الاخيرة لاتبعد عن العاصمة كثيرا . وقد تولد من ذلك تأربين هذين الفرعين اللذين لم يعمرا لاكثر من الجيل الثالث ، بعد سيف وعبد الرحمن .

فقد قتل احفاد سيف ابن عمومتهم ابراهيم حفيد عبد الرحمن ، فاختاروا النزوح تفاديا للانتقام منهم . ونحن لا نعرف عن عبد الله اكثر من ان سلالته لا زالت مغموره حتى الان . إذ تقلد مرخان مشيخة العائلة بعد وفاة والدهم . ثم خلفه بكره ربيعة الذى اشير اليه باسم امير الدرعية ، عندما ورد حجه مع اخيه «مقرن» الى مكة سنة ١٦٣٠ م . وقد صدف انه حدث طوفان فى مكة المكرمة فى الثانى عشر من نيسان من ذلك العام فدمر الكعبة ، مما اضطر الناس الى هدم ما تبقى منها ثم اعادة بنائها . وقد استغرق العمل فيها زهاء السبع سنوات فتم الاحتفال بانجاز بنائها فى ايار سنة ١٦٣٦ م . وكان ذلك الطوفان إيام ولاية الشريف سعود ابن ادريس بن حسين بن ابى نعمى .

وما دمنا سنتطرق الى بحث الترخص الدينى والارتداء الى ممارسة العادات الذميمة فى الجاهلية اللذين كانا يسودان الجزيرة العربية ايام مطلع الوهابية فى اواسط القرن الثامن عشر ، فانه يجدر بنا أن نتذكر شدة تمسك سكان الجزيرة العربية بالطقوس والمراسم الدينية

خلال القرون التي سبقت ، ففي سنة ١٥٠٦ مثلا ، قامت قافلة يقدر عددها بثلاثين الفا من الحجاج من الاحساء الى مكة تحت إمرة اجود بن زامل امير الاحساء . وقبل ذلك بمائتى عام تقريبا ، اى فى سنة ١٣٣٧ ، كان قد توفى « ابن تيمية » باعث الدعوة الاكبر الى التوحيد لقد مات الرجل ، الا أن تعاليمة ومبادئه ظلت حية فى الجزيرة العربية.

ويورد ابن بشر فى تاريخه قائمة باسماء كبار الائمة الذين عاصروا اجود بن زامل حين يتحدث عن وفاة الشيخ احمد بن يحيى بن عطوه بن زيد وتشييع جنازتة فى جبيلة سنة ١٥٤١ . وكان هذا الشيخ قد تلقى علومه الفقهية فى حلقات معظم اولئك الفقهاء فى المساجد . ويضيف بن بشر الى ذلك بشىء من الموافقة والتحيذ، تعشيين السلطان سليم الاول لقاضى حنبلى كرئيس لقضاة مصر سنة ١٥١٧ . كما يذكر أن هذا القاضى ، واسمه الشيخ احمد ابن النجار ، كان آخر قاضى قضاة من اصل عربى . فقد كان انصاريا من بنى النجار فى المدينة المنورة . ومما يسترعى النظر فى ذلك الحين أن العثمانيين ، وهم الذين احتلوا مصر واغتصبوا الخلافة الاسلامية لم يأبهوا للجزيرة العربية وأن كانوا قريبا ما سيفعلون ذلك ففى العقد الاخير من القرن السادس عشر غزوا مقاطعة الاحساء واحتلوها . وقد عينوا فاتح باشا اول وال عليها بعد اخضاع عائلة اجود بن زامل الجبرى العقلى القيسى . ويبدو انه

لم يتوفر بين أيدينا تاريخ معروف لآخر امير من آل زامل ، او لأسلافه الذين سبقوا اجود: ولا مدة حكمهم فى الاحساء . وكان ذلك سنة ١٥٩١ م . اما قافلة الحج التالية التى خرجت من الاحساء فقد تم خروجها بعد ذلك باربعين عاماً. وكانت تحت امرة بكر بن على باشا ، ابن الحاكم الذى خلف فاتح باشر مباشرة .

وعلى باشا هذا هو الذى استقبل الشريف محسن بن حسين بن حسن شريف مكة ، وابناء عمه ضارى عبد المطلب استقبالا منقطع النظير سنة ١٦٢٢ ، اثناء الزيارة التى قاموا بها للهفوف من جملة واسعة فى الجزيرة . وفى هذه الايام كان الحجاز مستقلا تحت امرة الاشراف الذين كانوا يعتبرون أنفسهم سادة المناطق الداخلية من الجزيرة . وكانوا يقومون بالاغارة على تلك المناطق بغية تأديب اهلها حينا ، ولملىء خزائنهم بالمال احيانا .والى هذه الغازات كما يذكر ابن بشر ، تلك التى وقعت سنة ١٥٧٨ م عندما وصل الشريف حسن ابو نعمى الى الرياض بجيش عدته خمسون الفا من الجنود ورابط هناك طويلا يقتل وينهب . وحين هم عدته خمسون الفا من الجنود ، ورابط هناك طويلا يقتل وينهب . وحين هم الشريف بمغادرة البلاد ، عين من لدنه رجلا اسمه محمد بن فضل أميراً عليها وارتهن عددا من الزعماء سجنهم عاما ، ولكنه عاد فاطلق سراحهم بعد ذلك شريطة أن يدفعوا له جزية سنوية معينة . وبعد انقضاء ثلاث سنوات عاد الشريف نفسه فغزا نجدا . وقد

وجه اهتمامه هذه المرة الى مقاطعة الخرج فاحتل مدنها الرئيسية والمواقع الاستراتيجية في المرتفعات المحيطة بها . ثم عاد الى بلاده تاركا من ينوبون عنه في ادارة شؤون المقاطعه . وما كاد يغادرها حتى جاءته اخبار غارة أعدها بنو خالد للوثوب عليه والاستيلاء على دوابه وحوامله . وقد فعل البدو ذلك غير أن الغزاة منهم وجدوا الشريف مستعدا لملاقاتهم ، فهزمهم شر هزيمة وكبدهم عددا كبيرا من القتلى ، كما استولى على جميع رواحلهم . ولم يمض على تلك الواقعة الا فترة قصيرة حتى خضع بنو خالد للحكم التركي ، كما انتهى حكم الشريف حسن بن نعمى يوم وفاته في مكة.

وقد خلفه في إمارة مكة ابنه ادريس الذي غزا شقيقه ابو طالب نجدا نيابة عنه سنة ١٦٠٢ وكان ادريس هذا قد اشرك معه في الحكم حين توليه ، اخاه فهيدا وابن اخيه محسن بن حسين ، وجعلهما ندين له. اما فهيد فاعفي فيما بعد . واما محسن فقد ظل مخلصا لعمه وشريكا له في الحكم حتى وافت المنية عمه في يطب من قرى جبل شمر ، يوم انضم الى شقيقه ابي طالب في الحملة التي ذكرناها آنفا . وحينئذ قام محسن باغتصاب الامارة من ابناء عمه ، اذ كان اقوى رجل في العائلة . وقد غزا نجدا بنفسه سنه ١٦٠٦ وكان هدفه قرية قصب في شعيب العتك ، فاحتلها وأعمل السيف في رقاب اهلها بوحشية وفي ذلك الزمن كانت المناطق الواقعة في اواسط الجزيرة العربية تعاني القلقلة وعدم الاستقرار . فأخذت تكون

لنفسها تجمعات متنقلة على الطراز الذى سنشهده سائدا فى تلك المناطق ايام الوهابيين بعد ذلك بمدة طويلة . فقام محمد وعبد الله الحنيحن بالاستيلاء على اراضى عشيرة العرينات فى قرية البير بمنطقة السدير ، وأخذوا يحسنون مزارعها حتى آلت اخيرا الى حوزة حمد ابن محمد الذى كان احفاده لايزالون يستثمرونها فى اوسط القرن التاسع عشر . وفى نفس سنة ١٦٠٦ أنشأت عشيرة آل التميم قرى الحصن قرب واحة «جنوبية» فى السدير وفى جنوب الوادى عند حسن قارة ، وفى سنة ١٦٣٠ احتل الحزازنة واحتى حارق ونعم جنوبى مقاطعة الخرج . وهم لا يزالون هناك حتى هذا اليوم هذا فر الحين الذى أنتقل فيه ذلك الجزء من واحة الرياض المعروفة بالمقرن من يد الى اخرى منذ اغتيل ابناء مفرج بن ناصر ، سادته وسيوخ الاسرة المسيطرة فيه ، بمكيده من ابناء عشيرة المديرس التى أغتصبت زعامة المنطقة بعد ذلك .

وفى غضون هذه المدة كان الشريف محسن قد توفى بعد زيارته للاحساء بفترة وجيزة ، فخلفه فى الامارة ابن عمه سعود بن ادريس سنة ١٦٢٢ . ولكن امر سعود هذا لم يدم طويلا اذ سرعان ما خلفه زيد بن محسن ، الشريف المتوفى سابقا ، من الامارة سنة ١٦٣١ ، ولكن زيدا استعاد الامارة منه بعد مائة يوم فقط واحتفظ بها الى يوم وفاته سنة ١٦٦٥ .

كانت نجد الآن تتمتع نسبيا بفترة راحة فلم يعد شرفاء مكة

يتدخلو بشؤون أهلها . وتحول الاهتمام بامور نجد الى احمد بن عبد الله بن معمر امير العيينة الذى كان يطمح الى توسيع امارته ، فغزا مقاطعه السدير سنة ١٦٤٢ . ولكنه لم يصب نجاحا كبيرا فى الاستيلاء على قرية ام حمار فى الطرف الاقصى من واحة الحوطة وقد انتهت مطامعه سريعا ، حيث توفى فى موقع المغاسل ، محطة السيل الكبير اليوم ، وهو يقوم بفريضة الحج . وقد خلفه ابنه ناصر سنة ١٧٤٧ ، لكنه قتل على يد ابن اخيه دواس بن محمد الذى اغتصب امارة العيينة حينذاك .

وكان فى هذه الاثناء ، أن جدد الشريف زيد بن محسن نشاطه فى داخل الجزيرة ، حيث انطلق الشريف محمد لحراث بعد أن جهزه زيد سنة ١٦٤٦ فى زيارة الى ثرمدة . وهناك قابله الفقيه المشهور الشيخ محمد بن اسماعيل فطرد من نفسه كل ما كان يضمره من نوايا شريرة للبلدة بعد أن رقاه بتعويذه مباركة . وفى السنة التالية قام الشريف زيد بنفسه بحملة واسعة على نجد وهاجم روضة السدير، فقتل زعيمها محمد بن ماضى بن محمد بن ثارى و اقترف جنوده اعمالا تقشعر لها الابدان . ثم تقدم زيد جنوبا الى بنبان مكتسحا مشارق الرياض . وفى اثناء عودته الى بلاده مر بالعيينة واستحوذ من اهلها على مبلغ من المال وحمولة ثلاثمائة جمل من القمح .

وكان ذلك شؤما على العيينة وعارا لها . ففى السنة التالية قتل

محمد بن حمد بن عبد الله ابن عبد الله ابن عمه دواس، الذى كان قد اغتصب الامارة منذ اقل من تسعة أشهر، كما طرد منها شقيق دواس ، وبقية افراد عائلته . ولم يدم حكم محمد طويلا ، اذ توفى سنة ١٦٦١ فخلفه ابن عمه ، عبد الله بن احمد . غير أن هذا سرعان ما اختلف مع سكان قرية البير فى السدير بسبب سوقه إبلهم فى احدى غاراته العادية . ولذلك انتقموا منه بان نهبوا قافلة من قوافل العيينة وسلبوا البضائع التى كانت تحملها من الساحل . وحينئذ اعد عبد الله حملة تأديبية يهدف بها الى تلقين القرويين درسا لن ينسوه، وكان يرافقه قاضى العيينة ، وكان من حسن حظ اهل البلدة أن انهار جدار من سور القرية حالما تجمع المهاجمون تحته استعداد للهجوم . وكانت الاصابات الكبيرة التى لحقت بهم هى التى حولت الهجوم العدوانى الى مفاوضات سلمية للصلح بين الطرفين . وقد لعب القاضى دورا مهما فى ايجاد تسوية سلمية بين الامير والقرويين واشترط اعادة المنهوبات من الجانبين.

ليس لدينا شىء عن التطورات التى حدثت فى الدرعية فى الفترة التى تلت حج أميرها ربيعة سنة ١٦٣٠ . وكل ما يورده ابن بشر عن الوضع هناك انه فى سنة ١٦٥٤ قام وطبان ابن ربيعة، وخليفته ، بقتل ابن عمه مرخان بن مقرن واغتصب امارة الغصيبه. ووقائع هذه الفترة معقدة للغاية . ومن الممكن أن نصيب الحقيقة اذا رتبنا احداثها التاريخية على هذه الصورة : لقد خلف وطبان والده

فى زمن ما بين سنتى ١٦٤٠ ، ١٦٥٤ ولكن ابن عمه مرخان ثار عليه وعزله غير أن وطبان استطاع أن يقتله ويستعيد مركزه كأمير للدرعية سنه ١٦٥٤ .

وهناك رواية اخرى مفادها أنه هرب ليتجنب ما يترتب على فعلته من تراث ثم استقر فى الزبير ، حيث اصبح حفيده ابراهيم بن ثاقب اميرها مع الزمن . اما اشهر ابنائه محمد الذى خلفه فى الامارة فقد توصل الى مركز سياسى مرموق، الامر الذى اثار حفيظة الحاكم التركى فى زمنه ، وفى سنة ١٨٣٦ استدرجه الحاكم الى سراى الحكومة فى مدينة البصرة واغتاله مع جمع من اقاربه واتباعه . ومهما يكن من امر ، فهناك من الادلة ما يحملنا على الاعتقاد بان خلف مرخان بن مقرن فى «امارة الدرعية » لم يكن ابنه الذى بقى كما يبدو ، فى العاصمة ، بل شقيق مرخان محمد بن مقرن والد سعود. ومحمد هذا هو اول من تولى الملك من اسلاف الملك الحالى . وبعد ان آلت اليه الامارة سنة ١٦٥٤ اى منذ ثلاثة قرون قبل دفع هذا الكتاب الى المطبعة على التحقيق خلفه ابنه البكر ناصر ، شقيق سعود والذى اشتهر بلقب امير الدرعية سنة ١٦٧٣ ، عندما ذبح هو وابن عمه بن وطبان اخذا بالثار من والد الاخير . وربما تم ذلك بمساعدة محمد بن مقرن .

وهناك ما يشير الى أن القاتل كان مرخان بن وطبان الذى اغتصب الامارة . الا أنه قتل بدوره سنة ١٦٩٠ على يد اخيه

ابراهيم . وقد ظل ابراهيم فى الحكم حتى سنة ١٦٩٤ حين اغتاله شخص يدعى يحيى بن سلامة . لا نعرف عنه شيئا ، الا اذا كان ابن سلامة بن سويط امير عشيرة الظافر.

وحتى هذه المرحلة نجد قصة امراء الدرعية المتشابكة تغدو اكثر تعقيدا وغموضا عن ذى قبل . وذلك لان محمد ابن مقرن الذى تولى الحكم سنة ١٦٥٤ لم يمت الا سنة ١٦٩٤. ولربما انه تنازل عن حقوقه فى الامارة أو عزل من منصبه ليخلفه ابنه ناصر قبل سنة ١٦٧٣ ، وبعد ذلك ظل مواطنا عاديا خلال الخمسة والعشرين عاما التى تلت . ويجوز أنه ظل هو الحاكم الاسمى خلال فترة الاربعين عاما هذه بينما اخذ اعضاء العائلة الباقون يتنازعون الامر بينهم فى سبيل الحكم الفعلى . ومن الاهمية بمكان إن نلاحظ أن ابنه سعودا كان يبلغ الثلاثين ربيعا من العمر عند ظهوره لاول مرة على مسرح التاريخ العربى سنة ١٦٨٥ م.

وفى تلك السنة قاد حملة على مدينة حريملة يرافقه عبد الله بن معمر اشهر امراء العيينة واشترك فى القتال . وتعرف هذه المعركة فى تاريخ نجد «بيوم الكمين الاول» ، وقد فقد المدافعون فيها ثلاثين قتيلا . ومن غير المعقول أن يكون عمره اقل من العشرين فى ذلك الحين ، وهذا ما يرجح لدينا أن سعودا قد ولد سنة ١٦٦٥ ، وكانت هذه السنة اول سنى الجفاف والجوع فى الجزيرة العربية.

واذا رجعنا القهقرى فى تاريخ الجزيرة مائة عام من هذه النقطة التى وصلنا اليها ، ابصرنا الاتراك قد احتلوا بغداد وزستقروا فيها فى اوائل القرن السابع عشر .

ولكن شاه فارس ، عباس الاول ، هاجم بغداد بجيش لجب فاضطر الاتراك لمواجهة تحديه . وكان بكر باشا الوالى التركى فى بغداد قد أسخط السلطان فامر بطرده من منصبه ولكنه كان قوى الشكيمة ، فتحدى الباب العالى وظل يمارس سلطاته بحزم . وهذا ما جعل احمد باشا حافظ الذى عينه السلطان ليتسلم ولاية بغداد يرى من الحكمة أن يقفل راجعا من منتصف الطريق . وهنا سنحت الفرصة للشاه عباس ، فاغرى بكرا على فتح ابواب المدينة امام جيشه واعداً بأن يثبته فى منصبه عندما يحتل المدينة. وحين تم ذلك كان الوالى المتمرد اول ضحايا هجوم جيش الشاه ، الذين طفقوا ينبهون المدينة ويقتلون اهلها دون شفقة ولا رحمة . ولما كان الشاه اسماعيل الصفوى شيعياً فقد صب نقمته على اهل السنة من المسلمين ، مختصا العلماء منهم بالقسط الاوفى من التعذيب ثم اخذ جنوده يدمرون الجوامع ويحرقون دور الكتب فى المدينة . وقد طال البلاء ... واخيرا عين الشاه حاكما فارسيا مكان بكر . ولقد باءت جميع جهود الاتراك لاسترجاع المدينة بالفشل ، وظل الصفويون يحتلون بغداد حتى سنة ١٦٣٨ حينما هاجمت جيوش السلطات مراد ، ولاية بغداد واستعادت المدينة .

وكما اسلفنا سابقا كان قدمضى قرن على سيطرة الاتراك على مقاطعة الاحساء . وما كادت تنقضى عقود على ذلك اى حوالى ١٦٦٧ ، حتى احكم العثمانيون الطوق على اطراف الجزيرة العربية ، يوم احتل مصطفى باشا مدينة البصرى نيابة عن السلطان محمد بن إبراهيم بن أحمد ومع هذا ظل الحاجز بمنأى عن تطلع الاستانة اليه ، بالرغم من الوصاية الاسمية للخليفة السلطان على الاماكن المقدسة.

وفى سنة ١٦٦٥ مات الشريف زيد بن محسن بعد حكم دام قرابة الاربعين سنة ، فخلفه فى الامارة ابنه سعد بعد صراع بينه وبين الشريف حمود بن عبد الله الذى كان زيد قد اختاره ليخلفه فى الامارة ، وعلى هذا الاساس زوجه من ابنته ومنحه سلطات واسعة فى الامارة، حتى لم يبق شك فى نفوس الناس بأنه أميرهم المرتقب بعد وفاة صهره زيد. ولكن يبدو أن حمودا هذا كان ضعيف الشخصية قليل الطموح، اذ سرعان مارضخ لمطالب سعد بعد نزاع قصير.

وفى سنة ١٦٦٩ عهدت الى الشريف حمود قيادة حملة عامة على نجد ، فاخضع قبائل متعددة منها قبيلة عنزة ومطير وبنى حسين (حرب) ، وبنى هتيم موالى العوازم آخر من بقى فى الكويت . ولكن هدفه الرئيسى كاف قبيلة الظافر النازلة فى العراق، اذ كانت هذه القبيلة قد نهبت عدداً كبيرا من ابل عشائر سمدة احدى

بطون قبيلة الظافر . وقد انضم هؤلاء الى جيش حمود وتبعهم سلامة ابن سويط زعيم الظافر . ولما رفض المتعددون اعادة الاسلاب وفقا لتقاليد البدو حث سلامة حموداً على أن يلقى القبض عليهم ويسجنهم، ولكن حموداً رفض الاخذ بنصيحته ، فعاد سلامة الى قبيلته واخذ يستعد للقتال . وكانت فعلة قبيلة سمدة هذه سببا فى نشوب المعركة . وفيها تعرض بنو عدوان وعناصر اخرى من جيش حمود لهجوم بنى ظافر الشديد الذى اودى بحياة خلق كثر ، كان منهم شقيق حمود وابنا اخيه .. كانت المعركة فى مصلحة رجال القبائل ولكن الشريف غالب بن زامل ألحق بهم خسائر فادحة فى هجوم معاكس قام به بعد ذلك بفترة وجيزة . وقد طال العداء بينهم حتى جاء الشريف حمود بن زيد فعقد الصلح بين الفريقين .

وانقضى على ذلك بضعة اعوام . ثم قام الشريف بركات بهجوم عام على قبيلة حرب وشيخها احمد بن رحمة بن مضيان ، الذى لاقى حتفه مع عدد من شيوخ قبيلته رغما عن الخنادق التى حفروها ليعوقوا تقدم خيالة الشريف . ولكن الخنادق لم تجدهم نفعاً فى القتال فاتخذوها مقابر لقتلاهم وعلى اثر ذلك امر حمود ببلادهم فنهبت . وتذكر الروايات ان شريفا مشهورا اخر يدعى عبدالرحمن ابن حمد بن محمود بن عبد الرحمن توفى فى السنة التالية اى سنة ١٦٧٤ م .

وهى نفس السنة التى شهدت وفاة الشريف حمود بطل معركة

الظافر ، ووفاة الشريف احمد بن محمد بن الحارث الفيلسوف المشهور الذى كان يستشيره الشرفاء المعاصرون فى كل الامور . فقد توفى لدى تعيينه اميرا على مكة من قبل وال تركى اسمه حسن باشا ، حينما اختلف سعد وحمود بعد وفاة زيد . وقد ادرك المتخاصمون ما يرمى اليه حسن باشا واسرعوا الى انهاء خلافاتهم واختاروا سعداً كيما يتخلصوا من مرشح الاتراك . وهذه اول مرة يشار فيها الى تدخل الاتراك فى الحجاز .

كان حسن باشا واليا على المنطقة للسلطان ، غير أنه فى الواقع لم يكن اكثر من مجرد قائد للحملة العسكرية التركية . ومما زاد فى اوضاع الشرفاء المعقدة فى مكة ضغثاً على أبالة أن الولاية فى مكة سنة ١٦٦٧ كانت فى عائلة آل يزيد ، التى كانت صنوا لعائلة «ابو نعمى» حيث كان سعد هو الشريف الحاكم فى ذلك الزمن ، وفى خدمته احمد آل حُراث اميراً على نجد .

هذا اول لمطالب شرفاء مكة فى السيادة على داخل الجزيرة ، اما الغارات على نجد فهى شاهد لنا على رأيهم بهذا الصدد .

وفى سنة ١٦٧٦ غزا الشريف محمد آل حراث نجداً ليهاجم قبيلة الفضول فقتل زعيمها . وفى نفس السنة شن شريف آخر اسمه حارث هجوما على قبيلة الظافر فى ضُلفعة فى القصيم قرب البكيرية ، وهى المكان الذى وقعت فيه المعركة الشهيرة بين العرب والاتراك سنة ١٩٠٤ ، فانهزمت قبيلة الظافر وتعهدت بدفع الجزية السنوية

الى مكة ثمنا للسلام . ومن المحتمل أن يكون الشخص الذى يشار اليه باسم احمد آل حراث (وحراث جمع حارث) هو نفسه آل حرث، أبن محمد بن الحارث، فيكون ابن محمد بن الحارث ، فيكون محمد آل حراث والده فى تلك الحال . وقد ورد ذكر احمد الحارث هذا فى تاريخ ١٦٨٠ كشريف لمكة ، وبمناسبة الحج الذى قام به فى نهاية كانون الثانى من ذلك العام عدد من زعماء نجد - ومنهم محمد بن ربيعة بن وطبان من الدرعية - وزاروه فى قصره اثناء ذلك الحج.

وحدث فى نفس السنة طوفان فى مكة ارتفعت فيه المياه حتى بلغت قفل باب الكعبة على ارتفاع عشرة اقدام على الاقل ، ودمرت عددا من البيوت والممتلكات فى المدينة بالاضافة الى اغراق مائة شخص . وقد شهد هذا الفيضان مؤرخ الحجاز عبد الملك بن حسين المكى الشافعى آل اسامة المتوفى فى كانون الاول سنة ١٦٩٦ .

ولابد لنا من القول بان سعدا بن زيد احتفظ بالامارة منذ آلت اليه سنة ١٦٦٥ حتى ماقبل ١٦٨٠ ، يوم تولى هذا المنصب احمد الحارث الذى ألمحنا اليه من قبل . اما فى سنة ١٦٨٤ او بعدها بعام، فيبدو ان احمد بن زيد كان هو الامير على قبل . اما فى سنة ١٦٨٤ و بعدها بعام، فيبدو أن احمد بن زيد احتفظ بالامار منذ آلت اليه سنة ١٦٦٥ حتى ما قبل ١٦٨٠ ، يوم تولى هذا المنصب احمد الحارث الذى المحنا اليه من قبل اما فى سنة ١٦٨٤ ، او

بعدها بعام ، فيبدو أن احمد بن زيد كان هو الامير على مكة . وفي هذا الوقت هاجم عنزة في القصيم واشتهر باعماله الفظيعة التي ارتكبها ضد اهلها . غير انه لم يحتفظ بمنصبه طويلا اذ عزل من منصبه ، فخلفه الشريف احمد بن غالب بن زامل ، وهو من عائلة منافسة لعائلته . غير أنه سرعان ما تم عزل الشريف احمد بن غالب فاختار النفي الى اليمن . وكان ذلك العزل على يدى الشريف محسن بن حسين بن زيد بن محسن من عائلة ابى نعمى . ولكن هذا توفى بعد توليه الحكم بوقت قصير حوالى سنه ١٦٨٨.

ولابد لنا من ان نذكر غموضا آخر فى قضية توالى اشراف مكه على الحكم. ففى سنة١٦٩١ يورد ابن بشر ذكر الامارات للمرة الثانية للشريف سعيد بن سعد بن زيد فى حياة والده الذى عزل ابنه بعد ان تولى المنصب فترة لا تقل عن الستة اشهر . ثم استعاده الامارة وظل فيها حتى عام ١٧٠٣ . وعندها تنازل برضاه واختياره وقد أحدثت إمارة سعيد هذه توقفا قصير الامد فى تولى الشريف محسن ابن حسين الحكم .

ويظهر أن مكة شهدت طوال ربع القرن الذى تلا موت الشريف زيد قلقا سياسيا مزعجا . غير أن ابنه سعدا خلفه طوال الاربعين سنة التالية فيما عدا فترة لاتتجاوز الاثنتى عشر سنة بين فترتى حكمه الاول والثانى . ولابد أن سعدا كان مسنا يوم تولى الامارة للمرة الثانية . ولكنه ظل صحيح الجسم نشيطا . وها هو يعد حملة

على نجـد فى اوائل سنة ١٦٩٤ ، ولكنه لم ينجح فى اكـثـر من الوصول الى سهل حمادة فى الطرف الغربى من هضبة الطويق . وها هو فى اثناء الحج من هذا العـام يسىء الى الحـجـاج فـتنشب بيـنهم معـارك شـديدة تملأ شوارع مكة حتى الحرم وقـد كـانت الاضطرابات خطيـرة لدرجة إن الشـريف بد الله بن هاشم ، وهو من فـرع اخر من العـائلة ، اضطر لأن يتخذ اجرا ء حاسما لتـهدئة الحـالة . فعزل سعـدا وتولى حكم المدينة مؤقـتـا . وكـان هذا بمسـاندة الشـريف احـمـد بن غالب الذى سبق له أن عاد من منفاه في اليمن ليستـقر فى اراضيه فى وادى فاطمة .

وفى نهـاية السنة تمكن سعـد من اسـتعـادة الحكم فى مـكة ونفى عبد الله بن هاشم واعوانه . وقد غزا نجدا فى السنة التـالية ، فـأغار على قـرية عـشيقـير ، وحاصرها حتى ضيـق على اهلها الى درجة دفعت قاضيها الشيخ احمد بن محمد القصير لأن يصدر فتوى يجيز فيـهـا إفطار رمضان من ذلك العـام كي يتسنى للمزارعين حـصـاد مزروعاتهم وخزنها .

اما سـعد فقد اخفق فى ارهاب رجال الوشم الاقويا ء واخضـاعـهم . فـانتـزع عقد مـفـاوضـات للصلح مشـترطا أن مفـاوضو القرية هما قـاضيها وصاحبه الشـيخ حسن بن عـبد الله ابو حسـين . وقد قـبل القـرويون ذلك غيـر أن سـعـدا ألقى القـبض على الشـيـخـين لحظة دخولهما خيمته، واودعـهما السجن.

وفى نفس السنة تمكن ادريس بن وطبان ان يتسلم الامارة فى الدرعية ، بعد أن قتل اخاه ابراهيم سنة ١٦٩٤ . ولكنه بدوره قتل على يد سلطان بن محمد القيسى المجهول النسب ، وان كان يعتقد بانه من عائلة بنى خالد فى الاحساء . وقد اغتصب سلطان حكم الامارة وتمتع به حتى سنه ١٧٠٨ ، حيث لم ينجح هو الآخر من خنجر الاغتيال . وحينئذ خلفه أخوه عبد الله ، ولكن هذا أيضا اغتيل فى شهر ازار من سنة ١٧٠٩ . وبموته انتهت فترة الحكم الاجنبى الذى دام خمسة عشر عاما فى الدرعية وعادت الامارة الى موسى بن ربيعة بن وطبان من اصحابها الشرعيين . وليس لدينا معلومات موثوقة عن اعمال هذه العائلة فى العشر سنوات الاولى . وجل ما نعرفه هو أن الإمارة فى الدرعية انتقلت سنة ١٧٢٠ من موسى الى سعود بن محمد بن مقرن ، بعد خلع الاول ونفيه . وكان سعود هذا هو مؤسس العائلة التى احتفظت بسيطرتها على الجزيرة العربية منذ الحين حتى حكم عبد العزيز بن سعود الاخير.

كان فى سنة ١٧٢١ ايام امارة سعود هذا ان ولد له فى الدرعية حفيد أسماه عبد العزيز ، هو سمى عبد العزيز والد الملك الحالى فى الرياض . اما سعود نفسه فلم يقدر له أن يشهد ازدهار حكم وريثه. ولم يعرف بوجود فقيه شاب فى العشرين من عمره يقطن العيينة المجاورة . ذلك الفقية الذى غدا المرشد والفيلسوف والصديق لابنه ولحفيده اللذين سترفعهما اكتافه الشديدة الى قمة المجد والشهرة

فيما بعد . فقد ولد محمد بن عبد الوهاب فى العيينة سنة ١٧٠٣ ليصدق عليه القول المأثور « لا كرامة لنبى فى وطنه ».

التحق سعود بآبائه فى جبانة الدرعية فى الثانى عشر من حزيران سنة ١٧٢٥ ليله عيد الفطر. فخلفة فى الامارة ابن عمه، زيد بن مرخان بن وطبان، اكبر اعضاء العائلة ، لا ولده محمد. وكان هذا هو التقليد المتبع فى نظام وراثة الحكم فى الجزيرة العربية. ويبدو أن الامير الجديد لم يلق مقاومة ولا كراهية بين عشيرته لتوليه الحكم . ومع أن مقرن (أخا سعود) هو الوارث الشرعى للامارة الا أنه اعرب عن ولائه للامير الجديد بشكل رسمى ، وإن ظل فى قرارة نفسه يطمح الى الحكم.

وقد دعا زيداً لزيارته ليثبت له ولاءه بصورة قاطعة . ولكن زيداً ارتاب فى نوايا مقرن أفلم يلب الدعوة، مالم يضمن محمد بن عسود وتقرن بن عبد الله أبن مقرن سلامته . الأمر الذى دل على ذكاء وحكمة . وفعلاتم الاجتماع بعد أن تعهدا له بما طلب . حتى اذا ما اوجس الكفيلان الغدر من مضيفهما هاجماه بغية قتله، ولكنه نجا من ذلك بأن هرب من النافذة واختبأ فى حجرة صغيرة ثم قتل فيها بعد ذلك .

وهكذا ظل زيد سيد الموقف خلال المآسى التى واجهت العائلة التى قدر لها أن تصبح عظيمة . ولكن زيدا لم يعمر طويلا بعد

هذه الحادثة . وكان وباء الكوليرا قد انتشر فى مدينة العيينة قبل ذلك بسنة فأفنى اهلها . وكان اميرها محمد بن معمر اول ضحايا الوباء . فخلفه فى الامارة حفيده محمد بن حمد الملقب بخرفش التأتاء . فما كان من زيد الا أن هاجم العيينة ، اكبر مدينة مزدهرة فى داخل الجزيرة العربية آنذاك ، بعدد كبير من قطاع الطرق واللصوص ، جمعهم من عشائر «كاثر» و«سبيع» غير أن خرفش ارسل له فى عقربة رسالة لطيفة ، يعرض عليه بأن يقدم له كل ما يطلبه دون أن يكلف نفسه مشقة نهب بدو المنطقة وسكانها الفقراء، ويقترح عقد اجتماع خاص بينهما لبحث هذا الموضوع.

حينئذ انطلق زيد فى اربعين رجلا من اتباعه معهم محمد بن سعود الذى يثق فيه كثيرا . ولكن خدم خرفش الذين كانوا مختبئين لغاية فى نفس سيدهم اطلقوا على زيد النار وقتلوه حالما اتخذ مقعده فى غرفة الاستقبال . اما محمد وبقية جماعته فلجأوا إلى حجرة مجاورة جعلوا يقاومون منها. وقد رفضوا دعوة خرفش اليهم بالخروج ما لم تضمن سلامتهم الست جوهرة ابنه الامير عبد الله بن معمر المشهورة ، وخالة خرفش . ولما تم هذا عاد محمد بن سعود الى الدرعية حيث تولى الامارة فى نهاية عام ١٧٢٦ أو بداية السنة التالية . وحكم هناك دون منازع حتى وافته المنية سنة ١٧٦٥م.

وبعد بداية تميزت بالاضطراب وعدم الاستقرار توطد حكم آل

سعود ، فلم تزعجه الترات التى كلفت البلاد غالبا فى الاجيال السابقة . لقد ازيح آخر مطالب بالعرش نهائيا بعد واقعة العيينة ، وفى اثنائها اصيب موسى بن ربيعة بطلق نارى من جرائه بعد ذلك . وكان موسى هذا منفيا فى ديار ابن معمر قد نفاه سعود.

والآن بعد أن بلغنا النقطة التى تبدأ فيها قصة المملكة العربية السعودية نرى لزاما علينا أن نعود القهقرى فنستقصى تاريخ الذين نافسوهم فى الحكم ، ومن المناسب نبدأ بالحجاز حيث تولى الشريف سعد بن زيد الامارة فى مطلع القرن الثامن عشر ، قاعد ابن اخيه ، الشريف سرور حملة شاملة على نجد سنة ١٦٩٧ م ليؤدب مقاطعة السدير ، المعروفة باضطراباتها واستقلال اهلها وشدة بأسهم . وهناك اقترف المهاجمون كثيرا من الفظائع فى قرية الروضة وواحتها. ومن ثم انعطف سرور فهاجم جلاجل وتمكن من أسر أمير الروضة اللاجئ فيها ماضى أن جاسر ونفى ثلاث أو اربع عائلات بارزة فى الروضة الى عشيقير ، ولكن عائلتين منهما رجعتا بعد سنتين واستعادتا قوتهما . وكان ماضى بن جاسر يتزعم عائلة « ابو راجع » احدى هاتين العائلتين . فاستعادت هذه العائلة ما يخصها من الواحة وطردت العائلة الرابعة اى عائلة «ابو هلال » بعد قتال نشب فى مدينة الدخيلة بين ممثليها وبين فوزان بن زامل زعيم آل تميم الذى آزره ماضى ، وفى نفس الزمن تقريبا قرر عدد من عائلات حوطه السدير ممن كانت منفية إلى العيينة أن تعود الى الوطن .

فقد رأت أن الاحوال اصبحت مواتية لذلك . فهاجمهم السكان لدى وصولهم وذبحوا عددا كبيرا منهم.

وتاريخ السدير مليء بمثل هذه الحادثة.

ومن الغريب أن لدينا عن السدير تفاصيل تاريخية واسعة : لأن معظم المؤرخين والفقهاء في تاريخ السعودية كانوا من السدير نفسها ، او من البلاد المجاورة لها.

ونعود الآن الى الشريف سعد . لقد كان مهتما كل الاهتمام بتوطيد السيادة له عبر الصحراء . ففي سنة ١٦٩٩ فتح مكة والقى بمائة من زعماء قبيلة عنزة في غياهب السجون . وفي العامين التاليين اعد حملات عدة لتأديب قبيلة الظافر وعناصر اخرى من بني حسين (حرب ؟) أما في سنة ١٧٠١ فقد نزلت بالظافر خسارة فادحة بموت زعيمها سلمه بن مرشد بن سويط . وكان هذا ابرز اعداء اشراف مكة . وتميزت السنة التالية بالقحط الذي اصاب الحجاز . وفي نهاية ١٧٠٣ تنازل الشريف سعد من تلقاء نفسه لابنه سعيد ، فواجه الشريف الجديد كثيرا من القلاقل والاضطرابات التي كان مبعثها الجوع والاسعار المرتفعة . ولقد ساءت الاحوال في تلك الايام حتى أن سليمان باشا المعروف بباشا جدة ، والممثل الوحيد للباب العالي في رحاب الحرمين ، بدأ يفكر في عزل سعيد لصالح الشريف عبد الكريم بن محمد بن يعلا احد أفراد العائلة من فرع آخر . وتنسم سعيد أخبار المؤامرة فتسبّب تولي ابن اخيه عبد المحسن بن احمد بن زيد الامارة من بعده وكان

تنسيبه تولى ابن اخيه عبد المحسن بن احمد بن زيد الامارة من بعده وكان تنسيبه هذا عبارة عن تدبير لاحباط المؤمرات التى تحاك ضده . لكن سليمان باشا أصر على تنفيذ خطته فتنازل عبد المحسن عن الامارة بعد تسعة أيام من توليه ، لمصلحة عبد الكريم، المرشح التركى . وكان ذلك فى اواخر سنة ١٧٠٤ بعد أن تبدلت الاوضاع فى السلطنه العثمانية نفسها بمدة قصيرة ، حيث خلع السلطان مصطفى بن ابراهيم ليحل محله اخوه احمد . ولما تولى الشريف عبد الكريم الامارة طرد الشريف سعيدا واباه سعد بن زيد من مكة. وكانت مكة لايزال يلفحها الجوع بسياطة ، ولكن بصورة اخف وطأة من ذى قبل.

وهكذا ، واجهت عبد الكريم متاعب كثيرة صرفته عن الاهتمام بامور نجد وشؤونها . ولم يخفف من اعبائه هذه كونه مرشح الاتراك.

وقد عاد الشريف سعيد سنه ١٧١١ م من المنفى ولاقى دعما شعبيا ساعده فى عزل عبد الكريم ونفيه . ويبدو أن هذا كان بايعاز من الاتراك وموافقتهعم اذان السلطان سارع فاصدر فرمانا يعين بموجبه الشريف سعيد فى الامارة .

وهكذا عاد الامير الى منصبه للمرة الرابعة وظل يحكم بسلام حتى وافاه أجله سنة ١٧١٧. وعندئذ خلفه الشريف محسن بن عبد الله ، فغزا نجدا واغار على بنى حسين فى المجمعة فى شتاء ١٧٢٦ - ١٧٢٧م. الا أن الصحراء العربية الآن ظلت بعيدة عن اهتمام الشرفاء بها زهاء ربع قرن . ولربما كان ذلك مبعثه الضغط

المتزايد الذى كـان الحكام الاتراك يمارسونه فى الحجاز ، اذ كـانوا منهمكين فى مهمة حفظ النظام وتأمين سلامة الحجاج وطرق الحج من غارات البدو .

هكذا كـانت حال الحجاز فى اوائل ظهور آل سعود . واذا كـان الاتراك قد نجحوا فى تثبيت أقدامهم فى البلاد المقدسة وتحقيق الاعتراف بالسلطة الروحية للخليفة ، السلطان ، فان الامر كـان يختلف فى الطرف الاخر من شبه الجزيرة العربية ، حيث كـان اهتمامهم هناك دنيوى واستعمارى .

وعلينا الآن أن نعود القهقرى فى معارج التاريخ لنصل الى النقطة التى تركنا فيها على باشا يتولى السلطة فى الاحساء . ومن ثم نتقصى الاحداث التى ادت الى انعدام اثر سلطان الاتراك فى شرق الجزيرة العربية ، وأدت بالتالى ، الى نشوء امارة وطنية قوية تضاهى كلا من العيينة والدرعية ، وتطمح الى توحيد الجزيرة العربية بكاملها . وكانت الدرعية اقل المتنافسين شأنا واثرا يوم ولى سعود الامارة ليثبت ، فيما بعد انها الجواد المجلى فى السباق الطويل المتعب.

لسنا نسمع كثيرا من الاحداث فى الاحساء بعد سنة ١٦٣٤ حين قام بكر بن على باشا بالحج ، مما يحملنا على الاعتقاد بان الاتراك لم يهدفوا الى احتلالها احتلالا دائماً . صحيح أن مركز الاتراك قد قوى فى الجزء الشرقى من الجزيرة عندما استعادوا بغداد من الاحتلال الفارسى سنة ١٦٣٨ فى عهد السلطان مراد ،

وصحيح أن الوضع تحسن كثيرا أيام حكم السلطان محمد بن ابراهيم بن احمد عندما احتل مصطفى باشا مدينة البصرة سنة ١٦٦٧ ، الا أن حكمهم فى الاحساء قد انتهى بعد مرور عامين على ذلك التاريخ ، بفضل قبيلة محلية ظلت تناضلهم نضالا مريرا طوال ثمانين عاما تقريبا . ولم يتجدد ذلك النفوذ الا بعد مرور قرن ونصف . وفى هذه الاثناء خلف محمدا باشا وال تركى اسمه على باشا ، وعقبه عمر باشا ، آخر الولاة الاربعة الذين دامت ولايتهم زهاء الثامنية والسبعين عاما.

وفى ولاية عمر باشا ثار يرّاك بن غير زعيم قبيلة آل حميد من بنى خالد، على راشد بن مغامس آل شبيب ، امير المنتفك الذى كان فيما يبدو لعبة فى أيدى الاتراك وقتله . وكان ذلك بمساعدة مهنا الجبرى احد افراد عشيرة اجود بن زامل التى كان الاتراك قد اقصوها عن الحكم سنة ١٥٩١ . وبعد ان قتل براك عددا كبيرا من البدو الذين كانوا فى جيش راشد ونهب اموالهم اتجه نحو الحامية التركية فى كوت الهفوف ، اى قلعتها واعمل السيف فى حاميتها وطرد من ظلوا احياء فيها من البلاد .

وهناك مسرحية شبيهة بهذه مشهدها المكان عينه بعد قرنين ونصف من الزمن ، وذلك عندما هب المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود فانهى الاحتلال التركى فى الاحساء بعد احتلال دام الاكثر من اربعين عاما . وفى كلتا الحالتين كانت خطة الهجوم بسيطة وجريئة . وقد نفذها بكل دقة ، نفر من الشجعان الاشاوس يأتمرون

بامر قيادة رشيدة حازمة ، وضد عدو مل طول النفى فى الصحراء القاحلة ، وكان جنوده متعبين فلم يبدوا ايه مقاومة تذكر.

لم يكن براك بن غرير بن عثمان بن مسعود بن ربيعة من آل حميد ، وهو زعيم بنى خالد واميـر الاحساء ، كما هى ألقابه جميعا ، ليستكين بعد هذا النصر المؤزر، أو يقتنع باكاليل غاره الجديدة. كلا ففى السنة التالية هاجم قبيلة الظافر فى مكان ما بين التلال الواقعة جنوب غربى القصيم يجوز أنها وهاد الكيثل . وكانت عشائر الظافر قد قاتلت بطون الفضول فى ذلك الموقع قبل مدة قصيرة . وفى طريق عودته ، مر براك بواحة سدوس ، فنهب قبائل كاثر التى تسكن فيها . والجدير بالذكر أن ديار بنى ظافر كانت تمتد الى ما وراء الحدود الحالية للصحراء المتاخمة للعراق . ولابد من القول بان الفصول لم يعودوا عنصراً له وجود فى الجزيرة العربية بشكل قبيلة منظمة . وربما بدأت هجرتهم من اواسط الجزيرة الى الشرق سنة ١٦٧٤ حين ضربت المجاعة نجدا فأذلت اهلها . تلك المجاعة التى عرفت فى الأساطير البدوية باسم جرمان .

وقد شهد شتاء ١٦٧٥ - ١٦٧٦ امطاراً عوضت على السكان ما فقدوه ، ولكن اسرابا عظيمة من الجراد اجتاحت المراعى فى السنة التالية فضاعت آمالهم واطلق البدو على غزوة الجراد هذه اسم جرادات لان الكثيرين من الناس اصيبوا بالتخمة من كثرة ما اكلوه من الجراد .

وفى هذا الوقت بالذات قام براك بالهجوم على بنى ظافر، واكتفى

باسر زعيمهم الشيخ سلامه بن مرشد بن سويط . ثم قام فى السنة التالية بالاغارة على بعض عشائر الدرعية . ويبدو أن هذه الغارة كانت آخر اعماله الباهرة اذ وافاه الاجل سنة ١٦٨٢ . وخلفه اخوه محمد الذى احتفل بهذه المناسبة بان غزا يمامه من منطقة الخرج.

وبعد اربعة اعوام عاد الى نفس المكان ليهاجم بعض عشائر سبيع فى حاير من وادى حنيفة . وكانت نفس هذه العناصر هدفه فى غزوته الثانية فى صيف سنة ١٦٨٧ فى «حائر المجمعة» فى السدير . وانهمك فى السنة التالية فى حرب مع زعماء مشايخ آل عثمان فى الخرج، وان كنا لا نعرف شيئا عن العمليات هذه المرة . الا أن السنة كانت سنة خصب فازدهرت المراعى وكثرت الكمأة .

ولكن الجراد داهم البلاد مرة اخرى . فكان البدو يقولون : «ان الجراد يأكلنا ونحن نأكله» وكان القمح يباع كل خمس صاعات بمحمدى واحد (والمحمدى يساوى مجيديا تركيا) والتمر للمحمدى عشرون وزنة اما فى الدرعية فقد بيعت الالف وزنة باحمر واحد(اى الليرة الذهبية التركية).

وفى السنة التالية ضربت القوافل التقليدية الثلاث للحج خيامها فى عنزة اثناء طريقها الى مكة ، فارتفعت الاسعار كثيرا بنتيجة ذلك . وكانت هذه القوافل الثلاث قادمة من العراق ، وبلاد فارس ، والاحساء وحين اغارت قبيلتا الفضول والظافر فى « تنومة» على قافلة العراق فى طريق عودتها من الحج منيتا بخسارة فادحة فى الاموال والاوراح.

وفى سنة ١٦٩٠ دهم الجزء الجنوبى من العراق وباء لم يسبق له مثيل . فاهلك سكان البصرة ودمر المدينة تدميرا تاما ، ظلت مهجورة على اثره عدة سنوات ثم زحف الطاعون شمالا الى بغداد فأهلك قسما كبيرا من سكانها .

وقد توفى محمد بن غرير سنة ١٦٩١ ، وقتل ابن اخيه ثنيان بن براك فى السنة ذاتها اثناء غارة له . كما مات المرشحان المحتملان لتولى الامارة فآلت هذه الى سعدون ابن محمد بن حسين بن عثمان . وكان قد تعاون مع براك فى طرد الاتراك . وبدأت الادارة التركية الآن تواجه المتاعب على ايدى قبيلة المتنفك فى العراق وفى سنة ١٦٩٤ اعلن مانع بن شعيب الزعيم الاكبر لتلك القبائل نفسه خلفا لراشد بن مغامس آل شبيب حاكم البصرة ومنطقتها . ولا شك أن الاتراك لم يكونوا قد شددوا قبضتهم عليها بسبب سوء الحالة الصحية فيها بعد الدمار الذى لحقها من جراء الطاعون . غير أنهم لم يرتضوا فقدان هذا الحصن الشرقى المهم . اما زعيم المنتفك فلم يستطع الاحتفاظ بالبصرة طويلا ، ففى سنة ١٧٩٦ هاجمهم فرج الله ابن مطلب زعيم قبائل المستنقعات العربية بمساعدة الفرس ، واستولى عليها الى أن طرده الاتراك من المنطقة سنة ١٦٩٩ ، فاستعادوا هذا المركز الحربى المهم .

وشهدت السنة الاولى من القرن الجديد نشاطا قام به سعدون ضد قبيلة ظافر وبمساعدة الفضول وبعض عشائر الحجاز فى معركة دارت رحاها فى «بترا» بين رمال نفود السر . كما غزا سلامة بن

سويط ارض السدير بعد أن خرج من سجن شريف نجد الذى حبسه لاعتدائه على الفضول . ولكن سعدون لم يتركه يستقر بل اذاقه الامرين فى معركتين خاض سلامة وقبيلته غمارهما ضد سعدون وحلفائه الشريفيين فى موقعى السلع والبترا ، ويقال : إنه جرح فى القتال إن توفى وهو فى طريقه الى بلاده ودفن فى جبيلة .

اما السنتان او الثلاث التالية فقد كانت سنوات قحط وجوع ومتاعب بين العشائر البدوية فى جميع انحاء البلاد . لذا لا نسمع الكثير عن اعمال بنى خالد. ولكن فى سنة ١٧٠٦ مضى نجم بن عبيد الله ، حفيد غرير اشهر الصيف فى ثادق، وغزا دجين بن سعدون عشائر آل زارع ونهب اموالهم . وفى نفس السنة ايضا طرد بنو ظافر اهل عنزة من منازلهم الصيفية فى منطقة السدير ، وطاردوهم واشتبكوا معهم فى خضار ، من صحراء الدهناء . فوقعت خيام الشريف عبد العزيز شريف نجد فى أيدى الأعداء ، حيث كانت آنئذ مع قبيلة عنزة المهزومة.

وفى الأشهر الاولى من عام ١٧٠٨ رافق سعدون بنفسه حجاج الاحساء فى منطقته ، وخيم معهم فى ثادق وشعيب العتك اثناء مرورهم بسلسة الطويق التى تفصل بين السدير والعارض . اما عبد العزيز بن هزاع حفيد غرير ، فقد قام فى هذا الوقت بقتل عبد الله ابن عبد الرحمن بن اسماعيل بن عم الشيخ محمد بن عبد الله اسماعيل القاضى السابق فى عشيقير ، الا أننا نجهل الدافع لهذه الجريمة ونتائجها .

وفي سنة ١٧٠٩ نشب قتال بين سعدون بن غرير وبني ظافر في اقليم هجرة بصحراء العراق دون اية مكاسب لواحد من الطرفين . وتميزت السنوات القلائل التالية بامطارها الغريرة وعواصفها الشديدة المدمرة التي اصابت ملحة ورغابة وكان من نتائج أن ازدهرت المراعي وازدادت المحصولات الزراعية؛ فهبطت اسعار المواد الغذائية بفضل جودة الموسم . وفي سنة ١٧١٤ قام سعدون بالاشتراك مع عبد الله بن معمر وعناصر اخرى من عُيينة والعارض بحملة واسعة على الخرج . فهاجموا يمامة ونهبوها . ولكن الغزاة انسحبوا عندما قام زعيم البجادي مع اربعة من الفرسان بهجوم معاكس .

هكذا انقضت الايام متتابعة دون وقوع احداث مهمة سوى ما كان يتعاقب على البلاد من جفاف وامراض (بما في ذلك شتاء ١٧١٤ - ١٧١٥ ببرده الشديد المهلك) . واستمر هذا الحال حتى عام ١٧٢١ الذي تعرضت فيه نجد لغزوة عامة شاملة قام بها سعدون. فأمضى طوال الصيف يحاصر بدو كاثر ويحول دونهم ودون الوصول الى العارض . ثم جلب مدافعه ليحاصر عقربة والعمارية ، فكان من ذلك ان تعرضنا لمجاعة شديدة وتهب مزارع السكان ودمر نخيلهم اما سعدون فتوجه الى الدرعية ونهب مزارعها الغنية بثمرها ودمر منازل عديدة في قوى الظهرة والسريحة والملوى . ولكن جيشه مني باصابات فادحة كما روى المدافعون . والجدير بالذكر انه في وسط هذا الخضم المضطرب بالاحداث والمتاعب ابصر عبد العزيز النور لاول مرة في قلعة طريف العظيمة .

كان سعدون فى طريقة الى نجد فى اوائل سنة ١٧٢٣ عندما توفى فجأة فى معسكره فى جندلية ، من الدهناء والواقع أن سعدون قد ساس قبيلته وتولى الحكم فيها بصورة ممتازة لاكثر من ثلاثين عاما . ومن سوء طالع ابناء وطنه أن افل نجمه وغابت يده الحازمة من على دفة الحكم فى اللحظة التى بدأ فيها الصراع الحقيقى لقيادة العرب . وقد حدثت بعض الاضطرابات بعد وفاته . اذ انقسمت العشيرة الى طوائف واحزاب يؤيد كل منها زعيما يطالب بالحكم . وكانت المعركة الحقيقية من أجل الزعامة تدور بين ولدى سلفه : محمد وسليمان ابنى غرير . وكان هذان ولدى عمه سعدون الادنيين اللذين كان سعدون قد حدد نشاطهما احتياطاً لامره . وبعد مشاجرات ومشاحنات غير منظمة ساد العقل والمنطق وحل السلام موضع الخصام فاختير على بن محمد زعيما لقبائل بنى خالد بينما ألقى القبض على ولدى سعدون رهائن لفترة من الوقت . غير أن هذا الحل لم يدم طويلا فما كادت تنقضى السنة حتى حاول دجين اغتيال سليمان ، ولكن محاولته باءت بالفشل . وقد حاول سليمان من ناحيته اغتيال احد اتباع دجين ففشلت المحاولة أيضا .

استمر الجفاف الذى بدأ سنة ١٧٢٢ حتى شتاء ١٧٢٤ - ١٧٢٥ - ، حين انفرجت الازمة وسقطت أمطار غزيرة ففى منطقة الحجاز مثلا ، ارتفعت اسعار المواد الغذائية ارتفاعا مريعا . ومع ذلك لم يكن هناك ما يمكن شراؤه . فأخذ السكان يأكلون جيف الحيوانات الميتة . اما الامطار التى هطلت بعد ذلك الجفاف الطويل فقد رافقها لسوء الحظ ، مرض أصاب المزروعات واهلك المحاصيل.

بالاضافة إلى زحف اسراب الجراد الغارز التى زادت الطين بلة وانتشر مرض الكوليرا فى عيينة وما جاورها من النواحى ففتك بالسكان فتكا ذريعا اضطر الناجين منهم الى النزوح عنها . وكان موت الامير العظيم عبد الله بن معمر ضربة قاصمة للامارة فى ذلك الحين . فلم تفق من هول صدمتها حتى اكتسحتها الوهابية . ومن غريب الصدف أن عيينة والاحساء وهما المنافستان العظيمتان للدرعية ، فقدتا زعماءها المخلصين فى الوقت الذى كان يدور فيه الصراع الحاد للعثور على زعيم يسجل حكمه صفحة مجيدة فى تاريخ العرب والمسلمين، ويضع اساسات امبراطورية لم تشهد مثلها الجزيرة العربية منذ عهد ملوك سبأ فى الجاهلية الاولى .

ويظهر أن « دجين» غادر الاحساء فترة من الزمن بعد ان فشل فى محاولته لقتل سليمان . ولكنه قبل أن تنقضى سنة ١٧٢٦ وفق الى نيل تأييد بنى ظافر وعشائر المنتفك فى المطالبة بعرش والده فحاصر الهفوف فترة من الزمن بينما أخذ حلفاؤه من البدو يذرعون البلاد، فيقتلون وينهبون نخيل سكان القرى فى الطريق .

غير أن عليا ظفر فى مختلف العمليات الحربية الفعلية وكان فى مركز لا يخشى فيه الاندحار ، فانسحب الغزاة بعد الهدنة التى توصل اليها ابناء العم . اما على ، فظل.

قاضيا فى الاحساء عندما بدأ حكم محمد فى الدرعية . وكما مر معنا ، كان محمد بن محمد ابن عبد الله بن معمر الملقب بخرفش، معاصرا لهم فى امارة عيينه .

وما علينا الان الا أن نكمل هذه المقدمة التى سبقت عهد محمد بن سعود بسرد قصة العيينة ، من النقطة التى وصلنا اليها ، حين تولى احمد بن معمر الامارة سنة ١٦٦١.

لم يتميز حكمه الذى دام ثلاثة وعشرين سنة بحوادث ذات شأن سوى نشوب القتال بين عيينة وحر يملة سنة ١٦٨٤ ذلك القتال الذى لم يشهد احمد الا مرحتله الاولى ... ونحن لا نعرف اخيه عبد الله بن محمد بن حمد بن عبد الله الاول وقد تميز حكم هذا الامير بطوله، اذ توفى من جراء وباء الكوليرا سنة ١٧٢٦ كما ذكرنا آنفا.

وفى عهده اصبحت العيينة الكوكب الهادى للصحراء العربية ، بفضل الجهود الكبيرة التى بذلها لتطوير طاقاتها الزراعية وتوفير السكن للناس الذين كانوا يتزايدون فيها تبعا لتحسين مرافق المدينة ، ومن الغريب أن والده محمد ابن محمد كان لايزال حيا وقت حكمه . فقد ذكر انه ادى فريضة الحج فى العام الذى تولى فيه ابنه الامارة . وامثال هذه الحادثة ليست مألوفة فى بلدان العالم، ولكنها ليست غريبة فعلا فى شبه جزيرة العرب . اذها نحن نرى الوالد يعيش قرابة ربع قرن فى عهد ملكية ولده واعنى بذلك والد الملك عبد العزيز .

وربما كان توليه الحكم فى وقت سابق لأوانه يعود الى استئنافه الحرب التى بدأها سلفه ضد حريملة ، فبعد توليه الحكم بقليل خاض معركة المهيريس مع سعود بن محمد الدريعى . وتعرف هذه

المعركة باسم « الكمين الاول» وقد منى فيها ابناء حريملة بخسائر فادحة . غير أنه لم يحاول مهاجمة المدينة نفسها . وكان هذا خطأ وقع فيه ، اذ مالبثت ان خرجت من حريملة غارة هاجمت قرينة ، على بضعة اميال فى اسفل الوادى واحتلتها وكان على الحر يمليين أن يواجهوا هجوما شنته عيينة فاستدرج أميرهم المدافعين الى كمين ، واوقع بهم وهذا ما يعرف « بالكمين الثانى» ولكنه لم يفت بعضد لسكان حريملة ما اصيبوا به من خسائر فغزوا سدوس بالاشتراك مع محمد بن مقرن من الدرعية ، وزامل بن عثمان من الخرج ونهبوها ودمروا حصنها .

وانتهت الحرب سنة ١٦٨٨ - ١٦٨٩ بين حريملة وعيينة بعقد الصلح فتمتع عبد الله بن عمر بحكم سلمى دام خمسة عشر عاما ، كرسها لتطوير بلاده وتحسينها .

الا أنه فى عام ١٧٠٣ هاجم القرينة واحتلها وفى السنة التالية وجه اهتمامه الى مركز ثادق الخطير ، غير أنه حين بلغ قرية البير ، فى طريقه الى هناك ، حال بدو عنزة بينه وبين هدفه ، واستولوا على كثير من رواحله .

اما عيينة نفسها فقد تعرضت لفيضانات شديدة فى وادى حنيفة جرفت الكثير من البيوت ودمرتها .

وقد استرعت حريملة انتباه عبد الله مرة اخرى سنة ١٧٠٩ . فهاجمها بعد عشرين عاما من السلم ، بقوة جمعها من قرى العارض وبدء السبيع لكنه عاد فانسحب عنها بعد قتال غير منظم

حينئذ اشتد ساعد حريملة ، فاغارت على مضارب بعض حلفائه واستولت على واحة ملحم كما ذكرنا آنفا ، وفى سنة ١٧١٦ عاد ابن معمر مرة اخرى فهاجم حريملة ونهب املاك عشيرة الزعاعيب . ثم جدد القتال بعد ذلك بعامين . فقتل عشرة رجال واستاق عددا كبيرا من الاغنام من مراعيها .

وفى سنة ١٧٢٥ اعد ابنه ابراهيم حملة على واحة العمارية المجاورة ، وبقى هناك فترة بعد أن اجبر اهلها على الاستسلام ، وبعد بضعة ايام قابل عبد الله نفسه جماعة غازية من بدو كاثر فى العزيقة فقتل عشرون من رجاله فى المعركة التى نشبت ، وانسحب عبد الله وهرب تاركا البدو يحاصرون ابراهيم فى العمارية . وكانت هذه آخر حملة قام بها عبد الله بن معمر .

لم يكن عبد الله قائدا بارعاً من الناحية العسكرية ، وتعود الشهرة التى كان يتمتع بها الى ما قام به من اعمال مدنية وادارية باهرة وفى العيينة وما تركه فيها الدليل الكافى على هذا .

وقد اهلكته الكوليرا ،اهلكت ابنه ابراهيم ، فآلت الامارة الى حفيده الذى كان عليه أن يواجه قوة الدرعية النامية .

اما محمد خرفش فلم يكن الشخصية القوية التى يمكنها الاضطلاع بمثل هذه المهمة . وفيما عدا حادثة زيد بن مرخان التى كان زيد نفسه هو المسؤول عنها فان اول اعماله فى تحمل مسؤوليات الحكم لم تكن مشجعة ابدا أما طرده للشيخ عبد الوهاب بن سليمان القاضى ، صديق جده ومستشاره الامين ، فكان هفوة لم يتمكن ان يكفر عنها فيما بعد.

الفصل الثانى

محمد بن سعود

لا نعرف ألا النزر اليسير عن التطورات السياسية والعسكرية التى حدثت فى العشرين سنة الأولى من حكم محمد. ولكنها مع هذا كانت فترة ذات أهمية عظمى فى تاريخ الجزيرة العربية، ولم يكن العامل البارز هذه الفترة هو أسفار الملوك والقادة، وإنما نشوء « الكلمة »، أى العقيدة التى كتب لها أن تكون الوحىَ وصيحة الحرب اللذْين ألهما الأجيال القادمة، ويلهمان، زمننا الحاضر ونحن نرى بدءَ الجسد ينحلّ من جراء القلق الروحى الذى سبَّبه « الصوت الصارخ فى البرّية » .

ولد محمد بن عبد الوهاب فى العيينة سنة ١٧٠٣ : وهو ابن عبد الوهاب قاضى عبد الله بن معمر، القاضى الذى كان أبوه الشيخ سليمان بن على بن محمد ابن أحمد بن رشيد بن بَريد بن مُشرف بن عمر بن مظهر بن ادريس بن زاخر ابن علوى بن وهيب، فقيهاً دينياً مشهوراً، وتعود شجرة النسب الثابت لمؤسس الوهابية إلى ستة عشر جيلاً خلَتْ أو قرابة الخمسة قرون، وربما شاهد أحدُ أسلافه، ابن تيمية الأشهر، وهو يَعظُ الناس ، فقد كان ابن تيمية هذا هو المصدر الرئيسى فى إلهام تلميذه الجديد .

وتوفى جد محمد سليمانُ، وهو يعمل قاضياً فى العيينة سنة ١٦٦٨ . وكان قد ورث ذوقه العلمى والتقاليدَ، واكتسب الفقه

ومبادئ العلوم الدينية عن جده محمد بن أحمد، وبدوره لقنها ولديه عبد الوهاب وإبراهيم، وقد واكب عبد الله الثانى ابن معمر فى حملته على قرية البير سنة ١٦٦١، فلعب دوراً مهماً فى إحلال السلام كما رأينا سالفاً .

ولا بد أنه كان شخصية فذه إذا صح ما قيل من أنه أعدّ رسالة فى نقطة فقهية معينة هى (الإقناع)، ولكنه عاد فمزقها عندما علم بوجود رسالة أخرى فى نفس الموضوع، كتبها الشيخ منصور البحوطى Al Bahuti الذى توفى سنة ١٦٤٢، وكان يعتبر مع تليمذه الشيخ محمد الخالوطى Khaluti من أبرز فقهاء المذهب الحنبلى .

وكان الشيخ أحمد بن محمد بن حسن بن سلطان القُصيِّر الذى ورد ذكره فى حصار سعد للعشيقير، حيث كان يعمل قاضياً آنذاك، من أبرز تلاميذه، ولقد توفى الشيخ أحمد هذا، سنة ١٧٠٢، كما توفى أخوه ، وابنه محمد أثر اصابتها بالطاعون سنة ١٧٢٦، حين انتشر هذا الوباء فيما وراء سلسلة الطويق حتى الوشم .

أما والد شيخنا محمد، واسمه عبد الوهاب، فلا نعرف عنه شيئاً أكثر من ورود اسمه بمناسبة مولد ابنه الذائع الصيت، وكو نه كان تلميذاً لوالده سليمان، ولا نسمع عنه شيئاً قبل يوم عزله من القضاء فى العيينة فى أيام محمد خرفش، عند توليه الحكم سنة ١٧٢٦، وربما لم يكن فى مقدوره أن يخلّف والده فى القضاء قبل أن بلغ عمره ٥٨ عاماً، ولا بد أنه كان فى حدود الثمانين عندما عُزل من

منصبه، وذلك كي يكون في سن تمكّنه من دراسة العلوم الدينية في حياة والده، هذا مع العلم بأن نبوغ الشباب كان شيئاً عادياً معروفاً في الأوساط الفقهية في الجزيرة العربية، وفي الإسلام بشكل عام، وقد تمثل على صورة واضحة في ابن عبد الوهاب .

وعندما عزل من منصبه و عُين مكانه الشيخ، أحمد بن عبد الله بن عبد الوهاب ابن عبد الله بن عبد الوهاب، الذي لا يمت إليه بصلة القربى، هاجر إلى حريملة واستقر فيها إلى أن توفي سنة ١٧٤٠م وهو طاعن في السن، وكان ذلك الشيخ راضياً كل الرضى عن تعليم ولده وأكبابه على الدراسة لدى عودة الأب من سفرة طويلة، ولقد قيل :إن الوالد عمدَ في كثير من المرات إلى حدّ جماع طموح ذلك الشاب الذي كانت حماسته للعمل في سبيل اللهَ، قمينةً بأن تفوق مداركه الخاصة، في مجتمع غير مستعد لقبول فكرة ترك الحياه السهلة في ذلك العصر .

كانت مراعاة أركان الإسلام صفةً لجميع أولئك الذين يحترمون أنفسهم في كافة مدن نجد وقراها، إلا أنهم كانوا يشفقون على الجهلة ويعطفون عليهم بدلاً من تسفيههم. وكان علية القوم يترخصون في تطبيق الشعائر الإسلامية المفروضة بالنسبة للعلاقات الجنسية ويهملونها أو يتجاهلونها. أما معتقداتهم الخرافية في تأثير السحر والنذور والأضاحي وقوة الأشجار والصخور وشفاعة بعض القبور وأثرها في الرغبات البشرية، فكانت تدليلاً كاذباً على مدى جهل « السامريين » من الناس ، وكان في إمكان «الفريسين» أن

يزدروهم ويتجاهلوهم، بسبب ما كان هؤلاء يرتعون فيه من رفاهية في العيش، وفّرها لهم مركزهم الاجتماعي الرفيع .

ولكن محمد بن عبد الوهاب، لم يكن ليعتقد بهذا .. لقد أخجله ما عرفه في معاصرية من مخازي واستهتار أحدثا في نفسه أعمق الجروح، ومتحلياً بالشجاعة التي توارثها عن أسلافة كان على استعداد تام لأن يثور على عالمه في سبيل قضية عظمى في نظره،متجاوزاً في سبيلها جميع الأعتبارات الأخرى : كالسلام والرفاهية والشعبية، وما أشبه ذلك .

ولمّا كان العمل في خدمة مثل هذه القضية يتطلب إعمالاً في الروية واتساعاً في الخبرة، فقد قرر محمد السفر علّه يستطيع كسب هذه المزايا . ونحن لا ندري بالظبط كم كان عمره عندما باشر في رحلته التي بدت عسيرة للغاية، لولا أن الشيخ وضعها في رأسه، ثم رسم خطتها مدفوعاً بعوامل طموحه، ولا شك أن رحلته هذه كانت قبل عزل والده من منصبه القضائي، ولربما أن الشيخ وصل مكه، الهدف التقليدي الأول في مثل هذه الرحلات ، ولما يبلغ العشرين من عمره بعد. أي قبل سنة ١٧٢٣ .

وكان له من النضج العقلي آنئذ ما يؤهله لزيارة مراكز العلم الرئيسية الهامة، فقد درس الفقه على والده ، وتعمق في دراسة التفسير والحديث، وبعد أن أدى شيخنا فريضة الحج قام بزيارة قبر الرسول في المدينة، حيث مكث طويلاً ليدرس على الشيخ عبد الله ابن إبراهيم بن سيف ، سليل إحدى العائلات البارزة في المجمعة،

وكان هذا الشيخ مجاوراً فى المدينة، يعلّم فيها آنذاك، فدعا الشيخُ تلميذه ليطلعه على الهدية التى أعدها تقدمة لمدينته، وذهب به إلى حجرة زاخرة بالكتب وقال له :

« هذه هى هديتى الى المجمعة » .

وعرّفه كذلك على فقيه آخر مشهور اسمه الشيخ محمد حياة السِنْدى المدَنى، فجعل الشاب يحضر دروسه فى الحلقة .

عاد ابن عبد الوهاب من المدينة إلى نجد - وربما قام بزيارة مسقط رأسه هناك وأن كنا لا نعرف شيئاً عن هذه الزيارة - قبل ان يواصل سفره إلى البصرة، ومن ثم عزم أن يزور دمشق. ،كان محمد فى هذا الوقت قد بدأ يسترعى انتباه أوساط أخرى غير حلقات الدرس، وخصوصاً بعد أن درس على يد الشيخ محمد المجمعى، فنال حظوة فى عينيه بما أظهره من غيرة على التحصيل وحماسه ف سبيل العمل به .

وماكاد ينقضى بعض الوقت على وجوده فى البصرة، حتى أخذ بعض الأهلين يبدون اسيتاءهم من آرائه المتطرفة، فجعلوا يضايقونه، ثم طردوه فيما بعد، من المدينة، وكاد يموت عطشاً وهو فى طريقه الى الزبير، لولا أن رجلاً يدعى أبو حميدان أنقذه من الهلاك المحقق، وأركبه على حمارة له بقية الطريق .

حينئذ تخلى محمد عن فكرة زيارة سوريا، خاصة وإنه كان قد فقد جميع كتبه وموارده الماديه أثناء خروجه من البصرة، ومن جراء ما لاقاه فيها من المتاعب، وهكذا يمم شطر الإحساء حيث استقبله

الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعي الإحسائي ، بكل حفاوة وإكرام ، ثم انطلق من هناك إلى حريملة لينضم إلى والده، ويبقى معه حتى موت الأخير كما ذكرنا سابقاً .

وفي سنة ١٧٤٠ ترك شيخنا الشاب الحذر جانباً وخرج يبشر بالتحديد الأخلاقي والروحي، فاعتنق الكثيرون من سكان حريملة المبادئ التي كان يدعو اليها الشيخ ، غير أن قلة منهم أبدوا عدم الارتياح لتطبيقها بحرفيتها على حياتهم الخاصة والعامة، وكان أهل حريملة المدنية وحريملة الواحة، منقسمين إلى شيعتين، كل منهما تخضع لزعيمها الخاص، ولا تعترف بسلطة الأخرى ، ومن شأن هذه الحالة أن تشجع على عدم مراعاة القانون أو احترامه .

وكان مما زاد في سوء الوضع وتأزمه وجود جماعة من العبيد العتقاء، يطلق علهيا الحمَيَّان (المحْميّين)، - يعتقد أنهم طبقة من المزارعين - يعملون في الزراعة والري في كثير من الواحات العربية، فأصرَّ محمد على أن يطبق الشرع على هذه الفئة بشكل خاص. وكان هؤلاء كثيرين، وعلى غير صلة بالأخلاق الحميدة، فأحاطوا ببيته يريدون به شراً، غير أن الجيران تدخلوا وطردوهم .

ومن ثم ، عمل محمد بنصح أصدقائه وقرر مغادرة المكان المتنكرٍ لرسالته الأولى، والعودة إلى مدينة العيينة، حيث كان عثمان بن حمد بن عمر يحكم آنذاك، بدلاً من أخيه محمد خرفش، (إلا أننا لا ندري كيف تم ذلك، ومتى حدث هذا التغيير) . وقد وجد محمد في عثمان شخصاً يفضُل سلفه الفظ، فاستقبله الأمير بالحفاوة والتكريم ووجد فيه الشيخ تلميذاً مستعداً لتلقى تعاليمه .

ولا شئ أدل على تقدير الأمير لمحمد يحلم بالنصر الدنيوى والروحى فى القضية التى نذر حياته لها. فقال محمد لعثمان ما معناه: «انى لآمل فى ان يأخذ الله العلى القدير بيدك، ويهبك نجداً وعربانها، اذا وقفت الى جانب الله الواحد الأحد».

وهكذا بدأ الاتفاق بين رجل الدين وصاحب الدنيا، الشيخ والأمير. فأخذ الشيخ فى السير قدماً فى طريق تحقيق رسالته، وجعل التمسك بالفضيلة ونبذ الرذيلة جماع أوامره التى يصدرها فى مدينة العيينة كل يوم فى الصلاة. ومع مرور الايام وجدت الحركة الجديدة الكثير من الانصار المتحمسين.

اما اختبار قوة هذه الحركة الجديدة وثباتها فى وجه افعال خصومها فلم يتغير. لقد استأجر انصار محمد خادماً ليقطع بعض الأشجار التى كانت مقدسة فى عيون الجهلة. فتم العمل بحكمة، ودون ان يثير الدهشة بين صفوف الشعب.

وبقيت هناك شجرة واحدة كانت تعتبر اقدس أخواتها جميعاً. فقرر محمد ان يقوم بقطعها بنفسه. ولما بلغ ذلك المكان، وجد راعياً يجلس تحتها حاول منعه من الأقتراب منها. ولكن محمداً وهبه ثوباً من ثيابه، فما كان من الراعى الا أن استجاب. وخفت صوت ضميره، وسقطت الشجرة تحت ضربات فأس الامام.

وسرعان ما اشتهر محمد باخلاصه وشجاعته فى طول البلاد وعرضها، فتبعه سبعون رجلا من علية القوم فى البلاد وأصبحوا تلاميذه.

ومع هذا النجاح الذى أصابه.. فقد كان عليه ان يواجه متاعب المستقبل ويتغلب عليها.فأولى اهتمامه شأن قبر زيد بن خطاب، وكان ذلك الضريح مزاراً ذا قدر كبير من التبجيل والتقديس فى جبلة. وسمح الأمير لخليفة بان يهدم ذلك القبر، فألح محمد عليه ان يرافقه اليه.. وتم لمحمد ذلك بصحبة ستمائة رجل، وقد تجمهر أهل جبيلة ليحولوا دون هدم الضريح لدى وصوله المكان فأخذ محمد معولاً .. فهدمه بنفسه .

وتوقع السذّج والبسطاء من الناس أن يصاب محمد بمصيبة أثناء الليل، مجازاة له على عمله الفظيع ، ولكن الشك بدأ يخامر قلوبهم عندما أبصروا محمداً حياً يرزق ويتمتع بصحة جيدة فى اليوم التالى .

وجاءت بعد هذا حادثة المرأة الزانية واعترافها بفعلتها، وكان فى هذه الحادثة اختبار عظيم لإخلاص الأمام فى نظر أعدائه، فقد كانت مسألة موت أو حياة وقضية تتعلق بمصير امرأة !

ولم يشأ محمد أن يصدر أمره بقتل امرأة بدون إرادة الله. فحاول بكل وسيلة ممكنة لديه أن يجد منفذاً فى كتب الفقه ، لينقذ حياة المرأة الزانية من حكم الشرع، إلا أنها كررت اعترافها بالزنا ورفضت أن تسحب أيه كلمة قالتها بهذا الصدد، ولم يتراجع محمد وهو يواجه المحنة، لقد أصدر حكمه بأن « تموت المرأة الزانية»، ونفذ فيها ذلك رمياً بالحجارة، فوصلت شهرة محمد إلى عنان السماء .

انتشر خبر هذه الحادثة فى كل مدينة وقرية فى الصحراء فأحدث

إستياء عند البعض، وأثار أعظم الاهتمام والتأمل فى البعض الآخر، ولما رويت الأخبار فى مجلس سليمان بن غرير الذى خلف أخاه علياً فى زعامة بنى خالد وإمارة الأحساء ذعر وغضب، فكتب إلى عثمان يحتج على أعمال هذا الرجل الذى احتمى به، ويطلب إليه أن يحكم عليه بالموت، والا فإنه سيمتنع عن تقديم المؤن والأموال التى اعتاد تقديمها إلى العيينة فى كل سنة، وكانت هذه المنح بمثابة مبالغ تُدفع لتأمين حقوق تجار الساحل فى المتاجرة مع المنطقة الداخلية وتأمين سلامتهم، فهى ليست جزية على الإطلاق، وكانت تبلغ الألف والمائة قطعة ذهبية (أحمر) مع كمية مساوية من الأطعمة والبضائع .

لم يكن بمقدور عثمان التضحية بمثل هذا الكنز الأرضى، فلم يكن فى وضع يمكنه من مجابهة أى هجوم يقوم به بنو خالد مهما كان حماسه للحركة صادقاً ومهما كان إخلاصه لصاحبها عظيماً، أما جواب ضيفه فكان « لا يخشى الأمير أعداءَه ما دام يثق بالله ويخافة » .

وبعد أخذ وردّ، قرر عثمان أن يتخلص من ضيفه، كى يحول دون أمير الأحساء وتنفيذ ما أنذر به .

فطلب إلى محمد أن يختار المكان الذى يريد الذهاب اليه فاختار الدرعية وحينئذ أرفقه الأمير عثمان بخفير من عنده اسمه فُرَيدْ، وكان قد كلّفه أن يقتل الشيخ فى الطريق حيث يصلان مغادرة يعقوب، ويعقوب هذا درويش صالح قُتل فى ذلك الموقع، فأقيمت عليه قّبة ومزار ، غير أن فُرْ يداً خذلته اراداته، ولم تطاوعه نفسه

أن يقترف تلك الجريمة . فما أن وصلا مزار الدوريش حتى قفل فُريد راجعاً دون أن يمس الشيخ بسوء، وهكذا كان الشيخ يُرى وهو يسير فى الوادى، لا يحمل بيده الا مروحة من الخوص يلوح على وجهه طرداً لحرارة الشمس .

ولدى وصول الشيخ البلدة عند الظهيرة، حل ضيفاً على رجل يدعى محمد بن سويلم العرينى فى المنطقة العليا من الواحة، ولقى عناء عظيماً فى تهدئة مخاوف مضيفه، وأكد له أن الله سيباركه ويحميه من غضب محمد بن سعود ، وعرف بعض أصدقائه بمقدمه، فزاروه فى المدينة سراً وتلقنوا شيئاً من مذهبه .

وأخذوا شيئاً فشيئاً يفكرون فى الوسائل التى ستؤمن حماية الأمير لهذا الزائر العظيم، فقرروا أن يستخدموا جاه موذى، زوجة محمد بن سعود ، فهى التى أخبرت زوجها بالأمر وطلبت إليه أن يقدر هذا الكنز الذى ساقته إليه العناية الألهية .

وهكذا تقرر أن يقوم الأمير بزيارة الشيخ سيراً على الأقدام حتى يشهد الناس مبلغ التعظيم الذى حباه الأمير به، فيقتدى السكان بأميرهم، ويشاركوه حماسته فى الترحيب، أحر الترحيب، بالشخص الذى كان يعتبر صانع العجائب .

وقال الأمير « مرحباً بك فى بلاد خير من بلادك : أنك ستلقى منا كل تبجيل ومساعدة». فرد عليه الشيخ قائلاً : « ثق أن الله يمنحك المجد والقوة، لأن الذين يؤمنون بالله ويعملون فى سبيله، لهم البلادُ وما عليها ، فالله هو الرب الواحد الأحد الذى بعث جميع الأنبياء من آدم إلى محمد » أو شيئاً بهذا المعنى .

ويجدر بنا أن نذكر بأن الأنبياء الكبار كما ذكرهم ابن بشر في مقدمته وقال عنهم ، هم أولئك الذين قادوا الإنسانية في إعلاء كلمة الله في جميع الأطوار وازدهار الإسلام نفسه من أمثال آدم ونوح وإبراهيم وإسماعيل واسحق ويوسف وسليمان وعيسى ومحمد .

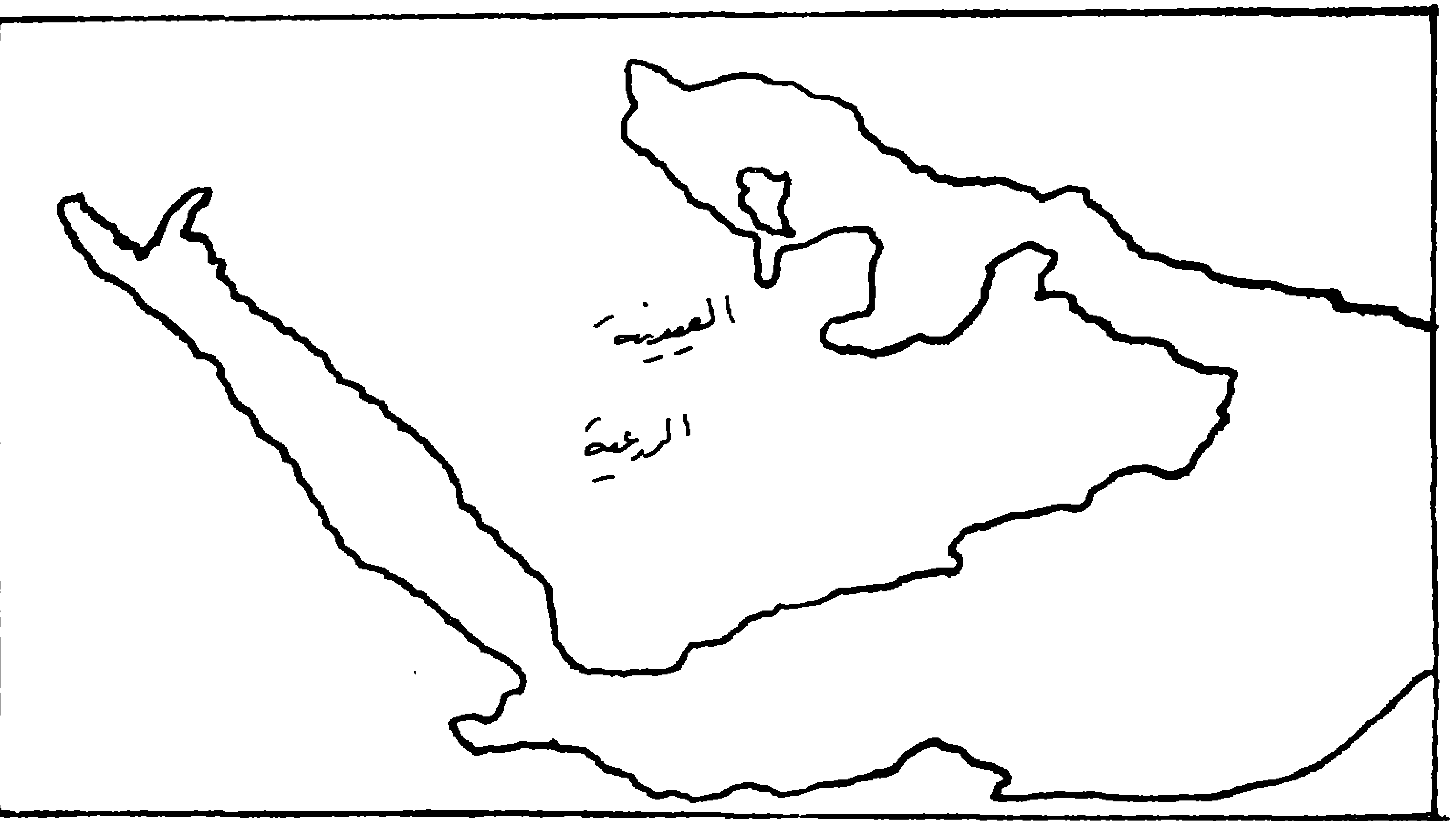
وهكذا توطد التحالف بين الأمير والإمام سنة ١٧٤٥ ، ولكن محمداً بن سعود طلب من الشيخ تأكيداً بالنسبة لنقطتين وقال :

« أخشى إن أنا ساعدتك وكسبنا الدنيا أن تتخلى عني لتبحث عن حظك في مكان آخر. ثانياً: إن تترك لي بموجب قوانين البلاد حق جباية الضرائب من رعاياي والفوائد الزراعية والتجارية وأن لا تطلب إليّ التنازل عن هذا الحق » فأجابه الشيخ قائلاً : « أما من ناحية المسألة الأولى فهات يدك أعاهدك على ذلك، وأما بالنسبة للمسألة الثانية فربما أنالك الله فتوحات كثيرة تعوضك عنها بالكثير من الغنائم والأسلاب الحربية التي تفوق ما تتقاضاه من ضرائب » .

فمد الأمير يده للشيخ وتعاهدا على الإخلاص لدين الله ونبيه والقتال في سبيله، وانتقل الأمام الآن من بيت محمد بن سُلويَلم إلى المكان الذي أعدوه له في المدينة، فتقاطر الناس من كل حدب وصوب كي يسمعوا وعظه ، وهجر الكثيرون من أنصاره في مدينة العيينة وساروا إلى الدرعية ليعيشوا في ظلال الطهر والقداسة .

وقد طرق سمع عثمان نفسه ما جرى في العاصمة المنافسة لعاصمته، فخشي على نفسه، وندم على فعلته، وسار في موكب رسمي من وجهاء العيينة، ليزوروا الشيخ في مقامه الجديد .

وهناك طلب إليه العودة، واعداً إياه بالمعاملة الحسنة الشريفة



المهد الأول الذي بدأت منه الدعوة الوهابية تنتشر في أرجاء الجزيرة

والمساعدة المخلصة، ولكن الشيخ أجابه قائلاً : ليس هذا الأمر من شأني بل من شؤون محمد بن سعود، فإذا رغب ذهبت معك ، وإن أبى بقيت عنده، فلن أتخلى عن صديق في سبيل صداقة آخر». فعاد عثمان إلى بلاده خائباً .

أما اللاجئون الذين وفدوا إلى الدرعية فقد أصيبوا هم أيضاً بخيبة أمل إذ كانوا في قرارة أنفسهم يتمنون الخلاص، فالدرعية لم تكن بالعاصمة الملكية آنذاك مثلما كانت في أيام ابن بشر، كانت مواردها ضئيلة لدرجة أن أولئك الذي جاءوا لتلقي العلم على يد الشيخ لم يجدوا بداً من أن يعملوا ليلاً كي يؤمنوا معيشتهم .

وقد أقام الشيخ في وسط بساتين كثيرة للنخيل في ضاحية البجيري، أما أمراء آل سعود وأتباعهم فكانوا في قلعة طريف، وأمست البجيري هذه، المركز الثقافي للعاصمة، وكانت هناك أسواق تقع على أطراف المسيل منها ما كان مخصصاً للرجال وأخرى للنساء.

على هذه الصورة كانت بداية انطلاق الحركة الإصلاحية التي وصلت موجتها إلى أقصى البلاد العربية ثم تجاوزتها إلى ما وراءها.. كانت دروس الشيخ علنيةً، يحضرها الأمير والمزارع والفقير بدون تمييز، فقد كانوا جميعاً في مسيس الحاجة إلى الاطمئنان الروحي، وفي حمأة اليأس الذي غرق فيه العرب طوال سني الجهل والإهمال، وكانت المعاصي: الصغرى والكبرى، شائعة في الأحياء الراقية والغير الراقية على السواء، لقد أهملوا وتوقفوا عن تقديم الصدقات التي كانت فرضاً عليهم .

وبدأ الشيخ بنفسه أولاً ثم على نطاق محدود فى العاصمة، ومن بعد ذلك على نطاق أوسع، وهذا صحح. فبدون قوة حربية وموارد مالية كان لا يستطيع عمل شيء غير الأقناع، فأخذ يستدين المال ليقوم بأوَد طلابه، ويقال : إن ديونه بلغت أربعين الف محمدى يوم فتح الرياض .

وكان هذا المبلغ كبيراً فى تلك الأيام، إلا أن ديونه جميعها أوفت بها حصتُه فى الغنائم الحربية من المدينة المنافسة، ونصيبه من الزكاة التى جمعتها الحكومة .

وقد أدخل الأمام فى عقول طلابه مبادئ فريضة الجهاد المقدس فوجد الكثيرون منهم فى الجهاد أقدس تعاليمه، إذ أنه يتفق مع ما اعتاد عليه العرب .

كما خصص خُمس الأسلاب للخزينة المركزية، التى كان الأمير والأمام يتقاضيان منها ما يقوم بأودهما، وما يحتاجان إليه فى سبيل القيام بمهمتهما .

ويبدو أن الأمير والشيخ كانا متفقين تماماً فى كل تصرفاتها كما لو كانا شخصية واحدة لها وظيفتان فى الحياه، ويقال : بأن محمداً بن سعود وخليفته عبد العزيز، لم يقوما بأى مشروع أو يصدرا أى قرار ذى شأن إلا بموافقة الشيخ وبركته، وقلما نجد لهذا التعاون المتسق الذى دام زهاء نصف قرن مثيلاً .

هكذا كان سلطان الشيخ فى تصريف شؤون البلاد بعد مرور سنة أو سنتين .. لقد أصبح يعتبر شريكاً مؤسساً، وعندما بدأ الشيخ

ينوء تحت وطأه أعباء حكم الدولة المزدهرة الآخذة فى الاتساع تنازل لعبد العزيز عن حقه فى المسؤوليات التنفيذية فى شؤون السياسة والمالية، إلا أن عبد العزيز ظل يستشيره فى كافة الأمور .

ولنعد الآن إلى نجد لنبحث أوضاعها يوم ظهر هذا النظام الجديد فى الدرعية سنة ١٧٤٥ ...

كانت الإحساء والعيينة، وهما المنافستان الرئيسيتان للدولة الوهابية، تحت إدارة حكام تولوا الحكم من جديد خلال الثلاثين سنة الأولى من القرن الثامن عشر، ونعنى بهما سليمان بن محمد بن غرير، وعثمان بن حمد بن معمر .

وفى التخوم الشرقية من الدرعية وفى نفس الزمن تقريباً، نشأت دولة كانت لسنوات خلت، أصلب وأقوى خصم للدولة الوهابية، ولنعد قليلاً إلى الوراء لنقف على تاريخ نشوء إمارة الرياض .

لقد بدأت القصة فى منفوخة سنة ١٦٨٢م، وذلك عندما قام دّواس بن عبد الله بن شعلان، زعيم المدينة، بذبح بعض الزوار الذين جاءوا إلى المدينة من عائلة جلاجل فى السدير، ومع أننا لا نعرف التاريخ الموثوق فيما بعد ذلك؛ فإن اتجاه الأحداث كان واضحاً، فعندما توفى دواس سنة ١٧٢٦، خلفه محمد، أكبر أولاده السته، إلا أن ابن عمه عبد الله بن فارس بارزه وقتله وطرد أشقائه من منفوخة، واغتصب الزعامة فيها لنفسه .

أما الأخوة، ومن جملته دهام، فقد التجأوا إلى الرياض، وكان يحكمها زيد ابن موسى. فحالفهم النجاح فى منفاهم، وأما زيد فقد

قتله عبد يدعى خميس، اغتصب الحكم مدةثلاث سنوات ، ولكنه في نهايتها ، هرب لدى سماعه بأخبار مؤامرة يدبرها أهل البلدة لإقصائه على الحكم، وذهب إلى منفوحة حيث قتل، وأصبحت الرياض الآن دون أمير .. فتولى الحكم فيها دهام بن دواس باسم ابن أخته القاصر ابن زيد .. وكانت أخته أرمله زيد بن موسى. وعندما استتب له الحكم، طرد ابن أخته من الرياض واغتصب إمارتها .

وبالنظر لطول حكم دواس في منفوحة، إذ انتهى سنة ١٧٢٦ ، وبما أننا نجهل بدايته، فليس لنا الا أن نفترض حدوث هذه الأحداث في زمن ما ، يقع بين سنة ١٧٢٦ و ١٧٤٥ . وربما كان ذلك سنة ١٧٤٠ .

وليس لدينا سجل بالأعمال العدائية والمنازعات بين الرياض والدرعية خلال المدة التي سبقت وصول الشيخ ، إلا أنه في بدء سنة ١٧٤٦ قام دهام بمعاونة جماعة من بدو السمدة (ظافر) بهجوم على منفوحة، وتلا ذلك معارك قاسية كانت خسائر الطرفين فيها فادحة جداً، لكنها بدون فائدة تذكر، وظل الأمر كذلك حتى وصلت نجدات قوية من الدرعية تحت إمرة أبن أميرها عبد الله وحينئذ وقع المهاجمون بيسن القوة المحاصرة والنجدة فما ولو جاهدين أن يشقوا طريقهم وسط النجدة، ولكن دهام نفسه جرح مرتين وقتل جواده تحته.[1] ومن ذلك الحين أصبح علي بن مشروع الذى خلف عبد الله بن فارس في زعامة منفوحة، خليفاً طبيعياً لابن سعود في كفاحه الطويل لإخضاع أمير الرياض.. فأستؤنفت المعارك في الحال.. وأرسل بن سعود قوة من الجند تحت جنح الظلام، بعد حادثة

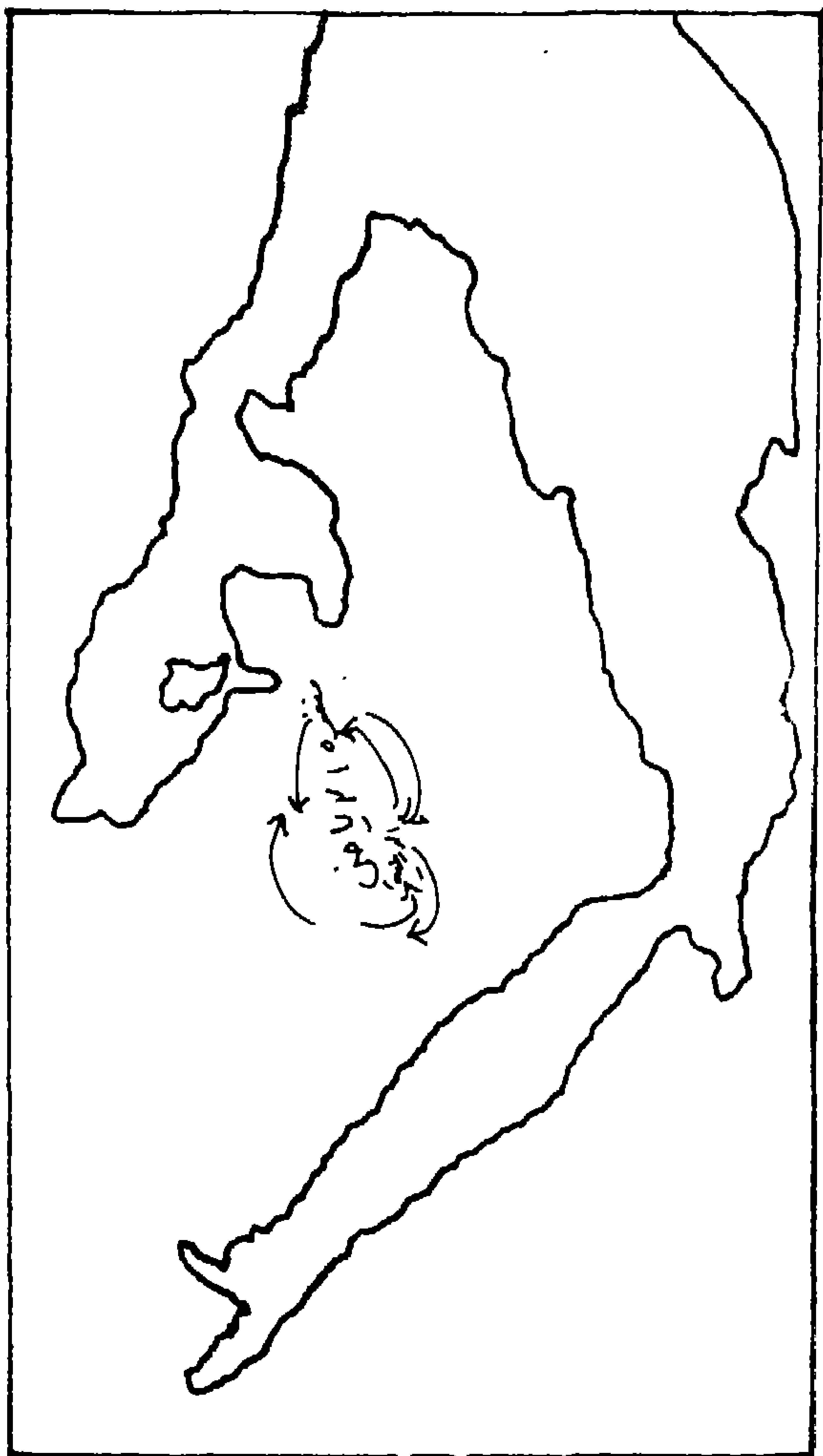
المنفوحة، لتدخل المدينة وكانت منفوحة فى تلك الأيام على تلة وراء أشجار النخيل إلى الغرب من موقعها الحالى. نجح المهاجرون فى اقتحام بيوت ناصر بن معمر، وتركى شقيق دهام، ويبدو أنهم لم يفعلوا أكثر من نهب عدد من الجمال .

ثم أخذ دهام زمام المبادرة وهاجم العمارّية فقتل زعيمها وعقر بعض جمالها ، وما كاد يسمع محمد بما جرى حتى سارع بقطع الطريق على الغزاة، ويوقعهم فى كمين نصبه لهم فى أحد الأودية، لكن دهام علم بالمكيدة فقرر بدوره أن ينصب كميناً لمحمد فى الوادى نفسه .

والتقى الفريقان .. كلٌ قبالة كمين خصمه .. فسقط عدد من القتلى أثر معركة حامية الوطيس نشبت بينهما ؛ وبعد ذلك بقليل نشبت معركة أخرى على مقربة من الرياض، اشترك فيها محمد بن سعود وعثمان بن معمر، وكان عثمان قد تخلى عن الشيخ وحكومة الدرعية، وتعرف هذه المعركة بمعركة الشيوخ .

وعندما وصل المهاجمون الرّياض انقسموا إلى فريقين : فريق هاجم ضواحى المدينة، وفريق آخر كان عليه أن ينصب كميناً لمن يخرج من أهل الرياض للدفاع عن أملاكه .

وقد نشب القتال الرئيسى حولة تلة « الوشام » قرب المدينة، وكان بفضل مفاجأة الكميَن لدهام أن سارع هذا لحماية أسوار مدينته نفسها ، وكان بين القتلى شيخان سميت المعركة باسمهما ، ثم نشبت معركة أخرى عرفت باسم معركة العبيد، لأن معظم الذين قتلوا فيها



"معركة الشعوف" وفي هذه المعركة تخلى عثمان بن الله معمر عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب (

من مدافعى الرياض كانوا من العبيد ،جميع هذه الاشتباكات حدثت فى نهاية سنة ١٧٤٦م .

وفى أوائل السنة التالية، نقل دهام القتال إلى الأراضى الوهابية واتبع نفس الخطة فى نصب الكمين المعتاد ، فخرج أهل الدرعية للقائهم، ولكن الغزاة هربوا بغير انتظام كى يستدرجوا الناس للكمين الذى نصبوه لهم، وهذا ما تم بالفعل فقتل فى لمعركة اللاحقة ولدا محمد بن سعود ، فيصل وسعود . فجهز محمد حملة معاكسة على الرياض بجيش جمعه من منفوحة وحريملة بدون مساعدة العُيينة . وكانت هاتان المدينتان قد أنضمتا إلى الحلف الوهابى ، وكان لسوء حظ محمد أن وجُد فى صفوف حريملة رجل خائن، انسلّ فأنذر دهام بالهجوم المقرر عند الفجر، وعند هجوم محمد على المدينة وجد أهلها على أهبة الاستعداد لملاقاته، فنشبت معركة « دَلَقَه » أو « الشراك »، ومنى الطرفان بأصابات كبيرة .

وتجدد القتال فى سنة ١٧٤٨ ، وكان عثمان بن معمرّ قد حشد خليطاً من الرجال من الدرعية والعيينة، كما اشترك فى المعركة جند من حريملة وضُرمْه .

أما عبد العزيز بن محمد فكان قائد رهط الدرعية، ولكنه كان تحت إمرة عثمان الذى زوّجه من ابنته، فدار القتال الرئيسى فى ضاحيتى المقرْن وسيَاح، وكاد المهاجمون أن يستولوا على الموقعين، لولا أن قوة خرجت من المدينة فأحدثت توازناً معقولاً ، وقد قاتل الطرفان قتالاً مريراً ، غير أن الوهابين أكرهوا على الارتداد ،

مخلّفين وراءهم أربعين قتيلاً كان معظمهم من جند حريملة، وعرفت هذه الواقعة بمعركة « البنيّة» .

ثم جهز محمد حملة على ثرمدة في إقليم الوشم، ونصبوا نفس الكمين المعتاد ، فانهزم سكان المدينة لدى خروجهم للقتال وفقدوا سبعين من رجالهم، بينا لجأ الباقون إلى مزرعة خارج المدينة، فشدد عبد العزيز، وكان معه في هذه الحملة، هجمته على ثرمدة الخالية من السكان، إلا أن عثمان رفض أن يسمح له بذلك الأمر الذى دعات إلى أن يرتاب في الإخلاص عثمان للقضية.. وقد أخبر عبد العزيز محمداً ابن سعود والشيخَ بما حدث، غير انهما لم يتخذا أى إجراء، وذلك لأن عثمان عاد فجهز حملة صغيرة على ثرمدة، ومن هناك هاجم ثادق فقتل عدداً من الناس واستولى عل بعض الأغنام .

وقاد محمد بنفسه حملة أخرى على الرياض سنة ١٧٤٩ ، فهاجم مقاطعة الحبُّونيَّة عند الفجر ولكنه وجد السكان على أتم الاستعداد ، فاقتصر القتال على إطلاق النار من بعيد وقليل من الأصابات، ومرت البلاد في أوائل السنة بموجة من الصقيع والبرد الشديد، الذى أتلف المحاصيل وأدى الى سنة عجفاء من تلك التى تميز بها تاريخ الجزيرة العربية، وفي نهاية هذه السنة بالذات، منع الشريف سعود ابن سعد أمير مكة، حجاجَ نجد من الحج وأجبرهم على الإقامة في أحد المحاجر الصحية فمنى الحجاج بخسائر فادحة في الأرواح .

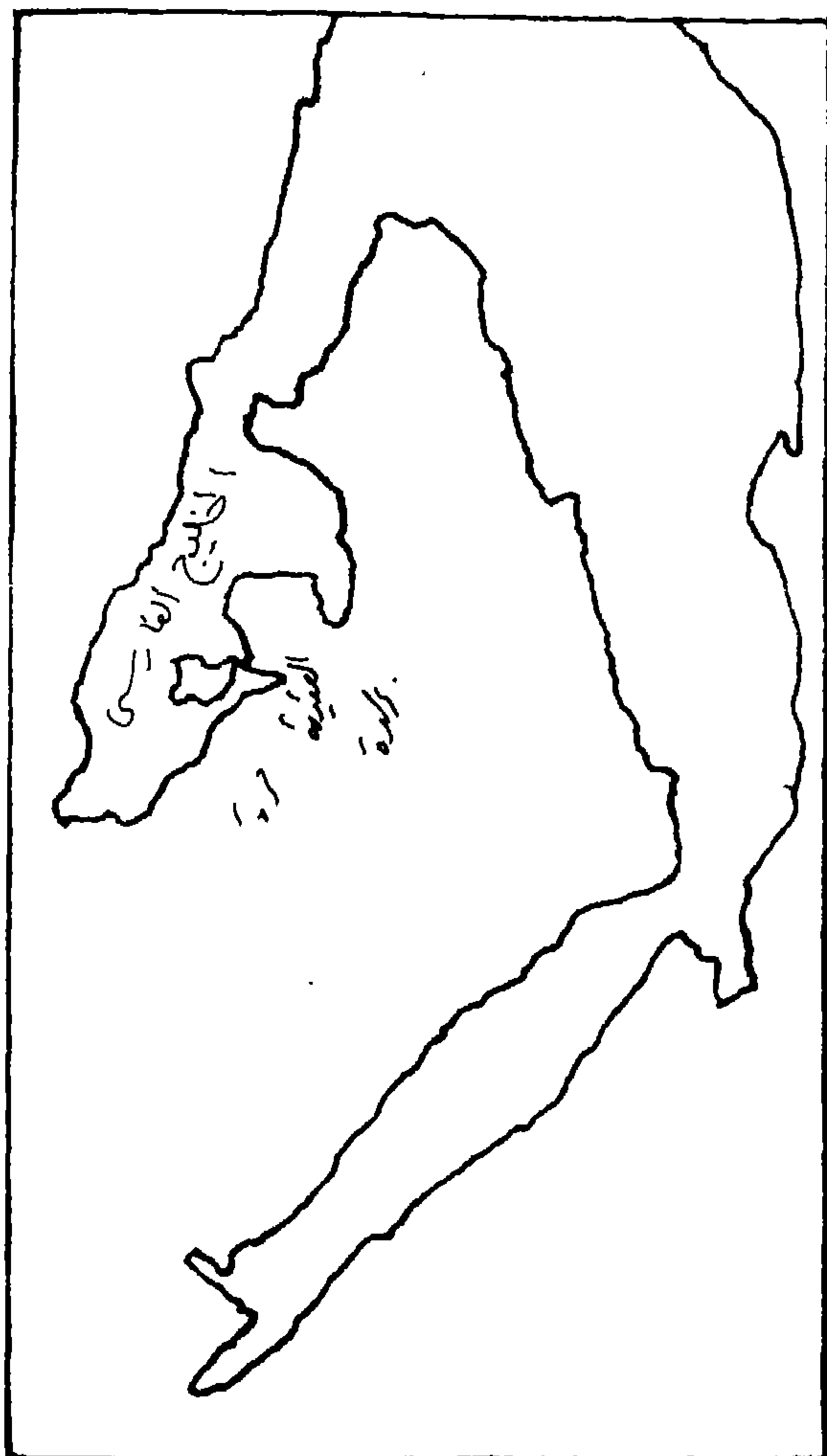
وفي سنة ١٧٥٠ ازداد الشك في نفس الحلف الوهابى في إخلاص عثمان بن معمر، فقُتل عند انتهاء صلاة الجمعة في جامع

العيينة الكبير، وقد ذُكر انه اتصل سراً بمحمد بن عفالق فى الإحساء واتفق معه على خيانة الدولة الوهابية وعدم الولاء لها، ولذلك قتله نفر من العيينة نفسها، هذه المدينة التى كانت آسفةً لفقدها محمد بن عبد الوهاب، وكان عثمان هو وحده المسؤول عن ذلك بالرغم من توبته واعتناقه المذهب الجديد .

ويقول ابن بشر « ان الدين الحنيف لا يجابى الوجوه ». وقد لاقى قتل صهر وارث العرش استحساناً فى الدرعية، وكان ابنه يبلغ من العمر سنتين يوم ذاك .

وفى السنة التالية قاد محمد بنفسه حملة على الرياض تميزت بنفس الضراوة . فنشبت المعركة بين رجاله وجماعة خرجت من المدينة، حول بئر « مروى» فى مسيل البُطيحة، فعرفت المعركة بأسمها .

هذا، كما نشبت معركة أخرى حين خرجت جماعة من ثرَمدة تحت امرة زعيم العيينة الجديد، مشارى بن إبراهيم بن معمر ابن عم عثمان الأدنى، وكان يرافقه فى هذه الحملة عبد العزيز على رأس جيش الدرعية، وكان أهل ثرمدة على علم بالحملة فحصلوا على نجدة من العشيشية ومَرةً، جيرانهم، وخرج أهل ثرمدة للقاء العدو خارج المدينة، فوقعوا بالشرك الذى نُصب لهم، وحينئذ اضطروا إلى التقهقر إلى قريتهم، فاكتفى الغزاة ببعض الأسلاب والغنائم ثم عادوا إلى بلادهم وقتل فى هذه المعركة، على بن زامل زعيم العشيشية وعرفت المعركة باسم الواطِيَة .



معركة الولجة

ثم غـزا الوهابيـون الرياض فى نهـاية السنة او بداية ١٧٤١م. ولكنهم أصيبوا بنكسة، فوصلوا منطقة عَودْة جنوب شرقى المدينة ، ولكنهم طوردوا وتكبدوا بعض الخسائر، وكان من بين القتل، على ابن عيسى آل دروع وهو قريب بعيد للسعوديين .

وفى هذه الأثناء حدث أمر خطير للغاية مع جماعة من أقرباء البيت السعودى كانت قد ارتدت من الدرعية إلى ضرمه مع عبد الرحمن بن ابراهيم الذى كان الجدَّ الرابع لمحمد بن سعود ، أما محمد ابن عبد الرحمن فقتل أثناء اضطرابات عادية وقعت بين جماعته وبين جيرانهم سنة ١٦٨٤م . وربما كان حفيده إبراهيم هو الذى قاوم الحركة الوهابية، فقتل عدداً كبيراً من أنصارها البارزين فى مدينته، وكان من جملتهم رشيد العزّازى، وبعد بضعة أشهر فاجأه الوهابيون من أقارب رشيد فى الجامع فقتلوه مع ولديه هبدان وسلطان، وهكذا كانت نهاية هذا الفرع من العائلة. فأقام عبد العزيز رجلاً يدعى عبد الله بن عبد الرحمن (المريدى) أميراً عليهم بينما كان فى طريقه لغزو زلفى، متظاهراً بزيارة ضرمه .

وقد شهدت سنة ١٧٥١ - ١٧٥٢ خصباً وخيراً كثيراً بعد الجفاف والهلاك الذى أصاب المحاصيل. وقام فى السنة التالية جيش مشترك مؤلف من أهل السدير والمُنَيْخ وزلفى والوشم وبنى ظافر، تحت امرة فيصل بن سويط، فهاجم واحة الرغابة وأعمل فيها السيف بلا رحمة، وتوفى فى هذه السنة الشيخ محمد حياة السندى معلم محمد بن عبد الوهاب أثناء طوافه بالمدينة، أما المناوشات العسكرية الوهابية فى هذه السنة فكانت محدودة، إذ اقتصرت على غزوة

صغيرة على الدَّلَمْ، عاصمة الخرج، وانتهت بنشوب معركة فى منطقة العفجة AFJA فى واذى حنيفه، وحاول أهل الدَّلم فى هذه المعركة، استرجاع إبلهم وأغنامهم ولكن جهودهم با ءت بالفشل .

وفى السنة التالية كان لدى الوهابيين أمور جد خطيرة تشغل أفكارهم، إذ يبدو أن أهل حريملة التى كان سليمان شقيق الشيخ نفسه يشغل منصب القاضى فيها ، قد ملوا طقوس المذهب الجديد الصارمة، فثاروا على أميرهم محمد بن عبد الله بن مبارك وعزلوه وطردوه واختاروا عمه عَدوان، وابنه مبارك، وأخاه عثمان ابن عبد الله، وآخرين من أعيان المدينة ليرافقوه إلى منفاه فى الدرعية، وبعد ذلك بقليل اقترفوا خطأ .. إذ عادوا إلى المدينة ملبين بذلك دعوة أقربائهم من عشيرة آل حمد .

ولكن أفراد عشيرة آل رشيد هاجموهم فى الحال لغاية فى نفوسهم، فقُتل الأمير المعزول وثمانية آخرون من أتباعه، أما مبارك ابن عدوان فقد نجا بنفسه والتجأ إلى الدرعية .

وفى السنة التالة رافق مباركُ عبد العزيز بن محمد بن سعود فى حملة تأديبية على حريملة، فنجم عن ذلك قتال عنيف نهبت فيه المزروعات ومزارع النخيل، ولكن المهاجمين لم يتمكنوا من إخضاع المتمردين من رجال المدينة .

وفى هذه الفترة بالذات قررت منفوحة أيضاً أن تنسحب من حلف الوهابيين وتقاتلهم، وحاول عدد من الذين لجأوا إلى ضرمه أن يعودوا إلى بلادهم بعد أن تغيرت الأحوال ولكنهم مُنعوا بالقوة،

بالرغم من مساعدة أصدقائهم من السدير والوشم ، ويبدو أن الأمير الجديد لم يتمكن من إقناع السكان بالعودة إلى الأخذ بالمذهب الوهابى، وهكذا كانت السنة على العموم تتميز بتقهقر الوهابية .

ووقعت اضطرابات فى أراضى بنى خالد كان من جرائها أن ظهرت شخصية قدّر لها أن تكون شوكة فى صدر الوهابيين فى السنوات التالية، فقد ثارت عشيرة المهاشر Mahashir على سليمان فهب إلى « الخرج » حيث توفى بعد وصوله إليها بقليل، وتولى الزعامة عريعر بن دُجَيْن الذى احتفل بتوليه المنصب بقتله زعار بن عثمان حفيد غرير الأعلى، ثم ثار عليه رجل من بنى خالد يدعى حماده ونجح فى إجباره على الفرار، فلجأ إلى حريملة ولكنه عاد وأجبر حماده بدوره على الفرار إلى الشمال .

وحين وطد عريعر مركزه قام ابن عمه عبد الله بن تركى بحملة على بنى ظافر قرب زلفى فتغلب عليهم وغنم أموالهم .

وفى هذا الوقت بدأ دهام يتبرم بالقتال من فترة الهدوء الطويلة والمتاعب التى كانت تواجه الوهابيين ، ففى نهاية سنة ١٧٥٣ أو أوائل السنة التالية قرر أن يبدأ بالمفاوضات، فأرسل رسولاً إلى الدرعية مع هدية فاخرة من الخيول والأسلحة النارية، ليقترح عقد الهدنة، وليؤكد دهام ولاءه لمحمد بن سعود ولمذهبه، طلب أرسال معلم إلى الرياض، فاختار الشيخ رجلاً يدعى عيسى ابن قاسم وأرسله إلى هناك .

وهكذا ، دخلت الرياض حظيرة الوهابيين، فساد السلام فترة من

الزمن، وفى هذه الأثناء بدأ الاضطراب يسود ضرمه بسبب مقتل أربعة أخوة من عشيرة السَّيايرة، أحفاد سيف بن إبراهيم، وكان مقتلهم على يد الأمير الجديد محمد بن عبد الله « المُزيْدى؟ » . وكان هذا وهابياً مخلصاً ينحدر من سلالة عبد الرحمن التى اندثرت يوم ثارت عشيرة سيف وقتلت آخر أمرائها الأمير إبراهيم وولديه قبل بضع سنين .

ويبدو أن عشيرة سيف هذه تمردت بعد عزل الأمير الحاكم وبدأت تقاوم الوهابيين جهاراً، وأخذوا يظلمون السكان ويبدون احتقارهم للسلطة ، فنقُل الأمر إلى الدرعية، وبعد أن تداول الشيخ محمد بن سعود فى ذلك، خولاً الأمير المحلى السلطة المطلقة، كى يعمل حسبما يراه مناسباً فى تلافى أية ثورة وأضطرابات، وأخذ هو بدوره يستشير بعضاً من زعماء المدينة .. فأشاروا عليه بأن يعمل على إخضاع المتمردين نهائياً، ولكن فى شهر تشرين الثانى من نفس السنة قام رجل يدعى الغفيلى بالاشتراك مع أهل « مرةَّ» وتعهد بأن يساعد أمير ثرمدة ابراهيم بن سليمان فى محاولته تحطيم نير الوهابيين فى ظرمه. أما أمير ضُرمه فقد توجس شراً وطلب النجدة من الدرعية، فأسرع محمد بن سعود نفسه لإنقاذه ووصل إليها فى نفس الوقت الذى وصل فيه الغفيلى وأتباعه من الوشم، فدحر الغفيلى وأفقده ستين قتيلاً .

ووجه محمد انتباهه الآن إلى حريملة، فأرسل إليها عبد العزيز فى غارة من ثمانمائة رجل فى أوائل سنة ١٧٥٥ ، فوصلها فى الليل، ووزع رجاله ونصب كمينين، وكان هو نفسه على رأس

أحدهما فى شعيب العويجة، ومبارك بن عدوان مع مائتين من رجاله فى الجزُيعْ.

وتقدمت القوة الرئيسية نحو المدينة فخرج أهلها إلى لقائهم ولكن اشتراك الكمين الأول فى المعركة لم يكن كافياً لقلب ميزان القوى، غير أن الكمين الثانى الذى شق طريقه لقطع الاتصال بالمدينة قلب الميزان،ولم يستطع المدافعون الصمود فتقهقروا وتفرقوا بين أشجار النخيل وعلى الطرقات ليحتموا بها بعد أن فقدوا مائة قتيل .

وعاد عبد العزيز، لغاية فى نفسه إلى الدرعية، تاركاً لمساعديه الاستمرار فى العمليات الحربية، وما كاد يفعل ذلك حتى قام أحد هؤلاء القادة، محمد بن عبد الرحمن أمير ضرمه مع ثلاثة عشر من رجاله فدخل المدينة واحتلها بدون أى مقاومة، فعاد عبد العزيز فى الحال ليعالج الوضع وأعلن العفو عن كل أصحاب النوايا الحسنة، فيما عدا بعض أفراد من آل رشيد الذين اقترفوا الجرائم ضد القانون المدنى، وسمح للوهابيين المنصريين أن ينهبوا المدينة ومزارع النخيل وعّين مبارك بن عدوان أميراً بدلاً من ابن عمه الذى قتل .

وهكذا عادت حريملة إلى حظيرة الوهابيين فى الرابع عشر من آذار سنة ١٧٥٥ ، أما القاضى سليمان بن عبد الوهاب فهرب من المدينة ماشياً أثناء اشتداد الثورة ووصل السدير بأمان .

وفى الرياض . ملَّ دهام السلمَ كما سئم الحرب من قبل، وفى هذه السنة أخذ زمام المبادرة فابتداء المرحلة الثانية من صراعه مع

الدرعية، وقد هب لمساعدته أمير منفوحة محمد بن فارس، وإبراهيم بن سليمان زعيم ثرمدة الذى جمع حوله جميع المتبرمين من الوضع، فى الوشم والسدير وثادق وحريملة .

وكان هدفهم الأول إنقاذ حريملة من يد الحكم الوهابى، فتجمعت القوات التى كانت تحت إمرتهم فى الحسيًّان، وهو مكان للسقاية فى أعالى الوادى . وهناك هاجمهم مبارك بما لديه من القوات، وبدأ يناوشهم حتى وصلته النجدة من الدرعية، ولدى رؤيتهم ذلك، تراجعوا مذعورين، فلجأت بعض قواتهم الى المزارع ومكثوا فيها خمسة أيام، فهرب فى أثنائها من تمكن من الهرب أما الباقون فأبيدوا، وكان سارى بن يحيى زعيم الشادق أحد اللذين فروا، بينما فقد الحلفاء فى معركة « الدار» هذه ستين قتيلاً .

وكان ذلك فى شهر آب أو أيلول من سنة ١٧٥٥ .

أما السنة التالية فقد تميزت بالهدوء فيما عدا هجوم صغير شنه عبد العزيز على منفوحة، ووصول وفد من قرية القُوَيعة Quai'ya لزيارة أمير الدرعية والشيخ، لتأدية الولاء لهما، وكان العام كثير الأمطار جيد المحاصيل والمراعى ، الأمر الذى أدى إلى الحد من النشاط الحربى، ولكن شتاء سنة ١٧٥٦ - ١٧٥٧ شهد استئناف الأشتباكات، وكان أولها معركة سدّ الرِشاء Risha التى حولت رحى المعارك من وادى حنيفه إلى مزارع النخيل فى منفوحة، وكان هذا هو هدف عبد العزيز الرئيسى، فاحتل بعض المزارع وبدأ فى هدم السد الذى كان مبنياً من الصخور الضخمة المدعومة بأبراج مستديرة، وفى أثناء الاشتباك خرج دهام من الرياض، فنشبت

معركة حامية الوطيس، قتل فيها عشرة من الوهابيين وثلاثة من أعدائهم .

أما زمام المبادرة فكانت الآن لسكان الوشم حيث كانت الشقرا عاصمتهم، المركز الوحيد للوهابيين، وقيل : إن سكانها كانوا أول طائفة المتنقت مذهب الوهابية الجديد فى نجد (باستثناء الدرعية والعيينة) ، ولكن قرى الأقليم الصغيرة، كانت منذ البداية تقاوم الحركة بضراوة، فطلبوا النجدة من السدير والمنيخ لمهاجمة الشقرا، فخرج بعض الأهالى للقائها ونشبت معركة انتصر فيها المدافعون عن المدينة، وغنموا بعض الخيول والجمال من الأعداء .

وعندها جاء عبد العزيز من الدرعية ليشترك فى المعركة، فاستؤنف القتال وانتصر أهل الدرعية انتصاراً ساحقاً، أما المتحالفون فانسحبوا إلى القراين Qarain التى كانت تبعد بضعة أميال عن العاصمة. وخسروا فيها سبعة عشر رجلاً، منهم بعض أعيان السدير، وعاد عبد العزيز إلى بلاده بعد أن أنقذ الشقرا، فهاجمته فى طريقه جماعة من بدو السبّيع عن آبار الحاسى المؤدية إلى هضبة الطويق، فاندحر البدو وأسر زعيمهم فيصل المَلْيحى، إلا أنه افتدى نفسه بمبلغ خمسائة قطعة ذهبية .

أما عبد العزيز فقام الآن بالهجوم على الرياض من الغرب، ونصب كميناً تحت ستار الليل، فدعيت المعركة التى نشبت باسم معركة، الباب القبلى. وقد خسر سكان الرياض بعض القتلى فى هذا الكمين، وفى هذه الأثناء قام محمد بن عبد الله أمير ضرمه

بالهجوم على الوشم، إلا أنه فوجئ بغزو من عشائر السمده (ظافر) ففرّ، ثم قام عبد العزيز بهجوم آخر على الوشم فهاجم قريةُ عشيقير، ومن هناك تقدم نحو ثادق، فحاصرها بضعة أيام وقطع عدداً كبيراً من نخيلها وسلب أموالها .

وبعد أن تكبد الطرفان بعض الخسائر، وكان من بين القتلى محمد بن ذعيشر الوهابى، طلب السكان عقد الصلح، معلنين استعداهم لعتناق المذهب الجديد والخضوع لسلطان ابن سعود ، وحينئذ عيّن دُخيّل بن عبد الله بن سويلم أول أمير على ثادق بينما عُين شخص آخر من نفس العائلة اسمه حمد بن سويلم، قاضياً فيها .

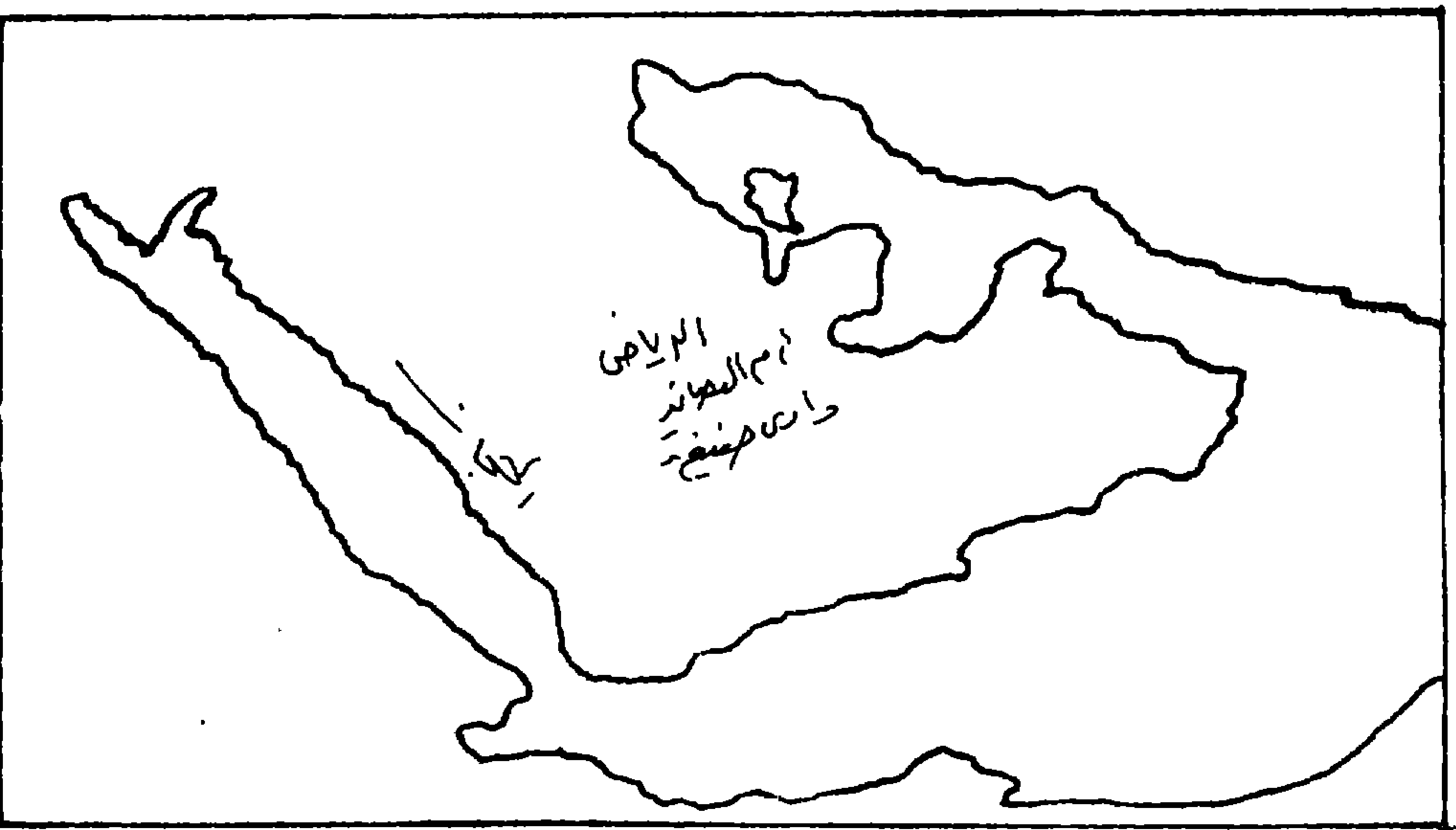
واتجه عبد العزيز الآن ناحية السدير ليهاجم مدينة جلاجل المهمة. فتمركزت المعركة حول أراضى « العميرى » شمال المدينة، ثم تقدم صوب « الروضة » فجمع قضاة المدينة وقضاة الحوطة والدخيلة ودعاهم لمرافقته إلى الدرعية ليبسط إلى الشيخ شكاواهم الروحية والزمنية، وفى طريقه مر بـ « العودة » فأخذ معه اثنين من زعمائها وهما : عثمان بن سعدون، ومنصور بن حماد ، رهائن لضمان سلامة أميرها عبد الله بن سلطان، وبعد أن أقاما فى الدرعية بضعة أيام، سمح لهما بالعودة إلى وطنهما بعد أن قطعا العهد بألا يحركا ساكناً ، ولكنهما ماكادا يصلان إلى بلدهما حتى قتلا الأمير وزعيمين آخرين، فاغتصب عثمان الإمارة وأعلن رفضه للمذهب الوهابى، ويبدو أن عثمان هذا تمكن من بسط سلطانه فى المدينة طوال عشر سنوات إلا أنه قتل فى نهايتها ، أما فى الروضة التى كانت (مع جلاجل) تعتبر المدينة الرئيسية فى السدير، فقد عزل

عمير بن جاسر أخاه الأمير فوزان بن ماضى الذى خلف عمه محمداً عند اغتياله سنة ١٧٤٥ ، وطرده من المدينة .

وفى سنة ١٧٥٧ - ١٧٥٨ قام عبد العزيز بالهجوم على ثرمدة، هدفه الأول. فنصب الكمين المعتاد فى وادى جمال تحت ستار الليل ، ودخل إلى مزارع النخيل القريبة، عن طريق ثغرة أحدثها فى السور،و بقى هناك مع قواته ينتظرون إطلاله الفجر، إلى أن عسس الليل سمعوا حركة غير عادية فأخبروا الأمير إبراهيم بن سليمان بذلك، فأعد العدة للقاء العدو عند الصباح، وقسم قواته إلى فريقين، فريق أرسله لمراقبه كل من يخرج من بين النخيل، والآخر ليهاجم العدو فيها ، ولكنه قُتل وابنه فى المعركة التى نشبت، وكانت خسائر الوهابيين فيها أعظم، إذ بلغت ثلاثين قتيلاً مقابل ثمانية قتلى خسرها المدافعون، وتقدم عبد العزيز بعدها نحو إقليم السدير، فأستولى على الحوطة والجنوبية بلا مقاومة .

وكانت الرياض هدَفه التالى، فهاجمها فى شهر رمضان ، فسقطت فى يده سنة ١٧٥٨. وقد نشبت المعركة فى مكان ما من واحة « أم العصافير » وكان بين القتلى تركى بن دواس، شقيق دُهام، وزعماء أخرون من الرياض .

وجاءت بعدها معركة « البُنيّة ... وفى أثناء عودته منها إلى بلاده، أصدر أوامره لبناء حصن الغزوانه فى وادى حنيفة، غربى الرياض لتكون نقطة انطلاق إلى المدينة وضواحيها ، فتم بناؤها فى سبعة أيام، غير أنه لم يقدر لمحمد بن سعود أن يحاصر المدينة ويشهد سقوط دهام خلال السبع سنوات التى عاشها .



معركة "البنية" التي سقطت على أثرها مدينة الرياض لأول مرة ١٧٥٨
في وادي أم الصوافة وهذه المعركة هي التي قتل فيها "تركي بن دواس" شقيق دهام.

وبدأ الاضراب يظهر في حريملة من جديد، حيث أخذ أميرها الجديد، مبارك بن عدوان يستعلي ويبدى ازدارءه لعناصر الوهابية بين السكان، ولما وصلت هذه الأخبار إلى الدرعية ظن القوم أن الأقليم ربما تخلى عن المذهب الجديد، فأصطحب عبد العزيز معه مبارك في حملة على الرياض. وعند الرجوع إلى الدرعية اقترح الشيخ ومحمد أن يبقى مبارك في ضيافتهما هناك لفترة من الزمن دون المساس بحقوقه في حريملة، وعينا ابن عمه حمد بن ناصر بن عدوان أميراً مكانه، فتظاهر مبارك بالموافقة على هذا الأقتراح، إذ وجد أن لا مندوحة له من إطاعة الأمر، وطلب بعد ذلك أن يسمح له بزيارة أخته في العيينة، وكانت أخته هذه زوجة حمد الطويل، ولكن مبارك نكث عهده وعاد إلى حريملة وأعلن توليه الإمارة بقرع الطبول في سوق المدينة، وسرعان ما انضم إليه أنصاره السابقون، أبن عيدان وكان الأمر في تلك الحال يتأثر بموقف آمر الحامية إلى درجة كبيرة، غير أن حسن أمرَ الحامية، قام فأغلق باب الحصن الرئيسي في المدينة بأسم الأمير الجديد، ثم هرب مع بعض من أبرز أنصاره إلى رغابة خوفاً من أن يعود عبد العزيز فيعيد النظام إلى المدينة، ولكن أمير رغابة على الجريسي ألقى القبض على أحد أنصاره وأعدمه .

أما مبارك نفسه فسار إلى المجمعة عن طريق قرية « الصفرا »، فتعهد حاكمها حمد بن عثمان وزعماء مدلج في حريمة أن يناصروه، وإنضم إلى الثوار، إبراهيم بن سليمان الثرمدى وجميع قرى الوشم فيما عدا الشقرا، وربما وقعت حادثة الرغابة هذه قبل الهجوم على ثرمدة في حزيران سنة ١٧٥٨ .

وأما القوات المتحالفة فتوجهت إلى موارد المياه قرب الفقير Fugair لمراقبة التطورات وإعداد خطط الهجوم ، ولكن أخبار وصول عبد العزيز بجيش قوى إلى حريملة اطفأ حماسهم فهاجموا ذلك القسم من رغابة المعروف بالجو Eljau، وحاصروا على الجريسى فى الحصن الكبير وقتلوا أحد زعماء العرينات المدعو راخى أبن لهثة بن عبيقة وقطعوا بعض النخيل، أماكنهم ولم يحولاو نجدة أميرهم المحصور، ولكن المحاصرين انسحبوا عندما جاءتهم أخبار حملة عبد العزيز وتفرقوا ذاهبين إلى منازلهم وتركوا ورائهم أصدقاءهم فى الحزْم يتعرضوا لوطأة هجوم القائد الوهابى الذى عمد إلى تدمير منازلهم، وإعطاء نخيلهم إلى الجريسى مكافأة له على ولائه .

وشهدت سنة ١٧٥٨ تحدياً خطيراً للدولة الوهابية على أيدى زعيم الإحساء عريعر بن دُجَيْن وعشائره من بنى خالد، وأنصاره فى عدد من مناطق نجد، وعلى الأخص فى الوشم والرياض والسدير والخرج، فاتخذ عريعر وجيشه القوى مركزهم فى جبيلة من وادى حنيفة، ولكن المتقاتلين لم يكسبوا شيئاً فانسحب الغزاه، أما سكان ثادق والمحمل الذين انضموا إلى الأعداء، فسارعوا لعقد الصلح مع الدرعية، وتعهدوا بدفع غرامة كبيرة لعدم ولائهم، وجددوا ولاءهم للدولة الوهابية، فأرسلت الدرعية سارى بن يحيى بن عبد الله بن سويلم إلى المنطقة ليؤكد الطاعة والإخلاص للحكومة المركزية، وعندها هاجم عبد العزيز قرية قصَب Qasab القريبة فأخضعها. وفرض عليها غرامة مقدارها ثلاثمائة قطعة ذهبية .

وفى خريف سنة ١٧٥٩ توجه نحو الخرج ليعاقبها على اشتراكها

فى الحركة وهاجم الدِّلَم ونَعْجانْ Na'jan ، فتكبد السكان بعض الأصابات ونُهبت ممتلكاتهم .

وأثناء عودته إلى بلاده، وجد عبدالعزيز نفسه مرة أخرى فى طريقه للحرب باتجاه ثرمدة وعشيقير، حيث كرر خططه المعهودة فى نصب الكمائن، فكان النجاح حليفه دائماً ، ومرة أخرى مرَّ بالخرج وهاجم المدلَّم ونعجان فاستولى على عدد كبير من الإبل وأوقع فيهم خسائر فادحة، وبذلك انتهت غاراته الموّفقة فى تلك السنة .

جاء دور العيينة كيما تشعر بقبضة الوهابيين الشديدة، وكان الشيخ ومحمد قد قررا أن يخلعا مشارى بن معمرٍ من الإمارة ويعينا مكانه سلطان بن محسن المعمرِّى، ولهذا توجه الشيخ إلى العيينة ليشرف بنفسه على تدمير قلعة العشيرة، وكان بالطبع يقصد من وراء ذلك أن يرمز إلى ضم إمارة العيينة إلى الدولة الوهابية، واسم الأمير الجديد لا يدل على أنه من عائلة معمرّ فربما كان عبداً أو تابعاً بارزاً .

وكان عبد العزيز آنذاك مشغولاً بحملاته العسكرية المعتادة، فهاجم منفوحة وأحرق مزروعاتها ، وغزا آل عسكر فى الثرمانية قرب رغابة ونهب مواشيهم. ثم غزا الوشم فالتقى بجماعة من محاربى ثرمدة، لكنهم هربوا أمام جيش يفوقهم عدداً وعدة، ولجأوا لى مزرعة الحريق قرب قصب، إلا أن عبد العزيز، تتبع أثرهم وطلب إليهم أن يستسلموا ، أما المزارعون الأباة فرفضوا أن يسلّموا ضيوفهم، واتفقوا أن يفتدوهم بمبلغ ألف وخمسمائة قطعة ذهبية .

وفى سنة ١٧٦٠ - ١٧٦١ تابع عبد العزيز غزواته لمناطق عدة، فغزا أولاً السدير وأشتبك مع جماعة من الروضة اشتباكاً قصيراً حامى الوطيس، ولكن بدون نتائج تذكر، وبعدها هاجم الرياض، فخرج فهد بن دواس جرحاً بليغاً. وتلا ذلك غزوة قام بها ضد منفوحة، وأخرى ضد بدو السبُّيع قرب آبار العتْك، فاستولى على ثمانية آلاف جمل من جمالهم وأسلاب أخرى، وقام بغزوة ثانية على الرياض، حيث تكبد الطرفان خسائر فادحة ولكن بدون نتائج تذكر، وبهذا انتهت غزواته لذلك الموسم .

وفى سنة ١٧٦١ أصيب مبارك بن عدوان، الحاكم السابق لحريملة، بالفالج. وفى الخريف استأنف عبد العزيز نشاطه العسكرى فقاد هجوماً على منفوحة، ومن ثم هاجم نعجان فى الخرج، فقطع بعض أشجار النخيل وأنزل بالمدافعين بعض الخسائر، وبعدها مباشرة هاجم الوشم ومرّة، والفارعة، حيث قررت هذه أن تنضم إلى مذهب الوهابية، فأرسلوا وفداً إلى الشيخ وإلى محمد يرأسه الأمير منصور ابن حمد بن إبراهيم بن حسين ليقدموا خضوعهم وولاءهم، وإثباتاً لإخلاصهم، قاموا بالهجوم على العشيقير، وقد استمر هذا طوال سبع سنوات تمكن منصور فى نهايتها من الاستيلاء على أبراج الدفاع فى الطرف الأقصى من الواحة المتاخمة للفارعة، فخضعت العشيقير للدولة الوهابية بعد قتال ضارٍ استمر فى فترات متقطعة، طوال عشرين عاماً .

وعادو عبد العزيز هجومه على الرياض فقُتل فى المعركة تسعون رجلاً من حراس ضاحية المقرَن، كما جُرح شعلان بن دواس،

وهو حـفـيـدٌ آخر لدواس. ثم اتجـه عـبـد العـزيز إلى الوشم وهاجم عشـيـقـير ليسـاعـد سكان الفـارعـة الذين بنوا حصناً عظيماً يسمى الحُلَيْلِيـةُ (بالإنفـاق مع سكان الشـقـرا المخلصين) ليـحـمـوا أنفسـهم ويهددوا الأعداء المهاجمين .

وكـانت الأمطار في مـوسم سنة ١٧٦١ - ١٧٦٢ غـزيرة جـداً والبلاد على العموم في حالة ممتازة، غير أن مرضاً يعرف بالدمغة (ربما كان هذا نوعاً من الأمراض المعروفة بحمى الواحدة وهو مرض يؤثر في الدماغ) انتشر في البلاد، وأهلك عدداً كبيراً من الناس، من ضمنهم شخصيات بارزة من العلماء. وزاد الطين بلّة أن رافقت الوباء غزوة للجراد، فأهلكت جزءاً كبيراً من المَحصولات الزراعية .

وعـاد عبـد العزيز فـافـتـتح موسم الفتوحـات في سنة ١٧٦٢ - ١٧٦٣ بالهـجـوم على الرياض، ولكن دون طائل، ثم توجـه إلى الإحسـاء ونصب خيامه جوار المطَيْرفَة فاستولى عل غنائم كثيرة وكبد العدو سبعين إصابة.، وبعد هجوم فاشل على مدينة المبرّز Mubartaz عـاد إلى بلاده، وفي طريقه التقى بقـافلة كبيرة في منطقـة العـرمـة، تحـمل ذخـائر جـاءت بهـا من السـاحل إلى سكان الرياض وحَرمـه، فـاسـتولى على بضائع الرياض، أمـا بضـائع أهل حرمة فلم يستولِ عليها، وكانت هناك هدنة بين حرمة والدرعية.

وفي هذا العـام ارتد سكان العُثَـيـثْيَّة في الوشم، عن المذهب الوهابي وهاجـمـوا أتبـاعـه في الأقليم، وكـان عـبـد العـزيز آنذاك مشغولاً بغزو السُّبيع قرب سَيْح الدُبُّل Saih al Dubul فلم يتخذ

أى إجراء مباشر لإخضاع المرتدين. إذ كان أهل الدرعية مهتمين بما هو أهم وأعظم من ذلك قرب ديارهم. وهو خضوع أمير الرياض القوى دهام بن دواس نتيجة لكلاله من الحرب الطويلة. وكان هذا هو الخضوع الثانى الذى يقوم به، فأرسل وفداً إلى الشيخ وإلى محمد ابن سعود مع ألفى قطعة من الذهب، يطلب الدخول فى المذهب الوهابى، واعداً بأن يحترم قادته ويقدم لهم الطاعة والولاء .

غير أن المؤرخ النجدى (ابن بشر) لا يكاد يأتى على ذكر هذا الحدث الهام أو يعلق عليه، ولربما كان مهتماً بنتائج إحدى حروب الوهابيين العظيمة الأثر، ألا وهى حملة عبد العزيز على جلاجل، إحدى مدن السدير الرئيسية، فبعد المناوشات المعتادة والإصابات البسيطة وقطع بعض أشجار النخيل، قرر سُوَيِّد زعيم جلاجل أن يدخل حظيرة الوهابيين. وقد حذت حذو جلاجل مدن أقليم السدير وقراه .

وبعد أن مر عبد العزيز برغابة، فى طريقه إلى بلاده، جاءته أخبار غزوة قام بها جماعة من العجمان على بدو السُّبيع فى الصحراء، إلى الغرب من سلسلة الطويق، وتغلب عليها، فما كان منه إلا أن تتبع أثر العجمان فى سهل هدبا قذلة، بين العارض ونفود السرًّ. فقتل منهم زهاء السبعين رجلاً، بالإضافة إلى مائة أسير وأربعين فرساً .

وفى شتاء ١٧٦٤ - ١٧٦٥ استأنف عبد العزيز غزواته مبتدئاً بغزوة عشيرة السُعيِّد Su'aiyid(من بنى ظافر) التى يتزعمها حمد المُديَهْم، وكان يرافقه فى هذه الغزوة جندٌ من الرياض تحت إمرة

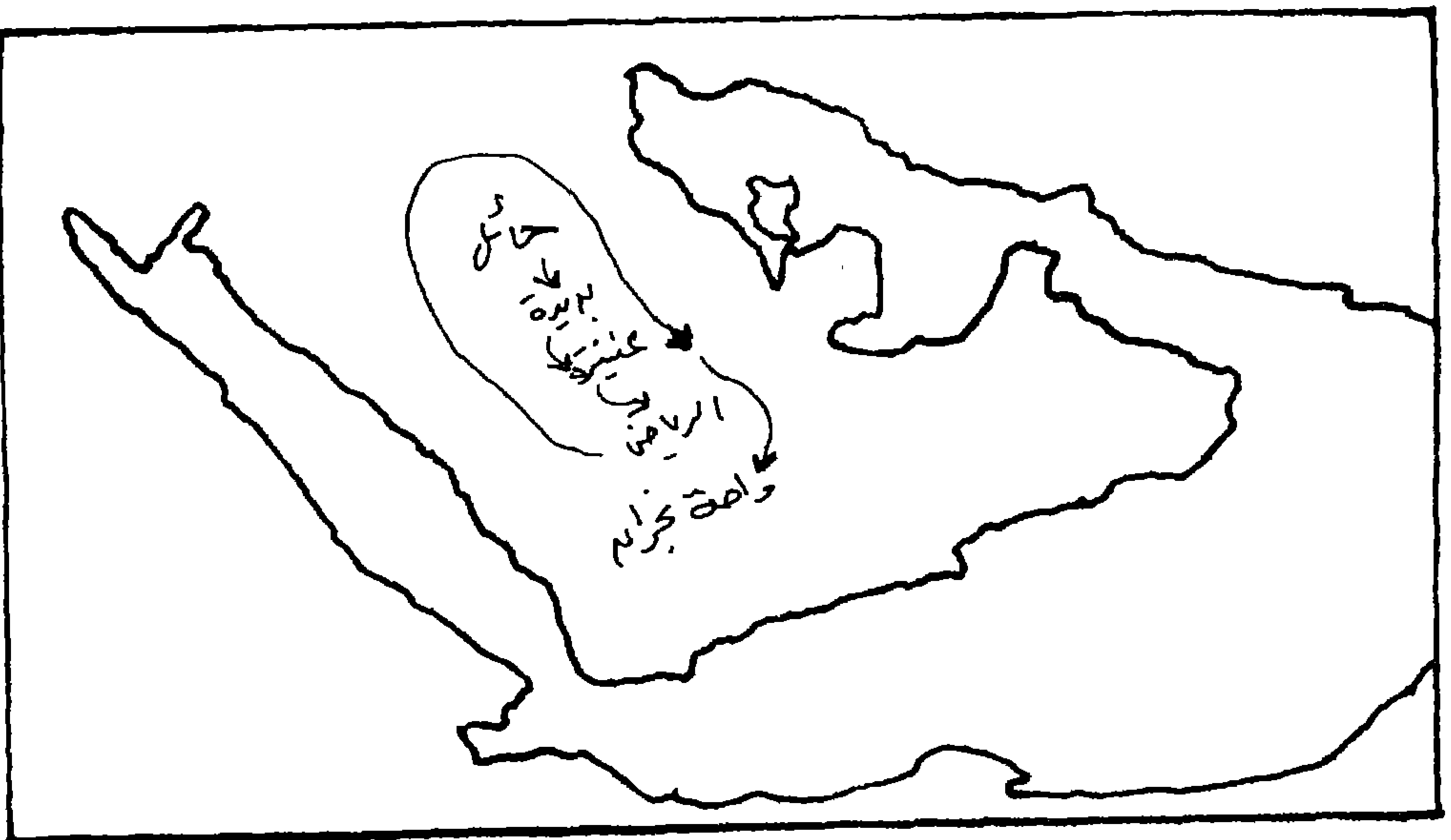
دواس بن دهام، فهاجم البدو عند جرَبْ Janab فهزمهم وقتل منهم ثلاثين رجلاً، واستولى على كل ما كانوا يملكون .

وفي تشرين من سنة ١٧٦٤ أخذ يفكر جدياً بتطوير خطير نتج عن تغلّبه على العجمان، إذ لجأ الذين نجوا من المعركة إلى نجران وأقنعوا عشائرها الشرسة الشديدة المراس، بأن تنضم إليهم في هجومهم المعاكس على الوهابيين لإنقاذ الأسرى من أقربائهم .

وكان أمير نجران آنذاك زعيم آل مكرمي، حسن بن هبة الله، الذي يمتد نفوذه إلى عشائر وائلة، ويام. فجمع عدداً منهم لمهاجمة الدرعية. ولدى وصولهم إلى قرية حاير السُّبيع وواحتها في وادي حنيفة ومباشرتهم في حصار القرويين هناك، وصلتهم الأخبار بأن عبد العزيز في طريقه اليهم ومعه جيش كبير من الوهابيين. فتأهب النجرانيون للقاء العدو، ونشبت بينهم معركة ضارية، انهزم فيها عبد العزيز هزيمة ساحقة، وفرّ الوهابيون تاركين وراءهم خمسمائة قتيل وعدداً كبيراً من الأسرى، وقيل : إن الدرعية وحدها فقدت سبعاً وسبعين قتيلاً بينما فقدت منفوحة سبعين قتيلاً والرياض خمسين، وخسرت عرقه ثلاثة وعشرين قتيلاً والعيينة ٢٨، وحريملة ١٦، وضرمه أربعة، وثادق قتيلاً واحداً، وكان باقي الإصابات موزعاً بين المجنّدين من البدو، أما مجموع الأسرى فقد بلغ مائتين وعشرين أسيراً ..

وعندما مثُل عبد العزيز مع من نجا من الدرعية أمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ونقل إليه أخبار الكارثة، ما كان منه إلا أن ردّد الآية الكريمة التي معناها :

﴿ ولا تفرحوا ولا تحزنوا فيسنصركم الله أن كنتم متقين ﴾ .



المعركة التي إنهزم فيها الوهابيون ١٧٦٤م هزيمة منكرة وخسروا تاركين ٥٠٠ قتيل

وكان النصر الساحق الذى حققه الخوارج المحتقرون من أهل نجران والإحساء على الوهابية - ضربة شديدة سُددت لمؤسسها، وكان له أعمق الأثر فى نفس الشيخ، فقد بقى شبح الكارثة يلازمه حتى آخر أيام حياته .

وكان رد الفعل لمواجهة هذا الوضع الخطير مثيراً وغريباً للغاية. فبدلاً من أن يعدّ الوهابيون العدة للثأر قرروا أن يفاوضوا المنتصرين الذين وصلوا إلى مشارف الرياض فى تقدّمهم نحو الدرعية. واستعدى الشيخ زعيم بنى ظافر، فيصل بن سهيل، ليكون وسيطاً. وجرت المفاوضات فى بستان المحطّة المشهور بنخيله، حيث كان حسن بن هبة الله قد نصب خيامه هناك، فاتفقوا على تبادل الأسرى ودفع التعويضات، ثم عاد زعيم نجران مباشرة إلى بلاده. ويظهر أنه تجاهل عرعر أمير بنى خالد الذى قد اتفق معه على أن يشترك الجيشان فى مهاجمة عاصمة الوهابيين .

وقد مرت فترة طويلة منذ انتهاء الحرب، واستعداد عريعر للاشتراك فى مهاجمة عاصمة الوهابيين، فرأى أن لا جدوى من تنفيذ الاتفاق وحده بدون حليفه الجنوبى. إلا أنه وصل بجيشه الكبير إلى مشارف الدرعية فقصفها بمدافعه فى فترات المناوشات التى حدثت بين مزارع النخيل خلال عمليات فاشلة استمرت ثلاثة أسابيع، ثم رحل عن الدرعية وتوجه إلى الإحساء مخلفاً وراءه أربعين قتيلاً مقابل الأثنى عشر قتيلاً فى جانب الدرعية .

وهكذا انتهت أخر معارك محمد بن سعود الذى لحق بأجداده سنة ١٧٦٥ فدفن فى مقبرة الدرعية بعد عمر مديد ملئ بالأمجاد،

وكان شعبه يذكره دائماً بما كان يتحلى به من إنسانية وتقوى أكثر من شجاعته واقدامه فى الحروب. وفى الواقع كان الهجوم الوحيد الذى اشترك فيه هو غزوة الرياض سنة ١٧٥٠ ، أمابعد ذلك فقد ترك القيادة لأمراء العيينة عثمان ومشارى، ومن بعدهم لابنه ووريثة عبد العزيز، وشهد مرتين فى حياته استسلام الد أعدائه فى الرياض، دهام. ومات قرير العين مطمئناً إلى أن أعظم مهمة فى حياته قد سوِّيت إلى الأبد . فقد ثار دهام هذا مرة أخرى ولآخر مرة على الدرعية بعد وفاته، وكانت هزيمة نَجرأن لجيشه أعظم ضربة تلقَّاها فى حياته الحافلة بجلائل الأعمال. وربما لقى وجه ربه وهو ما يزال قلقاً على مستقبل دولته، وإن كان الانتصار التالى على بنى خالد قد شدد من إيمانه وثقته بقدرة دولته العسكرية. وقد كان له وحده الفضل كل الفضل فى تثبيت أقدام نظامه الجديد وانتشار مذهبه الذى أسبغ عليه وعلى خلفائه من بعده الجاه العريض والشهرة الواسعة. فلولاه لما كان للوهابية كيانها. ذلك أنه هو الذى أعد العدة لمرحلة الإصلاح الإسلامى الجديد .

الفصل الثالث

عبد العزيز الأول بن سعود

لم يكن إمام الدرعية الجديدة غريباً عن المسؤوليات الادارية والحربية التى انيطت به موت والده. فقد اكتسب شهرته العسكرية الأولى فى حملتين ضد دهام بن دواس فى الرياض، وتحت إمرة عمه (حميه) أمير العيينة، عثمان بن معمر، سنة ١٧٤٨ . تلك السنة التى ولد ابنه البكر وخليفته العتيد، سعود.

أما شقيقه عبد الله بن محمد، فقد قاد سنة ١٧٤٦ جيشاً لنجدة منفوحة، التى هاجمها دهام هجوماً شديداً ثم انسحب، بعد أن جرح مرتين وقتلت فرسه تحته. وكان هذا أول اشتباك بين الدرعية والرياض، منذ ظهور المذهب الوهابى فى السنة السابقة، وبداية الصراع الطويل بين الدول المتنافسة. ولم يكن هذا الصراع قد انتهى يوم تولى عبد العزيز عرش الدرعية سنة ١٧٦٥ .

وصدف ان نشأ شئ من البرود، بينه وبين حميه، خلال الحملة التى قادها عثمان ضد ثرمدة سنة ١٧٤٨ ، هذه الحملة التى أوقفها عثمان بالرغم من احتجاج عبد العزيز، وفى ظروف أدت الى الارتباط فى قضية اعتناقه للمذهب الوهابى.

وقد وصلت هذه الشكوك الى أوجها عندما قتل عثمان سنة ١٧٥٠ ، وهو يصلى فى جامع العيينة الكبير يوم الجمعة على يد أحد ضباطه الذين كان يثق فيهم.

ومنذ ذلك الحين ظل عبد العزيز منهمكاً في نشاط عسكرى هنا وهناك، وبشكل خاص ضد أمير الرياض. وبعد هذا بقليل، ترك محمد المتقدم في السن، قيادة الوهابيين إلى عبد العزيز. ولقد طلب دهام أكثر من مرة الصلح، بعد هجمات الوهابيين الضارية. وأخل مراراً وتكراراً بشروط الهدنة التي عقدت بقبوله المؤقت للمذهبالوهابي.

وجدير بالذكر انه اختار العام الذى تولى فيه عبد العزيز العرش، ليحطم نير الدرعية مرة اخرى. فاستأنف القتال بهجوم على منفوحة، بالاشتراك مع زيد ابن زامل حاكم الدلم والخرج. فهاجم عبد العزيز الرياض، وثبت أقدامه في بعض حصونها. الا انه عاد فتراجع بعد هجوم معاكس ضار. وغزا عبد الله بن محمد قبيلة السبيع حليفة دهام، إلا انها ردت على أعقابها دون عناء كبير من جانب أهل المدينة.

وهكذا امتد النزاع، مع ما رافقه من مناوشات استطلاعية لا أهمية لها، جرت في فترات متقطعة، من مثل هجمات الدرعية على حلفاء دهام من بدو صحراء العرمة، وأحلافه في واحة حاير - السبيع، وعلى منفوحة في وادى حنيفة. وفي سنة ١٧٧١شنت الدرعية هجوماً شديداً على قرية حاير، وحاصرتها فاستسلمت، وأقسمت على الولاء لزعيم الدرعية. ولكن هذا لم يدم طويلاً، مثله مثل باقى الاتفاقات السياسية في ذلك الزمن. فقد كان ما أسهل نقضها تبعاً للقوة.

ولكن الأمور ساءت كثيراً في خريف السنة ذاتها، فبعد هجوم

قصير على الرياض وصل عبد العزيز الى قرية عرقة فى طريقه للقيام بهجوم آخر، واذا برجال كشافته ينقلون اليه أن خصمه دهام يقترب مع خيالته وهجانته لمهاجمة القرية. ولكن دهام تقهقر لدى رؤيته جيش الدرعية. فطارد عبد العزيز قواته المتراجعة مطاردة شديدة فى الصحراء. وقد وقع اثنان من ابناء زعيم الرياض، دواس وسعدون، فى الشرك وقتلا مع عدد من اتباعهما قرب بئر الفوارة. وكان هذا الحادث ضربة سددت لعزة دهام وثقته بنفسه.

وحين استأنف عبد العزيز حملاته الاستطلاعية مرة آخرى سنة ١٧٧٣، وصل مرة أخرى الى عرقة فى محاولته الثانية، إذ بلغ سمعه أخبار هرب العدو من الرياض. فزاد من سرعة سيره، ووصل المدينة عند الظهيرة، فوجدها خالية من سكنها. لقد هرب دهام بن دواس مع النساء والاطفال والخدم! وكان قد وضع خطته هذه سراً وخاطب سكانها الرياض بقوله :

«يا أبناء الرياض لقد حاربت ابن سعود طوال هذه السنين وقد أصبحت الآن منهوك القوى من الحرب. فليلحق بى من يريد، اما الذين لا يريدون فليبقوا فى المدينة»

وقد هرب معظم السكان معه الى(الخرج) فى منتصف فصلى الصيف الشديد الحرارة، وكان ذلك فى شهر حزيران، فمات كثيرون منهم من شدة الجوع والعطش.

أما عبد العزيز فاحتل المدينة المهجورة وختم أبواب جميع البيوت لئلا تسرق محتوياتها، ثم أرسل جيشه فى اثر الهاربين قاتلاً المبطئين منهم وناهباً اموالهم.

وهكذا انتهى القتال الذى استمر زهاء السبعة والعشرين عاماً. وتقدر خسائر الجانبين فيه باربعة آلاف قتيل من الطرفين، كانت خسائر دهام منها ٢٣٠٠ قتيل.

ولا يزال الناس فى نجد يذكرون هرب دهام بالسخرية كلما قام شخص عندهم بعمل يدل على الحمق.

ولكننا لانملك الا القول بانه كان رجلاً بطلاً حارب بعزم فى سبيل حرية العرب يوم حاول خصومه فى الدرعية ان يضعوانير الحرب فى أعناق اولئك الوثنيين اليابسه المتصلبة. لقد حارب فى سبيل قضية خاسرة. وربما كان انهيار دفاعه المفاجئ يعود لفقده ولديه اثناء هزيمته فى السنة السابقة. فقد كان لهذا الحادث اعمق الاثر فى نفس رجل أنهكته الحروب التى خاضها طوال حياته.

كان قد مضى ثمانى سنوات على ارتقاء عبد العزيز العرش فى الدرعية التى كانت اولى قريناتها من المدن المستقلة فى الجزيرة العربية، ولم تحدث تطورات ذات بال خلال هذه السنوات فيما عدا حربه ضد دهام. فهاجم الآن ثرمدة، سنة ١٧٧٦ ، وانتصر فى معركة الصحن انتصاراً قليل الاهمية.

وفى السنة التالية قام بعدد من الغزوات، أهمها تلك التى وجهها الى واحة العواد ، تحت إمرة ابن اخت الشيخ محمد واسمه هذلول بن فيصل. وكان والده قد قتل فى المعارك التى نشبت ضد دهام سنة ١٧٤٧ . ولقد كان يصحبه فى هذه الغزوة سعدون، الابن الاكبر لعبد العزيز، ويبلغ الثالثة عشر من عمره، فكان هذا اول تجربة له

بحياة المعسكرات. وصاحب هذه الحملة طرد بعض العائلات التى كانت تحكم العواد فى السابق، لأنها طالبت بالزعامة لرئيسها منصور بن عبد الله بن حمد، وتغلبت على حاكم القرية فقتلته ونصبت مكانه منصوراً.

وفى هذه السنة انضم اقليما السدير والوشم الى الدولة الوهابية، وتعاهدا على الإخلاص والولاء لعبد العزيز والشيخ محمد بن عبد الوهاب. وكان الاخير اعتباراً من بداية حركته يعرف بنائب الملك. وقيل بان عبد العزيزكأبيه، لم يقم باى مشروع، دون استشارة الشيخ.

وعلى كل حال فقد نجحت الدولة الوهابية كثيراً بانضمام هذين الاقليمين وبتحالفها مع العيينة ومنفوحة، فى مشروعها التوسعى. فوصلت فى خلال ثلاثين عاماً الى اكثر مما كان يحلم به الأمير والإمام اللذان اشتركا فى خلقها. وكان جل اهتمام الدولة الوهابية فى هذا الوقت ينحصر فى محاربة نتائج المجاعة التى عرفت باسم «السوقة» لدى مؤرخى تلك الأقاليم. لقد جفت الآبار ونضبت مياهها فارتفعت تكاليف المعيشة، بينما مات الكثيرون من الجوع والمرض. فهاجر الناس من نجد الى البصرة والزبير والكويت خلال ذلك العام والاعوام التى تليه وبعدها نزلت الأمطار الغزيزة : الا أن ظهور اسراب الجراد حال دون حصاد الدخن ومحاصيل العلف.

وفى سنة ١٧٦٨ عرف سعود لأول مرة فى حياته القيادة المستقلة فى حملتين. فسارت الأولى منهما سيراً حسناً ضد زلفى المتاخمة لاقليم القصيم المهم، وسارت الثانية ضد آل مُرّة . وقد كانت

فى البداية حسنة ولكنها انتهت بتقهقر جيش سعود عندما تقاطرت النجدات لمساعدة خصومه. ومنى جيش سعود ببعض الإصابات، منها موت ناصر بن عثمان بن معمر الذى كان سيصبح زعيماً للعيينة، خلفاً لسلطان بن معمر، قبل بضعة سنوات. ولكننا لا نعرف شيئاً عن أسباب التغير.

بعد هذه النكسة دعا حمود الدرينى حاكم بريدة سعوداً ليتدخل فيحل الخلافات فى القصيم.. وكان بين حمود هذا وبين قبائل عنزة ثأر. فنشبت المعركة التالية خارج أبواب الأخيرة، بخسائر طفيفة فى الجانبين، وكان بين قتلى عنيزة عبد الله بن حمد بن زامل، الذى كان فيما يبدو حاكم المدينة فى تلك الآونة.

وفى السنة التالية قاد عبد العزيز بنفسه حملات ضد المجمعة والهلالية الواقعة الى الغرب من عنيزة فخضع أهل القصيم للدولة الوهابية. ولكن هذا لم يحل دون المؤمرات والمكائد فى الاقليم. فقد طرد رشيد الدريبى أمير بريدة الجديد من المدينة على يد عائلة عليان أثناء ما كان عبد العزيز منهمكاً فى غزوته الأولى ضمن حدود الجزيرة، وهدفه بنو ظافر وبدو المحمرة النازلون على الحدود العراقية.

اما فى الجانب الآخر من الجزيرة العربية فقد كان على اتصال بشريف مكة احمد بن سعيد. وتلبية لطلبه أرسل سعود فقيهاً من عنده اسمه عبد العزيز بن عبد الله بن حسين ليوضح له ولعلماء المدينة المقدسة مبادئ العقيدة الوهابية، ولدى وصول الفقيه الى مكة تبدل حاكم مكة اذ عزل أحمد على أيدى أفراد عائلته، ونُصب

عـوضـاً عنه ابـن أخيـه سرور بن مـسـاعـد، ولا ضـرورة للبـحث في تفاصـيل المجالس الذى أعلن فـيه شيوخ مكة رضاهم التام عن زيارة الفقية وتوضيحه الفذ للقضية الوهابية.

وما كان عبد العزيز يفرغ من الكفاح الطويل ضد دهام حتى واجهه خطر أعظم وأخطر من جهة الشرق. وربما كان هذا ناتجاً عن تغلغله في المناطق المتاخمة للعراق. ففي خلال ربيع سنة ١٧٧٤ تقدم عريعر بن دجين، أمير الاحساء وزعيم قبائل بنى خالد، نحو القصيم ليهاجم بريدة. فاحتلها بعد هجوم صاعق وحصار قصير، ودمرها قبل ان يسحب جيشه الى وادى ريمة قرب الخابية والنبعية. وهنا وصلته رسائل عديدة مشجعة من مناطق مختلفة في نجد، أبدى فيها مرسلوها تأثُّرهم البالغ لا حتلال بريدة. وكان يعد حملة على الدرعية نفسها والمناطق المجاورة عندما مرض فجأة وتوفى في أيار بعد شهر من انسحابه من بريدة.

وقد خلفه ابنه الأكبر بطين. فوزع الأسلاب على الجيش، الا انه لم يتمكن من السيطرة على الجند لتحقيق أهداف والده. ونتيجة لذلك، عاد الى الاحساء. وهناك ثار عليه أخوه دُجينُ وسعدون، وخنقاه في بيته. فخلفه دُجين، ولكنه توفى بعد ذلك بفترة وجيزة. ويعتقد أن أخاه سعدون سمَّمَه ليخلفه في إمارات الاحساء وزعامة العشيرة.

وفي هذه الاثناء كان سعدون بن عبد العزيز يقوم بغاراته أولا على الخرج، ثم على زلفى. غير أنه لم يلق نجاحاً كبيراً. وإن كان هناك دليل على انتشار التعاليم الوهابية بين كلا الجانبين. فها هم

سكان مناطق حارق النعام، والمجمعة يرسلون وفوداً ليعلنوا ولاءهم للنظام الجديد. ولكن سكان الخرج لم يبدوا ميلا للانضمام اليه.

وبعد زيارة ثانية قام بها عبد العزيز نفسه، فى أوائل سنة ١٧٧٥، تآمر زيد بن زامل الدلمى بالاشتراك مع زعيم وادى الدواسر حويل الوداعين وزعماء المنطقة الآخرين، ليطلبوا مساعدة نجران فى رفع اعتداء الدرعية. وقد جمعوا من أجل هذه الغاية مبالغ طائلة من المال ليوزعوها على الزعماء المقصودين. وفى الوقت الملائم تجمع جيش كبير قوى يشتمل على عناصر من الواحة الكبيرة وقبائل يام، وتوجه نحو العارض.

ووصل الحلفاء الى حاير السبيع بعد ان انضم اليهم فى الطريق سكان الدواسر والخرج، فأحدثوا تلفاً كبيراً فى مزارع النخيل وقتلوا قرابة الاربعين رجلاً من المدافعين، فى معارك عدة قبل ان يواصلوا السير الى ضرمة. ولكنهم واجهوا هناك مقاومة ضارية، ومنوا بخسائر فادحة فى القتال الذى دارت رحاه بين أشجار النخيل حتى أخرجوا منها فى الحال.

ومن ثم قرر الحلفاء أن يواقفوا الحملة، ويعودوا الى بلادهم بينما ظل زيد بن مشارى عرضة للهجوم، فعقد الصلح مع الدرعية ودخل الحظيرة الوهابية. وكان سعود فى ذلك الوقت يقوم بتجهيز حملة ضد بريدة فأكرهها على الاستسلام وقبول عبد الله بن حسن العليان أميراً جديداً عليها بدلاً من رشيد الدرينى الذى طرد من قبل من المدينة ولكنه عاد واستولى على الحكم فيما بعد.

وفى سنة ١٧٧٦ حاول سكان الاحساء، بقيادة أهل الهفوف، أن يحطموا نير بنى خالد وزعيمهم سعدون، ولكنهم فشلوا. وكان مذهب الوهابية قد قوى واشتد بانضمام سكان زلفى ومنيخ (المجمعة)، وان كان زعيم الدلم ارتد وندم على عمله السابق وقتل أشد دعاة المذهب الجديد حماساً. فتقام عبد العزيز فى الحال ليعالج الوضع فهرب زيد، ولكنه عفا عنه فيما بعد عندما أعلن زيد خضوعه الا انه لم يتول الامارات، التى آلت الى سليمان بن عفيصان. أما مدينة اليمامة المجاورة فقد أعلنت هى أيضاً اعتناقها المذهب الوهابى إن كان زعماؤها قد اتصلوا سراً بعناصر ساخطة من الدلم لمقاومة النظام الجديد. وكان زيد بن زامل هو قائد هذه الحلقة المتآمرة التى أجبرت ابن عفيصان على الانسحاب من الدلم مع حاميتها الموالية له.

وعاد زيد فتولى الامارة، ووضع بالاشتراك مع حسين البجادى- زعيم اليمامة، الخطط للثورة العامة فى الاقليم اثناء غياب عبد العزيز لانشغاله بغزو آل مرة ثانية. وهناك استولى عبد العزيز على عدد كبير من الجمال فى مراعيها، غير ان البدو الذين تجمعوا ليطردوا الغزاة أجبروه على التراجع الى بوغاز العقبة الضيق فى هضاب محيرق الصفا، حيث تكبد الوهابيون خسائر فادحة فى الرجال والجمال. وكان من جملة القتلى أمير بريدة عبد الله بن حسن العليان.

وأصبح من الواجب على عبد العزيز الآن ان يعالج اضطرابات الخرج، فأرسل سعوداً الى الاقليم كى يقوم باستقصاء أخبار الوضع

فى منطقة اليمامة . حيث واجه الجيوش المحلية العائدة من غزوة(أو من رحلة استطلاعية) ، فنشبت معركة حامية فى قناة الصهباء انسحب على أثرها كلا الطرفين عائداً الى بلاده.

وعندئذ اضطر عبد العزيز لأن يدعو إلى تعبئة جيشه، محاولة منه للقضاء على مشكلة الخرج نهائياً. وما كادت الحملة ان تبدأ حتى احتج أمير حرما عثمان المدلجى وقال بأن مقاطعته أحوج من منطقة الخرج الى درس مفيد. لأن شعبها قد خرج عن طاعته وأخذ يعلن استهزاءه بمبادئ الدين الجديد، حتى أنه لم يعد فى مركز يمكنه من ممارسة مسؤولياته كحاكم. وتوسل إلى الدرعية برهائن تضمن حسن سلوك السكان. فقبل عبد العزيز طلبه وأرسل أخاه عبد الله بن محمد ليحسم الوضع المضطرب. وقد سلك عبد الله بجيشه طريقاً عبر ممر الحيسية وسهل حمادة ليحمل الناس على الاعتقاد بأنه ذاهب الى القصيم. ثم عاد وانحرف راجعاً عبر جرف الغات الى الهضبة. وبلغ هدفه تحت ستار الليل، ليقوم بالاستعدادات الضروريه، فى داخل المدينة وخارجها ، للهجوم عند حلول الفجر.

كان السكان فى هذه الأثناء يرقدون ملء أعينهم عندما أيقظهم نار كثيفة أطلقها كل من كان يحمل السلاح من المهاجمين، ولم يكن هناك مجال للمقارمة ولا خوف عليهم، وأعلمهم أن أميرهم قد شكا الى الإمام ثورتهم على الدين الحنيف. ولذا فإنه رأى من المناسب ان يقوم بزيارتهم، ويطلب أربعة من زعمائهم التوجه معه الى الدرعية ليبقوا هناك، كضمان لمسلك السكان، وأكد انه إذا

اطلق الأربعة، ومن ضمنهم شقيق عثمان، فسينتهى كل شئ بسلام، ومن ثم ترجع الحملة.

وهكذا تم كل شئ دون ايه إصابة، وبايع السكان على الولاء مرة أخرى للدولة الوهابية، كما رافق الزعماء الأربعة عبد الله الى الدرعية، ليحلوا ضيوفاً على الإمام، بينما كان الأخير يستعد لاستئناف عملياته الحربية ضد أهل الخرج.

ومرة أخرى وكل الى عبد الله أمر هؤلاء. ولكنه يظهر انه لم يقم بأكثر من مناوشات بسيطة.

ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى بدأ التمرد يظهر فى حرمة، فقد تآمر زعماؤها مع حمد بن عثمان التويجرى على اغتيال أميرهم عثمان بن عبد الله، ثم يلقون القبض على أصدقائه علماء المجمعة، الذين كانوا ضيوفاً عليه، فيبقونهم رهائن مقابل رهائنهم فى الدرعية. أما القسم الأول من الخطة فقد سار سيراً حسناً: حضر الضيوف ودخلوا الى قاعة الضيوف بينما طلبوا حضور عثمان، الذى كان غائباً فى مزارع تخيله. وفى طريقه الى المنزل غدر به أخوه خضير وقتله. ثم أسرع ابن عمه عثمان ابن ابراهيم فى إلقاء القبض على الضيوف، وربط أرجلهم بالمقطرة (حبل الدواب) وأغلق باب غرفة الضيوف عليهم .

ولكن القسم الثانى من الخطة المتضمن احتلال المجمعة باتفاق سرى مع أميرها فشل لحادثة غريبة. فعندما وصلت القوة المرسلة من حرمة الى المجمعة كان الأمير المجرم واقفاً آنذاك خارج بوابة قلعته

مع عدد من وجهاء السكان الوهابيين. فما كان منهم إلا ان اندفعواداخل الحصن مع الأمير لدى رؤيتهم القوة المسلحة واغلقوا الباب. وفي هذه الظروف لم يستطع الأمير أن يستجيب الى نداء أصدقائه من الخارج. فاستعد السكان للقتال. أما الغزة فعادوا الى بلادهم يجرون اذيال الفشل.

وحمل ابن الأمير الأخبار الى الدرعية، فقدم سعود ليعالج الوضع. واستسلمت حرمة بعد حصار دام بضعة ايام وتعهدت، بعد قتال غير منظم، ان تسلم اسرى المجمعة. بينما وعد سعود بأن يطلق سراح الرهاءن الموجودين لديه في الدرعية .

ثم استدعى أمير المجمعة وجلاجل اللذين كانا موضع ريبة باشتراكهم في المؤامرة، وطردهم من منازلهم في الاقليم مع عائلاتهم ومتاعهم الى قصب والشقرا على التوالى. الا انه رأى من المناسب نقل سويد أمير على جلاجل المعزول الى الدرعية. وعينَّ ناصر بن ابراهيم شقيق أحد قتلة عثمان أميراً على حرمة بينما وضع الاقليم كله(مع المجمعة وحرمة) تحت امرة عبد الله بن جلاجل. وهو فيما يبدو احد أثرياء سويد، وكان مركزه في جلاجل نفسها.

وبعد كل ذلك عاد سعود الى بلاده. ومرة اخرى تفرغ عبد العزيز لمعالجة الوضع في الخرج. فتقدم بنفسه الى الدلم، وزيد بن زامل غائب في اليمامة. وكان الهجوم شديداً في ضواحي المدينة نفسها . وقد جمع زيد جيشاً لنجدة مواطنيه، ولكنه تعذر عليه الوصول الى المدينة بسبب المعركة، فقام بمهاجمة معسكرالوهابين. وكان فيه عبد العزيز مع المتاع والجمال.

والواقع أن الوهابيين قاوموا بشدة وعنف. غيرانهم خسروا ما يقرب من العشرين قتيلاً قبل ان يعلم الجيش الرئيسى الذى كان يهاجم المدينة، وعند ذلك سحب عبد العزيز قواته الى واحة نعجان المجاورة، قاطعاً اشجار النخيل ومدمراً المزروعات فى طريقه قبل ان يعود فاشلاً الى الدرعية.

وفى ربيع السنه التالية(١٧٧٨) جاء سعدون بن عريعر، امير الاحساء، الى الخرج، للمفاوضة حول عقد تحالف مع زيد بن زامل وحلفائه ضد الدولة الوهابية. ولسبب غريب مجهول، قرر الرجل ان يتفاهم مع عبد العزيز، فقبل بان تعقد بينهما معاهدة للصلح. غير انه لم يتم الاجتماع بين الزعيمين المتنافسين، وإن كان سعدون مر «بنبان» فى طريقه الى بئر المبيض، قرب سلسلة جبال المجزل.

وسواء كان عمله هذا خرقاً للسلام أم لا، فانه يدل على ان سعدون كان ثائراً يتوقع هجوماً من الدرعية. ولذاقرر العودة الى الأحساء بسرعة فى وقدة حزيران وتموز، فخسر الكثير من غنمه وجماله. وفى اوائل السنة التالية(١٧٧٩) أخذ سعدون يتآمر مع سكان حرمة وزلفى للهجوم على المجمعة. مركزا الحماس الوهابى. وكانت حاميتها من الجيش الوهابى. وأخذ سكان حرمة زمام المبادرة فاحتلوا الحصون المحيطة بمزارع النخيل الواسعة. ثم جاءت قوة زلفى الرئيسية لنجدتهم، وبعدها بقليل، وصل سعدون على رأس جيش قوى.

أما سكان المجمعة، فقد أغلقوا عليهم أبواب المدينة، وأخذوا يستعدون للحصار. بينما كان العدو طليقا فى المزارع، يقطعون

الأشجار ويرعون ابلهم وأغنامهم فى الزرع. كان أمل المدينه الوحيد ان تأتيها نجدة من الدرعية. الا انها أرسلت رسالة الى سعدون تقترح فيها عقد هدنة حتى تتم المفاوضات لعقد الصلح والاستسلام. وانتشر خبر وصول حسن بن مشارى بن سعود على رأس جيش وهابى الى جلاجل عاصمة الإقليم لانقاذ المجمعة. وبعث حسن قوة صغيرة لتحاول الدخول الى المدينة من خلال خطوط العدو وتحت ستار الظلام. ويبدو ان هذه القوة دخلت دون ان يلحظها احد، اذ القى السكان الى افرادها بالحبال من على اسوار المدينة ليمكنوهم من الدخول. فتسرب اليأس الى قلوب المحاصرين. وكان بدو بنى خالد اول من تخلوا عن الخطة، فقد كانوا متعبين من توقف الاعمال الحربية وعدم وجود مراع لجمالهم. ثم تبعتهم فرقة زلفى وعادت الى بلادها تاركة حرمة وحدها تقوم بمحاربة جارتها.

وكان عبد العزيز، سابقاً، وقد ارسل اخاه عبد الله لانقاذ المجمعة. فانضم اليه سعود مع قوة كبيرة من الجيش لحصار حرمة. ودارت الدائرة الآن على المعتدين، فهو جموا هجوماً شديداً اياماً متتالية حتى اضطروا لأن يتراجعوا الى حصنهم يائسين. وعندما طلبوا الصلح اصر سعود على طرد أشتركوا فى الإخلال بالسلام وأن تكون جمع مزارع النخيل ملكاً للخزينة. وبعد ان عقد الصلح على هذه الشروط كتب سعود الى والده يعلمه بالنجاح، فكتب اليه أبوه أن يدمر المدينة لأن سكانها ظلوا على الدوام يعكرون السلام. فهدم سعود سور المدينة ودمر كثيراً من بيوتها، ونفى أهلها. وقد ذهب معظمهم الى الزبير بينما أستقر آخرون فى المجمعة.

وبعد هذه الاحداث مباشرة جهز الوهابيون حملتين ضد زلفى تحت امرة سعود بن عبد الله، وعبد الله بن محمد، بغية الاقتصاص منها لمساهمتها فى الاضطرابات. ولدى وصول عبد الله الى الرغابة(فى طريقه الى بلاده) سمح لقوات الوشم والسدير بالسفر الى بلادهما. حتى اذا ما وصلت بقية الجيش الى حفار العتك هاجمها سعدون ابن عريعر على رأس جيش كبير من بنى خالد. فغلب الجيش الوهابى المنهوك القوى على امره، ومنى بإصابات فادحة. وكان من جملتها موت قواد قوات الوشم والسدير الذين بقوا مع عبد الله لزيارة الامام. أما عبد الله، فكان بين القلائل الذين تمكنوا من قوات ضرمى تخيم على نفس البئر. فدحرت فرسانه وفرقتهم، ووقع سعدون بن خالد فى أيدى العدو فافتداه اصحابه بثلاثة آلاف قطعة ذهبية.

ثم تواجه أهل السبيع لغزو بنى ظافر، وعسكرت قواتهم عند صفوان على الحدود العراقية واستاقوا أربعة آلاف من جمالهم. وفى هذه الاثناء كانت الفرقة الوهابية قد عادت لتهاجم الخرج، فتوغلت حتى وصلت الحوطة. ومن ثم هاجمت زلفى ايضاً، فأبدت خضوعها للحكم الوهابى الذى اصبح متمركزاً من القصيم شمالاً الى الخرج جنوباً، ومن الدهناء فى الشرق الى بلاد عتيبة وحرب فى الغرب. وكانت حرب هذه شكلياً تحت حكم شرفاء مكة وان ظلت القبائل نفسهامستقلة.

ان استمرار اعتناق المذهب الوهابى والارتداد عنه خلال هذه السنوات ليعكس روح العصر بين الحضر والبدو على السواء .. لقد

كـان نفـور العـرب من أى شكـل من أشكال الـنظام أو الخـضـوع فى صراع متزايد مع الحركة الروحية المؤسسة على مبادئ السلطة. تلك المبادئ التى كانت تعتبر مشروعة وان كانت الغالبية تخل بها بدلاً من ان تحترمها. وقد أدرك محمد بن عبد الوهاب منذ البداية بان الحاجة ماسة الى قوة ساحقة لنشر كلمة الله والتغلب على عادات عرب الصحراء النصف الوثنية.

وكانت نقطة الضعف الرئيسية فى المعركة هى ان البدو كانوا يدركون معانى هذه الرسالة الروحية، ولكنهم على استعداد تام لأن يسهموا فى مشروع يدر عليهم الغنائم. هذا فى البادية. أما فى الحضر، بين أهل المدن والقرى فكانت المنازعات المحلية هى العامل المؤثر فى اعتناق المذهب الوهابى أو رفضه. وفى تلك العهود وما رافقها من تطورات سياسية، لايمكن للمرء أن يلمس أى معنى من معانى الاخوة الانسانية التى كانت تنصبح حجر الزاوية فى حركة الاخوان فى القرن العشرين.

وكانت سنة ١٧٨١ سنة اضطراب وعدم اسقرار فى مناطق واسعة، تمتد من فاره Fara الى العشائر المتاخمة للعراق. وكان اهتمام الأمير الوهابى موجهاً الى الخرج، والى توسيع نطاق غزواته حتى تصل الى مناطق الحوطة والحارق. وبعد أن هاجم سعود الدلم توجه الى الشرق حيث بنى البدع حصن قرب السليمية، ووضع فيه حامية بقيادة محمد بن غشيان ليراقب حركات زعيم اليمامة حسن بن رشيد البجادى الذى توفى فى تلك السنة بينما قتل أخوه فى المناوشات التى جرت حول المدينة. ولجأ سكان الدلم الى سعدون بن عريعر

يطلبون المساعدة لإخضاع هذا الحصن الوهابي. فصد الحصن هجمتين قاموا بهما عليه. أما سعدون فقد انطلق بحثاً عن المراعي في الشمال. وأما عبد العزيز، الذي كان يقود غزوة على الحوطة- حيث نجح بعض النجاح ودمر مزاع النخيل- فهاجم الدلم ليفعل بها مافعله في الحوطة. وانتقل ثقل المعركة الى الشمال حيث اغار سعدون وحلفاؤه من قبائل عنزة(عشيرة حيلان) على الدهامشة تحت امرة مجلاد بن فواز، بينما تقدم بنو ظافر بجيش قوى وهاجموا عدداً من الجماعات القبلية قرب المبيض. فاسرع سعود لمقابلتهم. ولدى رؤية عددهم امتنع عن مهاجمتهم وعاد الى طمير فى انتظار النجدة التى طلبها. وعند وصولها هاجم الظافر وانتصر عليهم، فاستولى على كل ما فى المخيم من متاع، وعلى عدد كبير من الماشية، بلغ سبعة عشر الفاً من الأغنام وخمسة آلاف من الجمال، مع خمسة عشر فرساً.

وفى هذه الاثناء كان مرجل المنورة يغلى فى القصيم. فقد حلت سنة ١٧٨٢ وكل شئ جاهز للثورة العامة على دعاة الوهابية المحليين. وقد قتل بعض البارزين منهم، مثل منصور وثنيان اللذين ينتميان الى عائلة ابنى خليل. ولجأ الثوار الى سعدون بن عريعر فظهر امام بريدة بجيش لجب من قبيلة عشيرة بنى خالد وعناصر كثيرة من بنى ظافر وشمر. ويبدو أن جميع أهل القصيم كانوا يؤازرون الثورة فيما عدا مدن بريدة ورس وتنومة.

وبالطبع كانت بريدة وأميرها حجيلان بن حمد العليان، مركز الولاء للمذهب الوهابى. ويبدو ان حجيلان هذا خلف عبد الله بن

حسن فى الهجوم على الخرج عند موت عبد الله. وفى اثناء الحصار الذى دام زهاء الاربعة أشهر، ارتاب حجيلان فى مسلك رجل من عشيرة عليان يدعى سليمان الحجلانى واتهمه بالاتصالوبالعدو والتآمر فقتله.

وصادف هذا العمل قبولاً لدى عامة الناس، ففك سعدون الحصار، لاعتقاده بانه سيطول، وسار عن طريق زلفى الى المبيض ونصب خيامه هناك ليعيد تنظيم جيشه. وانضمت اليه قوات عديدة من جهات متعددة، كان من جملتها زعماء السدير المنفيون من الزبير. وكان زيد بن زامل يقود جند أهل الخرج. فما أن حل منتصف تشرين الثانى حتى كان الجيش باكمله على أهبة الاستعداد للهجوم، فسار هؤلاء على رأس قوة كبيرة من الجيش واحتلوا المدينة بكل سهولة تحت جنح الظلام.

وقد وافقت الحامية الوهابية فى الحصن الكبير على الاستسلام والرحيل بعد ان يتعهد المهاجمون بالمحافظة على جياة أفرادها. فاقام سعدون قيادته العامة فى الروضة كى يتفرغ لتركيز الوضع و اعادة الأمير ماضى الى الحكم.

وكان سعود بن عبد العزيز فى هذا الوقت مخيماً فى الشادق يرقب الوضع والتطورات. وما كاد جيش سعدون ينسحب من الروضة ويتفرق، حتى أرسل سعود جيشاً قوياً لمهاجمتها ،موكلاً أمر العمليات الرئيسية الى الفرق القروية من السدير نفسها، يدعمها رجال العارض والوشم. وقتل الأمير عون بن مانع فى المعركة، فخلفه اخوه عقيل واستمرت المعركة تدور بالشكل المعتاد من المناوشات

الغير المنظمة، الى ان وصل سعود نفسه بالجيش الرئيسى فاشتد الضغط على المدافعين. وقد احتل المهاجمون مزارع النخيل وقطعوا كثيراً من الاشجار، فلم يبق فى يد عقيل غير الحصن. فاضطر فى هذه الحالة الى ان يطلب الصلح، وبالفعل تم ذلك ولكن بشروط جد قاسية: لقد تعهدوا بان يدفعوا مبالغ كثيرة كتعويض، وطرد آل ماضى مرة اخرى مع جميع انصارهم.

وبعد أن احتل سعود الروضة. بدأ يبحث فى امور المدن المجاورة المتهمة بمناصرة الثوار مثل الدخلية والفارعة. وبعد ذلك عاد الى بلده ليعد العدة لنشاطه فى مرحلة ثانية اوصلته حتى المستجدة حيث قام بغزو عشيرة مطير.

وحوالى نفس الوقت تقريباً اى فى ربيع سنة ١٧٨٣ خرج زيد بن زامل ليغزو السبيع فى مكان ما من الصحراء. وفى اثناء عودته الى بلاده، قابل دورية تحت إمرة سليمان بن عفيصان كان قد أرسلها عبد العزيز من الدرعية لابقاء طرق القوافل الرئيسية مفتوحة. فبدأت المناوشات بين الفريقين وقتل زيد برصاصة طائشة.. فادخلت هذه الفاجعة اليأس والخوف فى نفوس اتباعه فهربوا مخلفين وراءهم عشرة قتلى.

وقد خلفه ابنه براك فى الامارة. وسرعان ما اشترك مع اهل اليمامة فى الهجوم على منفوحة. فوقعت المناوشات المعتادة، وأصيب الطرفان باصابات طفيفة. وكان سعود فى هذا الوقت، يقوم بغزوة فى جهات الاحسا، الا انه قرر ان يزور اليمامة زيارة مفاجئة،اثناء عودته من هجوم ناجح شنه على قرية العيون. وكان من حسن حظه

ان وجد السكان في مضاربهم الصحراوية فهاجم في الحال. وقد هرب اهل اليمامة واختل نظامهم وخسروا ثمانين قتيلا على اقل تقدير.

ثم سار سعود الى القصيم بغية مهاجمة عنزة، ولكنه عاد الى بلاده. وربما فعل ذلك لعدم تمكنه من إعالة جيش كبير في الميدان نتيجة للاحوال السيئة السائدة في المنطقة انذاك. فبسبب انحباس الامطار كانت نجد كلها على ابواب جفاف شديد، وقد استمر هذا الجفاف حتى سنة ١٧٨٦، فارتفعت الاسعار واختفت المؤن والمواد الغذائية وانتشرت الامراض.

وفي نهاية سنة ١٧٨٤ او بداية السنة التالية، قاد سعود حملة على الخرج، ولكنه حين سمع بوجود قافلة محملة بالمؤن متجهة الى الحوطة، قرران يكمن لها على آبار ثليمة الواقعة في الصحراء على بعد اثني عشر ميلا عن اليمامة. اما القافلة وحرسها المؤلف من ثلاثمائة محارب فقد نفذ منهم الماء، ولذا بادرت طليعة القافلة الى الابار حالما راوأ اشجار نخيل الواحة. فلم يجد جيش سعود عناء كبيراً في التخلص منهم. ولكن القافلة توقفت لدى سماعها طلقات الرصاص، واخذ حراسها مواقعهم استعداداً بالرغم من دفاع حرسها المستميت الذين فقدوا نصف قويهم. وكان من ضمن القتلى فارسهم زامل وهو الابن الثاني لزيد الجبار. أما الناجون فتفرقوا وفروا تاركين وراءهم القافلة وما تحمله من كنوز ثمينة.

ولم تكف أهل الخرج هذه الكارثة ومآسي الجوع والجفاف والأحوال السيئة التي كانوا يعانونها، بل خرقوا معاهدة الصلح، فقتلوا براك، أميرهم الجديد، وكان القتلة أولاد عمه الذين التجأوا

الى الداعية. فخلفه تركي في الامارة، وكان هذا ولد آخر من أولاد زيد. الا ان تركي لم يبق طويلا في الحكم. ففي شهر تشرين الاول من سنة ١٧٨٥ سار سعود نحو الدلم حيث اكره المدافعين عن المدينة على التراجع الى داخل أسوارها ثم استولى عليها بعد هجوم صاعق.

وهكذا انتهت مقاومة أحد الحصون المناوئة للوهابية، فأسرع أهل الاقليم جميعاً الى إعلان ولائهم للمذهب الجديد.

وفي هذه الاثناء جاء سكان وادي الدواسر الى الدرعية ليعترفوا هم أيضاً بالمذهب الجديد.

وهكذا شهدت نهاية العام امتداد الدولة الوهابية وتوسعها نحو الجنوب.

ولكن يا للأسف، لقد تسبب انحباس الامطار الطويل في إصابة جمال نجد بالجرب فكانت الخسائر فادحة في المناطق البدوية- القرى والمدن على السواء. لقد كانت جمال القافلة تسير بجمالها وتهوى صريعة في الطريق... غير أن الجفاف انتهى بنزول أمطار غزيرة سنة ١٧٨٥ - ١٧٨٦ فاكتست الصحراء واخضرت الأرض وهبطت الأسعار. إلا ان هذا لم يكن ذا أثر في الحد من بؤس القبائل.

وتآمرت عشيرتان من قبائل بني خالد مع أميرين من امرائها، هما عبد المحسن ابن سرداح العبيد الله، ودويحس بن عريعر على الثورة على حكم سعدون. وتجاوب معهما في هذا الأمر ثويني بن عبد الله، زعيم المنتفك، وتعهد بمناصرتهم. فقابل المخالفون بجيش

هائل. وبعد قتال مرير إستمر بضعة زيام، أدرك سعدون انه لامفر من الهزيمة، فأركن الى الفرار مع اتباعه، واتجه نحو الدرعية حيث استقبله عبد العزيز بحفاوة بالغة جديرة بعدو شجاع. فاغتصب دويحس مكانه في زعامة بني خالد، وكان عبد المحسن ساعده الأيمن يمارس بعض مسؤوليات الحكم.

كان سعود في هذا الوقت متغيباً، ينظم حملة ضد عشائر قحطان في الجنوب، بينماكان حجيلان بن حمد، أمير القصيم ينظم حملة على جبل شمر بموافقة عبد العزيز الذي لم يكن قد زحف على تلك الجهة بعد. فأوقف جند حجيلان قافلة موسوقة، قادمة من العراق الى حايل وسلبوا كل ما تحمله. وأسرع حجيلان الى بلاده يحمل الغنيمة قبل ان يكر عليه الأعداء ويطاردوه. ولكن هؤلاء سرعان ما إنتقموا منه .

ففي تشرين الثاني التالي سار ثويني زعيم المنتفك بجيش كبير الى القصيم ومعه سبعمائة من الجمال المحملة بالذخائر الحربية فقط. ولدى وصوله الى تنومة، حاصرها بضعة أيام، مضعفاً تحصيناتها بقنابل مدافعه لكي يفتحها بنجاح. وقد دخل المدينة عنوة واعمل في أهلها السيف ثم نهبها بعد ان قتل ما ينوف عن المائة والسبعين رجلاً.

ثم سار ثويني الى بريدة نفسها. وما كاد يشرع بالهجوم عليها، حتى سمع بوقوع قلاقل في بلاده فعاد بسرعة. وكان عبد المحسن، نائبه في الاحساء في طريقه اليه مع جيش كبير لمساعدته في

عملياته ضد القصيم. ولكنه هو ايضاً تخلى عن المهمة لدى سماعه بانسحاب ثويني.

وحين دخل عبد المحسن الزبير وافاه حاكم البصرة ليزوره، الاانه ما كاد يصل حتى ألقى عليه القبض، واستولى عبد المحسن على جميع ما به من حيوانات. ثم أسرع الى البصرة واحتل دور الحكومة واغتصب الحكم. ثم دعا اعيان المدينة ليتداول واياهم بشأن المستقبل واتفقوا على إرسال رسالة الى السلطان فى استنبول طالبين اليه الموافقة على تعيين ثوينى حاكماً للاقليم. ولكن ذلك الرسول لم يفلح، فلدى رؤيته الوزراء بمظهرهم الصارم، ارتعب وخاف فهرب تحت جنح الليل .

وقد صدرت الاوامر الى والى بغداد ، سليمان باشا ، ليتخذ الاجراءات اللازمة لإعادة الامور الى نصابها فى البصرة. فقام الوالى بنفسه على رأس حملة تأديبية، اتجه بها الى مكان الاضطرابات فى خريف سنة ١٧٨٧ . فجمع ثوينى ليقاوم الغزاة. وسار الى قناة الفاصيلة، قرب سوق الشيوخ للقاء الاتراك، تاركاً وراءه اخاه حبيباً ليتولى زمام الاموار فى البصرة.

واندحر جيش ثوينى شر اندحار، وفر الى الجهرة قرب الكويت، حيث انضم الى بنى خالد فى الصمان فاصبح حمود بن تامر زعيم المنتفك بينما عين سليمان باشا ، الأغا مصطفى حاكماً على البصرة.

وفى هذه الاثناء جدد حجيلان هجومه على جبل شمر، حتى خضع سكان حايل رسمياً للحكم الوهابى، وهكذا اتسعت حدود الدولة الوهابية وامتد سلطانها .

سار سعود الى القصيم ليعاقب عنيزة على القلاقل التى حدثت هناك ايام كان الحاكم من قبيلة رشيد. وكان يحيى بن على قد خلف عمه عبد الله بن حمد فى الامارة سنة ١٧٨٨، السنة التى قاد فيها سعود حملته على الخرج، وكان عبد الله من عائلة زامل. فطرد المغتصب وعائلته من المدينة وأعاد الامارة الى عائلة زامل التى زكت لذلك المنصب شيخها عبد الله بن يحيى. وكان يحيى بن على قد حكم المدينة بالاشتراك مع مغتصب من عائلة الرشيد فحكم فى تلك الفترة حتى سنة ١٧٨٨ ، ويبدو ان هذا التبديل قد تم دون اية معارضة لمرسوم سعود.

وفى نفس الوقت كان سليمان بن عفيصان يغزو المناطق الشرقية، فكبد أهل قطرخسائر فادحة ثم اتجه نحو الاحساء، حيث عامل أهل قرية «جيشه» معاملة قاسية، وقتل الكثيرين من أهلها. ثم سار الى ميناء العقير وأحرقه واستولى على كافة البضائع الموجودة فى المستودعات.

ومع هذا فقد كانت ابرز الأحداث فى هذه السنة، تصميم عبد العزيز الذى بلغ الخامسة والستين بان يضع الترتيبات بشأن خلفه على العرش. وكان سعود هو الشخص التى وقع الاختيار عليه، لكبر سنه، وللأعمال الباهرة التى انجزها فى المجالات الادارية والعسكرية، ليخلفه على عرش الدولة التى نشأت وترعرعت حول الدرعية.

ومن الجدير بالذكر، ان الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الممثل الاعلى للسلطة الروحية فى الدرعية هو الذى أصدر الأوامر الى

جميع الأقاليم والمقاطعات للاعتراف بسعود، وقبوله حاكماً في المستقبل. ولم تجر في العاصمة مراسم خاصة من أجل هذه الغاية. ولكن مجرد مبايعة الامراء لسعود على الولاء والاخلاص، كان يعتبر في حد ذاته قبولاً منهم، بتقديم الخضوع والولاء لسعود من تلك اللحظة، ليس فقط بصفته إمام المستقبل بل لكونه ملكهم الفعلي الذي من حقه ان يطيعوه ويحترموه كما كانوا يفعلون مع ابيه، وان كان هو نفسه يدين بالطاعة لأبيه. ويظهر ان هذا التقليد قديم جداً، فإن ملوك سبأ كانوا يشركون واحداً أو اثنين من أخوتهم، او ابنائهم، او ابنا اخوتهم، معهم في العرش، لا كأولياء للعهد، ولكن بصفتهم ملوكاً.

اما في البلاد العربية فبالاضافة الى كون الحاكم هو الامام لشعبه، فهو يشار اليه بكلمة «الشيوخ» بالجمع، وهو الشخص الوحيد في الدولة الذي يستحق هذا اللقب هو الأمير نائب الملك او الوارث للعرش. ومن فوائد هذا التقليد، ان لايكون هناك ضرورة لتنازل الملك عن العرش، فيما اذا اصيب الملك بعاهة تقعده عن ممارسة مهام الملك او في حالة الوفاة.

وبعد ان عين سعود ولياً للعهد، قضى شتاء سنة ١٧٨٨ - ١٧٨٩ في عزوات شاملة وقعت جميعا في المناطق الشرقية والجنوبية الشرقية. فوضع خطة عامة للضغط على امراء بني خالد في الاحساء. وفي الصمان واجه حشدا كبيراً لقوات بني خالد، فانسحب دون ان يقوم باية محاولة للاشتباك معهم، ثم قابل ثويني في نفس هذه المنطقة واشتبك مع لاجئي المنتفك الذين كانوا قد

هربوا مع ثويني من العراق، بعد كارثة «سوق الشيوخ» وفي هذه المرة هاجمهم هجوماً صادقاً فهزم اهل المنتفك واستولى على معسكرهم. ثم هبط على مجموعة من القرى الصغيرة والمزارع في صحراء الطف، واستولى على كل مخزونهم من الحنطة.

اما حركته التالية فكانت أبعد كثيراً.. لقد هاجم جماعة اخرى من المنتفك في الروضتين، قرب صفوان، عند الحدود العراقية، فاستولى على جميع متاعهم وخيامهم وممتلكاتهم الاخرى. ثم عاد الى آبار الوفرة، فهاجم في طريقه جماعة من بني خالد وهزمهم، قاتلاً منهم سبعين رجلاً. ثم سار الى واحة الحسا حيث ناوش سكان مدينه المبرز دون نتائج حاسمة. غير انه ضرب قرية الفضول التي لاتبعد عنها كثيراً ضربة قاصمة وقتل ما يقرب من الثلاثمائة من رجالها.

وفي خريف السنة التالية وجد نفسه في الميدان ثانية ليستأنف ضغطه على الاحساء. وكان جيشة يتألف من فرقة من بني ظافر وبعض العناصر من قبيلة بني خالد تحت امرة زيد بن عريعر. وكان هذا قد طرد من القبيلة مع أنصاره بعد ثورته على سعدون. هذا بالاضافة الى جند سعود النظامي المؤلف من رجال العارض وما جاورها من المناطق. وقد سار سعود بهذا الجيش لمقابلة الحشود الرئيسية لبني خالد، التي كانت معسكرة قرب تلة غر يمل وآبارها القريبة من واحة الاحساء، تحت قيادة دويحس بن عريعر، وعمه عبد المحسن.

واشتبك سعود مع اعدائه في الحال.. وكان القتال شديداً ويائسا

بين الطرفين. غيران بني خالد انكسروا فانهزموا واصيبوا بخسائر فادحة على ايدى فرسان سعود، وتركوا وراءهم شسهم وممتلكاتهم الاخرى. ويبدو ان عبد المحسن ودويحس هربا الى المنتفك، فعين سعود زيداً بن عريعر زعيماً على القبيلة.

وفى خريف سنة ١٧٩٠ ظهر فى الغرب تهديد خطير لاستقرار الدولة الوهابية. فقد كان الشريف غالب بن مساعد الذى خلف اخاه لدى موته سنة ١٧٨٨، يعد العدة لغزو نجد، معلناً عزمه على مهاجمة الدرعية نفسها، ووضع حد للهرطقة الوهابية، فارسل اخاه عبد العزيز بجيش يتألف من عشرة الاف رجل وعشرين مدفعاً. وانضم اليه فى الطريق بدو الحجاز، وعناصر من شمر ومطير، وقبائل اخرى من نجد. ولدى وصولهم اقليم السر، احدقوا بقرية «قصربسام» المحصنة وسحقوها بالمدافع التركية. ولكن حاميتها الصغيرة، التى قيل انها كانت تتألف من ثلاثين رجلاً، صدت بشجاعة كل هجوم كانوا يشنونه عليها.

وبعد بضعة ايام من القصف الشديد، قرر الشريف غالب الذى كان يدير العمليات بنفسه بعد ان ينضم الى الجيش الرئيسى المعقود لاخيه، عند الشقرا فى مرتفعات نجد. فتعرضت الشقرا الى قصف شديد من المدفعية، وحاول المهاجمون اقتحامها مراراً كثيرة، ولكن محاولاتهم هذه جميعها باءت بالفشل.

وبعد شهر من المحاولات الفاشلة، فك غالب الحصار الذى فقد خمسين من رجاله، وتخلى عن فكرة احتلال نجد نهائيا. اما البدو الذين انضموا اليه حباً فى الغنائم والأسلاب، فقد تركوه حالما تحقق

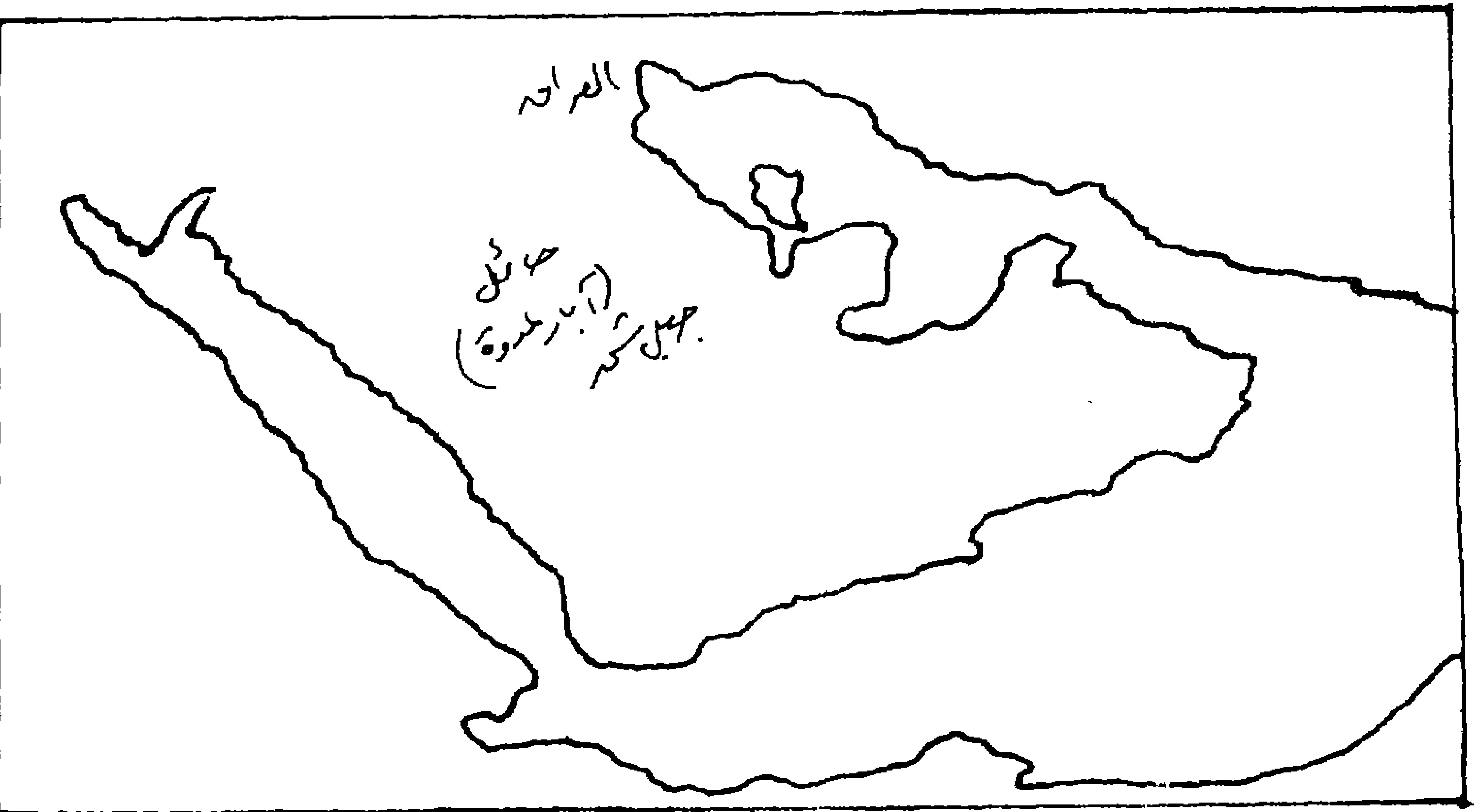
لهم فشل محاولته. وسار غالب بجيشه الرئيسي دون ان يحقق شيئاً من احلامه.

اما سعود الذى كان يحتفظ بقواته الرئيسية لمواجهة اى تهديد محتمل للدرعية، فسار بجيش كبير ليعاقب البدو الذين انضموا الى قوات الشريف غالب، حالما وصلته اخبار انسحابه من نجد.

وفى صيف سنة ١٧٩١ وصلت قبائل شمر ومطير الى آبار (عدوه) جنوب حايل. فنشبت معركة (عدوه) فى الثلاثين من آب. وقد حارب البدو بكل شجاعة وضراوة الا انهم هزموا تاركين لسعود غنائم كبيرة، وجثث عدد من زعمائهم. ولكنهم عادوا فهاجموه عندما وصلتهم النجدات التى لم تشترك فى المعركة. وكان سعودلا يزال فى عدوه، يوزع الاسلاب كما هى العادة. فصمد الوهابيون لهجوم البدو. وقتل مسلط بن مطلق، احد زعماء شمر، عندما حاول اقتحام خيمة سعود نفسه، فانهزم المهاجمون وتشتتوا. فتبعهم فرسان الوهابين وطاردوهم مدة يومين كاملين يقتلون منهم من يقتلون، وينهبون ماينهبون.

وقد بلغ ماغنموه منهم مائة الف رأس من الغنم، واحد عشر الف جمل.

وفى كانون الثانى من سنة ١٧٩٢، كان سعود فى طريقه الى الحسا، فاستولى على سيهات وعنك وقتل اربعمائة من سكانها، وغنم غنائم هائلة وعقد مع اهلها الصلح على شرط ان يدفعوا له خمسمائة جمل، كفدية لأرواحهم.



معركة عدوة ١٧٩١

وفي هذا الوقت كان بن عريعر، الذى عينه سعود زعيماً لبني خالد بعد معركة الغريمل، قد اغرى عبد المحسن لأن يعود، وضمن له سلامته، وتعهد له بان يعامله معاملة كريمة، ولكنه قتله في اجتماع عام فتجمعت قبائل مطير في (جنايح) في نجد العليا، ولكن هادى بن قرملة زعيم قبائل قحطان، هاجمها بامر من الامام بينما قام سليمان بن عفيصان يغزو قطر، وهاجم جماعة مسلحة من سكانها وهزمهم. وعاد سعود نفسه بعد العمليات في منطقة القطيف، وسار الى جبل شمر ليغزو حشداً كبيراً من قبائل حرب ومطير عند آبار شقرا، فغنم منهم ثمانية آلف جمل وعشرين من الأفراس العتاق.

وكان ابرز احداث هذه السنة ماوقع في الصيف.. ففي العشرين من تموز، توفى محمد بن عبد الوهاب العظيم، بعد ان قضى سنوات طوالاً معززاً ومكرماً، وامضى حوالى نصف قرن في جهاد مستمر لتوطيد اقدام الحركة التى بدأها، وفي سبيل تاكيد الاخلاص والولاء للامراء الذين تعاونوا معه، فجعلوا هذه الحركة تزدهر وتتسع وتنجح. ولقد مات قرير العين هانئ البال، في شيخوخته. غير انه لم يعش طويلاً كي يرى الارض الموعودة تزدهر وتتسع حتى تصل الى اقاصى حدود الجزيرة.

اما ابن بشر الذى جاء في تاريخه على ذكر موته فيقول إنه كان في الثانية والتسعين من العمر عند وفاته. غير انه يعود فيذكر في مكان آخر هو سنة ١١١٥ الهجرية تاريخ مولده، الموافق سنة ١٧٠٣ - ١٧٠٤ وفي هذا الحال يكون الشيخ قد بلغ التاسعة

والثمانين حين وفاته. وفى اواخر سنى حياته اصبح ضخم الجثة ثقيل الحركة حتى كان كلما ذهب الى الجامع يساعده رجلان.

ويذكر ابن بشر فى تاريخه، رثاءً كتبه الشيخ حسين بن غنام،يؤبن فيه الراحل العظيم. ولكن اعظم النصب التذكارية لاحياء ذكرى هذا الراحل الكريم هو دولته التى عمت الجزيرة العربية انذاك. دولته التى صمدت الى يومنا هذا فى وجه تقلبات الزمن والاحداث الجسام خلال أكثر من قرنين من التاريخ.

ويجدر بنا ان نذكر، بانه لم يتول ادارة الشئون الدينية والروحية فحسب، بل ساهم مساهمة فعالة فى ادارة دفة النشاط السياسى والعسكرى ايضاً ، فى سبيل اعلاء كلمة الله. والتوافق التام بينه وبين اول رئيسين مؤقتين للدولة الوهابية والانسجام الذى واكب علاقاتهم التى استمرت زهاء خمسين عاماً لهما أنصع دليل على عبقريته الفذة وإخلاصه وتفانيه فى سبيل القضية المشتركة ، التى تغلبت على الضعف البشرى واطماع العالم الاقطاعى الذى كان اهل زمانه يعيشون فيه .

وفى خريف السنه التى تلت موت الشيخ، شهد اقليم الاحساء تطورات مهمة. فقد ثار بنو خالد، يدفعهم براك بن عبد المحسن، على زيد بن عريعر الذى اختاره سعود زعيماً للقبيلة، وعزلوه. وما كاد يتولى براك زعامة القبيلة حتى قاد عشيرته ليغزو ابار لصافة(صفا؟) وهاجم فى طريقه فريقاً من السبيع، ونهب كثيراً من متاعهم. ووصل سعود فى هذه الاثناء بجيشه المؤلف من مجندى

الوهابين الى الصحراء الشرقية، بحثاً عن بنى خالد، الذين كانوا لصافه ثم ضرب خيامه هناك وارسل قوة من جيشه لاحتلال آبار لهبة وقرعة Qara' a.

وكان الغزاة قد عادوا فعلاً الى لهبة، فوجدا جيش سعود يحتلها. فقام فرسانه وهجانته بالهجوم عليهم. وبعد قتال ضار استمر زهاء الساعة تفرق بنو خالد وانهزموا فى فوضى واضطراب. وتبعهم فرسان الوهابين فلم يرحموهم وعادوا بغنائم هائلة.

ويقدر عدد قتلى قبيلة بنى خالد فى تلك المعركة وفى اثناء هزيمتهم، بألف الى الفى قتيل. كما استولى سعود على مالايقل عن مائتى فرس.

اما براك نفسه ففر مع نفر من اتباعه الى المنتفك عند الحدود العراقية. فاستولى الذعر على الهفوف حين طرق سمعهم خبر اندحار بنى خالد وهزيمتهم المنكرة.

اما سعود الذى كان متجهاً الى تلك الجهة فتوقف عند آبار الردينية، فى اقليم الطف، بضعة ايام. وفى هذه الاثناء وصلته من سكان الحسا دعوة لزيارة بلادهم كى يقدموا له ولاءهم. فتمت المراسم المعتادة لدى وصوله مياه عين نجم الحارة، ثم ارسل جماعات من جنده ليدمروا قبور الشيعة واضرحة الكفرالتى يزورها السكان، والمقامات الدينية التى كانوا يتبركون بها. وامضى سعود شهراً هناك فأعد خلال هذا الشهر كل شئ ضرورى لهدايه السكان وتعيين الشيوخ الاكفاء ليشرحوا لهم اصول الاسلام وعقيدة التوحيد. وعين

محمداً الحملى اميراً على الاقليم على ان يكون مركزه قلعة الكوت. كما عين الموظفين اللازمين في الوظائف الأخرى وارسل الحاميات الى الحصون المختلفة ومراكز الحراسة المتعددة .

ثم رحل سعود وسار الى آبار نطع في اقليم الطف، حيث أمضى هناك شهراً لترعى جماله وخيوله في مراعيها . ثم جاءته اخبار اضطراب وقع في الهفوف، اذ ثار السكان على الحكم الجديد وقتلوا الحاكم، وثلاثين رجلاً، وموظفين اخرين بينهم الشيوخ الذين عينهم حديثاً لتفقيههم.

وقد جُرّت جثث الضحايا وشوهت على مشهد من الجميع. ولم يبق احد من الجهاز الادارى الذى اقامه سعود- فيما عدا حامية حصن حصار- تحت إمرة محمد بن غشيان. وقاومت الحامية فترة من الزمن غير انها فرت تحت جنح الظلام وانضمت الى معسكر سعود. فعاد سعود الى الدرعية، بينما اشتأنف زيد ابن عريعر حكمه لاقليم الاحساء فترة مؤقتة. وكانت الدولة الوهابية قد خسرت في هذا الوقت خسارة فادحة، بموت سليمان بن عفيصان امير الخرج خلال السنوات الست عشرة الماضية، هذا الرجل الذى اختاره عبد العزيز وسعود مراراً كثيرة لحملات عسكرية تتطلب وجرأة ومقدرة في القيادة.

وفى خريف سنة ١٧٩٣ كان سعود على اهبة الاستعداد لقمع الثورة في الحسا ومعاقبة مثيريها. فسار اليها بكامل جيشه وهدفه الاول قرية شقيق، فاحتلها عنوة بعد حصار استمر يومين وقتل بعض السكان. غير ان الباقين فروا. وتجمع سكان القرى الشمالية من

الواحة للدفاع عن انفسهم في القرين، فطوقها سعود مع قرية المطيرفة، حتى افتدى السكان انفسهم بنصف ممتلكاتهم.

ثم سار سعود الى المبرز، المدينة الثانية بعد الهفوف في الاهمية، وهناك هاجمه. زيد بن عريعر على رأس جماعة من السكان المحاصرين الا انهم هزموا وتراجعوا الى العاصمة. وهاجم سعود حصن المهيرس المنعزل وحاميته التي يقودها بعض اهل المبرز، فخسرت قرابة المائة من القتلى.

وكانت البتالية هي القرية التالية التي هاجمها سعود. ومن ثم سار الى الشرق ليهاجم قرية جبيل. وكان سعود يهدف من وراء هجماته هذه ان يعمل السيف والنار في الاقليم باكمله، ليعاقب اهله على الثورة التي قامت بها الهفوف، والفظائع التي ارتكبت هناك. وفي هذه الاثناء ارسل فرقه البدوية الى كل ناحية لينهبوا اموال السكان ويدمروا قراهم بلا رحمة.

وبعد هذه الحملة الارهابية التي استمرت فترة من الزمن، اختار سكان لاحساء براك بن عبد المحسن، ليتوجه الى عبد العزيز ويطلب منه الرحمة، واعداً اياه بالخضوع والولاء. تاركا لبراك بن محسن امر وضع الترتيبات لتنفيذ العهد الذي قطعه على نفسه نيابة عن اهل الاقليم.

غير ان الهفوف لم تظهر ندما على ما فعلت، إذ منعت براك من دخول المدينة فسار الى المبرز فدخلها، بينما كان زيد وابناء عمومته عريعر في قرية جيشه وجفار من اطراف الواحة .

وبعد قتال مرير بين الاطراف المتنازعة، كان النصر حليف براك، ففر زيد الى المنتفك شمالاً، وتولى براك الحكم نيابة عن الدولة الوهابية واعتراف به اهل الاقليم جميعاً.

وهكذا انتهى استقلال الاحساء تحت حكم امراء بيت عريعر وسلالة حميد الذين حكموها ١٢٤سنة، اى منذ سنة ١٦٦٩ عندما احتلها من الاتراك براك ابن عرير، الجد الأعلى لسعدون وزيد. وكان الاتراك، قد احتلوها بدورهم عندما قهروا امراء عائلة اجود بن زامل الجبرى القيسى سنة ١٥٩٢ على يد فاتح باشا الذى كان اول وال لها.

ويعطينا ابن بشر اسماء خلفاء فاتح باشا الثلاثة، ومنهم عمر باشا الذى فقد الاقليم يوم احتله آل حميد، فيقول،(ابن بشر): الاحتلال التركى استمر ثلاثين عاماً تقريباً. واذا اعتبرنا التواريخ التى ذكرها صحيحة، فلا بد ان حكم الاتراك استمر اكثر من ثمانية وسبعين عاماً. غير ان هذه المدة طويلة لا يمكن ان يتولى الحكم فيها اربعة ولاة فقط، وان كان ذلك ممكناً احياناً. ولربما انه كتب رقم ٣٠ خطأ بدلاً من رقم ثمانين. فالتشابه بين كتابة الرقمين فى اللغة العربية كبير.

على كل، فقد اصبح اقليم الاحساء الآن اقليماً وهابياً مدة تقرب من الثمانين عاماً. وبعدها جاء الاتراك مرة اخرى سنة ١٨٧١ فاحتلوه فترة استمرت زهاء الاثنين والاربعين عاماً، وحتى سنة ١٩١٣ . وعندها عاد نهائياً الى الدولة الوهابية. ويعتبر اقليم الاحساء فى الوقت الحاضر اغنى أقاليمها على الاطلاق.

وصحيح ان الحملة على الاحساء وقعت فى فصل الشتاء الشديد البرودة سنة ١٧٩٣ - ١٧٩٤ الا ان نتائجها فاقت الغزوات الصحراوية الاخرى. ولقد تلاها مباشرة نشاط وهابى عظيم فى المجالات العسكرية، وفي نواح اخرى، من ضمنه حملة كانت عدتها ستمائة جمل والف رجل تحت امرة عبد الله بن محمد بن معيقل من الشرما وصلت الى سهل رقبة عند الحدود الحجازية، واشتبكت مع فريق من قبيلة عتيبه قرب تل البغث(برث) ولكنها ردت على اعقابها متكبدة بعض الخسائر.

وقد سارت حملة اخرى تحت قيادة محمد بن معيقل نفيسه، فهاجم بنى حجر Hajir فى سهل حزم الراقى HazmRaqi بين تلال ضنيب وآبا ثعل واستولت على كثير من الاسلاب بالاضافه الى مقتل زعيم القبيلة ناصر بن شارى.

وسارت حملة اخرى بقيادة ابراهيم بن عفيصان، أمير الخرج، وابن سليمان الذى توفى حديثاً، أو أخيه، فهاجمت بادئ ذى بدء قطر حيث دمرت قرية الحويلة المشهورة بمصائد الأسماك. ثم هاجمت، فيما بعد، الكويت نفسها، حيث تمكنت من ابادة جماعة خرجت من القرية المحصورة بواسطة كمين نصبته لها، غير ان أفراد الحملة لم يدخلوا المدينة نفسها.

وكان أهم هذه الغزوات الصغيرة التى جرت فى تلك السنة تلك التى تجمعت فيها فرق من الوشم وجبل شمر، كل منها تحت امرة قائدها المحلى، وجميعها تحت امرة محمد بن معيقل، وتوغلت فى اقصى الشمال مسافةً ابعد مما فعلت الجيوش الوهابية حتى الآن.

وكان هدفهم الاول الجوف الشمالي الذى لايزال يعرف باسم "دومة الجندل، على جناح الصحراء السورية. فاحتلوا ثلاثاً من قرى الواحة، أما البقية ومنها قصر المارد، الحصن الرئيسي في الجوف، فحاصروها حتى استسلمت، وخضعت للدولة الوهابية وقطعت على نفسها عهداً بالطاعة والولاء.

وربما يعود تاريخ هذه الاحداث لشتاء وربيع سنة ١٧٩٤ التى توفي فيها شيخ الدرعية، سليمان بن عبد الوهاب ،بعد سنوات عدة من وفاة أخيه الأشهر. أما الشهور الاخيرة من هذه السنة فشهدت سعوداً يغزو بنى ظافر على الحدود العراقية في مقاطعة الحجرة؟ ثم يعود الى العاصمة بأسلاب وافرة في شباط من سنة ١٧٩٥ ليعد العدة لغزوة الحجاز. وفي شهر ايار ظهر سعود امام ترابة متبعاً التكتيك المعتاد في قطع اشجار النخيل والقيام بمناوشات متفرقة. فقتل في اثنائها احد قادته البارزين، محمد عيسى بن غشيان.

ويبدو ان سعوداً لم يواصل هجومه بشكل جدى، اذ ارتحل بعد ان أغراه عرض التعويضات الكبيرة.

وربما كان الدافع على رحيله شدة الحراره في شهر حزيران، فلم يواصل تقدمه باتجاه سورية والعراق، الأمر الذى لو تم لدل على ان لأسياد الدرعية مطامع توسعية يدفون من ورائها الى توسيع عملياتهم الحربية ويجربون كافة الوسائل لتحقيقها.

واعتبر غالب بن مساعد، شريف مكة، الحملة على ترابة بمثابة جس النبض، فنظم حملة على نجد بالرغم من شدة الحرارة الضارية.

وكان هدف الشريف فهيد، قائد الحملة، قبيلة قحطان النازلة على آبار المسيل على بعد خمسين ميلاً من الدوادمي. وبعد قتال عنيف، انهزمت قبيلة قحطان وتكبدت خسائر كبيرة جداً، منها عشرة آلاف جمل. ولولا هطول الامطار آنذاك لهلكت النساء والأطفال من العطش.

وعند انسحاب قوات الشريف واستيلائها على الغنائم، قام محمد بن معيقل بغزوة ناجحة على قبائل عتيبة في مران في المنطقة البركانية من حرة الكشب.

وبعد ذلك بقليل جاء سعود بنفسه الى تلك المنطقة، يقود حملة على مضارب مطير وعتيبة. ولكن غالباً كان يعد العدة لغزوة ثانية على نجد. وقد انطلقت هذه الحملة من مكة في شهر كانون الاول سنة ١٧٩٦ تحت قيادة الشريف ناصر بن يحيى، واتجهت الى المرتفعات الواقعة في اواسط الجزيرة العربية. ولدى سماع عبد العزيز بخبر هذه الحملة، أصدر أوامره الى كل من محمد بن ربيعات العتبى وفيصل الدويش من قبيلة مطير، وقبائل السهول والسبيع وقبائل الدواسر والعجمان ليحشدوا قواتهم تحت قيادة هادى بن قرملة القائد الأعلى للقوات المدافعة، المعسكر حول آبار الجمانية على طول تلة النير، وطرق القوافل بين نجد والحجاز.

ولدى وصول جيش الشريف ناصر المزود ببعض المدافع بدأت المعركة فمنى الجانبان بإصابات فادحة، الى ان قام فرسان هادى بهجوم ضار قرر مصير المعركة. فتفرق جيش الشريف وانهزم، ولكن فرسان نجد طاردوهم وقتلوا منهم ثلاثمائة قتيل، وغنائم هائلة، من بينها

مدافع ناصر وخيامه. وكان عبد العزيز قد ارسل محمداً بن معيقل بنجدات اذا اقتضى الأمر، ولكنها وصلت متأخرة عن المعركة، فاشتركت في مطاردة الهاربين والضغط عليهم حتى القنصلية، قرب خرمة، فقتلوا اربعين من الهاربين وغنموا منهم غنائم كبيرة.

وكان مبارك بن هادي، في هذه الاثناء، يقوم بغزو الحدود اليمنية، فهاجم قبائل نجران واستولى على اموالهم. وبدا كأن الصحراء العربية تتقد حماساً وتتوثب نشاطاً عسكرياً أرثه الوهابيون. غير أن اضطرابات نشبت في الاحساء حيث قام براك بن عبد المحسن بإغراء فئة كبيرة من الشكان بأن يطرحوا نير الوهابيين عنهم. اما قبيلة السياسب، في المنطقة الساحلية حول القطيف، فقد رفضت الانظمام لهذه الحركة وطلبت المساعدة من الدرعية. فتوجه ابراهيم بن عفيصان في الحال لقمع الفتنة التي ابقاها أهل السياسب ضمن حدود ضيقة بالتعاون مع أهل المبرر الذين رفضوا الانضمام للمتحالفين. وكان بعض الثوار قد استسلموا قبل وصول بن عفيصان، مثل صالح بن نجار، أحد قادة الحركة، ولكن الباقين صمموا على المضي في الحرب، فحاصرهم الجند الوهابي في مختلف مواقع الهفوف الى ان طلبوا عقد الصلح. وقد تم ذلك على شرط ان يذهب زعماء المتمردين ويعلنوا ولاءهم امام عبد العزيز نفسه في الدرعية.

وفي أيام من ذلك العام ذهب سعود الى اقليم الوشم ليشرف على تعبئة الجيش استعداداً لحملة على الاحساء. ولدى وصوله الى الرقيقة Ruqaiyiqa قضى شهراًهناك لا يفعل شيئاً غير عملية

حشد قواته واعادة تنظيم الترتيبات الادارية. وقد حدث بعض القتال هنا وهناك، لكنه يبدو ان الثورة لم تكن ذات تأثير كبير. واستسلم السكان عن حكمة فيهم بعد ان تحققوا بأن لاجدوى من العناد، فقتل بعض الأفراد وسجن آخرون ونفى غيرهم من البلاد، وهدمت البيوت وانشئت مراكز الحراسة، ونهبت الممتلكات وفرضت التعويضات والغرامات ودفعت. وهذه نتيجة طبيعة لتمرد لا ينجح.

وقد طلب سعود الى شخص يدعى نجم بن دهينم من سكان الهفوف بان يدل على كل من يعتقد بانه اشترك فى اقتراف الفظائع اثناء الفتنة. ثم عين هذا الرجل حاكماً على الاحساء. وعاد سعود الى بلاده، آخذاً معه عدداً من الرهائن. ويظهر ان براك هرب من الاقليم، إما قبل هذه العمليات او بعدها. وربما فر الى المنتفك، حيث عادت الاضطرابات فتجددت خلال الجزد الاخير من نفس السنة.

أما ثوينى، بعد هزيمته على يد سعود فى دار بنى خالد قبل بضع سنوات، فقد فر الى صفوان حيث انضمت اليه عشائر كثيرة من قبيلته. ولكن الامير الجديد، حمودين ثامر، هاجمه حالاً وهزمه وأتباعه. فهرب ثوينى الى ديار كعب Ka,b على شط العرب. وقد حاول سنة ١٧٨٩ ان يحصل على مساعدة من زيد بن عريعر ليستأنف الكفاح. ولكنه لم يلق تشجيعاً منه، فالتجأ الى عبد العزيز فى الدرعية، ومكث هناك مدة من الزمن ضيفاً عليه معززاً مكرماً.

وشق ثوينى فيما بعد، طريقه الى الكويت، ومن هناك سار الى بغداد يطلب عفو سليمان، باشا، الذى كان قد ازعجه كثيراً فى

سوق الشيوخ. فعفا عنه وسمح له بالبقاء فى بغداد، حيث بدأ ثوينى يستعطف الوالى ويتودد اليه، لعله يعيده الى زعامة المنتفك. ومن أجل هذه الغاية، اقنع الوالى بأنه، اذا ما عاد أصبح فى وضع يحقق له مطمعه فى إخضاع نجد للباب العالى. فاهتم سليمان باشا بهذا الأمر، وزوده بالسلاح والرجال وأرسله فى تلك السنة ليتولى الزعامة فى المنتفك بعد عزل حمود.

وما كاد ثونى يستقر فى منصبه الجديد حتى بدأ يحشد الجيوش للمغامرة التى تعهد أن يقوم بها. فأخضع بنى ظافر بجيش من قبيلته وبمدد من الزبير والبصرة. ووجد أن بنى خالد على استعداد لينضموا اليه تحت امرة براك الهارب، فحشد كل جيشه فى الجهرة وبقى هناك ثلاثة أشهر، يعد العدة ويضع خطط الحملة العتيدة.

وانضمت عساكر الاتراك فى البصرة عن طريق البحر، بينما نقل آخرون فى اسطول من السفن على موازاة طريق زحفه الى القطيف التى ستكون القاعدة الرئيسية لعملياته لفتح الاحساء.

حينئذ، أمر سعود بتعبئة جميع جيوش الأقليم تعبئة عامة، ليواجه التهديد الجديد. وعين محمداً بن معيقل قائداً عاماً لهذا الجيش الكبير الذى غادر الدرعية فى الوقت المعين، قاصداً آبار القرية فى اقليم الطف. وأمر فى نفس الوقت، جميع العشائر البدوية، بأن تنتقل بمؤنها وعائلاتها وقطعان أغنامها، الى أراضى بنى خالد. ليحتلوا الآبار، وليدافعوا عن أنفسهم ضد الغزاة. ثم سار سعود بقوة كبيرة من جيش اهل العارض ومناطق اخرى فى وسط

البلاد ، ليعسكر في روضة الطنحة في الطرف الغربي من الدهناء، ومن هناك انتقل الى حفار العتك ليقم فيها مدة شهرين.

اما ثويني فتقدم نحو اقليم الطف، فتراجع الوهابيون الى آبار جودة وأم الرباعية في الجنوب. وارسل سعود قوة من الفرسان المتطوعين تحت امرة حسن ابن مشاري لنجدة محمد بن معيقل ومساندة القبائل البدوية.

ويبدو ان انتقال ثويني الى آبار الشباك قد افزع البدو. غير أن العناية الربانية تدخلت في اللحظة الاخيرة عندما قتل ثويني على يد عبد له أثناء ما كان يرقب تنظيم الجيوش والرواحل حول الآبار. ولكن القاتل قتل في الحال واخفي الخبر عن الجيش لئلا يصاب بالذعر. فخلفه ناصر شقيقه. ولكن براك الذي كان على اتصال سري بحسن بن مشاري، والذي كان ساخطاً على انضمامه الى زعيم المنتفك قرر بانه قد آن الاوان كي يحدث تبديلاً فانسحب.

وقد أدى انسحاب بني خالد الى الفزع بين صفوف الجيش الغازي، فاخذ يتقهقر، يطارده الوهابيون الى حدود الكويت. وقد وقعت معسكراته ومدافعه في ايدي الوهابين المنتصرين كما غنموا غنائم كبيرة لدى مطاردتهم عشائر المنتفك المنهزمه.

جرت هذه الاحداث في نهاية حزيران من سنة ١٧٩٧ .

وبعد ان وزع سعود الغنائم في ميدان المعركة، سار نحو الهفوف ليتأكد مرة اخرى من ولاء اهلها. وخلال اقامته هناك نزلت الامطار في نجد، بشكل لم يعرف له مثيل من قبل. لقد دمرت الفيضانات

مدينة الدلم في شعيب العجيمي،بينما تساقط في حريملة برد شديد اتلف ثمار النخيل واهلك المحاصيل الزراعية، وتسبب في انهيار كثير من البيوت والجدران.

وفي صيف هذه السنة أو السنة التي بعدها، احدثت الفيضانات دماراً واسعاً في الحوطة، ووادي حنيفة، كما قاست منها مدنتا الدرعية والعيينة. الا ان موسم الغزوات لم يتأثر مطلقاً بهذه النوازل. فغزا زعيم «الدواسر» قبيلة شهران الحجازية قرب البيشة، كما اغار محمد بن معيقل، على جزيرة العماير الواقعة في الخليج الفارسي. وكانت هذه الجزيرة اول ارض تحتلها الدولة الوهابية فيما وراء البحار، على حساب البحرين.

ولدى وفاة ثويني، عين سليمان باشا حموداً بن ثامر زعيماً على المنتفك، كخطوة أولى في خططه الرامية الى استئناف هجومه على الوهابيين. الا أن الشريف غالب سبقه الى ذلك فقام بحملة ضد قحطان التي تنزل عند آبارعقيلان شمال البيشة. ولكن الجند لم يتمكنوا من الوصول الى الماء فوقعوا في ضيق شديد من شدة العطش واصبحوا فريسة سهلة للبدو الذين دحروهم وكبدوهم خسائر فادحة.

وتلا هذه المعركة هجوم آخر قام به ربيع بن زيد ،زعيم الدواسر، على واحة البيشة. فاستسلم السكان. ولكنهم تعرضوا لهجوم معاكس قام به الشريف فهيد ابن عبد الله الذي كان قد ارسله الشريف غالب بجيش قوي، فلم يجدوا بداً من الاستسلام لعدم

حضور النجدة الوهابية . وفى اثناء عودة فهيد هاجم رنية، الا انه لم يصب كبير نجاح هناك.

هذا بينما بدأ هادى بن قرملة هجوماً ذا مرحلتين ضد قبيلة البقوم قرب ترابة.

واستمرت هذه العمليات حتى بداية سنة ١٧٩٨ ثم ارسل عبد العزيز قوة من الاحساء لتهاجم الكويت، فاستولت على عدد كبير من جمال السكان فى المرعى، ثم صدت قوة خرجت لمهاجمتها، وكبدتها خسائر فادحة، غير أن المهاجمين لم يتمكنوا من دخول المدينة.

اما الجانب الاخر من الجزيرة، فقد أرسل حمود بن ربيعان زعيم عتيبة، والذى كان يظن بانه يخضع لسلطان الحجاز، وفداً الى عبد العزيز يعرض عليه خضوع عشيرته للحكم الوهابى، واستعداده لدفع التعويضات عن جرائمه السابقة. فوضعت الترتيبات المناسبة لهذا الامر. غير ان نكوص عتيبة، اغضب غالباً ودفعه للعمل، فسار على رأس حملة كبيرة ليهاجم هادى بن قرملة القحطانى.

وبعد معركة جرت فى الصحراء، لقى فيها هادى شر المصير، تقهقر الى رنيه بينما استمر غالب فى مهاجمة الواحة دون ان يصيب نجاحاً كبيراً. وفى هذه الاثناء كانت أسهم القضية الوهابية ترتفع فى التخوم الغربية وكان إرتداد عشائر البقوم إلى معسكرات الوهابيين ضربة قاصمة اخرى تسدد الى غالب.

حينئذ غير عبد العزيز وجهة عملياته الحربية وانحرف نحو

الشمال. وارسل حجيلان بن محمد امير بريده لغزو الشرارات على الحدود السورية، فاصاب شيئاً من النجاح وقتل قرابة المائة والعشرين رجلاً منهم واستولى على غنائم كثيرة، وزعها بين المشتركين فى الغزوة وبين الدولة.

وفى آزار من هذه السنة، قاد سعود حملة على الحدود العراقية: فغزا سوق الشيوخ، ثم استدار نحو سماوة، فالتقى هناك بقوة من بدو شمر وظافر تحت امرة مطلق بن محمد زعيم الجربا، على آبار الأبيض. وفى المعركة الضارية التى دارت رحاها عند تلك الآبار، قتل مطلق، وابت الشمس عن يوم مظفر للوهابيين الذين استولوا على معسكر الاعداء بما فيه. ولقد كانت خسائرهم ايضاً كبيرة جداً، وكان من جملة قتلاهم براك بن عبد المحسن، فانتهت بموته المهمه التى وكلت اليه.

وفيما كان سعود منهمكاً فى الشرق، كان الشريف غالب يقود حملة واسعة مدعمة بالجنود المصريين والمراكشين، على الواحات الجنوبية الغربية. وبالرغم من تقطيع النخيل والمناوشات الدموية التى جرت خلال الثلاثة اسابيع التى اقامها هناك، فشل غالب فى زعزعة مراكز المدافعين، فانسحب الى بيشة، حيث استطاع اخضاع الواحة كلها بمناصرة عناصر كانت موالية له فيها. بما فى تلك جنينة والروشان حماة الوهابية فى تلك المنطقة.

ويقول ابن بشر بأن غالباً عاد من هذه الحملة راضياً عن نفسه كل الرضا. ومر به خرمة حيث ضرب خيامه هناك. فهاجمه انذاك، هادى بن قرملة بجيش قوى من الوهابيين. وكان من نتائج هذا

الهجوم الغير المنتظر ان تضعضع جيش غالب وانهزم، تاركاً وراءه الخيام وما فيها للعدو الذى راح يطارده دون هوادة، فقتلوا من قتلوا من جيشة، واستولوا على اموالهم. ويقدر ابن بشر عدد قتلى جيش غالب بالف مائتين وعشرين قتيلاً، وكان بينهم الشريف سعود بن يحيا بن بركات، وابن اخيه هيازع وزعماء اخرون.

اما جيش الاتراك المؤلف من المصريين والمغاربة فخسر ستمائة رجل. وقد استولى الوهابيون على رواتبهم الكبيرة التى كانت ستوزع عليهم صباح ذلك اليوم علاوة على الغنائم المعتادة فى الحروب.

ويتوقف ابن بشر عند هذه النقطة، ويسرد لنا قصة مطولة شيقة عن العمليات الحربية الفرنسية فى مصر وفلسطين سنة ١٧٩٨ والسنوات التى تلتها. والحق انه يصف معركة عكا وصفاً رائعاً. ويتحدث عن وصول الاسطول البريطاني. ويدعى انه نقل هذا الذى كتبه واختصره عن تقرير وجده فى الطائف عندما احتلها عثمان المضايفى.

الا ان القصة لاتهمنا، اذ لاعلاقة لها بشؤون الجزيرة العربية البعيدة عن العالم الكبير فى تلك الايام، والتى كانت تدور فيها المعارك الطاحنة دون اكتراث للصراع العالمى الذى كان يمكن ان يجرف الجزيرة العربية ومقدساتها لولا انتصارات البريطانيين، عند حدودها البعيدة، على جيوش نابليون المعدة لاحتلال الهند.

ويقول ابن بشر : بان اخبار معركة عكا ، وصلت الى مكة، فقد



المواقع التي انهزم فيها الشريف غالب الذي كان مدعماً آنذاك بجنود المصريين والمراكشيين، وقد تكبدوا خسارة عدد من القتلى يقدر بألف ومائتين قتيل

جاء بها رجل من قبيلة حرب، وكان هذا هو الشخص الوحيد الذى نجا من جماعة صغيرة مؤلفة من عشيرته كانت تقاتل مع الاتراك.

ومما هو جدير بالذكر بهذه المناسبة ان رجلاً آخر قص نفس القصة على الملك حسين يوم زار الاردن سنة ١٩٢٤، وادعى انه شاهد نابليون بأم عينه فى عكا سنة ١٧٩٩، وكان فتى عمره آنذاك خمسة عشر ربيعاً.

وبعد الهدوء الذى تلا اندحار غالب فى صيف ١٧٩٨، ارسل عبد العزيز ربيع بن زيد زعيم الدواسر ليهاجم البيشة بجيش من عشيرة قحطان. فنهب القرى الصغيرة فى الواحة، واقتحم بعضها واستسلمت الاخرى. كذلك فعلت روشان نفسها، وقدمت ولاءها الى سالم ابن محمد بن شكبان الذى عينه عبد العزيز أميراًعلى المنطقة بكاملها.

وفي اوائل السنة التالية قام سليمان باشا والى العراق فاعد جيشاً لا يقل عدده عن ثمانية عشرألفاً من الفرسان، والجند النظامى والبدو مع مدافع كثيرة لغزو الاحساء. فاسرع اهل الهفوف والمبرز وقرى الواحة الاخرى لاعلان خضوعهم للقائد على كيخيا.

غير ان حاميات حصون الهفوف والمبرز،(قصر سهود) تحدت الغزاة، فوجه الاتراك جل اهتمامهم فى البداية الى المبرز. وقد امضى على كيخيا قرابة الشهرين وهو يحاول إحكام الحصار الحربى ضد حامية ماجد الصغير التى لم يتجاوز عددها المائة، فاحدث بعض الصدوع فى تحصيناتها ولكنه فشل فى الاستيلاء عليها. ولدى

سماعه بوصول جيش سعود لنجدة الحاميات المحاصرة، فك الحصار وارتحل بعد ان احرق كل معدات الحصار ودفن الذخائر فى الصحراء.

وما ان سمع سعود بأمر رحيله حتى سارع الى الثج ليسد العدو المتقهقر فتوقف عند آبار الشباك ليعد العدة للمعركة المتوقعة. وبعد بضعة ايام من المناوشات بين الطرفين، عرض على كيخيا على سعود الهدنة فوافق سعود مشترطاً ان يعود الاتراك بأمان. ثم سار الى الاحساء ليشرف بنفسه على اعادة بناء الحصون ومراكز الدفاع الاخرى فى الاقاليم. وعين سليمان بن محمد بن ماجد والد بطل المبرز، اميراً على الاقليم.

ومن هناك عاد سعود الى الدرعية فى اواخر الصيف. فجاءته الاخبار بنجاح الحج الذى قام به جماعة من اهل الوشم والقصيم، تحت إمرة امير الشقرا، يرافقه على وابراهيم، والدا المرحوم الشيخ محمد ابن عبد الوهاب. وكان هذا ممكناً، اذ ان الشريف غالب بعد اندحاره فى خرمة، كتب الى عبد العزيز يقترح عليه عقد الصلح بين الطرفين. ويدعو الحاكم الوهابى لان يسمح لرعاياه بأداء فريضة الحج كما تعودوا فى السابق.

وقد شجع نجاح الحج فى تلك السنة سعوداً لان يعيد الكرة على نطاق اوسع وبابهة اعظم سنة ١٨٠٠، فقام على رأس جموع غفيرة من نجد، مع نسائهم واولادهم، باداء الفريضة. ومر الحج بسلام، واكرم غالب وفادة سعود ودعاه الى ان يعود فى السنة التالية مع والده الشيخ المسن. ويظهر ان الطرفين دفنا احقادهما الى الابد وعاد

الوئام بين زعيمين كان لهما العذر كل العذر، دينياً ومدنياً، في ان يكرها بعضهما بعضاً.

وبعد مرور اثنى شهراً سار عبد العزيز العظيم الذى كان فى الثمانين من العمر، وخرج من الدرعية مع سعود وحشد كبيرمن شعبه. وما كادت القافلة تصل مشارف الدوادمى على مسيرة سبع ليال، حتى شكا عبد العزيز من انحراف فى صحته، وقرر العودة الى بلاده، تاركاً سعوداً ينوب عنه فى موسم الحج.

ومرة اخرى استقبل الشريف ضيفه بمظاهر الحفاوة والتعظيم. وقد عاد سعود الى الدرعية بعد ان قدم هبة مالية كبيرة لتوزيعها على فقراء الحرم الشريف، وكان مسروراً من توطيد العلاقات الودية بينه وبين جيرانه فى الغرب.

وتوقفت الاعمال الحربية طيلة سنتين كاملتين ليس لدينا خلالها ذكر شئ من النشاط. ولعل الهدنة التى عقدها غالب طبقت على جميع الحدود الوهابية العربية. غير ان سعوداً عاد فعكر الهدوء الذى كان سائدا حينما قاد حملة على الحدود العراقية سنة ١٨٠١ - ١٨٠٢ .

وبعد المناوشات المعتادة بينه وبين الظافر والمنتفك، ظهر فجأة امام كربلاء، المدينة المقدسة، فى اذار من سنة ١٨٠٢ ، فاقتحمها عنوة بعد حصار قصير، واعمل السيف فى رقاب اهلها ونهبهم. لقد قتل السكان بلا رحمة فى الشوارع والبيوت ودمرت ضريح الحسين ونهب المجوهرات التى كانت تغطى الضريح وجمع كل شئ ذا قيمة

في المدينة ونقله الى ابار الأبيض قرب سماوه، حيث اسقر بامان وطمأنينة ليحصي غنائمه ويوزعها كالمعتاد. ثم عاد الى الدرعية ليحظى بتهنئة والده وشعبه على الضربة الجريئة التي سددها في سبيل خدمة المذهب الحنيف ضد فرق دينية تعتبرها الوهابية إحياء وتجسيداً للوثنية.

والحق يقال بأن عمله هذا، هز العالم كله فضلاً عن الشيعة. فقد كان نقطة انطلاق ركينة لانقلاب على الوهابية. كما أدى فيما بعد الى عواقب وخيمة على هذه الدولة.

أما في الدرعية فلم يكن هنالك حد للفرح والابتهاج الذي عمها وغمر قلوب اهلها. كان ماجرى في كربلاء سيتم في مدن الحجاز المقدسة الاخرى. وعندها سيبدأ مد الانتقام والعقاب الشديد.

وكان احد الضحايا المجهولين للفظائع التي ارتكبت في كربلاء هو الذي سيضرب ضربته الاولى، كفارة عن انتهاك حرمة هذه المقدسات.

وفي أواسط شهر أيار من سنة ١٨٠١ اعد حاكم مسقط،سلطان ابن احمد ابن سعيد، حملة بحرية قوية ضد جزر البحرين، فلم يجد صعوبة في انتزاعها من زعماء آل خليفة (عتبان) الذين استولوا عليها من الفرس قبل ذلك بنصف قرن. فطلب زعيم آل خليفة مساعدة الدرعية لاستعادة ملكه. وبعد قتال ضار طرد الوهابيون الغزاة من الجزيرة بعد ان كبدوهم زهاء الفي قتيل.

ولنعد الآن الى مجرى الحوادث الرئيسى فى الوهابية سنة ١٨٠٢ ،حيث توفى كل من زعيم عتيبة، حمود بن ربيعان، وسليمان باشا الذى خافه الملازم على كيخيا والياً على بغداد ، فنجد ان تراخياً طرأ على العلاقات بين الدرعية ومكة من حادثة لايمكن ان يلام عليها اى من الطرفين، وان كان من نتائجها تعريض كيان التفاهم السريع الانفصال الذى كان قائماً بينهما منذ هزيمة غالب فى خرمة، الى الانهيار.

كان غالب قد طرد رئيس وزرائه عثمان بن عبد الرحمن المضايقى لسبب غير معروف، فتوجه عثمان رأساً الى الدرعية، ليعرض خدماته وولاءه على الحكومة الوهابية. وبعد ان رحب عبد العزيز وسعود بهذا الحليف القوى، عاد عثمان الى بلاده فى عبيلة عند تلال الطائف، واخذ يمنع العناصر البدوية الحجازية من خدمة غالب. ثم بدأ يجمع حوله نواة جيش حتى يكون على اهبة الاستعداد ليقوم بأية عمليات من شأنها مساعدة القضية الوهابية ضد سيده السابق. فاخذ غالب بزمام المبادرة وهاجم عبيلة بقوة كبيرة يدعمها الجيش النظامى، ولكنه فشل فى زعزعة الثوار. فتراجع الى الطائف ليعيد تنظيم جيشه.

اما عثمان فحصل على النجدات التى طلبها للهجوم على الشريف، إذ جاءه سالم بن شكبان بجيش من بيشه، ومسلط بن قطنان ومعه فريق من سكان رنيه، وحمد بن يحيى بفريق البقوم من ترابه. واخيراً هادى بن قرملة مع جيش من قحطان وعناصر من عتيبة.

حينئذ تقدم غالب نحو الطائف، وكان قد نظمها وحصنها للمقاومة. ولكنه تراجع لدى رؤيته الاعداد الهائلة التى كانت بانتظاره، وانسحب بجيشه النظامى ليؤمن بذلك سلامة مكة، تاركاً الطائف تحت رحمة الاعداء . فاستولوا على المدينة ولم تبد منها أية مقاومة فعلية. وقد نهبوا كل شئ ذى قيمة فى المدينة، وقتلوا من سكانها مايقرب من مائتى قتيل فى الشوارع والبيوت.

وقد أعاد التاريخ نفسه بعد مائة وعشرين عاماً، حين هاجم عبد العزيز الاخير المدينة بقواته البدوية فاحتل الوهابيون الحجاز نهائياً.

ولدى سماع سعود باخبار هذا التطور المرضى، اصدر امره فدعا الى حشد عام للقوات الوهابية من القبائل والمناطق الاخرى وسار باتجاه سبيله Sibila قرب زلفى، حيث بقى هناك ليستعرض جيوشه فترة من الزمن. وفى نهاية اذار سنة ١٨٠٣ وصل الى الحدود الحجازية ونصب خيامه على آبار عشيرة فى وادى العقيق، حيث تمكن من السيطرة على الممرات المؤدية من الجبال الى بطحاء مكة.

وصدف ان كان ذلك فى موسم الحج . وكان الحجاج السوريون والمصريون والمغاربة، وجميع من رافق سلطان مسقط فى حجه الاول موجودين هناك. وكانوا جميعهم مسلحين، واقوياء بحيث يستطعون صد الغزاة. وقد ابدوا فعلاً ميلهم للخروج الى الهجوم. ولكن آراءهم اختلفت. وقر قرارهم آخر الامر على وجوب مغادرة مكة الى بلادهم حيث كانت الطرق الشمالية بمحاذاة الساحل مفتوحة

امامهم. اما غالب الذى كان خائفاً جداً فانسحب من مكة الى جدة مع جنده النظامى وكافة كنوزه وذخائره ومستودعاته.

واما سعود فارتحل الى حمامات سيل الكبير، حيث قام جيشه بالاغتسال والتطهر ولبسوا لباس الحج (الاحرام) استعداداً لدخول مكة. واعلن سعود العفو العام عن السكان ووزع عليهم الهبات السخية. وقامت القوة الغازية بشعيرة العمرة او الحج الاصغر، وانتشروا فى المدينة يبحثون عن القباب التى بنيت على اضرحة ابطال وبطلات فجر الاسلام، والاماكن الاخرى التى لها علاقة بالسير الاسلامية فهدموها. واستمرت هذه المهمة عدة اسابيع كما نفذت بحماسه منقطعة النظير، فقوض كل بناء تعارض اقامته المبادئ الوهابية وتحول الى ركام وتراب.

وكان غالب فى هذا الحين يحاول كسب الوقت فى تحصين جدة، اذ ربما دعت الضرورة الى ذلك. هذا مع انه ظل على اتصال بسعود، فاقترح عليه ايجاد تسوية سليمة لخلافاتهما. ولكن سعوداً عين عبد المعين بن مساعد، شقيق غالب اميراً على مكة، ومن ثم تقدم الى جدة آملا فى ان يحتلها بعد هجوم مباغت. الا انه وجد التحصينات قوية لدرجة لم يستطع مهاجمتها رأساً. فقد بنى غالب سوراً حول المدينة وحفر خندقاً واسعاً خارج السور. فعاد سعود ادراجه الى مكة، وهناك اقام حاميات قوية من الوهابين فى حصونها المختلفة، ثم سار الى نجد.

وكان هذا فى اواسط صيف عام ١٨٠٣ .

وبعد ذلك اقام سعود فى الدرعية واوقف الاعمال الحربية. غير ان الاستيلاء على مكة واحتلال جنوب الحجاز باستثناء جدة، لم يعن نهاية مهمته. لقد بقي عليه الكثير ليقوم به، ويضيفه الى ما انجزه عبد العزيز فى خلال حكمه الذى امتد ثلاثين عاماً. وكان سعود فى السنوات الاولى منها اليد اليمنى لوالده، فى الحملات التى وضعت الاسس التى أقام عليها امبراطوريته.

كان عمر عبد العزيز الآن اثنين وثمانين عاماً. فحالت شيخوخته دون قيامه بفريضة الحج قبل سنتين. وكان هذا يعود الى سوء حالته الصحية فى اواخر حياته. ويبدو انه فى مناسبة سابقة اصيب بنوبة جعلته يطلب الى رعاياه ان يصلوا من اجل شفائه، ووزعت الصدقات السخية على الفقراء فى جميع المدن الرئيسية والقرى فى مملكته.

ولم يكن هنالك امل فى حياة اطول له، بالرغم من كل ما فعل. الا ان الشكل الذى انتهت عليه حياته كان مفجعاً محزناً. فقد كان يصلى كالمعتاد فى مكانه المعروف وسط الصف الاول من المصلين فى جامع طريف، قلعة الدرعية، فى الثانى من تشرين الاول او بعد ذلك بيوم اويومين، عندما هاجمه رجل غريب، اثناء ركوعه للصلاة.

وكان هذا الرجل درويشاً قبله الاميرفى بلاطه وهيأ له الفرصة الكافية لتلقى التعاليم الوهابية. كان يجلس فى الصف الثالث من صفوف المصلين وراء عبد العزيز مباشرة فالقى بنفسه عليه وطعنه بمدية اخترقت بطنه من الخلف وكان عبد الله بن محمد، شقيق

الامام، يقوم بأداء الركعة المطلوبه بجانب اخيه، فهاجمه الدرويش ايضاً ولكن عبد الله كان اسرع منه مع انه اصيب بجرح بليغ، فاهوى على المعتمد بسيفه بينما اسرع اخرون فذبحوه. وحدث اضطراب في الجامع، ولكن سرعان ما ساد الهدوء عندما علم الناس بالحقيقة. فاستدعى سعود من مزرعة نخيل في المشيرفة كان يقضي فيها يومه في الراحة والاستجمام، وحمل عبد العزيز الذي كان لايزال حياً وان كان فاقد الوعي، الى قلعته حيث فارق الحياة بعد ذلك بقليل.

وقضي الامر. وتوفي عبد العزيز ولم يتمكنوا من انقاذ حياته، اما القاتل فتخلصوا منه. ولدى وصول سعود الى المكان، سيطر على الوضع، وعزى شعبه بفقد زعيمه العظيم وطلب الى السكان أن يركنوا الى الهدوء ويقدموا ما يتوجب عليهم نحو القضية. ثم بايعه رعاياه على الولاء والاخلاص بمناسبة تعيينه خلفاً لوالده على العرش.

ويعتقد أن القاتل كان يقصد سعوداً بالذات، انتقاماً منه لما فعله في كربلاء فقد كان القاتل من سكانها. وقد شهد بأم عينيه ذبح الابرياء (ومنهم زوجته واطفاله) فأقسم على الانتقام.

وهناك قول اخر: وهو ان القاتل كان كردياً من العمارية قرب الموصل، يدعى عثمان، ولم يكن الباعث له على القتل معروفاً. وربما كان مدفوعاً استؤجر ليقوم بهذا العمل اذ كان سنياً ليس له اى مأرب ديني من عمله .

ويرسم ابن بشر في عرضه لقرائه تاريخ عبد العزيز صورة شعرية جميلة ، لأحوال نجد خلال حكمه . لكن العمليات الحربية المستمرة التي وقعت في الجزء الاخير من القرن الثامن عشر لا تكاد تثبت صحة ما ذكره عن الامن التام المطلق في جميع انحاء المملكة حتى اقاصي الصحراء . حيث كما يقول : كانت الخيول والجمال ترعى ولا رعاة معها ، يمرسها راع واحد كثيرا ما كان يتغيب عن مضرب خيمته فيجد لدى عودته زيادة غير متوقعة حققتها امه العزيزة الجانب .

ولا شك في ان عبد العزيز وسعودا كانا يرميان دائما الى مثل هذا الحكم المثالي ، ولكن ذلك الحلم كان من نصيب جيل متأخر من ابناء هذا البيت ، قام بتحقيقه فعلاً في الصحراء اعربية.. ولا شك في تقوى عبد العزيز وحبه للإحسان. غير أنه عاش حياته في عالم كله شر ، وكان عزمه على التمسك باهداب الفضيلة ونبذ الرذيلة ، دائما بحاجة الى ساعده الايمن لحماية الضعيف من القوى . وقد قام دائمـا باداء هذا الواجب دون تردد ، وابدى صبـرا وطول اناة في معاملة المنحرفين الذين ثاروا على حكمه ، يستحقان منا كل تقدير واعجاب . وكذلك كان لجوءه الى السلاح واحتكامه الى الشدة في اخضاع المتمردين من سكان بلاده لسلطانه . فكانت الضرائب تدفع بانتظام خشية الغرامات المادية التي كانت تعقبها اذا ما تأخر اداؤها . وكان طلبه (عبد العزيز) من المدن والقرى أن تقدم للدولة المجندين ، يقابل بارتياح تام وينفذ في الحال وبصورة كاملة ، خشية معاقبة كل مقصر في هذا السبيل .

ولا يورد ابن بشر اى شيء مفصل عن الموارد الاقتصادية للدولة ى زمن عبد العزيز الا أنه يزودنا ببعض المعلومات الوافية عن لاساليب التى كانت تطبق فى تمويل حاجات الحكومة ففى سنة راحدة مثلا كان مجموع ما دفعته عشيرة مطير من الضرائب يبلغ لثلاثين الف ريال (ربما ثلاثة الاف جنيه ذهب) وفى نفس السنة بلغ مادفعه بدو سورية للخزينة المركزية اربعين الف ريال ، وما دفعته عشيرة هتيم الوضيعة النسب سبعة الاف ريال.

وبالاضافة الى هذه الضرائب النظامية التى كانت تفرض على المواشى، ومزارع النخيل والمحاصيل الزراعية الاخرى ، والتى ليس لدينا معلومات عنها ، كانت هناك غنائم الحملات الحربية التى قامت بها الدولة . وكانت هذه بالطبع ، تشكل موردا هاما وهائلا للخزينة فقد كان للدولة الحق فى خمس الغنائم الحربية ويبدو أن الدولة كانت تنمو بشكل معقول . وكانت النفقات على المؤسسات الدينية والتعليم ، دون ذكر الصدقات السخية ، تأتى على نسبة مئوية كبيرة من موارد الدولة ، بالاضافة الى الكرم ودور الضيافة التى كانت تشكل عبئا ثقيلا لابد منه .

اما شكل الادارة التى كانت تتمشى مع مقتضيات الاحوال فى الصحراء قبل الحكم الوهابى بعدة اجيال فقد صمدت على حالها منذ اواسط القرن الثامن عشر . فاضطرت الدولة الى اجراء تعديل فيها فى الفترة التى تميزت بالثراء بعد الحرب العالمية الثانية .

وكان شكل الحكم بسيطا ومعروفا لدى الشعب الذى قاسى الامرين فى الماضى من الكوارث الطبيعية : كالمجاعات والجراد

والاوبئة ، فلم يكن لدى المواطنين عوامل اقتصادية تدفعهم لان يتذمروا من حكومتهم التى كانت تعلو وتسقط بعوامل شخصية محضة.

ولا تزال هنالك فى الوقت الحاضر مظاهر من الاساليب القديمة بالرغم من تطبيق الاساليب المعيشية العصرية ، ومثال ذلك مسؤولية الحكومة فى الحفاظ على الخدمات الدينية والصدقة والضيافة وتعهدها بتمويلها .

فالادارة المركزية لا تزال - كما كانت فى السابق - منوطة بالحاكم الذى له ملء الحرية فى اختيار المساعدين لادارة الدوائر الحكومية المختلفة والاشراف عليها . ولم يحدث اى تغيير فى اسلوب حكم الاقاليم التى تشترك فى ادارتها السلطة التنفيذية والقضائية (الحاكم والقاضى) كما كان الحال فى زمن عبد العزيز الاول ، بقطع النظر عن ادخال نظام الجمارك والمكوس والموظفين الماليين لجباية الضرائب وضبطها . وإن لمحة قصيرة على جهاز ادارة الاقاليم الذى وضعه عبد العزيز لسد حاجات الامبراطورية الضرورية ، تلك الحاجات التى نشأت فى حكمه ، لهى خير خاتمة رائعة لتاريخ اعماله ومنجزاته التى سردها هذا الفصل . اما الاقاليم والوظائف الرئيسية وكبار الموظفين فى المملكة التى آلت الى خلفه سعود فكانت كما يلى :

الاقليم	الحاكم	القاضى
عسير تهامة	عبد الوهاب ابو نقطة	
الحجاز	عثمان بن عبد الرحمن المضايفى	
عمان	صقر بن (راشد) - من راس الحيمة	
الاحساء	سليمان بن محمد بن ماجد	
القطيف	احمد بن غانم	
زيارة والبحرين	سليمان بن خليفة	
وادى الدواسر	ربيع بن زيد الدوسرى	سعيد بن حجى (فى الحوطة)
الخرج	ابراهيم بن سليمان بن عفيصان	محمد بن سويلم
محمل	سارى بن يحيى بن سويلم	
الوشم	عبد الله بن حمدين غيهب	عبد العزيز بن عبد الله الحسين
السدير	عبد الله بن جلاجل	حمد بن راشد العرينى
القصيم	حجيلان بن حمد (فى بريدة)	عبد العزيز بن سويلم
جبل شمر	محمد بن عبد المحسن بن فايزبن على	
الدرعية	حسين بن محمد بن عبد الوهاب	
خطيب الامام		عبد الرحمن بن خميس
المجمعه والمنيح (يشملها السدير)		محمد عثمان بن شبانة

الاقليم	الحاكم	القاضى
البيشة	سالم بن شكبان	
رنية	مسلط بن قطنان	
ترابة	حمد بن يحيى	

ملحوظة : الفراغ يشير الى أنه لم يكن هنالك من يشغل هذا المركز بصورة دائمة وكان يشغل المركز مدة سنة او ما يقاربها ، قضاة يرسلهم الامام من العاصمة .

الفصل الرابع

سعود الثانى ابن سعود

عندما ارتقى سعود عرش الدرعية ، كان عمر هذا العامل الذى سميت العائلة باسمه قبل فجر الوهابية المعاصر، خمسا وخمسين سنة. وكان قد اشترك اشتراكا فعليا فى تصريف امور الدولة تحت امرة والده ، منذ خمسة عشر عاما . اى منذ اعلانة وارثاً للعرش سنة ١٧٨٨ . وكانت اعماله العسكرية قد امتدت ستة وثلاثين عاما ، اى منذ حملته الضارية والناجحة على قرية العودة فى السدير تحت امرة ابن عمه الادنى ، هذلول بن فيصل بن محمد سنة ١٧٦٧ . كما عمل معظم الوقت كقائد اعلى للجيوش التى اعدها والده للحملات العسكرية العديدة طوال حكمه الطويل . كان خبيرا جدا فى الامور الحربية ، وفى المسؤوليات الحكومية التى آلت اليه الآن ليكمل بما ما بدأه والده من قبل . فكتب له فى خلال حكمه ، ان يرى القضية الوهابية تصل الى اوج انجازاتها العظيمة .

وفى أوائل سنة ١٨٠٤ ، بل فى الشهور الاولى منها ، نجده مرة اخرى فى ميدان القتال ، متجها شمالا نحو مدينة تنومه فى القصيم، حيث طلب الى الجند من عشيرته ومواطنيه أن يقابلوه هناك استعدادا لحملة الربيع. وفى نهاية شهر آذار كان لا يزال هناك، يحتفل بموسم الحج فى مكة ، لكنه عاد بعدها بصورة مفاجئة الى الدرعية ، الامر الذى ادهش الجميع ، وطلب الى جميع الفرق

الشمالية ومنها بنو ظافر أن تعود لبلادها . ثم سار مع بقية الجيش الى الجنوب .

وبعد أن منح مقاتلي بني ظافر الوقت الكافي للعودة الى الحدود العراقية ونشر الاخبار عن عودته الى الدرعية ، عاد فغير وجهته ، وسار بكل ما لديه من سرعة الى البصرة . ولدى اقترابه منها اصطدم بجماعة من خيالة المنتفك يقودهم منصور ابن ثامر ، فهاجمهم في الحال وهزم العدو واسر منصورا نفسه ، ثم ارسله الى الدرعية حيث بقي طيلة اربع سنوات .

وبعد هذه المعركة عسكر سعود قرب الزبير من حيث ارسل جيوشه لتنهب وتدمر ضواحي البصرة ، فجلأ سكانها الى منازلهم واغلقوا ابوابهم عليهم .

ولقد ركز سعود همه في حصار الزبير ، وفي اثناء ذلك أخذ في تدمير القباب المبنية على الاضرحة ، ومزارات الحسن وطلحة التي ظلت خربة حتى اعيد بناؤها بعد سقوط الدرعية . ثم هاجم حصن الدريهمية ودمره ، وقتل جميع افراد حاميته .

وعند غياب الشمس ارعب السكان المحاصرين بان امر جميع افراد جيشه باطلاق النار في آن واحد . غير أن أهل الزبير لم يظهروا أي ضعف من جانبهم .

وبعد حصار غير مجد ، استمر اثني عشر يوما ، سحب سعود قواته وعاد إلى بلاده بعد أن جميع المحاصيل الزراعية التي كانت ناضجة آنذاك.

توفى سلطان سقط، السلطان احمد بن أحمد بن سعيد ، على اثر اشتباك بحرى جرى بينه وبين قرصان القواسم فى رأس الخيمة Khaima وخلفه اخوه بدر.

وفى هذه الاثناء رأى سعود ضرورة احداث بعض التغيير فى التنظيمات الإدارية الاقليمية التى كانت فى زمن والده . فنقل ابراهيم بن عفيصان من الخرج إلى الاحساء ، ليخلف سليمان بن محمد بن ماجد المعزول . وكان هذا اعظم حدث وقع فى هذه السنة ، إذ كان له اثره فى مستقبل الجزيرة العربية بعد استلام محمد على باشا زمام الحكم فى مصر . وكان محمد على فى ذلك الوقت قائداً للقوات التركية فى البلاد ، غير أنه اثار على الحاكم المحلى محمد باشا وقتله ثم تولى الحكم . وكان ذلك بسبب حادثة تافهة، مثل منع الطعام عن الجيش او تأخيره . اما الباب العالى فقد أيد ما فعله محمد على باشا وثبته والياً على مصر.

وفى خريف عام ١٨٠٥ ، قرر سعود أن يقوم بحملة تأديبية ضد بنى ظافر ، أثر بلوغه اخبار تقاعسهم فى الامور الدينية واشتراكهم فى مهاجمة القبائل الوهابية النجدية . ولدى وصوله لينة Lina المتاخمة لصحراء الدهناء على الحدود العراقية حيث كانت منازل بنى ظافر ، طلب اليهم الانضمام الى قواته كما كانت العادة فلبى الدعوة فريق صغير منهم تحت امرة احد زعماء القبيلة ، مسلط بن شيوش ابن عفنان .

ولما اشار سعود الى مسألة قلة عدد الفرقة ووبخ زعيمها، اجابه

هذا قائلا بان بقية القبائل قد خرجت على سلطانه وقررت ان تهاجم قبائل مطير ، مخلين بعهدهم الذى قطعوه بعد أن اصلح بينهم سعود منذ عهد قريب . فاتجه سعود الان الى الحدود العراقية ولكنه دار ليلقى بجميع قواته فى هجوم على المعسكر الرئيسى لعشيرة ظافر . فقتل عددا كبيرا منهم وفر الباقون . ثم نهب كل ما يملكون.

وكانت الغنائم تتألف من عدد كبير من الجمال والغنم والامتعة والمؤن . وكان بينها عدد كبير من الجمال والاغنام تخص قرى السدير المختلفة ، فاعيدت الى اصحابها لدى اثبات ملكيتهم لها.

ووجه سعود الان انظاره للحجاز ، حيث اقيم حصن فى وادى فاطمة ووضعت فيه حاميه للضغط على غالب . وفى نفس الوقت أرسلت التعليمات الى عبد الوهاب أبى نقطة امير عسير تهامة ، بأن يهاجم جده بكل ما لديه من قوات . فضرب خيامه عند آبار السعدية قرب الساحل ، على بعد يوم ونصف اليوم من مكة . وكان عدد هذه القوات ستة الاف جندى ، فوصل غالب فى الحال من مكة مع جيش كبير يبلغ عدده العشرة الاف مقاتل ليهاجم ابا نقطة قبل وصول النجدات اليه .

وفى الطريق التقى بدورية من عسير ، تتكون من اربعين رجلا، وابادها ولكن القتال مع القوات الرئيسية لابى نقطة كان شيئا مختلفا . فبعد قتال مرير فرت قوات غالب تاركة وراءها جميع عتادها واموالها ، بما فى ذلك المدافع والذخيرة والاسلحة والمؤن . وكان عدد الاسلحة الصغيرة كبيرا جدا حتى قيل انها بلغت ٢٥٠٠

قطعة .. اما عدد القتلى من قوات الشريف فبلغ ٦٠٠ قتيل معظمهم من الاتراك . وهرب غالب الى مكة .. اما أبو نقطة فعاد الى بلاده فرحا مسرورا ، وإن كان لم ير الشيء الكثير في جده التي كانت هدفه الاصلي .

ولا يتعرض ابن بشر لذكر غالب ووجوده في مكة فقد زعم ان آخر مرة شوهد فيها غالب في جدة كانت عندما عاد سعود الى نجد بعد أن وضع حاميات في حصون مكة . ويظهر أن غالبا عاد الى مكة فيما بعد ليتولى الحكم فيها ، غير اننا لا نعلم هل استمرت الحاميات الوهابية في احتلال الحصون ام لا .

كانت الجزيرة العربية آنذاك ، تحت وطأة الجفاف وانحباس الامطار والمجاعة التي اجتاحت البلاد بسبب مقتل الامام عبد العزيز حسب اعتقادهم ، واستمر انحباس الامطار التام - الذي بدأ في شتاء سنة ١٨٠٤ - ١٨٠٥ - من ست الى تسع سنوات . فقاسى السكان خلالها الامرين . وكان اشدها وطأة في ذلك الجزء من الحجاز الذي كان يحكمه الشريف والاتراك ، لانقطاع كافة المواصلات مع الداخل، وبسبب الحصار الذي ضربه الوهابيون.

وقد ارتفعت اسعار حاجيات الحياة الضرورية ارتفاعا جنونيا لا يصدق، وبيع لحم الحمير والحيوانات الميتة باسعار باهظة ، واكل الناس لحم الكلاب، وكان سعر الرطل الانكليزي من الزبدة ٤ ريالات (ما يقارب الاثنى عشر شلنا) ويقارن ابن بشر الاحوال الطيبة نسبيا التي كانت سائدة في الدرعية والبلاد المحيطة بها ، بتلك التي كانت تسود البصرة والاحساء -- ويفتخر .

ويعنى بالطبع أنه كان بالامكان الحصول على المؤن عن طريق البحر .

وفى الخريف من ذلك العام قرر سعود أن يشدد حملته على غالب . فصدرت الاوامر الى عبد الوهاب ابى نقطة ، وسالم بن شكبان وعثمان المضيفى بان يعدوا حملة هائلة جبارة على مكة وضواحيها . وأن يظلوا هناك حتى مجىء قافلة الحج من دمشق ، فيمنعوها من الدخول فيما اذا كانت مسلحة.

ويظهر أن الشريف غالب وجد أن ليس فى مقدوره مقاومة مثل هذا الجيش الكبير مقاومة فعالة . فطلب عقد الصلح واعداً بان يتوجه الى الدرعية بعد الحج ليقدم خضوعه وولاءه الشخصى . ووافق قادة الوهابيين على طلبه هذا ، فدخلت قوافل الحج مكة دون ممانعة ، وادى عثمان وعبد الوهاب فريضة الحج ايضا .

وبعد مقابلة عبد الوهاب لغالب انسحب عبد الوهاب بجيشه وعاد الى بلاده بعد أن حمله غالب المذكور بهدايا سخية ثمينة . أما سالم بن شكبان فقد مرض أثناء اقامته فى مكة وبدأ فى سحب جيشه والعودة الى البلاد . ولكنه توفى بعد ذلك بقليل لدى وصوله بيشة ، وخلفة ابنه فهاد . وكان غالب فى هذه الاثناء يراسل سعود فعقد معه الصلح بشرط أن يخضع للحكم الوهابى ويعلن ولاءه للقضية الوهابية . فرفع الحصار . ومرة اخرى اصبحت مكة والحجاز على اتصال بمواردها الطبيعية من المؤن وهبطت الاسعار الى مستوى معقول وسار كل شىء سيرا حسناً.

ويبدو أن غالب ، لم يكن جاداً فيما تعهد به فوصلت اخبار تطورات يشم منها الاخلال بشروط الصلح الذى عقد . فقد اكره بعض الحجاج السوريين والمراكشيين على البقاء فى الحجاز للخدمة وكان هذا فى الظاهر من عبد الله باشا العظم ، امير الحج . تنفيذا لاوامر صدرت اليه من الباب العالى . وقام غالب كذلك ببناء التحصينات فى اسوار جدة ، مشروع بحفر خندق حولها ، الامر الذى كان يدينه يخرق شروط الاتفاقية . هذا ، كما امر بعدم دخول الاجانب اليها ومن ضمنهم أهل نجد .

وكان غالب يشعر ويعلم علم اليقين بان سعودا سيقضى اموره : اما سعود فقد كان منهكا فى امور اخرى بالتخوم العراقية حيث كانت قبيلة ظافر تقوم هى وانصارها باعمال السلب والنهب والاعتداء على العناصر الوهابية فى تلك المنطقة باستمرار واختير منصور بن تامر الذى كان كما عرفنا اسيرا فى الدرعية قائدا لهذه الحملة التأديبية العامة على هذه العناصر المتمردة من عشيرة الظافر.

فاشترك مع غصاب زعيم عتيبة ، فى قيادة الحملة المزدوجة وسار الاثنان الى ديار بنى ظافر . فوجدا فرقة غازية قوية من القبيلة نازلة على مياه الفليج Fulaiyij قرب حفار البطين . فأبيدت عن بكرة ابيها تقريبا ، ولم ينج منها غير عشرة رجال من مجموع مائة وعشرة.

وحين وقوع هذه الاحداث ، كانت تجرى هناك تطورات هامة فى منطقة المدينة ، وكان من نتائجها ، أن أعلن المدنيون خضوعهم

للدولة الوهابيـة ، ووافقوا على هدم جميع الاضرحة والمقامات التى انشئت فى المدينة وضواحيها.

ويذكر ابن بشر أن هذا حدث سنة ١١٣٠ هجرية ، اى قبل عقد الصلح مع غـالب فى مكة، أثناء الحج الذى حدث أيضا فى نفس السنة . وبما أن السنة المذكـورة بدأت فى الاول من نيســان سنة ١٨٠٥ وانتهت فى العشرين من آذار سنة ١٨٠٦ (لان ايام الحج كانت من ٢٨ شباط – الثالث من آذار) فيعتقد بان استسلام المدينة جرى فى أوائل صيف سنة ١٨٠٥ أما الصلح مع غـالب فحدث فى شباط من تلك السنة .

ومهما يكن من امر ، فان خضوع المدينة المنورة يعود الى الزيارة التى قام بها الى سعود شابان من قبيلة حرب وهما بادى وبداى Badai ولدا بدوى بن مضيان.

وكان هذان الشابان قد مالا الى المذهب الوهابى ، فجاءا ليقدما خضوعهما ويطلبا ارسال فقيه لارشادهما . فارسل سعود معهما الشيخ عثمان بن عبد المحسن ابو حسين ليلقنهما واصدقاءهما اصول الدين الاسلامى ومبادىء التوحيد . وحوله صلاحية تعليمهم الامور العملية الاخرى . وسرعان ما اضمرا العداء للمدينة فاستقرا فى ضاحية العوالى ، وشرعا فى بناء حصن فيها وفاقا لأوامر سعود . وانضم اليهم سكان قباء نكاية باهل المدينة . ثم قطعوا اتصالها بالعالم الخارجى سنوات عدة حسب رواية ابن بشر.

وأخذ سعود يساعد هذا المركز الثقافى الهام ، فارسل اليهم

الشيخ قرناس بن عبد الرحمن ، قاضى الرس ليزورهم كل سنة . اما سكان المدينة فقد ملوا الحصار فاتصلوا بسعود وكانت النتيجة كما ذكر: دخولهم فى الحظيرة الوهابية .

كان سعود فى هذه الاثناء منهمكا فى حروبه على الحدود العراقية . فقد سار بنفسه على راس حملة متوسطة الحجم وهاجم مشهد (النجف) ، وكانت اسوارها محاطة بخندق، جعل الهجوم عليها متعذرا ، فاكتفى الوهابيون بتبادل اطلاق النار مع المدافعين فى حصونهم وقلاعهم . وقتل عدد من المهاجمين ، فانسحب سعود الى الهندية والحلة ، حيث جرت هناك بعض المناوشات البسيطة.

وظهر أن اطالة العمليات الحربية فى تلك المنطقة امر لايجدى نفعا فانتقل سعود الى سماوه فقطع اشجار النخيل واحدث شيئا من الدمار . وفى طريقه الى بلاده ظهر فى الزبير ولكنه لم يستطع أن يزعزع المدافعين ايضا.

وجاءت من اقصى اطراف الجزيرة العربية اخبار حدوث تطورات مهمة فى جهتين فى نفس السنة (من أوائل سنة ١٨٠٦ أو أواخر ١٨٠٥) وكانت هذه التطورات تهم الوهابيين ولو من بعيد . ففى مسقط ثار ابنا سلطان بن احمد ابن سعيد قتلة قرصان القواسم على عمهما بدر الذى خلف اخاه ، وقتلاه واغتصب سعيد بن سلطان - إحد هذين الولدين - العرش. أما فى تهامة من اعمال اليمن ، فقد قرر صالح ، زعيم ميناء الحديدة ومدينة بيت الفقيه، أن يدخل حظيرة الوهابية ، وهكذا وجدت الوهابية لها موطن قدم فى اليمن دونما اى سعى منها.

ويمكننا القول بان الدعوة الوهابية فى هذا الزمن وما فيها من فوائد ومساوىء كانت عرضة لاختبارات واسعة فى كافة انحاء العالم العربى. ففى الجزء الشمالى من اليمن كانت واحة نجران دائما فى متناول يد مطالع سعود ، فاصدر فى هذه السنة أوامره الى عبد الوهاب ابى نقطة وامراء بيشة ووادى الدواسران ينضموا الى عبيده وسنجان ، وهى من عشائر قحطان الجنوبية ،وامر الودعة Wada'a فى شمال اليمن أن يقوموا بهجوم واسع على نجران ومقاطعاتها .

واحتشدت قوة قوامها ثلاثون الف رجل من اجل هذه الغاية، ولكن ما انجزته ليس شيئا بالنسبة الى مثل هذا العدد وفى الواقع أنها لم تصل قط الى ضواحى نجران ، لانها منعت من التقدم عند بدر ، مركز قيادة اخوان المكرمة (المكرمى) (الاسماعيلية والشيعة) حيث منى لوهابيون بخسائر تفوق خسائر المدافعين . وهناك امر ابو نقطة رجاله أن يبنوا حصنا مقابل منازل المكرمى المحصنة ، وأن يضعوا فيه الحامية اللازمة ، ثم ارتحل مع جنده.

وكان من النتائج السريعة لانضمام الحديدة الى الدولة الوهابية ، أن ارسل امام صنعاء حملة لاسترجاعها . وبعد حصار قصير استولى عليها . فعين ابن صالح المعارض ، اميرا عليها ، غير أن صالحا نفسه (الذى كان فى بيت الفقية) اعد حملة على زابد ، واستولى عليها عنوة ثم دمرها . وقد ارسل الى الدرعية حصتها من الغنائم ووزع الباقى بين قواته قبل عودته الى بلده .

لقد تركت عقيدة الوهابيين ، فيما يبدو ، اثرها فى تهامة اليمنية لأن سكانها «الشوافع» كانوا يكرهون الزيديين سكان

المرتفعات . ودليلنا على ذلك أن القوة التى اعدها صالح للهجوم على زابد كان قوامها ثلاثة الاف رجل ، بالرغم من وجود جيش الامام على شواطئ البحر الاحمر.

اما بطل قصة المدينة فلم يعش طويلا بعد النصر الذى اصابه . لأن بداى بن بدوى اصيب بالجدورى فى نفس السنة ، فخلفه فى زعامة « حرب» اخوه بادى ولم يمض بعض الوقت حتى قام سعود نفسه بزيارة المقاطعة التى كان لبادى ولاخيه اليد الطولى فى ضمها الى الدولة الوهابية.

وبعد أن قرر سعود القيام باداء فريضة الحج الى مكة للمرة الثالثة ، تحقق من امكانية قيام بعض الاضطرابات بسبب مسلك غالب المبهم ، فيما إذا قرر الباب العالى ارسال جيش من الاتراك والجنود النظاميين لحماية قافلة الحج السورية ولذا قام باعلام ابى نقطة والقادة الآخرين الموثوق بهم عن موقفه ورأيه بهذا الشأن قبل ذلك بزمن ، اى فى نهاية صوم رمضان أو فى الاسبوع الاول من كانون الاول سنة ١٨٠٦ . ولكنه مع ذلك لم يغادر الدرعية الا فى نهاية كانون الثانى ، حيث كان الحج سيقع فى الثامن عشر من شباط سنة ١٨٠٧.

وكانت خطة سعود التى وضعها ، تقضى بحشد جيش كبير فى المدينة يتكون من فرق عسير وبيشة ، ورنية تحت امرة امرائها ويقابلهم عثمان المضايفى مع سكان الجبال من منطقة الطائف ، بالاضافة الى عناصر اخرى من الحجاز . يضاف الى هذه قوات القصيم النجدية ، تحت امرة حجيلات بن حمد ، وقوات جبل شمر،

بقيادة اميرها بن عبد المحسن بن على ، وجنود الوشم . وقد انضما إليها فى الطريق جيس كبير من قبيلة حرب بقيادة مسعود بن مضيان وجابر ابن جبارة.

وقد عين سعود المدينة المنورة مكانا للاجتماع الذى سيدخلون منه مكة لاداء فريضة الحج . ولكنه قبل ان يشرع فى السفر ارسل رسولا الى قادة قواته فى المدينة ليطلب منهم منع قافلة الحج السورية من دخول مكة ، أو السفر اليها.

وعليه ، فعند وصول القافلة السورية الى مشارف المدينة المقدسة، أعلم امير الحج عبد الله العظم ، بلطف ، بعدم السماح له بالتقدم ، وطلب اليه أن يعود مع القافلة الى بلاده . وقد فعل ذلك الرغم من الاحتجاج الشديد على هذا الامر.

أما الحجاج التعساء الذين انهكهم السفر طوال الخمسة الأسابيع الماضية ، فاضطروا لأن يعودوا الى دمشق دون أن يروا المدينة ولا مكة. وقد اظهر سعود بعمله هذا بدون شك ، أن شئون الديار المقدسة من اختصاصه هو وحده ، لا من اختصاص السلطان.

وبعد أن عاد الحجاج السوريون الى بلادهم ، سار الجيش الكبير لينضم الى سعود الذى كان فى طريقه الى مكة رأسا من الدرعية فادوا فريضة الحج مظهرين الخضوع لله ، محتفظين مع ذلك بمظهر العزة والعظمة امام الناس ، وهى المزايا التى كان يتحلى بها الوهابيون القدامى . فوزعت الصدقات بسخاء من قصر البياضية الذى اتخذه سعود مركزا فى المشارف الشرقية من مكة . وهناك زاره

غالب ، مجددا له الولاء الذى كان على وشك أن يخل به بعد مرور سنتين من اعلانه . وأرسلت جميع الفرق التركية التى كانت فى مكة وضواحيها الى جدة .

وكان آخر عمل قام به سعود قبل أن يغادر مدينة الله الى مدينة النبى أن كسا الكعبة الكسوة التقليدية الحريرية . وكان قد احضرها معه من اجل هذه الغاية وهكذا انتهى حجه الرابع.

وفى نهاية اذار من السنة ١٨٠٧ ، غادر مكة الى المدينة حيث وجه جل اهتمامه الى تحصينات المدينة والواحة فى وجه اى اعتداء عليها من الاتراك فرمت الحصون الامامية ووضعت فيها الحاميات ، تحت قيادة حمد بن سالم من اهل عيينة ، وطرد القاضى التركى القيم على الحرم . كما طرد اشخاص اخرون كان الوهابيون يشكون فى اخلاصهم وعين مكانهم موظفون وهابيون من جملتهم رجل من الذرعية ، ليشرفوا على الدوائر المالية.

وبعد أن امضى سعود فترة من الزمن فى منطقة المدينة المنورة ، صرف جنده وعاد الى عاصمة ملكة ليقضى فصل الصيف هناك وفى غضون ذلك قامت الثورة فى قصر السلطان فى اسطنبول وادت الى خلع السلطان سليم بن احمد وتعيين مصطفى بن عبد الحميد مكانه.

وفى السنة التالية قامت فى اسطنبول ثورة معاكسة تهدف الى اعادة السلطان سليم ، الذى كان لايزال فى السجن ، فقتل هذا بتحريض مهستشارى السلطان مصطفى . وقد أحدث هذا العمل رد

فعل يوسف باشا قائد الحركة فنجح فى خلع مصطفى ونصب على العرش محمدا بن عبد الحميد ، أخاه القاصر ، الذى استمر فى الحكم حتى سنة ١٨٣٥ - ١٨٣٦ ، حسب قول ابن بشر.

ويدل هذا على أبن ابن بشر بدأ فى كتابة تاريخه فى بداية حكم فيصل أو قبل ذلك ، ترك هذه الملحوظة دون أن يصححها أو يغيرها عند موت السلطان محمود بعد ذلك ببضع سنين . وكان السلطان سليم قبل عزله قد طرد عبد الله العظم من منصب الوالى فى سورية ، بسنبب تراجعه من مكة الذى يدل على الجبن ، وعين مكانه رجلا آخر يدعى يوسف الغنج Chanj .

وفى العراق أيضا انتهى حكم عدو قديم لنجد ، بمقل على كيخيا الذى كان قد خلف سليمان باشا فى ولاية بغداد . وقام رجل آخر يدعى سليمان فاعدم القتلة واستولى مؤقتا على الحكم ريثما يصل فرمان السلطان بالموافقة.

واستمرت المجاعة تجلد بسياطها نجدا والجزيرة العربية طوال هذه السنة . أما فى نهايتها فقد سقطت الامطار الغزيرة فمكنت الناس من زراعة أراضيهم فى فصل الربيع ، مما ساعد فى رفع معنوياتهم بعد الكارثة التى المت بهم . ومع ذلك ، قام سعود باداء فريضة الحج للمرة الخامسة مع عدد غفير من الناس ووجد غالبا راضيا تماما عن الوضع ومسالما ووفيا . ومكث سعود فى مكة زهاء ثلاثة اسابيع كان فى خلالها مثلا طيبا للناس فى محافظته على الشعائر الدينية، كما قام بتوزيع الهبات السخية على المعوزين ، بالاضافة

الى كسوة الكعبة بكسوة حريرية ثمينة . ثم سار لزيارة المدينة المنورة ، للمرة الثانية . وهنا أيضا مكث بضعة أيام يبحث فى أسوراها الإدارية مهتما بالحصون والحاميات ، فعين فى قيادتها عبد الله بن مزروع وهو احد أبناء العائلات المشهورة فى منفوحة .

ويذكر ابن بشر فى كتابه بانه لم يؤد فريضة الحج أى حاج أجنبى، لا من سوريا ولا من أى مكان آخر .

وفى تموز كان سعود مرة اخرى على اهبة الاستعداد لعملياته الحربية ، فعبأ جيوشه لشن هجوم عام على الحدود العراقية . وكان هدفه الاول مدينة كربلاء غير أنه لم يجدها سهلة المنال كما كانت فى المرة الاولى . لقد كانت محمية بسور حصين وعريض لدرجة مخيفة. فهاجمها فى الحال ، وارسل فرقا لتتسلق الاسوار . غير أن مهمة الاستيلاء على المدينة كانت مهمة صعبة التحقيق، فسحب جيشه وسار الى عُثاثه . فهرب سكانها الى المرتفعات القريبة تاركين قريتهم تحت رحمته . غير أنه اغراهم بالعودة واعداً اياهم بالمحافظة على حياتهم ضد اى اعتداء يقع عليهم وعلى ممتلكاتهم ، ولم يطلب منهم غير مائة من خيولهم . ثم غزا المنتفك المجاورة لقناة المجرة Majarra ، وسوق الشيوخ ، قبل أن يعود الى البصرة والزبير فيها جمهما دون أن يصيب ما يرجوه من نجاح .

وبعد أن عاد سعود الى عاصمته من هذه الحملة الخائبة ، بدأ يستعد لأداء فريضة الحج للمرة السادسة . ولقد كانت هذه المرة شبيهة بسابقاتها ،لو لا أنه وجه انتباهه الان الى الامور الدينية ذات

الاهميـة الخاصـة . وكـان بسطاء الناس فى المدينة المقدسـة يجـدون صـعوبة فى استـيعـابها وهضـمـها . فـالآمـرون بالمعـروف والناهون عن المنكر كانوا يتجولون يومـيا ليراقبوا الناس فيمنعوهم من التدخين علنا ويجبروهم على الذهاب الى الجـوامع لاداء فريضة الصلاة فى مواعيدها .

وقـد حـضـر غـالب مـرة اخرى بين يدى سـيـده وتبـادلا الهـدايا ، ووطدا التفاهم والثقة المتبادلة بينهما . وزينت الكعبة بافخم مما زينت به من قبل ، وفى هذه السنة أيضا لم يكن هنالك حجاج من سوريا ومـصـر والعـراق أو مـراكـش ، وإن ادى فـريضـة الحج عـدد قليل من المراكشيين الذين سمح لهم سعود وضمن سلامتهم .

وبعـد أن قـضى الملك الوهابى ، ثلاثة اسـابيع فى المدينة ، عـاد الى بلاده دون أن يزور قبـر النبى فى المدينة المنورة ، إلا أنه ارسل اليـها حـاميـات جديدة لتحل محل حـاميـاتهـا التى امضت هناك قرابة السنة .

ولدى وصـوله الدرعـيـة ارسل حـملة صـغـيـرة الى منطقـة عـمـان ومعـهـا مشـايخ وفقـهـاء يلقنـون أهلهـا مـبـادىء العـقـيـدة الوهابيـة ، ولدراسة الوضع هناك.

وكان هنالك حركـة اثارها الحكام المحليون من مثل قيس بن احمد الامـام من سهـار Suhar وابن اخـيه سعـيـد ، بن سلطان مسـقط . وكـانت هذه الحركـة تهـدد المناطق الخـاضـعـة للوهابيـين ، إذ أن قـوة قـوامهـا عـشرة الاف جندى كـانت تتقـدم نحـو المنطقـة عندمـا وصلت حملة سعود .

وكان سلطان بن صقر من رأس الخيمة . امير المنطقة ، فحشد على التَوْ قوة تتألف من ثلاثة آلاف مقاتل لمقابلة الغزو ، وتقابل الجيشان فى خور المكان ، بين عاصمة السلطان ومقاطعة البطينة فى معركة حاسمة قتل فيها قيس نفسه مع عدد كثير من رجاله وغرق آخرون فى البحر عند هروبهم . وكان مجموع القتلى . يقدر بأربعة الاف قتيل فارسل ابن قيس رسائل الى سلطان بن صقر والى سعود نفسه طالبا الصلح معلنا عن استعداده للخضوع واستعداد شعبه للدخول الى حظيرة الوهابية . ووافق سعود على ذلك فخضع سعيد بن سلطان . واصبحت كل منطقة عمان تحت الحكم السعودى

ووزع سلطان بن صقر غنائم المعركة التى كسبوها فى نفس المكان، وتقاضى سعود خمسها ، كما كانت العادة ، ليرسلها الى الدرعية استمرت المجاعة واستمر الجفاف يلفح البلاد ويصيبها بالاوبئة ، مع ارتفاع الاسعار ارتفاعا فاحشا ، وزاد الطين بلة انتشار الكوليرا التى زادت من رعب الناس واهلكت عددا كبيرا منهم . وحدث فى تشرين الثانى من سنة ١٨٠٨ كسوف فى الشمس ، وتوفى كذلك قاضى الاحساء المشهور ، محمد بن سلطان العوسجى Ausaji فى شهر كانون الثانى التالى ،. واستمر وباء الكوليرا حتى اواسط صيف عام١٨٩٩ ، وكان شديدا بشكل خاص فى الدرعية وما جاورها من بلدان ، حيث كان الناس يموتون بمعدل ثلاثين أو اربعين شخصا فى اليوم الواحد . وكان من جملة الاشخاص البارزين الذين لاقوا حتفهم ، حسين بن محمد بن عبد الوهاب ، قاضى الدرعية الذى خلف ولدا واحدا اسمه على ، ليحمل على عاتقه عبء وراثة العائلة فى المدينة .

وإبان حدة الوباء واشتداد اواره ، اصدر سعود منشورا يدعو فيه السكان الى التوبة عن خطاياهم طالبين الرحمة والغفران من الله ، وذكر في المنشور عدة امور تدعو الى الاصلاح ، وتضرع الى الله العلي القدير أن يرفع غضبه عن شعبه الامين ويبعد عنه هذه المحنة، فقد كان سعود دائما يفكر في الناحية الدينية عند حدوث امثال هذه المصائب .

ويقال بانه حالما قرئ هذا المنشور على الناس المجتمعين في جامع الدرعية ، بدأ الوباء يتوقف . وكان الضحية الثانية للكلوليرا سعد بن عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن سعود ، ابن اخي سعود . وتوفي كذلك اربعة من العائلة المالكة السابقة في العيينة .

وفي نهاية سنة ١٨٠٩ ، خرج سليمان باشا والي بغداد الجديد ، بقوة كبيرة ليؤدب قبائل ظافر وعنزة النازلة عند الحدود العراقية للصحراء . وكانت هذه القبائل تحت زعامة شيوش الذى ورد اسمه في هذه القصة ، ودريع بن شعلان فاستمروا في القتل عدة ايام بالرغم من تفوق العدو . وعندما واجهوا الاندحار الاكيد قرروا يائسين أن ينقذوا انفسهم فشنوا هجوما قويا على الاعداء حتى انهزمت القوات العراقية وتفرقت . ومنى الطرفان باصابات فادحة ، غير أن رجال القبائل ظلوا اسياد ميدان المعركة ثم جمعوا الاسلاب والغنائم وارتحلوا الى الاراضي النجدية .

نزلت امطار غزيرة غير معتادة في منطقة سلسلة جبال الطويق، واستمر هطول الامطار عدة ايام فحدثت فيضانات شديدة في معظم

اودية المنطقة . وهبطت الاسعار مع نضج محصول التمر وبدأ الرخاء يعود شيئا فشيئا الى البلاد .

وكان سعود في هذا الوقت منهمكا في القلاقل التى حدثت في عسير تهامة فقد حدث خلاف بين شريف ابى عريش ، حمود ابى مسمار ندير شريف مكة احمد ابو نعمى وبين عبد الوهاب ابى نقطة، الامير الوهابى فى تهامة باكملها .

كان حمود يجمع الرسوم الجمركية في موانئ منطقته ومن ضمنها جيزان ، طول المدة منذ اعلن انضمامه الى المذهب الوهابى بينما ارسل ولده في زيارة طويلة لسعود في الدرعية . وحدث هنا مناوشات كلامية جعلت تسوية الخلاف متعذرة .

اما سعود فقد اراد اختبار مدى ولاء حمود واخلاصه فارسل اليه يأمره بمهاجمة صنعاء غير أنه تجاهل هذه الاوامر . فاتضح لسعود بان الشريف حمود فى حالة ثورة ولذا حشد جيشا عدته خمسون الف رجل جمعهم من كل البلاد ليسحق الثورة . وزود غصاب زعيم عتيبة ، بقوة كبيرة من الفرسان ومنحه السلطة على المنطقة المضطربة ، الا أنه حذره التدخل فى ادارة ابى نقطة الذى كان المسؤول الاول عن الاقليم وجيوش الحملة ، التى كانت تتألف من عناصر جمعت من كل مقاطعة فى الحجاز ، من الطائف حتى خميس مشيط ، ومن بدو قحطان وعبيدة وعشائر اخرى .

وبالمقابلة حشد ابو مسمار قوة كبيرة من هضبة اليمن ، ومن حاشد وباقل Baqi وعناصر حمدانية اخرى، ومن نجران ويام Yam .

والدهم Dahm . وبعد أن وزع الحاميات على جميع الحصون فى المنطقة ، زحف بجماع جيشه على القوات الوهابية المتمركزة فى بيش (يقول ابن بشر عنه وادى بيشه) وهاجمها قبل أن تستعد للمعركة . وهاجم فرقة عسير التى كان يقودها ابو نقطة، بشكل خاص. فنشبت معركة ضارية قتل فيها ابو نقطة وعدد كبير من رجاله الا انها كانت نهاية فوز حمود ، فقد هاجمته الفرق الوهابية الاخرى ، بعد أن استعدت لخوض المعركة بكل شدة وضراوة ، فانكسرت قواته وهزمت شر هزيمة فطاردها الوهابيون ونهبوها .

وظل حمود وفرسانه يجرون هاربين حتى وصلوا حصون ابى عريش بينما احاط الوهابيون المنتصرون بحصن سبية Sabya يدمرون ويسلبون وقد استسلم حصن سبيه العظيم بدون قتال ، فوضع غصاب فيه حامية قوية ، بينما ارسل رجاله الى جميع الجهات للقيام باعمال القتل والنهب والتدمير . وكان يرافق جيش الوهابيين بعض السفن فى البحر ، فحملوها مما حوته عنابر الجمارك فى جيران ، وبشكل رئيسى بالقهوة ، وخلف عبد الوهاب ابو نقطة فى امارة تهامة ابن عمه تامى Tami ابن شعيب Shu'aib .

وفى هذه الاثناء كان سعود يقوم بالاستعدادات لحجه الموافق فى منتصف شهر كانون الثانى سنة ١٨١٠ . وقرر أن يكون موكبه هذه المرة فخماًللغاية . فشجع العشائر ، الرحل منها والحضر ، أن يصحبوا معهم نساءهم فى حجهم .

وقد وافقه فى كوكب - حجه بناته وسيدات اخريات من عائلة مقرن المالكة .

وادى الجميع مواسيم الحج بدون اى حادث يذكر . ولم تؤد فريضة الحج اية عناصر اجنبية اخرى ، كالتى كان يزدحم بها موكب الحجاج فى السابق . وظلت العلاقات مع غالب ودية لاتشوبها شائبة . وفى اوائل شباط عاد سعود الى بلاده فى الوقت الملائم الى الدرعية بعد ان استبدل حاميات الحصون بغيرها .

فى هذه الاثناء ساءت الامور فى عمان فقد ثار سعيد بن سلطان على حكومته وتخلى عن ولائه لها واستدعى البريطانيين لمهاجمة القلعة الوهابية فى رأس الخيمة فاشتعلت النيران فى اكواخها المنبية من سعف النخيل حين سلطت البحرية الانجليزية عليها اشعة الشمس بواسطة العدسات الشمسية ، وانسحب سلطان بن صقر واتباعه الى الصحراء . وبعدها نزلت القوات البحرية الانجليزية واتمت تدمير القرية الا أن اهلها عادوا فبنوها بعد رحيل المغيرين .

وما كان سعود يسمع هذه الاخبار ، حتى ارسل عبد الله بن مزروع من منفوحة على رأس قوة من نجد واصدر اليه التعليمات بان يحتل واحة البريمى ويتخذها مركزا بينما ارسل مطلق المطيرى على رأس قوة اخرى لجمع النجدات من اهل عمان انفسهم لمحاربة زعيم مسقط الثائر . فوجه مطلق عملياته الى مزارع البطينة الممتدة بين رأس الخيمة ومسقط على طول الساحل ، وعلى مدينتها الرئيسية سحار Suhar قلعة عزان بن قيس الذى خلف والده بعد موته فى هجوم سابق قام به الوهابيون فاستولى على عدة قرى وغنم غنائم كبيرة وقتل خمسمائة من رجال عزانAzzan فى هذه العمليات التى استمرت - فيما يبدو - طوال اشهر الصيف

والخريف من السنة التالية . ، اما مسقط فلم تهاجم وقد صمدت سحار لجميع محاولات الاستيلاء عليها عنوة ، ولكن بقية المنطقة اتسلمت لمطلق ودخلت مرة اخرى الى الحظيرة الوهابية.

وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه هذه الاحداث ، اضطر سعود لأن يرسل حملة الى البحرين ، وزيارة بسبب موقف حكامها الغامض وذلك قبل أن يسير الى الحج . وكان محمد بن معيقل قائد هذه الحملة فأرسلت اليه النجدات فيما بعد تحت امرة عبد الله بن عفيصان بن ابراهيم امير الاحساء انذاك . وقد ظلت القوتان لا تقومان باى عمل فى زيارة طيلة اربعة اشهر ، وحتى عودة سعودمن الحج.

وحينئذ هدد القائدان بشن هجوم قوى ما لم يوافق زعماء آل خليفة أن يرافقوهم الى العاصمة الوهابية . وكان من جملة ضيوف سعود البارزين ، سليمان ابن احمد بن خليفة ، الزعيم الاسمى للبحرين وزيارة . وأمر فهد بن عفيصان بان يسافر الى الجزر ليستلم زمام الامور هناك وليعين موظفا كفؤا لجمع الضرائب . اما ابناء زعماء آل خليفة فلم يرضوا بأن يبقوا مجرد مواطنين عاديين فى بلادهم ، فهربوا نساءهم وكنوزهم سرا على بعض السفن الصغيرة الى مسقط .

وصادف وجود بعض السفن البريطانية فى مرفأ مسقط آنذاك . فجهزت عددا من السفن فى حملة على زبارة . وبعد أن هاجمت الحامية الوهابية وهزمتها واستولت على ممتلكاتها ، غادرت الحملة زبارة وتوجهت الى البحرين ، لتحاصر فهدبن عفيصان وقواته فى

حصن المنامة بضعة ايام وقد استسلم الحصن بموجب شروط . اما فهد ومعه ستة عشر رجلا فقد احتجزوا كرهائن حتى يطلق سراح شيوخ آل خليفة فى الدرعية ، وأما البقية فقد اطلق سراحهم . وكان سعود آنذاك منهمكا فى حملة الشمال ، تاركا هؤلاء الشيوخ فى الحبس . ولدى عودته وصلته اخبار هذه التطورات الطارئة ، غير أن زعماء آل خليفة تقدموا من سعود وطلبوا اليه أن يطلق سراحهم ليعودوا الى البحرين ويباحثوا اولادهم وانصارهم فى أمر الدخول فى المذهب الوهابى . والا فانهم يتعهدون بالعودة الى الدرعية ليبقوا فيها كرهائن . فوافق سعود على اقتراحهم هذا وارسل معهم المرافقين اللازمين . غير أن الشيوخ فشلوا فى اقناع ابنائهم بحكمة هذا الاقتراح فعادوا الى الدرعية ليبقوا رهن الاعتقال . وفى هذه الاثناء اطلق سراح فهد بن عفيصان وبقية أتباعه المعتقلين .

اما الحملة المشار اليها اعلاه فقد دفعت بسعود ليس الى الحدود السورية فحسب ، بل الى مشارف دمشق فأرعب بذلك سكانها . وقد رأى للمرة الاولى فى حياته الثلوج على قمة جبل حرمون (الشيخ) .

ويلاحظ بان ابن بشر قد اخطأ جغرافيا فى ذكر المسافة التى قطعها قادما من بلاده ، فالتلال التى كانت تغطيها الثلوج قرب نابلس والتى قيل بان عشائر سعود ضربت وراءها خيامها لم تكن غير جبل الشيخ فى شهر ايار . وكان هدف سعود مجموعه من القبائل السورية الضاربة فى منخفض نقرة الشام . غير أن هذه القبائل اشتمت رائحة حملته هذه وخيمت فى مواقع جديدة بعيدة

عن متناول يده ، مع دوخي بن سمير Dukhi زعيم «ولد عنزة» في الغور . وقد يكون هذا إما البقاع الواقع بين جبال لبنان الشرقية والغربية او وادى الاردن.

وسار سعود في سهول حوران مدمرا لمزروعات وممتلكات القرويين في المزيريب وبصرة اسكي شام ، فهرب سكانها من منازلهم لدى سماعهم باقتراب القوات السعودية من بلادهم . وقد حاول سعود الهجوم على حصن المزيريب ولكنه عاد وتخلى عن هذه المحاولة وانسحب بعد ذلك الى بصرة لقضاء بضعة أيام هناك ثم عاد الى بلاده بغنائم طائلة استولى عليها في هذه الحملة . وعزل الباب العالي يوسف ، والي الشام من منصبه بعد هذه الاحداث فخلفه في الولاية سليمان باشا ، والي عكا وصدرت اليه الاوامر بان يصادر جميع اموال سلفه .

اما الاحوال الاقتصادية في هذه الفترة ، فقد كانت في تحسن سريع عقب الامطار الموسمية والعاصفة الغير المعتادة التي هبت في شهر تموز سنة ١٨٠٩ وكان سعر القمح بعد هذه العاصفة (٤ صاعات للريال الواحد) ، ثم عاد فنزل الى ٨ صاعات للريال . وفي شتاء سنة ١٨١٣ عاد فهبط الى ١٣ صاعا للريال . وكان سعر التمر قد تدنى فاصبح من ١٠ وزنات للريال الى ٣٠ وزنة ثم ٣٧ وزنة للريال ، غير أنه لم تبد بشائر السلم في افق الاقاليم الوهابية.

وفي شهر آب عاد الاضطراب فذر قرنه في عسير تهامة ، حيث عاد حمود ابو مسمار بعد هزيمته في وادي بيش الى القتال من

جديد فارسل عثمان بن مديفع لاخضاعه ، فتقابلت القوتان المتنازعتان فى مكان يدعى الوحلة Wahla فانهزم ابو مسمار مرة اخرى وخسر مائتين وخمسين من جنوده . وفى نفس الوقت كان أمير عسير تهامة يجهز حملة لاختراق تهامة اليمنية فاقتحم ابواب لحية عنوة بعد حصار قصير ، وصادر جميع الاشعة الثمينة والبضائع الموجودة فى مستودعات الجمارك والتجار.

وقليل :إن الف رجل قد قتلوا فى هذه العمليات الحربية التى انتهت بأحداث فجوة فى المدينة بواسطة النيران . وتقدم تامى الآن نحو الحديدة بجيش قوى عدته عشرون الفا ولدى سماع السكان، خبر هجومه على المدينة نقلوا من متاعهم ما امكنهم نقله الى القوارب الراسية فى الميناء ، ونجوا عبر طريق البحر . فاستولى تامى على المدينة بكل سهولة ، وهدمها ونهبها ، وقتل الكثيرين من سكانها . غير أنه لم يحاول ان ينشئ (ادارة) حكومية وهابية دائمة لاهنا ولا فى لحية فقد كان الهدف من هذه الحملة - فيما يبدو- الاستيلاء على اكبر كمية من الاسلاب والغنائم .

وكانت الاضطرابات التى حدثت فى بغداد ، هذه الفترة ذات طابع محلى ، فلم تؤثر فى مصالح الجزيرة العربية ، وإن كان ابن بشر يعطى تفصيلات مطولة عنها ويكفى القول : بان الوالى سليمان باشا ، الذى صدرت اليه الاوامر من السلطان بألا يجبى الضرائب التى لم تحصل فى السنوات السابقة قد هاجمه زعيم الإكراد عبد الرحمن باشا وقتله ثم احتل المدينة وبدأ ينهب ثراوتها تحت حماية وال عميل يدعى عبد الله باشا ، نصبه الزعيم الكردى واليا فارسل

السلطان اليه جيشا ليعاقبه على اعماله ، فطلب من شاه الفرس للهجوم على كردستان ، فضمها الشاه الى ممتلكاته بعد هرب عبد الرحمن .

وفي نهاية كانون الأول من سنة ١٨٠١ سار سعود مرة اخرى الى مكة ليقوم باداء فريضة الحج للمرة السابعة ، وكان ابن بشر نفسه احد الذين شهدوها وفي هذا الشهر بالذات توفى سلفه ، المؤرخ النجدى ، حسين بن غنام الاحسائى .

ومن الغريب انه فى الثناء على حياته واعماله الباهرة كعالم ديني ابن بشر مؤلفه التاريخى ، هذا المؤلف الذى اقتبس منه ما شاء له أن يقتبس . ويرسم لنا ابن بشر صورة مبهجة للعامل الوهابيس فى لباس الحج، وامتطاءه جمل وسط الجموع الغفيرة فى نميرة Namira والقاءه الخطبة التقليدية المعهودة فى معانى الحج وفوائده ، مستعرضا فى نفس هذه الخطبة السلام والازدهار السائدين فى الجزيرة العربية ، بفضل رحمة الله وبفضل دينه الذى تقبله كافة سكان الجزيرة . ومهيا خطبته باعلان منع حمل الاسلحة فى المدينة المقدسة ، ومنع اية امرأة من اظهار زينتها ومجوهراتها ، كيلا يتعرض الناس لسخطة الشديد.

ثم تقدم منه غالب ممتطيا صهوة جوادة فترجل الزعيم الوهابى ليعانق عدوه السابق امام جماهير الحجاج الجالسين تأهباً لاداء فريضة الظهر ، قبل بداية المسير الى عرفات .

ويشير ابن بشر الى أنه لم يجرؤ احد من الحجاج أن يدخن فى

شوارع مكة ، ولم يتلكأ احد فيها عن الذهاب الى الصلاة عند سماع اصوات المؤذنين يدعون اليها وكان المكان المفضل لدى سعود هو سطح البناية التى تضم بئر زمزم قبالة الكعبة مباشرة.

وخلال هذا الحج توفى - فى مكة - الشيخ احمد بن ناصر بن عثمان بن معمر بعد اتمام مراسم الحج فى منى . وكان احد شيوخ نجد العظام وتلميذ حسين بن غنام وكان هناك ايضا احد تلامذة المؤرخ البارزين وهو الشيخ سليمان بن عبد الله حفيد محمد بن عبد الوهاب .

ولدى عودة سعود الى الدرعية ، واجهته مشكلة عائلية ، فقد ذهب اولاده - تركى وناصر وسعد ، الى عمان بحثا عن المجازفات والموارد الكافية التى لم يسمح بها والدهم . وقد حدث نقاش فى هذا الامر قبل أن يسافر سعود الى الحج فطلب الاولاد منه السماح لهم بالانضمام الى الجيش فى عمان . الا أن سعودا كان مقتنعا بان مخصصاتهم تكفيهم ، ورفض أن يسمح لهم بمغادرة البلاد ، وفى خلال غيبة والدهم ، تم لهم ما ارادوا دون اذن منه ، فسافروا برفقة بعض اتباعهم الاقربين ولم ينتظروا طويلا .. فلدى وصولهم رأس الخيمة ، تآمر سكان بطينة وهى قرية فى سحار ، بأن يهجموا عليهم ويقتلوهم ليلا . وتم الهجوم . غير أن ابناء سعو ورفاقهم قاوموا مقاومة عنيدة فتراجع المهاجمون وتكبد الطرفان بعض الخسائر .

وبعد هذه الحادثة ، طلب الى مطلق المطيرى ، قائد البريمى أن ينضم بقواته الى الامراء الثلاثة ، وانيطت القيادة العامة بتركى ابن

سعود ، وهكذا تم تشكيل الحملة الجديدة فهاجموا مطرح ، المدينة الساحلية القريبة من مسقط ، واستولوا عليها عنوة . وفى هذه الاثناء كانت قوات تركى الغازية تجوب قوس الدائرة فى شبه جزيرة عمان من الضاهرة Dhahira الى بطينة ، فصر Sur حتى جعلان Ja'lan وكانت الاوامر الصادرة تقضى بالنهب والسلب واعمال القتل بدلا من الاستيلاء على المواقع . ولكن سعودا غضب غضبا شديدا لدى سماعه ذلك ، فأرسل جماعة من اربعين رجلا الى البريمى واعطائهم تعليماته بوجوب الاسيلاء على الحصن من حاميته السابقة التى كان يقودها ابن مزروع ، وأن يمنع اولاده واتباعهم من الدخول اليها . وفى نفس الوقت صدرت الاوامر الى مطلق المطيرى بأن يخلى عمان من قواته وألا يترك فيها اى جندى منهم .

وبدأ أولاد سعود الثلاثة يشعرون بمبلغ الحماقة التى ارتكبوها . ورفض سعود رفضا باتا جميع الوساطات التى بذلت للعفو عنهم وأصر على وجوب الاستسلام له دون قيد ولاشرط . وعلى هذا واكبوا مطلق اثناء انسحابه الى الاحساء الا انهم رفضوا ان يسيروا أسبعد من ذلك فقد كاونوا يخشون غضب والدهم . وفى النهاية عفا سعود عنهم فعاد الابناء الضالون الى وطنهم ، واستقبلوا بمظاهر الاستياء والسخط الابوى على تصرفاتهم الطائشة وبعد شهرين مرض ناصر ومات ، فرفض سعود البكاء عليه او حضور مراسم جنازتة ودفنه .

وانصرف سعود لمعالجة نتائج فرار اولاده الذى خلق كرها شديدا للقضية الوهابية ، فقد أعلن بنو اياس وهم من الضاهرة الثورة ،

فأمر سعود عبد العزيز ابن غردقة ان يسير من الاحساء ليعالج الامر . وفى القتال الذى تلا ذلك فى ايار سنة ١٨١١ ، اندحرت القوة الوهابية وقتل قائدها ، وبدت عمان جميعها على وشك الاستقلال عن الدرعية ويبدو أن مطلق المطيرى أعيد فعين فى منصبه القديم ليرقب تطور الوضع ، وكانت عمان آنذاك فى حالة فوضى . وفى نهاية السنة - فى كانون الثانى سنة ١٨١٢ - كان حاكم مسقط سعيد بن سلطان على اهبة الاستعداد بمناصرة الفرس، لان يهاجم المناطق الوهابية بجيش قوامه ثلاثة الاف جندى كانوا يطوفون حولها ينهبون السكان بلا تمييز . ثم استولوا فعلا على مركز مهم يدعى سمايل Samail مقر عائلة جبرى . اما مطلق فكان مستعدا لان يشدد قبضته على حركة الثوار.. فالتقى الفريقان فى معركة ضارية دارت رحاها فى مكان ما بين سمايل والبريمى . وكانت الغلبة لمطلق فتمزق جيش مسقط وانهزم .

وكان الوهابيون يلاحقونهم فيقتلون منهم من يقتلون ، وينهبون ما يجدون فى طريقهم . وكانت الغنيمة التى استولوا عليها هائلة ، من ضمنها عشرة مدافع للعدو أرسلت للدرعية باعتبارها حصة الدولة من الغنائم . واستمرت هذه العمليات اكثر من سنة اى من بداية فرار الامراء الى عمان . ثم استقر الوضع فى الاقليم كله ولو ظاهريا فيما عدا المدن التى كان ممثلو عائلة سعيد لا يزالون يسيطرون عليها .

وفى هذه الاثناء عاد سعود من مكة فى شباط سنة ١٨١١ ، فسمح لزعماء آل خليفة المعتقلين فى الدرعية بالعودة الى بلادهم

على شرط قبول سلطة حكومته في البلاد وخضوعهم لها ، وصادف رجوعهم نشوب معركة حربية عند جزر البحرين في نهاية آذار ، بين اسطول ابراهيم بن عفيصان يسانده رحمة بن جابر العذبي من خوير حسن ، وابو حسين من حويلة على ساحل قطر ، وبين ابناء زعماء آل خليفه المعتقلين وقاتل الطرفان بضراوة وتصميم ، الا انها انتهت دون التوصل الى نتيجة حاسمة ، وإن كان اهل البحرين ، هم الذين شعروا بوطأتها اكثر من اعدائهم .

وشبت النيران في بعض السفن اثناء الاشتباك وغرقت لدى انفجار الذخائر فيها ، فخسر كل من الطرفين قرابة السبع سفن بهذا الشكل ، الا أن خسائر البحرين قدرت بألف رجل بين قتيل وغريق ومحروق . وكان منهم راشد بن عبد الله بن خليفة اما خسائر الوهابيين فكانت مائتي قتيل ، من ضمنهم زعيم الحويلة .

وفي صيف هذا العام قرر الاتراك استرجاع الحجاز من الحكم الوهابي ، وبدأوا يعدون العدة لذلك على نطاق شامل . فأرسلت القوات التركية لتقوية الحشود في سوريا ومصر ، ومن ثم ارسلت كميات هائلة من الذخائر الحربية ، بينها المدافع والرشاشات وما شابهما ، الى محمد على باشا الذي عين قائدا عاما للحملة .

ثم سارت قوة عن طريق البحر ، فلم تصادف اية صعوبة في الاستيلاء على ميناء ينبع ، بينما انتقل الجيش الرئيسي تحت قيادة احمد طوسون باشا ابن محمد على باشا ، بحرا وبرا . وكان جيشه يتألف من اربعة عشر الفا من الاتراك والمغاربة .

فهرب امير ينبع الى المدينة المنورة بينما ارسل سعود رسله الى جميع انحاء البلاد يدعون الى التعبئة العامة لمقاومة الغزو . وكان الجيش الوهابى تحت امرة عبد الله بن سعود الذى يظهر لاول مرة فى تاريخ الجزيرة العربية . واتخذ عبد الله مواقعة فى خيف فى اضيق جزء من وادى الصفرا فى منتصف الطريق بين المدينة والساحل وظل هناك ينتظر قدوم العدو ، ويقدر عدد قواته بثمانية عشر الف مقاتل منهم ثمانمائة من الفرسان . وارسلت فرقة من هذه الجيش تتألف من قبائل الوشم وحرب تحت امرة زعيم قبيلة حرب - مسعود بن مضيان - الى مكان آخر ، كفرقة احتياطيه فى حال اقتراب العدو من تلك الناحية.

ويبدو أن الاتراك سلكوا طريق الوادى الرئيسى من واحة حمرة بموازاة طريق القوافل من ينبع فوجه عبد الله فرقه المتقدمة لتهاجمهم ، فدحروها وحشد العدو جيوشه للهجوم على قوات عبد الله الرئيسية فأرسل عبد الله فرسانه ، تحت قيادة اخيه فيصل وزعيم مطير حباب بن قحيصان Habbab ,Quhaisan للاشتباك مع الاتراك وقد خسر الطرفان خسائر فادحة فى المعركة ، اما العناصر البدوية فى الجانب الوهابى فاقترفت عملاً يستحق كل لوم، اذ انها تقهقرت امام العدو تاركة فرق المجندين الاخرى مكشوفة فى المواقع التى تركزت فيها .

واستمر القتال على هذا المنوال طوال ثلاثة ايام ، ودفع عبد الله بقوته الرئيسية لمهاجمة العدو ، فزاد ضغط هذه القوات التى اشتركت فى الهجوم على العدو وزعزعته من مراكزه فاندحر الاتراك

والمراكشيون وفروا تاركين للمنتصرين جميع معداتهم ، ومن بينها سبعة مدافع . وطاردتهم قوات عبد الله على طول الطريق حتى وصل من نجا منهم ساحل البريكة ولجأوا الى السفن الراسية هناك .

وتقدر خسائر الاتراك بأربعة آلاف قتيل ، اما قتلى الوهابيين فقد بلغوا الثمانمائة . وكان منهم مقرن بن حسن بن مشارى بن سعود ، وهو من امراء العائلة المالكة، وعدد اخر من القادة البارزين، منهم هادى بن قرملة المشهور وهو من قبيلة قحطان ، وقد وقعت معركة خيف فى القسم الاول من شهر كانون الاول سنة ١٨١١ ، وكان الوهابيون هم اول من سفك الدماء فى معركة اصبحت حديث السنوات السبع التالية بأهوالها وشدة غاراتها .

وفى حين لجأ الاتراك الى ميناء ينبع ليضمدوا جراحهم ، قاد عبد الله جيشه عن طريق الحج ، ماراً ببدر ، المكان الذى انتصر قد النبى انتصاره العظيم على قريش قبل اثنى عشر قرنا . واتجه الى مكة حيث حظى بمقابلة والده اثناء تأديته فريضة الحج للمرة الثامنة، وكرس ثمار نصره الى الله رب الجهاد .

وقد رافق سعودا فى حجه هذا عدد كبير من المحاربين يضاهى عدد قوات ابنه فى الميدان . وبعد القيام بجميع المراسم المطلوبة فى مثل هذه المناسبة ، صرف قسما من هذه القوات ، اما القسم الاخر فتمركز فى منطقة المدينة المنورة لمواجهة احتمال اى هجوم تقوم به قوات العدو التى كانت لا تزال على الساحل .

اما غـالب فلم يحـمله وجـود منقـذيه الاقـويا ء على الانضـمـام اليهم، او اظهار اى نقص فى الاحترام او الود القلبى القائم بينه وبين سعود لعدة سنوات خلت . واحتفل بالحج الذى لم يؤمه اية عناصر اجنبية ، بالابهة المعتادة وبدون اى حادث مكدر يذكر .

ويبدو أن عبد الله رافق والده في عـودته الى الدرعـيـة فوصلاها فى نهاية شهر كانون الثانى سنة ١٨١٢ .

وفى هذه الاثناء كان مـحـمـد على باشا يفكر تفكيـرا جدياً فى تغيير الوضع الذى نتج عن هزيمة ابنه طوسون فى خيف . فتدفقت الامـدادات الى ينبع تحت امـرة ضـابط يسـمى احـمـد بن نابارت (بونابرت!) وبذلت جميع المساعى والجهود لضمـان انضمام القبائل المحلية فانضمت اليـهم مناطق جهينة ، وينبع ، والقسم الجبلى من حرب . فاحتلت واحة « ينبع النخل » الداخليـة . ولم يكن فى وادى الصـفـرا أى جيش يدافع عنه فسـار العدو الى المدينة المنورة حيث وصل اليها واحتلها فى منتصف شهر تشرين الاول .

ويبدو أن الحامية الوهابية المؤلفة من سبعة آلاف جندى ، كانت فى حالة ضعف وخور بسبب الامراض المختلفة ، وبعد قصف قليل بالمدفـعـيـة ، فـتح السـكان ابواب المدينة للعدو ، والذى اكره بعض الحاميات فى الحصون المختلفة على الاستسلام بعد أن أظهرت عزما على المقاومة والصمود . وفى منتصف شهر ر تشرين الثانى سقطت المدينة فى ايدى الاتراك مرة اخرى . ولم يبد سعـود اى عـزم على انقـاذهـا من مـثل هذه الكارثـة .. كـان الاتراك يسـيطرون سـيطرة شـديدة تامـة على الحـجـاز الى الشـمـال من الخط الذى يصل ينبع

بالمدينة . وكان هذا الوضع من وجهة النظر الوهابية ، وضعا خطيرا
فكان جل اهتمام سعود الان أن يرسم خطة للحج الى مكة للمرة التاسعة الاخيرة . ومن قبيل الاستعداد لهذا الامر ارسل سعود ابنه عبد الله بقوة مهمة لاختبار تحصينات منطقة مكة . فامضى عبد الله بعض الوقت معسكرا في وادى فاطمة دون نشاط ، قبل أن ينضم الى والده لدى وصوله الى ضواحى المدينة لاقامة الاحتفالات المعتادة . وفى بداية شهر كانون الثانى سنة ١٨١٣ ، بدأ سعود سيره عائدا الى الدرعية الا أنه ترك وراءه قسما كبيرا من جيشه الذى رافقة ، لحماية المدينة ، واصدر تعليماته الى عبد الله بأن ينصب خيامه فى وادى المر (القسم الاوسط من وادى فاطمة) قاطعا بذلك الطريق الرئيسية الى المدينة المنورة . ومع ان غالبا أبدى كل ود واخلاص فى هذه المرة الا أن سعودا جعله يجدد القسم بكل المقدسات ، على الولاء والإخلاص وعدم الخيانة .. لقد كان يشك فيه . وكانت آخر هدية قدمها سعود لبيت الله كسوة جديدة من الحرير الاسود.

وبعد سفر سعود بمدة وجيزة قامت القوات التركية الموجودة فى المدينة وينبع بالزحف على مكة ، وما كادت اخبار هذه الاحداث تصل الى مسامع غالب حتى غير لهجته وكان فيما يبدو، يتحدث بشكل أفزع عبد الله .

ومع هذا ، ارسل عبد الله الى الحاميات التى تركها فى مكة ، يطلب منها الانضمام الى جيشه الرئيسى ، ثم سار الى الممرات التى تصل جبال الحجاز بهضبة نجد ، من حيث زحف الى عبيلة ، عند

سفوح تلال الطايف . ومن ثم أوفد عثمان المضيفى الى قاعدته فى الطايف واصدر اليه التعليمات بوجوب فحص تحصيناتها والدفاع عنها مهما عز الثمن . وعاد عبد الله نفسه الى خرمة .

وجاء على لسان ابن بشر قوله: « لقد سادت الفوضى والقلاقل صفوف المسلمين بإذن من الله ، وذلك بسبب خطاياهم وذنوبهم التى كان عليهم أن يتضرعوا اليه كى يغفرها لهم» .

كان عثمان يخشى انتقام طوسون ، فما ان وصل الى الطايف حتى جمع نساءه وخيوله وفر لينضم الى عبد الله . وكان ذلك فى السادس والعشرين من شهر كانون الثانى سنة ١٨١٣ .

وصدف ان حدث كسوف شمسى بعد اسبوع، فكان هذا نذيرا بزوال الحكم الوهابى فى الديار المقدسة.

* * *

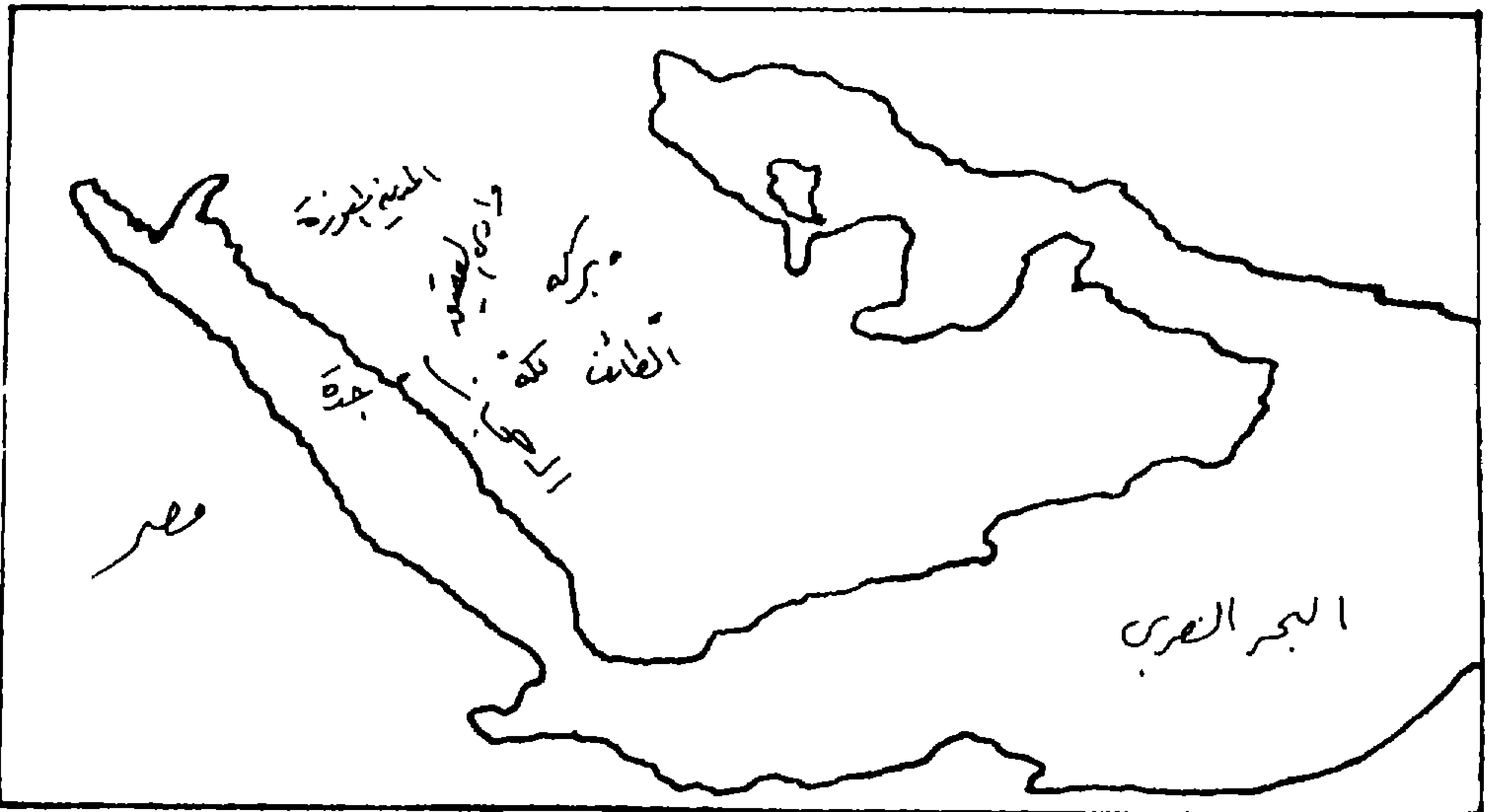
دخلت قوات طوسون مكة بلا مقاومة واستقبله غالب بالحفاوة والترحاب . وبعد ذلك ببضعة ايام ، احتل الطايف ، فسارع سكان المرتفعات جميعهم لتأدية فروض الولاء والخضوع للحكم الجديد ، فيما عدا الواحات الغربية التى ظلت على ولائها لسعود . وكذلك الواحات الجنوبية وعسير تهامة ، فقد بقيت هى الاخرى موالية للحكم الوهابى.

كان مركز سعود الان حرجا ، فقد ادرك انه يحتاج الى جيش قوى جدا يتمكن من الوقوف فى وجه التحدى التركى من جهه

ويقلب ميزان القوى من جهة اخرى . وكان الهم ينهش صدره حسرة على ضياع الحجاز من يده . فسار بنفسه على رأس جيش ، جمعه من مختلف المناطق والمقاطعات فى نجد ، سواء منها البدوية والحضرية ، ومضى به الى الحنكية ، وهى واحة عظيمة الاهمية تقع على الطريق الرئيسى من المدينة المنورة الى القصيم . وكان الاتراك بقيادة عثمان كاشف ، لا يزالون يحتلون حصنها ، بينما كانت الابار فى يد انصارهم من قبيلة حرب .

لكن ما كاد هؤلاء يبصرون الوهابيين حتى ولو الأدبار وجاءوا الى اخره المشدة حتى المدينة المنورة ، مخلفين وراءهم خيامهم وامتعتهم غنيمة باردة للعدو وحينئذ كان على سعود أن ينتهز الفرصة السانحة ، فبادر الى محاصرة الجيش المتمركز فى الحصن ، الا أن الحامية طلبت الصلح بعد قتال بسيط . فمكنهم سعود من الخروج بشرط الا يذهبوا الى المدينة المنورة بل الى العراق . فساروا الى العراق فى حراسة امير جبل شمر ورجاله .

ثم زحف سعود بعد ذلك على المدينة المنورة نفسها ناهبا فى طريقه اليها تجمعات بدوية متعددة والتقى بعدها بثلة من خيالة الاتراك وهجانتهم فهاجمهم وهزمهم ثم طاردهم حتى لجأوا الى المدينة واحتموا باسوارها فدار حول المدينة حتى وصل الى وادى الحسى، من هناك هبط الى وادى الصفرا، ناهبا السكان فى طريقه . ثم استدار جنوبا واتجه الى الجبال والمنطقة البركانية حتى وصل الى السويركية Suwairikiya فاستسلم السكان الاأنه اشترط عليهم أن يدفعوا اليه نصف محصولهم من التمور المعدة للخزين فى شهر



الأماكن التي سقطت في أيدي القوات المصرية حتى سنة ١٨١٢

آب. وبعدها اهلك كثيرا من اشجارهم ودمر معظم المنازل . وتوقف هناك بعض الوقت لتوزيع الاسلاب والغنائم على جنده ، وانتظار ما قد يحدث من تطورات .

فى هذا الوقت بالذات اوفد طوسون مصطفى باشا يطلب اليه توجيه حملة على ترابة فتعرضت الحامية الوهابية لحصار دام بضعة ايام قبل ان تصلها الامدادات من بيشة والواحات الاخرى . وفيما كان هؤلاء مشتبكين مع الاتراك، قامت قوة احتياطيه كانت مختبئة، والتفت حول معسكر الاعداء ، واستولت عليه وهزمت حراسه الترك. وعندما انسحب مصطفى باشا الى الطايف ، حيث اشتبك مع قوة اخرى جهزها عثمان المضيفى للهجوم على الحاميات الصغيرة ، عند سفوح التلال المحيطة بالمدينة المنورة . فوقع عدد كبير منهم فى ايدى العرب . ثم سار هؤلاء الى بصل Basal وهى واحة متوسطة الحجم تقع فى أعالى الوادى تشمل على منازل عدة محصنة تملكها عشيرة عشفرة . وبعد احتلالها هاجمهم الشريف غالب على رأس جيش تركى نظامى فاحتل الحصون بعد حصار استمر بضعة ايام ، وقتل الكثير من جنود الحاميات .

اما عثمان فتمكن من الفرار ، الا أنه وقع اخيرا فى ايدى بعض الرعاة من عشيرة أسامة ، فسلموه الى غالب . وما كاد عثمان يقع فى يد خصمه القديم حتى بادر هذا الى قتله .

وقد عاد سعود الى الدرعية ، بعد العمليات الحربية قرب المدينة المنورة والسويركية ليجد امامه طائفة من القلاقل الخطيرة التى وقعت فى منطقة عمان فأرسل مطلق المطيرى اليها مرة اخرى على

رأس جيش وهابى ، هاجم به جعلان بعيدا الى الجنوب من البريمى وعاد يحمل الاسلاب والغنائم . ، غير أن القبائل عادت فنظمت قواتها لمطاردته واضطرته ان يخوض معركة ضارية معها . فدارت الدائرة على مطلق وقتل .

وقبل أن يبادر سعود الى وضع الترتيبات اللازمة للقضاء على الاضطراب ، واجهته فى الغرب ازمة جديدة .

كان ذلك فى تشرين الاول لسنة ١٨١٣ ، يوم قرر محمد على باشا أن يترأس محمل الحج ويزور مكة بنفسه فدخل مكة بالابهة والفخامة اللازمة لمثل هذه المناسبة الفذة فى التاريخ ثم استولى على جميع الحصون ووضع فيها وفى المراكز القوية الاخرى ، حاميات من جنده . ووقف غالب امام هذا الرجل العظيم بكل ذلة مقدما فروض الطاعة والولاء بالاضافة الى الهدايا الثمينة فاستقبله محمد على بالتجلة والاكرام وقدم اليه بعض الهدايا شاكراً له خدماته الجلى ، الا أنه عاد فالقى القبض على غالب ، احتياطا منه للطوارىء وحفظا للامن والنظام ، ثم طرد عائلته من قلعة أجياد المشرفة على الحرم الشريف وسجين ولديه وصادر أمواله الطائلة كما عين مكانه اخاه سرور بن يحيى بن سرور اميرا على مكة . وفى الوقت ذاته نقل غالبا وولديه عبد الله وحسين الى مصر تحت الحراسة المشددة واصدر السلطان بعدئذ امرا يقضى بنقلهم الى سالونيك ، حيث مكثوا فى معتقلهم مكرمين معززين ، يقدم اليهم ما يحتاجون اليه ، ويتقاضون مرتبات كافية مع اعادة ما صودر من املاكهم ، وكتب

على غـالـب أن يقـضى بقـيـة عـمره هناك حـيث توفى بمرض الطاعون سنة ١٨١٦ .

وبعد أن اعد محمد على العدة لفرض سيطرته على الحجاز ، بدأ يبحث عن الوسائل التى تكفل له توسيع فتوحاته حتى تبلغ نجدا . ففر الكثيرون من اشراف مكة الى الجبال لئلا يصيبهم رشاش غضب الباشا ورذاذ شهواته غير ان محمد على اختار « الشريف راجح » الخبير فى شؤون الصحراء ليحمل العرب على الانضمام اليه ملوحاً بامارة مكة بدلا من شقيق غالب . وكان راجح راغبا عن خدمة الاتراك ففر فى ذات يوم وانضم الى الوهابيين فى ترابة .

وتبعه الشريف يحيى بن سرور ففر هو الاخر وانضم فى غفله من مراقبيه الى العناصر الوهابية فى عسير تهامة . فارسل محمد على ابنه طوسون باشا الى ترابة على رأس قوة تركية تبغى تصفية الحساب مع الحامية الوهابية وكانت هناك هذه قد وصلتها الامدادات من سعود . وبعد ايام من بدء المناوشات الغير المجدية ، وقصف المواقع المحصنة ، انسحب طوسون من الواحة . وانتهت بذلك السنة التى تميزت بشىء من الركود الذى لم يكن ليستمر طويلا . والجدير بالذكر أن هذه السنة المؤسية من تاريخ الاسلام ، والاخيرة من حكم سعود .، كانت سنة ١٨١٣ حسب التقويم المسيحى . وكانت بدايتها فى الرابع من كانون الثانى ونهايتها فى الثالث والعشرين من كانون الاول.

وتميزت الشهور الاولى من سنة ١٨١٤ بالعمليات الحربية التى وقعت فى الحنكية . ولكن اسراب الجراد التى غزت نجدا اضطرت السكان الى الاهتمام بهذا الخطر الداهم اكثر من اهتمامهم بما سهددهم به الاتراك من غزوات محتملة فى المستقبل غزوات ظلت طوال ايام سعود الاخيرة ، كالسحابة المظلمة فى حياة رجل لم يعرف للسلام والهدوء طعما زهاء نصف قرن من عمره الذى كرسه لخدمه القضية الوهابية.

ولحق سعود باجداده .. ودفن فى مدافن العائلة فى الاول من ايار سنة ١٨١٤ تاركا لولده عبد الله مهمة الدفاع عن الدولة والقضية . هذه الدولة التى عمل فى سبيل امتدادها ونشر اعلامها اكثر من اى رجل اخر من افراد تلك الاسرة التى انشأتها وحامت بامتدادها فقد كان سعود مسلما عظيما ووهابياً فذا ومحاربا قديرا وملكا عزيز الجانب كما يجب أن يكون الملوك حسب معتقدات اهل زمانه الاعراف الشائعة بينهم . وما اعظم ما حققه باصراره ومقدرته على التنظيم ، وخططه الحربية البارعة ، وبعد نظره، وتمرسه فى السياسة.

الفصل الخامس

عبد الله الاول ابن سعود

فى بداية عام ١٨١٤ ، وبعد فشل حملة احمد طوسون فى اخضاع واحة ترابة ، خلال اشهر الشتاء ، باشر محمد على باشا بنفسه العمليات الحربية ، لاقرار الاوضاع فى الحجاز وغيره من اقاليم ساحل البحر الاحمر ، فاحتلت الامدادات المرسلة من مصر ، ميناء قنفذة ، جنوب جدة . غير أن تامى بن شعيب ، وزعيم قبيلة عسيرى ، هاجم معسكر المصريين ، ففر من تمكن منهم من النجاة الى القوارب وحملتهم الى جدة ، تاركين وراءهم عتادهم غنيمة باردة للاعراب . وفى الوقت نفسه تمركز احمد طوسون فى الطائف ليرقب الصحراء الواقعة بينها وبين ترابة ، لأن الشريف الساخط « راجح » انضم الى الوهابيين ترفعا عن ان يتملق المصرى نائب السلطان ، الذى أخذ يغرى القبائل العربية بالتخلى عن قضية عدوه .وفعل مثل ذلك الشريف يحيى بن سرور وتظاهر بقيادة حملة على القبائل المعادية للمصريين ، وغير انه فر الى عسير تهامة كارها لبلاده أن تخضع لطوسون.

قوبل الهجوم المشترك الذى تشنه قوات قصيم وحايل بمقاومة ناجحة ابدتها عناصر من عشيرة حرب ، مشايعة للمصريين وذلك بعد الفشل الذى وقع فى ترابة ولكن فى السنة نفسها ، اندحرت هذه القبيلة بالذات امام عبد الله ابن الامام البكر فى منطقة الحرة حول سفينة وكانت هذه الغزوة من الغزوات المعتادة. وكان الوهابيون

يقصدون من ورائها تحذير البدو من مغبة تعاونهم مع الاعداء. ولم يمكث عبد الله طويلا فى تخوم البلاد التى يحتلها العدو ، اذ تلقى خبر وفاة والده عند وصوله الى آبار خانوقة ، قرب الدوادمى، وهو فى طريقه الى بلاده فآل اليه بذلك عبء حماية بلاد أجداده ضد عدوه العنيد فى فترة من الحكم قدر لها أن تكون قصيرة ، ومليئة بالضيق والشدة . ويبدو أنه كان مصمما الا يترك زمام المبادرة فى يد اعدائه . وقبل أن يعود الى الدرعية ليتقبل فروض الطاعه لدى تسمله العرش ، فصل غصاب ، زعيم عتيبة من قيادة الحملة ، وارسله ليتولى القيادة العامة على التشكيلات العسكرية العاملة حول ترابة . وكانت هذه قد اصبحت الان النقطة الهامة الرئيسية فى الدفاع عن الدولة. وفى ايلول من ذلك العام ظهر عبد الله نفسه فى الميدان على رأس جيش كبير من قوات نجد. وبعد أن جعل مركزه الرئيسى فى رس ، غزا قطاعات مختلفة من قبائل مطير ، وهى قبيلة اخرى اظهرت تحيزا نحو النفوذ المصرى . وفى تشرين الثانى سار مرة اخرى الى الحجاز ليهاجم قبيلة حرب فى حرة جبل غراب . ومن هناك عاد الى القصيم حيث اقام مدة عاد بعدها الى الدرعية فى سنة ١٨١٥ . وفى هذه الاثناء ارسل اخاه فيصل على رأس جيشه الرئيسى ليتولى القيادة فى ترابة ويدير العمليات على الحدود . وهناك انضم اليه تامى بن شعيب بامدادات قوية يقدر عدها بعشرين الف من جبال الحجاز وتهامة . وزحف هذا الجيش المشترك البالغ عدده الثلاثين الفا الى بصل ، عن طريق آبار عز يل فى وادى ترابة ، فوجد قوات كبيرة من المصريين بينها وبين الطائف، فهاجمها وكان النصر حليف الوهابيين ولكن الامدادات

وصلت الى العدو فى صباح اليوم التالى، فدارت الدائرة على العرب وهزموا شر هزيمة وتفرقوا شذراً مذراً الا أن جيش فيصل احتفظ بمواقعه ثم تراجع بنظام الى ترابة (دون ان يطارده العدو) ، حيث قرر أن يستعد لجولة اخرى اما تامى وقواته البدوية فقد اختفت فى الصحراء . عندما وصلت الى فيصل اخبار الزحف المصرى ، اخلى ترابة وسار جنوبا الى رنية حيث صرف حلفاءه المحليين قبل عودته الى نجد .

وفى هذه الاثناء كان على باشا قد تسلم القيادة بنفسه (اما قبل معركة بصل Basal او بعدها) فاحتل ترابة وزحف على بيشة وطباله فقضى على مقاومته ونظم شئون الدولة . اما الشريف راجح الذى انحاز الان الى حظيرة الجيش الظافر فأرسل الى رنية لاحتلالها وتدميرها بسبب مناصرتها القضية الوهابية سابقا .

واستمر محمد على فى تقدمه فاحتل خميس ومشيط وواحات وادى شهران، كما استسلمت له قبيلة الرقيدة احدى عشائر الشهران. اما تامى وقبيلته الجبلية فقد تحدوا الغزاة الذين شقوا طريقهم عبر الجبال . وكانت قرية طلحة التى تسد الطريق الى ممر الشعار، على الطريق من « أبها » الى قنفذة ، مزودة بحامية قوية مجهزة للمقاومة تحت امرة رجل يدعى «حوان؟ » اما تامى نفسه فعاذ الى مرتفعات بنى مغد ليدير حرب العصابات . ولم يجد محمد على كبير عناء فى القضاء على طلحة ، فدمر تحصيناتها قبل أن يهبط الى الممر . ومن هناك تقدم عن طريق وادى «تيّه» الى محيل وقنفذة . وفى هذه الاثناء غادر تامى الجبال متوجها الى حصن

تهامة فى المصلية ومن هناك غرر به بعض اصدقائه الذين اضمروا له الخيانة ، بان يذهب الى سبيه Sabya فالقوا القبض عليه وارسلوه الى محمد على الذى ارسله بدوره من القنفذة الى مصر حيث شنق.

وسمع محمد على باشا وهو فى قنفذة بحدوث اضطرابات فى مصر بين مماليك الغز وحكومته فقرر العودة الى مصر ، تاركا امر العمليات العسكرية الاخرى لابنه طوسون ، وكان آنئذ فى المدينة المنورة ، يقوم بالاستعدادات لحملة على نجد وجرت اتصالات بينه وبين العناصر الساخطة فى رس والخبرة Khabra شجعته على القصيم فاحلت القريتين بدون اية مقاومة بينما اخضعت الحصون فى القرى الصغيرة المجاورة ، فيما عدا المدن والقرى الواقعة فى المناطق الوسطى والشرقية من القصيم اذ ظلت هذه موالية للحكومة الوهابية وتحارب المصريين حربا غير نظامية الى أن سارع عبد الله لانقاذهم بجيشه الذى جمعه من جميع انحاء نجد .

وفى منتصف نيسان من سنة ١٨١٥ غادر عبد الله الدرعية للتطواف فى المذنب ومن هناك تقدم نحو الرويضة القريبة من رس المتمركز «اما المصريون فاكتفوا باطلاق مدافعهم من بعيد بينما هاجم عبد الله حشدا من قبائل حرب ومطير قيل بانهم كانوا يحتشدون فى الغرب من آبار بصيرى وفى الطريق سمع بأن طوسون نفسه قد وصل بقوة كبيرة الى داث فى طريقة الى رس فاستدار فى الحال الى تلك الجهة مؤملا آن يفاجىء العدو على الآبار ، ولكن طوسون كان قد توقع هذا الهجوم فاستمر فى زحفه نحو رسّ فارسل عبد الله ، فرقة القصيم لتصد اى تقدم للعدو فى ذلك الاتجاه،

بينما رجع هو الى خطته الاولى فى مهاجمة القبائل فى بصيرى فى ذلك الاتجاه . بينما رجع هو الى خطته الاولى فى مهاجمة القبائل فى بصيرى .

وبعد ان أخضعهم وهزمهم، وردته اخبار جديدة تقول أن طابوراً تركيا مع المصريين قد وصل بئر البعجة وحصنها فى المنطقة المجاورة. فسار نحوهم ، وقد التجأت القوة المؤلفة من مائة وعشرين رجلا الى الحصن فاقتحمها عبد الله عنوة وقتل جميع افراد الحامية عن بكرة ابيهم ثم عاد عبد الله الى قاعدته فى المذنب . بينما ارسل طوسون ، المتمركز جيدا فى رس والخبرة قوة امامية الى الشبيبية قرب عنيزة من اجل احتلال عنيزة فى الوقت الملائم ، وجعلها مقرة الرئيسى الا أن عبد الله هو الذى وصلها اولا واتخد منها قاعدة للغارات المتكررة على المصريين وحلفائهم من البدو الذين اصبح مركزهم العام فى وسط اراضى العدو حرجا بينما سارعت بعض العناصر من رس نفسها الى احتلال حصون شنانة لمصلحة عبد الله بعد أن ندموا على تسرعهم فى خضوعهم لطوسون . اما مركز الشبيبية الطليعى ؟ فسُحب ، وانتقل عبد الله من عنيزة الى ابار الحجناوى حيث امضى قرابة الشهرين ضاغطا باستمرار على مواقع طوسون.

وقد عقبت ذلك حدوث تطورات جديدة على الموقف . وهى إما أن تكون ناشئة عن وضع طوسون الخطر فى وسط الصحراء ، أو ضغط الأحداث فى مصر او سوء حالته الصحية ، فقد ثبت أن ضابطا بصحبة دليلين من حر ومطير هوجم وهو فى طريقه الى

طوسون ونقل على يد آسرية الوهابيين الى معسكر عبد الله فقتل الدليلان في الحال بدون سؤال او جواب . اما الضابط التركى فنقل الى عبد الله المعلومات التالية : وهو أنه يحمل رسالة الى طوسون من والده ، يأمره فيها بعقد الصلح والعودة الى مصر . وبعد معاملة كريمة ارسل الضابط الى طوسون .

فتوصل القائدان المتحاربان الى اتفاقية تنص :

(١) على انهاء الاعمال العدوانية .

(٢) انهاء التدخل التركى فى شئون نجد.

(٣) اطلاق حرية التجارة بين الجزيرة العربية وجاراتها وتأمين الحج لجميع الاطراف المعنية .

وهكذا غادرت القوات المصرية رسّ الى المدينة المنورة فى منتصف شهر تموز سنة ١٨١٥ . ورافق طوسون ممثلان ساميان سعوديان يحملان رسالة من عبد الله الى محمد على باشا الذى ابرم بدوره اتفاقية الهدنة وايدها . ولم يعش طوسون طويلا بعد الفشل الذى لحق به فى الجزيرة العربية ، اذ توفى فى مصر فى اواخر ايلول سنة ١٨١٧ وقبل ذلك بشهر واحد توفى فى سالونيك الشريف غالب بن مساعد الذى كان محمد على قد نفاه اليها .

ويبدو أن عبد الله قد ادار الحرب ضد طوسون بكل نشاط ومهارة، فقد سيطر بيد من حديد على قواته الكبيرة بما فيها من عناصر فراره طيارة . وكان هو الذى الهم شعب القصيم ان يصمدوا

فى وجه الاعتداء المصرى كما ظهر ذلك فى توبة اهل رس المتأخرة لسهولة انقيادهم للعدو وكون محمد على هو الذى طلب التوقف يعتبر بحد ذاته نصرا معنويا للوهابيين تأتى بفضل المقاومة الضارية التى ابداها اهل نجد لمطامع ابراهيم باشا .

اما عبد الله فقد فاز بفترة قصيرة للراحة من الاعمال الحربية ، وكان باستطاعتهس ان ينام هادىء البال فوق اكاليل غارة فى الدرعية ولو الى حين . وكان لايشك فى ضرورة تأديب بعض العناصر من السكان الحضر والبدو لعدم ولائهم الذى اظهروه ، والذى اصبح معروفا لايصح السكوت عنه .

وانقضت سنة .. ثم قرر ان يحشد قوات كبيرة من كل ناحية فى مملكته : من عمان ووادى الدواسر والاحساء وجبل شمر ، وحتى من الجوف فى الشمال ، علاوة عن الفرق المحلية من اقاليم موطنه والقصيم . ووجه انظاره اولا الى الخبرة والبكيرية ، فدمر اسوارهما اتقاء اذاهما فى المستقبل . ثم سار غربا نحو حشود من قبائل حرب ومطير فوصل الى آبار العلم قرب الحنكية ، ثم اندفع جنوبا الى آبار حرة الكشب، ليعودالى بلاده عن طريق الدفينة Dafina دون أن يبدو منه اى نشاط . وذلك لأن معظم القبائل انتشرت فى الصحراء لتجنب الاحتكاك به بعد أن دمرت معظم الآبار التى يمكن للغزاة أن يعتمدوا عليها . بينما أخذ امير رس واثنان آخران من اهلها البارزين رهائن الى الدرعيه.

ولقد اوجدت هذه الافعال تذمرا فى القصيم ، ومن ثم ارسل

بعض الاشخاص الساخطين رسائل الى محمد على الذى كان فيا يبدو ميالا الى استئناف نشاطه الحربى فى الجزيرة العربية . وبما ان طوسون قد مات ، فقد وقع اختياره على ابنه ابراهيم ليقود قوات الحملة . فارسل عبد الله رسلا يحملون هداياه الى نائب السلطان ، ورسائل يطلب اليه فيها تجديد الهدنه او تأييدها ، ولكن لم تلق الترحيب الحار الذى كانت تلاقيه سابقاتها فى الماضى . وفى هذه الاثناء كانت الاستعدادات لغزو الجزيرة العربية تسير قدما .

وفى تشرين الاول او الثانى من سنة ١٨١٦ ، وصل ابراهيم باشا الى المدينة المنورة بجيش قوى ، واقام القاعدة الامامية لعملياته فى الحنكية ، ليبدأ عملية طى بساط الصحراء البطيئة حتى يصل الى التفاحة الكائنة فى وسطه ، اى الى الدرعية ، متتبعا التكتيك الحربى الذى شرحه لابيه وجميع مستشاريه العسكريين ، كما جاء فى القصة الشائعة فى ذلك الزمن . وكان من نتاج غزواته على القبائل البدوية أن تحقق له انضمام هذه العشائر كحلفاء له فى الحملات المزمع شنها فى المستقبل القريب وابرز هؤلاء الحلفاء بالطبع ، قبائل حرب ومطير كما كان الحال فى السابق . هذا علاوة عن بعض العناصر من عشائر عتيبة وعنزة (الدهامشة) .

ولقد أمتدت غزواته الى الشرق حتى وصلت الى حدود تلال عبانات Abanat اما عبد الله بن سعود فقد بدأ استعداده لمواجهة هذا التهديد بالغزو . فأمر جيوش الوشم والسدير بالانضمام الى حجيلان بن حمد زعيم القصيم وقوات مقاطعته ، هذه القوات التى

تمركزت عند الغميل بين بريدة والخبرة ، ويبدو انهم امضوا الاشهر الاربعة هناك وهم لايفعلون شيئاً. غير أن عبد الله جاء على رأس قوة كبيرة الى رسّ في شهر آذا سنة ١٨١٧ فدعا اليه حجيلان وجيشه ليوافوه هناك . ثم سار من هناك في وادى ريما الى آبار العلم، مؤملاً أن يلحق بحلفاء إبراهيم باشا من البدو. غير أنهم تراجعوا إلى الحنكية ، فانسحب عبد الله بدوره الى مسكة ونجح في انتشار ما قد يطرأ . وطرق سمعه بأن على عزان Azan مع قوة تركية ترافقها قوة بدوية قد توجه الى آبار ماوية Mawiya ماوية على بعد مسيرة يومين من الحنكية الى الجنوب الشرقي، فهاجمهم عبد الله في الحال. وباغتهم على الآبار في الصباح الباكر من اليوم الاول في آبار ، وطاردهم حتى اصبحوا في متناول المدافع التركية. وتمركز عبد الله في موقع مقابل لمعسكر العدو غير أن المدافع احدثت كثيرا من الاضرار في صفوفه فتغلب المصريون بذلك على محاولته احتلال الآبار وظل المصريون يسيطرون على ميدان المعركة وعلى الآبار بينما هرب عبد الله وفرقة من فرسانه عائدين الى نجح، حيث ترك معداته الثقيلة ومن هناك سار الى عنزة عن طريق خبره .

اما ابراهيم فلم يضع الوقت بل اخذ يطور نصره ويستفيد منه، فسار من الحنكية الى ماوية مع جيشه الرئيسي ومعداته كلها. ومن هناك اندفع نحو القصيم فوصل قبالة رس في التاسع من تموز. ووجد السكان غير ميالين هذه المرة الى الاستسلام ، فقد ارسل اليهم عبد الله قوة من الجيش لتقوية دفاعهم . واشتد حصار رسّ ،

وكذلك اشتدت المقاومة العنيدة غير أن الأمور سارت فى صالح ابراهيم ، ولم تترك مدافعه ومعدات حصاره راحة للمدافعين لا ليلا ولا نهارا.

كانت الثغرات والشقوق التى تحدثها المدافع فى الاسوار نهارا يعيد المدافعون اصلاحها ليلا دون كلل ولا ملل.. وكانت الالغام والقنابل تطلق من الداخل لابطال مفعول الغام العدو المهاجم من الخارج . وقد استعمل المصريون قنابل يطلقونها من مدافعها فتنفجر وسط التحصينات . وكلما مرت الايام بلا امل فى الخلاص ارسل المتحاصرون يستنجدون بعبد الله الذى كان مقيما فى عنيزة ، فيتوسلونه ويلحون عليه فى طلب المساعدة او السماح لهم بطلب الصلح مع الاعداء . ويبدو أن عبد الله لم يكن بوسعه التدخل بأى شكل اما الاعداء فكانوا يتلقون الامدادات والذخائر من مصر بلا انقطاع واصبح وضع المدافعين أبعث على اليأس . وبعد اربعة اشهر من الحصار اضطرتهم الاحوال الى طلب الصلح بشروط سخية فى الخامس والعشرين من تشرين الاول سنة ١٨١٧ . وسمح للمدافعين أن يخرجوا بكامل اسلحتهم ومعداتهم لينضموا الى عبد الله فى عنيزة اما خسائرهم فبلغت ٧٠ قتيلا بينما يقدر ابن بشر عدد قتلى المصريين بستمائة قتيل .

وامضى عبد الله اعياد الحج فى عنيزة ليلة سقوط رس وكان منهمكا فى وضع الترتيبات للدفاع عن المدينة وحصونها ضد هجوم ابراهيم المتوقع . فارسل حامية الى حصن صفا المهم ، تحت امرة ابن عمه محمد بن حسن بن مشارى بن سعود وزودها بكل ما يلزمها

من ذخيرة لحصار طويل الامد بينما ارسل حاميات الى حصون المدينة والى المدينة نفسها بقيادة ابراهيم شقيق محمد . ثم سار عبد الله الى بريدة ليرقب التطورات من هناك .

ويبدو أنه قرر أن يرهق القوات المصرية وينهكها بعمليات الحصار المتعبة والباهظة التكاليف بدلا من أن يواجههم فى ميدان المعركة متبعا اساليب حروب العصابات التقليدية المعروفة فى الصحراء اما ابراهيم باشا فاسرع الى عنيزة واحتلها . وقد اظهر حصن صفا العزم على المقاومة ، غير أن قذيفة انفجرت فى مخزن كحل البارود فى الحصن فاحدث لانفجار فجوة كبيرة فى الاسوار .

وكان سقوط عنيزة نفسها والحالة اليائسة فى وسائل دفاع حصنها ، اجبر محمداً السعودى على طلب الصلح . ومرة اخرى وافق ابراهيم على عقد الصلح ، وبشروط جد سخية فسمح للحامية بأن تغادر المدينة بكامل اسلحتها وهكذا ضاعت القصيم.

لذا سار عبد الله الى الدرعية للاسراع فى تنظيم الدفاع عنها ضد العاصفة القادمة . وتوقف فى الشقرا ، مشجعا سكانها على أن يبدوا مقاومة ضارية بكل ما لديهم من قوة وكان حمد بن يحيى بن غيهب امير المدينة قد اخذ فعلا يدفع السكان الى حفر خندق يحمى المدينة . وكان قد بدىء فى حفره قبل ذلك بسنتين الا أنه أحمل فلم ينته العمل فيه بسبب عقد الهدنة آنداك . وزود عبد الله المدافعين بذخائر كافية لحصار طويل الامد جمعت أثمانها من العلاتلات الغنية . اما اشجار النخيل التى كانت على اطراف الخندق فقد جردت من اغصانها وسعفها لئلا تحترق من جراء اطلاق النيران.

وبعد أن وضع ابراهيم باشا الترتيبات الضرورية لتأمين سلامة عنيزة ، تقدم صوب بريدة حيث استسلم الامير حجيلان مع المواطنين دون مقاومة . وهكذا سقطت جميع القصيم في يد ابراهيم خلال أسبوعين او ثلاثة بعد انهيار مقاومة رس الباسلة ،وأخذ ابراهيم باشا يتقدم الى الجنوب بحرية وبعد أن اخذ معه ابن حجيلان وشخصين آخرين بارزين من أهل بريدة كرهائن حسب عادته ، زحف على المذنب وعشيقير والفرعة على التوالي . فاستسلمت كلها لدى ظهوره على ابوابها . وقد اتخذ من عشيقير قاعدة له ، ثم تقدم في الرابع والعشرين من كانون الثاني سنة ١٨١٨ للاستيلاء على الشقرا وما جاورها ، وليضع خطة الهجوم على المدينة التي يعرف جيداً انها ستبدي مقاومة ضارية وراء تحصيناتها القوية.

وفي اليوم الثاني بدأ ابراهيم الهجوم من مواقعه في الشمال والشرق من الواحة حيث جرى قتال ضاربين اشجار النخيل . وتكبد الاتراك فيه اصابات فادحة فاضطروا الى طلب الامدادات من عشيقير . غير ان المدافعين اندحروا الى داخل المدينة، وجرح اميرهم جرحاً بليغا .

اما ابراهيم باشا فقد بدأ يستخدم تكتيك نسف الاسوار بفضل مدفعيته الثقلية المنصوبة على رابية مشرفة تتحكم بدفاع المدينة . وكان القصف شديدا حتى سمع هديره في اقليمي السدير والمجمعة القريبين فحسب ، بل في هضبة عرمة ايضا أما السكان فتحصنوا وراء اسوراهم الا أن ابراهيم احضر مدافعه الى امكنة قريبة وقام

بقطع عدد هائل من أشجار النخيل المحيطة بالمكان . غير أن المدافعين ردوا على الهجوم بكل ضراوة وشدة ، ومن كل نقطة ملائمة بين الاسوار المهدمة والأبنية المدمرة ، وعلى الأخص فى الخندق الذى حماهم من طلقات الرصاص وقنابل المدافع . وقد تجاهلوا يوما بعد يوم دعوة الباشا لهم للاستيلام بشروط مشرفة . لكن الامور لم تكن فى مصلحتهم على الاطلاق . وفى العاشر من نيسان عرضوا أن يستسلموا .

كان سقوط شقرا يعنى وقوع الوشم بأكمله فى يد المصريين فأرسل ابراهيم باشا قوة من جيشه تحت قيادة رشوان اغا لاخضاع السدير والمجمعة ونهبهما اذا أبدتا أية مقاومة . أما الحولة والمحمل فقد تجنبتا الهجوم المصرى باعلان خضوعهما الى ابراهيم اثناء شهر اقامته فى الشقرا ، ذلك الشهر الذى قضاه الباشا منهكما فى الاشراف على ردم الخنادق وهدم ما تبقى من الأسوار . وأدخل بعض الناس من ذوى المصالح فى روعه امكانية الانتقاض عليه بعد رحيله ، ولذا عامل الامير الجريح والمواطنين الآخرين معاملة صارمة ، الى أن ثبت لديه ان هذه الافتراضات لا أساس لها من الصحة . ومع هذا ، اخذ ابراهيم معه عشرة من اهل المدينة كرهائن عندما غادر الشقرا سائرا الى ضرمى، (ضرمه).

كان عبد الله قد توقع هذه الحركة . فأرسل امدادات من عنده الى ضرمى لتعزيز وسائل دفاعها ، بقيادة ابن عمه عبد الله بن محمد بن سعود ، وقادة آخرين (بن عفيصان ومحمد العميرى) وفى العشرين من شباط ، وصل ابراهيم الى مشارف المدينة

فوجدها مسلحة على أهبة الاستعداد لمقاومة هجومه . فاتخذ مواقع له في واحة المزاحمية على بعد بضعة أميال من المدينة . وجلب مدافعه وآلات حصاره لقصف أسوار المدينة حسب خطته الحربية الجديدة . وبعد أن تضعضعت وسائل الدفاع ، قام بالهجوم على المدينة محاولا اقتحامها عنوة ، غير أن صمود مدافعيها رده على أعقابه ، وتراجع جنوده بلا نظام بعد أن تكبدوا ستمائة قتيل .

اما رجال ضرمى فأخذوا يصلحون ما أصاب بعض الاسوار من خلل ولاحظ ابراهيم ذلك فقرر أن ينقل مدافعه الى ناحية اخرى، الى حيث كانت قوات الخرج يقودها متعب بن عفيصان . فصمدوا بالرغم من قصف المدفعية الشديد . وفى هذه الاونة سمع رجل يصيح بين صفوف المدافعين قائلا ان الاتراك قد أصحوا وراءهم وأن ابواب المدينة اصبحت مفتوحة أمامهم . فتوقفوا عن القتال وتقهقروا بينما أخذت قوات العدو تطاردهم داخلة المدينة من كل جهة وزاد الطين بلة أن نزلت الامطار فى ذلك الحين ، وكانت موجة البرد شديدة للغاية . وقد استعر القتال فى الشوارع دون هوادة ولا رحمة الى ما بعد شروق الشمس ، وعند ذلك شق محمد العميرى على راس قوات ثادق ، طريقه وسط صفوف العدو ونجا بمن معه بينما استمر المصريون ينهبون المدينة ويذبحون من يصادفونه من أهلها فى الشوارع . اما سعود بن عبد الله ومعه مائة رجل من الدرعية فقد التجأوا الى احد حصون المدينة ، واستسلموا فيما بعد بشروط مشرفة الى ابراهيم فسمح لهم بمغادرة المدينة بامان . وساروا الى الدرعية واما سكان المدينة فقد هرب معظمهم الى الصحراء .

وأخذ ابراهيم يجمع الاسلاب والغنائم ، ثم جمع زهاء ثلاثة الاف شخص بين امرأة وطفل وارسلهم تحت الحراسة الى الدرعية ، دون أن يصابوا بأذى أو تساء معاملتهم فى الطريق.

وهكذا سقطت ضرمى ، التى تعتبر اقوى مدن نجد بعد الدرعية ، واستولى عليها ابراهيم بعد ثلاثة او اربعة ايام من بدء الهجوم . وقد هلك فى المعارك لا اقل من ٨٠٠ من رجالها البالغ عددهم ١٢٠٠ رجل ، بالاضافة الى عدد اخر من القتلى بين النجدات التى هرعت الى المدينة .

وبعد أن نهب ابراهيم المدينة ودمرها ، انسحب ليعد العدة للمرحلة الاخيرة من عملياته الحربية التى كلفه بها ابوه ، وسار عن طريق ممر الحيسية ووادى حنيفة مارا بالعيينة وجبيلة ، حتى وصل الى مزارع ملقة على بعد مسيرة ساعة من الواحة ، وعسكر فيها . ثم أخذ يقوم باستكشاف الوادى حتى عب فى مدخل المرتفعات برفقة بعض اركان حربه وقليل من المدافع . وسارت خيالته الى الامامية ، عاد الى مقره كى يعد العدة للمعركة التى كانت ستقع فى الحادى عشر من آذار سنة ١٨١٨ .

ومع ان المقاطعات والمدن والقرى النجدية سقطت واحدة تلو الاخرى فى يد الاعداء الغزاة ، فلقد كان هنالك دائما عناصر ترفض فكرة الخضوع للاجنبى ومسالمته تحت حكم وثنى ، وتقاطر هؤلاء الى الدرعية . مما ادى الى زيادة سكانها غير أن عبد اله عالج الأمر بصورة مرضية.. كات واحة الدرعية تقع فى وادى حنيفة البالغ عرضة ٥٠٠ ياردة . وكان هنالك مزارع نخيل كثيفة فى هذا الوادى

الذى يمتد مسافة اربعة اميال من الشمال الى الجنوب . وكانت هذه المزارع تمتد على جانبى قناة المسيل حتى تصل الى مرتفعات صخرية يبلغ ارتفاعها مائة قدم .

فى هذه المزارع نشأت عزب صغيرة يقطنها معظم السكان ، وتشرف عليها قلعة طريف السامقة ، جاثمة على بعض الصخور البارزة الى الجانب الايمن وكان هناك قصور العائلة الملكية السعودية ومساكن حاشيتهم ، بالاضافة الى الجوامع ومظاهر الرفاهية الاخرى التى تزخر بها المدن عادة . وكان هناك خندق عميق يفصل القلعة عن الجناح الايمن المجاور ، وتنتشر على جانبيه اكواخ حقيرة ومبان يقطنها اصحاب الحرف من الطبقات الفقيرة من الشعب . اما خارج هذه الضاحية ، فكان هنالك سور تكثر فيه الابراج والحصون الصغيرة ، يمتد حول مجرى الوادى من الجهة الشرقية ، وكذلك كان هنالك سور آخر اطول من الاول يلتف حول الصخور فى الجانب الشرقى او الايسر من الوادى ، فى قوس ضحل قليلة العمق . اما الدخول الى القسم الرئيسى من الواحة فقد كان مقصورا على طريق الوادى من الشمال والجنوب ، بينما كانت القوافل تهبط من الصخور الواقعة فى صفتيه . واهم طرق القوافل هذه ، الطريق المؤدى الى الرياض . على هذه الصورة كان الموقع الذى قدر له أن يشهد كفاح الوهابية المرير الاخير من أجل الحياة ضد اعظم دولة اسلامية ، ضد الباب العالى .

وفى الحادى عشر من آذار ، سار ابراهيم باشا بكل قواته عبر ذلك الوادى ، خيالته تنتشر على جانبيه فى الصحراء ، ومركز

قيادته العليا فى علسب وكان يواجه الباشا فى هذا الوادى ، جيش الدرعية الرئيسى المؤلف من سكان المدن والقرى النجدية ، بقيادة أشقاء عبد الله الثلاثة - فيصل وابراهيم وفهد ولم يكن لديهم غير ثلاثة مدافع يقابلون بها مدافع العدو القوية . وكان سعد وتركى شقيقاهم يقفان على يمينهم الى الشمال ، على رأس قوات الدرعية، يسدان بها مدخل شعيب المغيصبة . بينما كان الى القرب منهم قوات منفوحة يقودها زعيمها عبد الله بن مزروع . وبين هذا الخط الدفاعى ومواقع العدو ، كان يقف الحرس الامامى المؤلف من قوات الحريق بقيادة تركى بن عبد الله الحزانى ، وعناصر اخرى تسد بوابة سمحان Samhan فى الطرف الشمالى من القلعة ، حيث تمركز عبد الله نفسه داخل الاسوار ومعه بعض المدافع الثقيلة . وتمركز فهد ابن عبد الله ابن عبد العزيز (ابن عم عبد الله الادنى) فى قرى عمران القريبة من نخيل رفيعة . على رأس قوات من الدرعية والسدير ومعه بعض المدافع هذه هى المواقع التى تشكل الخط الامامى من خطوط الدفاع التى تواجه مواقع العدو . ووراء هذه الخطوط الدفاعية ، وفى الجزء الاسفل من الواحة ، كان الشيوخ، والعناصر التى لا تستطيع القتال ، يقفون فى كل برج وحصن للذود عن مواقعهم اذا ما دعت الضرورة الى ذلك . اما سعود بن عبد الله بن عبد العزيز فكان يقف على تلة القرين مع مدفعيته الثقيلة ، ليصد العدو فيما اذ حاول ابراهيم باشا الالتفاف من الصحراء الواقعة فى اسفل الوادى .

وعلى الضفة اليمنى أو الغربية من الوادى ، كان يتمركز عبد

الله بن عبد العزيز عم عبدالله ، وحسن شقيقه الاخر ، يحميان مدخل شعيب الحارقة ، على امتداد الخط الذى تمركز فيه تركى وزيد ، ابناء عبد الله بن محمد ، مع قوات الدرعية وهو عبد معتق لسعود الكبير . وتمركز فهد بن تركى وابن عمه بن حسن بن مشارى الوارد ذكره كقائد لحصن الصفا فى عنيزة - تمركزا فى أعلى الوادى ووراء هذه المواقع فى الضفة اليمنى كان يقف مشارى شقيق عبد الله محتلا الارض المخصصة لصلاة العيد على المنحدر الواقع وراء الضاحية الغربية المار ذكرها .

وقرب هذه المواقع تماما كان يقف سعود بن عبد الله على ضفاف شعيب الصفا ليمنع اية محاولة من جانب العدو للتقدم من الخلف الى هذه الجهة . وكان هذا الامير ، كما أسلفنا ، يسيطر على موقع القرين الذى يحمى مؤخرة خطوط الضفة اليسرى .

اما ابراهيم باشا فلم يضع الوقت ، بل بادر حال وصوله علب الى شن هجوم على خط الوهابيين الامامى .. واستعر أوار المعركة الوحشية عشرة ايام باستمرار ، ولكن دون نتائج حاسمة لأى من الجانبين ، بالرغم من أن معركتين نشبتا وجها لوجه ، عند مدخل شعيب المغيصبة والحارقة على طرفى الوادى .

وكان الوهابيون هم الذين بدأوا الهجوم . واوقف ابراهيم القتال كى يتخذ مواقع جديدة يشن منها هجومه على المراكز الدفاعية فى اقصى المنطقة الشمالية من وادى غبيرة . ولاح فجر ذلك اليوم، وابراهيم ينشط فى هجومه العنيف دافعا بسيل من الامدادات لشغل الحامية ، بينما اتى بفرقة قوية من الخيالة كان قد اخفاها

ليلا ، لشن هجوم كاسح من الخلف. وتم الهجوم.. فكان مباغتة للوهابيين اضطرتهم الى التقهقر فى فوضى شاملة على طول الوادى، وخسروا مائة قتيل ، معظمهم من افراد العائلة المالكة. فقد كان بين القتلى ، فهد بن تركى ومحمد بن مشارى وحسين زعيم الحزانى اما الناجون فلموا فلولهم وساروا الى الخط الأمامى الذى لم ينجح الاتراك فى زعزعته. وكان لهذه الهزيمة المؤسية أثرها السيء فى نفوس بعض الذين فتر ولاؤهم للعقيدة الوهابية . فانسحبوا من جيش عبد الله وحاولوا استراضاء ابراهيم باشا باعطائه معلومات واقعية عن الوضع فى المدينة .

وبعد هذا النجاح الذى اصابه ابراهيم فى غبيرة ، ارسل فرقة من الفرسان مع عناصر اخرى من المشاة ، سحبها من مواقعه المحصنة فى وادى العزان المسيطر على القوات المتمركزة فى الضفة اليمنى، واصدر اليهم تعليماته بوجوب الهجوم على موقع الوهابيين فى حصن سمحة . بينما امر قواته على الضفة اليسرى بان تشن هجوما شديدا على القوات الامامية للحيلولة دون انسحاب اى من الوحدات المتمركزة هناك وفقا للغاية الرئيسية من هجومه. ثم فتح مدافعه على الحصن وما يحيط به من مواقع ، فتحولت التحصينات الى خرائب ، مما اضطر بن عبد الله عبد العزيز لى ترك مواقعه عله يحمى المراكز الخلفية المحصنة ومن هذه النقطة شن على عزان هجوما على الحصن الذى تمركز فيه عمر شقيق عبد الله، فصمدت قواته وقاومت ببسالة بالرغم من قصف المدفعية الشديد. غير أنهم بوغتوا بهجوم من الخلف قامت به القوات التى احتلت

حصن سمحة . فانهزم رجال عمر وهربوا في الوادي ، حيث كان ابراهيم يوجه هجومه الرئيسي على الخط الهام الذي تمركز فيه فيصل بن سعود وقد قاوم فيصل مقاومة ضارية : غير ان على عزان ارسل فرسانه ومشاته الذين كمنوا في مزارع النخيل عند الفياض ، لشن هجوم عن طريق شعبي الحارقة وغبيرة . فاضطر عمر بن سعود لترك مواقعه ثم شق المهاجرون طريقهم والتفوا حول مراكز فيصل الرئيسية. فانهزم جيش عمر بعد معركة ضارية ولاذ بالفرار تاركا وراءه معظم مدافعه ومعداته . كذلك فرت القوات المتمركزة على جانبي الوادي واصابها الذعر .

ولم تتوقف القوات عن التقهقر ، حتى نجح فيصل واخوه سعد في جمع فلول قواتهما عند مزرعة السلماني وتمكنها من دحر العدو المطارد وكبداه خسائر فادحة الا أن هذه القرات لم تحاول استرجاع المواقع التي فقدتها بل ظلت في المواقع التي وصلتها لتقيم خندقا آخر محصنا ، يربط المواقع الاخرى المختلفة بخنادق صغيرة انشئت في الارض التي يتمركز فيها جيش أخوة عبد الله : فيصل وتركي وفهد ، وعمهم عبد الله بن عبد العزيز . والى اليسار من هذا الموقع ، كان يقف ابراهيم بينما تركز سعد بن عبد الله على افريز القلعة بجيش ومدفع ضخم يشرف اشرافا جيدا على الوادي باكمله ويسيطر على ميدان المعركة . وفي الضفة العليا من شعيب غبيرة كان يقف تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود وابنه فيصل الذي يظهر لاول مرة على مسرح سيلعب عليه دورا رئيسيا مدة تزيد على ثلاثين سنة . وكان عمر وحسن اخواه عبد الله ، والعبد فريج الحربي ، يحتلون منطقة شعيب بليدة .

وبين هذه المواقع وشعيب كتلا كان يقف اخ آخر من اخوة عبد الله يدعى عبد الرحمن ، بينما احتل مشارى بن سعود شقيق عبد الله ، موقع مصلى العيد كانت هذه المواقع تواجه مراكز الاعداء فيقوم على حراستها جيش قوى ليلا ونهارا اما المراكز الواقعة فى اسفل الوادى فكان يحرسها جيش صغير وضع ليقوم بواجبه اذ دعت الحاجة ، ولم يكن له شأن يذكر فى تطورات المعركة .

وتولى عبد الله بن مزروع المنفوحى (من منفوحة) وعبد الله بن ابراهيم بن حسن المشارى الدفاع عن المراكز الواقعة فوق السلمانى على الضفة اليسرى ، والمشرفة على مرتفع نضرة . وكلن يقوم على هذا المرتفع حصن صغير من الحجارة يحميه رجل اسمه سديد آل لوح Al Lauh المحملى ، مشكلا احدى النقاط الهامة فى خطوط الدفاع. وبين هذا الموقع ، ومسيل شعيب قليقل كان يقف سعد بن سعود ، شقيق عبد الله مع قواته بينما احتل ابراهيم وعلى ولدا دغيثير الشعب نفسه وكان عبد الله يقف بين بوابتى سمحان والظهر قرب بطارية من المدفعية الثقيلة ، مع عدد من الزعماء وعلماء الدين والفقهاء .

دفع ابراهيم مراكهز الى الامام حيث مدخل قرى قصير-Qiri Qu sair قرب المدينة من الجهة الشمالية ، بينما تمركز على عزان على طول الضفة اليمنى فى مواجهة القلعة من الغرب ، اشتدد نار المعركة .. واستمرت ليل نهار بنفس الضراوة والشدة . وكثيرا ما كان يجرى القتال وجها لوجة اثناء نوقف قصف المدفعية المستمر . وكان هذا النوع من القتال فى مصلحة المدافعين ، الا أن العدو كان

متفوقا في العدد ، وبمقدوره أن يسد الثغرات التى تحدث فى صفوفه من جراء خسائرة الفادحة . وكانت الامدادات والذخائر تصل اليه بصورة مستمرة من المدينة المنورة . اما الوهابيون فكانت خسائرهم في الرجال والعتاد لا تعوض ولا تسد.

ودارت المعركة حول عدد من النقاط الدفاعية مثل مزرعة السلمانى ، وخرائب حصن سمحة ، وشعيب بليدة على ضفة الوادى اليمنى ، وفي شعيب · قليقل الى اليسار . اما خيالة العدو، فالتفوا حول منطقة المدينة ليقوموا بشن هجوم على قرية عرقة Arqa على بعد بضعة اميال من الدرعية ، واستولوا عليها فدمروها . وهرب الناجون من سكانها الى العاصمة عن طريق الوادى وعاد عبد الله فاحتل القرية فى موسم التمر لحماية المحصول وجمعه . وشن ابراهيم باشا هجوما معاكسا على الحامية بمساندة امير الرياض ناصر العيضى Al Aidhi وعناصر اخرى من الرياض ومنفوحة والقرى النجدية التى انضمت الى العدو فاستسلمت حامية القرية على شروط ، وسارت الى الدرعية .

وأصيب ابراهيم باشا بكارثة خطيرة ، اد انفجر احد مستودعات ذخيرته مدمرا مقادير هائلة من الذخائر وخسائر فادحة فى الارواح. هذا علاوة عن الذعر العام الذى أصاب الجيش بسبب هذه الكارثة . وانتهز الوهابيون هذه الفرصة السانحة فهاجموا العدو ولكن بدون فائدة تذكر . اما ابراهيم باشا ، فأرسل قطعات من جيشه تجوب البلاد طولا وعرضا وتجمع كل ما تجده من عتاد ومال ليعوض الباشا ما فقده . وشرع الاتراك الموجودون فى العراق وغيرها ينظمون

قوافل لتمويل جيش ابراهيم وتزويده بحاجاته .. وهكذا كانت قوة العدو في ازدياد ونمو يوما بعد يوم . اما في الدرعية فكان عدد المرتدين في ازدياد . وحتى غصاب زعيم عتيبة الذى كان دائما يعتبر من اقوى انصار العائلة المالكة السعودية تخلى عن الوهابيين وانضم الى الاعداء . ثم قدم الى ابراهيم باشا معلومات قيمة وأسدى له النصح بشأن الخطط الحربية الدفاعية ومواقع الوهابيين ، اذ انه كان قائد فرقة (الفرسان) الخيالة في جيشهم.

وفي نيسان سنة ١٨١٨ أصيبت القضية الوهابية بخسارة فادحة بوفاة فيصل شقيق عبد الله ، برصاصة طائشة اثناء جولة تفقدية بين صفوف جيشه . فخلفه اخوه تركي .هكذا استمر القتال المضنى بلا هوادة ولا راحة من الجانبين . وقد جرت معارك دامية في شعيب كتلا وقرى عمران ، كما نشب قتال مرير وحول مزارع رفيعة، حيث شن ابناء دغيثير واتباعهم هجوماً شديداً على مواقع العدو. غير انهم ردوا على اعقابهم بخسائر فادحة ، ومن بينها رجلان من عائلة دغيثير نفسها .

ونشبت معركة اخرى اثر هجوم شنه ابراهيم باشا على حصون الوهابيين ، الا انهم ردوا المصريين على اعقابهم ، وتتبعهم فهد بن عبد الله ، غير انه قتل في المعركة التالية التى نشبت حين صمد الاعداء للمطاردين . ثم خرجت قطعان من الدرعية واخذت تضغط على الاتراك ، فدارت رحى المعركة واستعرت من الفجر حتى الظهيرة دون نتيجة حاسمة لأى من الجانبين.

وبدأ المدافعون في هذا الوقت يشعرون بوخزات الجوع .. فقد

اوشكت مؤونتهم على النفاد وارتفع سعر القمح بشكل لم يسمع بمثله من قبل ، حتى اخذ الكثيرون يغادرون المدينة وكان من الواضح ان تيار الاحداث يسير معاكسا لعبد الله وشعبه .

وفي الخامس من تشرين الثاني ، شن ابراهيم باشا هجوما شديدا مركزا على حصون المدينة من جميع الجهات .. فأرسل قطعة من الجيش مع مدافعها الى طرف الواحة الاسفل للمرة الاولى ، ليرعب الحاميات الضعيفة في تحصينات عبد الله ، بينما تمركزت قوة كبيرة اخرى بقيادة على عزان في الضفة اليمنى ، مهددة القلعة من الغرب . وشن هجوما شديدا على الضفة اليسرى ، لاستدارج اكبر عدد ممكن من الحاميات الى تلك الجهة ، بينما وزع على عزان قواته لتقوم عند الفجر بشن هجوم على مراكز دفاع عبد الرحمن شقيق عبد الله ، فوق بستان نخل المشرفة . ودخلت قواته البستان عندما وجدت الموقع خاليا ، واحدثت فجوات في سوره الممتد على طول القناة .، وانتظرت دورها للاشتراك في المعركة الدائرة رحاها على كلتا ضفتي الوادي . اما الحاميات فقد كانت منهمكة في التهيؤ لمواجهه الاحداث فلم ينتبهوا لما كان يجري وراءهم الا بعد أن هاجمتهم قوة المشيرفة من الخلف . فانهزموا تاركين حصونهم بعد أن دب الرعب في صفوفهم .

وظل العدو يطاردهم حتى تفرقوا وساروا الى منازلهم في القرى المنتشرة في الوادي واغلقوا ابوابها عليهم وتحصنوا وراء الاسوار . اما سعد بن عبد الله فالتجأ الى قلعة طريف ، قلعة جدة ، مع عدد من اتباعه البارزين . الا أن ابراهيم باشا شرع يقصفها بمدافعه. وكان

عبد الله واتباعه البارزين . الا ان ابراهيم باشا شرع يقصفها بمدافعه . وكان عبد الله واتباعه لا يزالون صامدين فى مراكزهم بين بوابتى المدينة ، وسكان الوادى يقاتلون ببسالة فى معركة يائسة خرجت السيطرة عليها من ايديهم .

وادرك عبد الله ، بعد أن قتل اخوه فى المعركة ، انه فقد كل شىء ، فعاد الى منزله طريف ، تاركا وعتاده الى الاعداء ، وارسل وفدا مؤلفا من عبد الله بن عبد العزيز والشيخ على ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب الكبير ، الى ابراهيم باشا للتفاوض فى عقد الصلح . فقبل ابراهيم باشا مطلبهم بالنسبة لقرى الوادى ، مستثنيا القلعة ، واشترط أن يخرج عبد الله بنفسه ويستلم بلا قيد او شرط فعقدت هدنه منفصلة بينه وبين قرى الوادى بموجب شروط مشرفة فى التاسع من ايلول سنة ١٨١٨ بينما اصبحت القلعة المحصورة مسرحاً لاعنف المعارك واشرسها. اذ قصف ابراهيم باشا منازل العائلة المالكة من بوابة سمحان، التى اتخذها عبد الله مقراً لقيادته العليا. وجلب عبد الله المدافع من القصر الى الجامع، استعداداً للجولة الاخيرة مع الاقدار. وانضم اليه اعداد كبيرة من المواطنين الموالين له.واستمر يقاوم العدو الذى يفوقه عدداً، مقاومة يائسة مدة يومين كاملين، وبعدها اتخذ قراره بالاستسلام فى الحادى عشر من ايلول، بعد ستة اشهر من القتال الضارى ضد قوات الباب العالى بمواردها الهائلة. وضد نائب السلطان الوالى الارناؤوطى، على مصر. ولقد تم عقد الصلح بشرط أن يشخص عبد الله بنفسه الى اسطنبول مع

رشوان أغا وعلى دويدار. فوصلها عن طريق مصر وهناك نفذ فيه حكم الموت بأمر من السلطان التركى.

اما حملة ابراهيم باشا على الجزيرة العربية فكلفت الاتراك اثنى عشر الف قتيل، منهم عشرة الاف سقطوا فى المعارك التى دارت فى الدرعية.وكان هذا النصر الساحق زهيد الثمن، فقد دمرت قوات الوهابيين وسحقت تحت اقدام الامبراطورية العثمانية، وربما الى الابد، لو لم تبدد الادارة التركية هذه المكاسب وتذورها هباءً بضعفها وسوء معاملتها. فهى التى أوجدت فى المناطق التى احتلتها روح الاستياء الذى تبدى فى مظاهر الولاء والأخلاص نحو الاحياء من امراء العائلة المالكة السعودية.

وكان الكثيرون منهم قد هربوا من الدرعية قبل ختام المأساة، بينما نقل آخرون منهم الى مصر وظلوا اسرى، الى ان عاد البعض منهم فى الوقت المناسب، ليلعب دوره فى خدمة بلاده. وكان من بين الأمراء السعوديين الذين فروا ابن عم عبد الله، سعود بن عبد الله بن محمد. غير ان خيالة ابراهيم باشا طاردوه فقتلوه. وتمكن اخوه تركى من الهرب، وقدر له ان يلعب دوراً عظيماً هاماً فى اعادة الامجاد السابقة للبيت السعودى خلال الاعوام العشرة التى تلت الاحتلال التركى، وهى الاعوام التى تميزت بالفوضى والقلاقل. ورافق زيد اخاه تركى الى الصحراء، اما فيصل بن تركى فكان من بين الذين نفاهم ابراهيم باشا من العائلة السعودية الى مصر.

وتقـدر خسـائر الوهابيـين اثناء دفـاعـهم عن الدرعـيـة بألف وثلاثمائة قتيل، منهم اخوة عبد الله الثلاثة، وثمانية عشر رجلاً من العائلة المالكة. وخلال الحصار الذى دام ستة اشهر كاملة، اشترك فى الدفـاع عن الدرعـيـة عـشرة من اخـوة عـبـد الله وواحـد من ابنائه الثلاثة. اما عـائلة معمر امراء العيـينة السابقون، فقد أسهموا بما لايقل عن خمسة عشر رجلاً دونت اسماؤهم فى سجل الشرف. كما قدمت عائلة دغيثير ستة شهداء، وكان لكل فرقة من الاقليم نصيب لا يستهان فى قائمة القتلى هذه.

لقـد مضت الامبراطورية الوهابين فى تلك الحرب الى النهاية، وبدا انها لن تقوم، ولكنه كتب لها ان تنهض مرة اخرى من بين رماد انقـاضـهـا فـى زمن لاحق، وبعـد الاضطراب الذى جاء فى اعقـاب تلاشيها الموقت.

وقد عـامل ابراهيم باشا، حسبما نعلم، جميع افراد العائلة المالكة السعـودية بالتـجلة والاحـترام اللائقـين بهم. غـيـران الحـال يختلف بالنسبة الى انصارهم، وعلى الاخص افراد الهيئات العملية. فقد قتل بعضهم رمياً بالرصاص، بينما مزقت اجساد الباقين منهم ارباً إرباً بقذائف المدافع. اما احمد الحنبلى، قاضى الدرعية، فقد ضرب وعذب بعد ان قلعوا اسنانه. واما سليمان بن عبد الله، حفيد محمد ابن عبد الوهاب فقد تعرض لعار الاصغاء الى عزف القيثار قبل قتله رمياً بالرصاص. اما على بن حسين الحفيد الثانى لمحمد بن عبد الوهاب فتمكن من الفرار الى قطر فعمان، من حيث عاد بعد بضع سنوات للخدمة تحت لواء تركى.

دام حكم ابراهيم الارهابى بعد سقوط الدرعية زهاء التسعة اشهر. وأصدر محمد على بنفسه امراً يقضى بتدمير مدينة الدرعية تدميراً فى حزيران من سنة ١٨١٩.. وكان هذا خاتمة الانتصار الساحق.

الفصل السادس

تركي بن سعود

لقد ادى انهيار القيادة الوهابية ،تلك القيادة المستندة الى المبادىء الدينية والاخلاقية التى فازت بتقدير الشعب واحترامه - الى الاهمال المثير لتلك التعاليم السامية التى انقذت العرب من بربرية كانوا يرسفون فى اغلالها قبل ظهور المذهب الوهابى . فقد بدأت تظهر فى الافق تلك المنافسات والمنازعات القبلية القديمة بتشجيع من لدن اسياد البلاد الجدد . ذلك ان هؤلاء ما كانوا ليهتموا مثقال ذرة بمصلحة الشعب وخيره، ولا باعادة بناء اقتصاد البلاد الذى تداعى وانهار من أثر الحروب.

على العكس من ذلك لقد كان هدف ابراهيم الأول هو اشاعة الرعب فى قلوب الناس وفرض الضرائب الباهظة المجحفة لتمويل قواته التى وزعها على الحصون المختلفة ، فى طول البلاد وعرضها ، آملا بذلك ان يقضى على كل مقاومة لطغيانه . ولم يعد صوت العقل بله صوت الدين مسموعا فى البلاد .. كان السفر بين القرية والاخرى محفوظ بالمخاطر ، وحتى علية القوم لم يكونوا يجرؤون على الانتقال من مكان الى آخر فى المدينة دون ان يواكبهم حرس.

واصبح الدس والنميمة من الفروض اليومية . اما المصريون الذين قضوا على ضحاياهم الضعفاء واحدا تلو الاخر ، فلم يجدوا ادنى صعوبة فى الاستيلاءعلى املاكهم ومحصولاتهم لمنفعة

الجيش ، بالاضافة الى تدميرهم كافة الاسوار والابنية التى يمكن استخدامها فى مقاومة مظالمهم وطغيانهم .

وبالاضافة الى هذه المطالب الباهظة والضرائب الجائرة التى فرضت على الموارد المحلية المحدودة ، وتدمير مزارع النخيل والمحاصيل الزراعية، فقد ذر قرن المجاعة واجتاحت البلاد . وقد نجد صعوبة فى تصديق القصة التى تروى ان المصريين قد اضطروا فى بعض الاحايين الى اكل الخشب ، لكنه من المحتمل ان ضحاياهم التعساء قد مروا بهذه التجربة فعلا . وليس لدينا ما يحملنا على الاعتقاد بان السلطات ذات الشأن قامت باى عمل من شأنه تحسين حالة السكان او زيادة انتاج المناطق المحتلة . هذا دون الحاجة الى ذكر الامن خلال السنوات الست التى عقبت سقوط الدرعية حتى مغادرة الحاميات المصرية للبلاد .

ويظهر ان هذا الاهمال المقصود كان جزءا من سياسة محمد على فى مصر . وكان حاكم مصر مستعداً لان يدع الصحراء العربية تغرق فى الفوضى ، فلا يهمه من امرها الا أن تمتنع عن الاعتداءات الخطيرة على اقاليم ساحل البحر الاحمر ، بالنظر لاهميتها الحيوية للامبراطورية العثمانية . ولم يكن هو ولا غيره يتصور أن الدولة الوهابية قد تبرز مرة أخرى فى اقل من عشر سنوات ، فتنتفض من بين انقاض الفوضى التى عرفت فيها الجزيرة العربية ايام حكم ابنه ابراهيم .

لابد أن فكرة امتداد الحكم التركى حتى الخليج الفارسى داعبت ابراهيم باشا . فبعد سقوط الدرعية ، قام الاخوان ماجد ومحمد من

عائلة عريعر وزعيما عشيرة بنى خالد ، يطالبان باعادة حكمهما الى البلاد . فسارعت كل من الهفوف والقطيف الى الاعتراف بهما كرها فى حكم المصريين . غير انهما لم يتمتعا بالاستقلال طويلا . فقد ارسل ابراهيم باشا قوة صغيرة من جيشه بقيادة ضابط من عنده اسمه محمد كاشف ، وامرة أن يستولى على جميع اموال عائلة سعود وانصارها .

وتوجهت القوة نحو الشقيقين المطالبين بالامارة ، فهرب هذان برفقة زعيم عشيرة السياسب . واخذ الاتراك يمارسون ضغطهم على كل من كانت له علاقة بالسعوديين ومذهبهم ، ويعتدون عليهم . فمكثوا فى الاحساء حتى بارح ابراهيم الجزيرة العربية . اما الفضل فى اخلاء الاحساء فيعود الى محمد على نفسه .

وقد كان هذا الامر فى الظاهر فى مصلحة بريطانيا ، وذا اهمية كبيرة فى نظرها . فقد كان عملاؤها وجندها ، خلال السنوات العشرين التى خلت منصرفين الى ايجاد سلسلة من المنافذ التوسعية التى لا تزال تقبض بيد من حديد على الاقاليم الساحلية بعد مرور قرن ونصف من الزمن.

لم يكن لنشاط الإنجليز فى هذه المنطقة علاقة بتاريخ السعودية، الا انه يصعب علينا ان نصدق بان انزال قوة كبيرة من الجيش البريطانى فى القطيف ، اثناء احتلال محمد كاشف لها ، لم يكن الا تظاهره لتأييد الاتراك ومعاضدتهم . فوجود تركيا على ساحل الاحساء كان فى حد ذاته تحديا غير مباشر لمركز بريطانيا على ساحل القرصان . خصوصا وان الاتراك كانوا يعتبرون انفسهم

الورثة الشرعيين للتركة الوهابية . ومن ناحية اخرى ، كان يهم البريطانيين ان يقفوا على نوايا ابراهيم وأبوه محمد على بالنسبة لساحل الخليج .

وكان الكابتن ج . ف ساد لير يهدف من وراء سفرته التاريخية عبر الجزيرة العربية سنة ١٨١٩ الى هذه الغاية . ولكن اذا كانت فرصة وجود قوة انجليزية في القطيف قد توفرت ، فما هو السبب الذى اضاع امكانية تحقيق الفكرة البريطانية في السيطرة على ساحل الخليج كله ؛ ان هذا امر غامض لا يمكن تعليله . ولربما كانت عودة ماجد بن عريعر واخيه الى الاحساء بعد مغادرة الاتراك لها ، حلاً مؤقتا مرضيا من وجهة النظر البريطانية، الى أن تحدث تطورات جديدة في الوضع الذى كان غامضا، ولكن هذه التطورات لم تقع .

كانت الاوامر قد صدرت الى ابراهيم من ابيه بوجوب اخلاء البلاد من السكان اخلاء تاما ، وان يقوم كذلك بتدمير الدرعية تدميرا تاما ، بعد هدم التحصينات وردم الابار الموجودة في القرى والمدن . وبعدئذ بدأ يسحب جيوشه طالبا اليها الاجتماع في ضرمى، ومن ثم بدأ السير ، بعد ان اقام تسعة أشهر في العاصمة الوهابية . وفي غضون الشهر الذى اقامه ابراهيم في ضرمى ، وجه عددا من الغزوات ، ضد بعض عشائر قبائل سبيع ، وعجمان ، وعنيزة . وكان الغرض منها جمع المؤونة . وفي احدى هذه الغزوات نجا الباشا باعجوبة ، من طعنة خنجر شقت سرواله (بنطلونه) وسرج حصانه ، واصابت الحصان بجرح بيلغ .

وبعد هذا سار ابراهيم الى القصيم ومنها الى المدينة المنورة آخذا معه حجيلان، حاكم الاقليم المسن الذى توفى هناك فى الثمانين من عمره . وقام اغوات ابراهيم باشا قبل تركهم مراكزهم باقتراف اعمال منكرة كان الغرض منها القضاء قضاء أبدايا على جميع الشخصيات البارزة فى الجزيرة العربية ، كى لا يتمكن هؤلاء فى المستقبل من اعادة الحياة الى بلاد شملها الدمار . فالقوا القبض على محمد بن عبد المحسن بن على امير حايل ، وعلى اخيه على وايضا على عبد الله بن رشيد امير عنزة ، وقتلوهم.

وقد لاقت عائلة عفيصان فى الخرج ، الامرين على يد الاغا حسين جوخدار الذى كان عائدا من الحوطة ، فتوقف خصيصا ليذبح ثلاثة من زعماء تلك العائلة ، ويصادر ممتلكاتهم . كما قتل قرب الدرعية عليا بن عبد الله ، حفيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب . وكان هذا متفقها كبيرا فى الدين .

اما المنازعات المميتة والمؤمرات والفتن وحوداث القتل ، التى تلت رحيل ابراهيم باشا عن القصيم وحريملة وغيرها من الاماكن ، فكانت مجرد موجة من الرعب فى مجرى الحوادث الرئيسى الذى بدأ يظهر من خلال الفوضى .

* * *

لقد أشرنا سابقا الى عودة ابناء عريعر الى مركزهم التقليدى فى الأحساء ، والى تقوية هذا المركز بالقائهم القبض على سيف بن سعدون ، زعيم السياسب ، وتخلصهم منه . ويبدو انهم لم يقنعوا

يملك اسلافهم وهم يرون عرش الدرعية المرموق خاليا . وقد كان اخطر مطالب به ، امراء العيينة الذين انصهروا فى الدولة الوهابية . وكان يمثل هذا البيت وزعيمه فى هذا الزمن ، محمد بن مشارى بن معمر ، الذى كان فى الدرعية يوم حصارها ، غير انه غادرها الى العيينة بعد ان دمرها ابراهيم باشا .

وفى ايلول سنة ١٨١٩ سار الى الدرعية ، واعلن نفسه اماما واميرا على نجد كلها بدلا من السعوديين الذين تلاشوا ، طالبا من اهلها مساعدته على تحقيق هذا الامر . وصادف طلبه قبولا لدى بعض المناطق الموالية له ، فشرع فى اتخاذ الخطوات الضرورية لاعادة بناء المدينة المهدمة . غير ان الجفاف الذى اجتاح البلاد فى تلك السنة ، والمجاعة التى جاءت فى أثره ، ثم الامطار والفيضانات الغير الطبيعية التى حدثت فى تموز سنة ١٨١٩ ، اعاقت جهوده فى هذا السبيل .

وما كادت تمر فترة من الزمن حتى بدأت المعارضة لحكمه ، تظهر فى الافق ، وبين سكان الرياض وحريملة والخرج على الخصوص . فطلبوا الى ماجد بن عريعر ان ينضم اليهم ويساعدهم على طرد الغاصب قبل ان يثبت اقدامه . وهاجم المتحالفون مدينة (منفوحة) حليفة محمد بن مشارى الرئيسية الا ان هدنة عقدت بعد القتال الذى لم يكن حاسما ، فاغرى ابن معمر ماجدا بالهدايا مؤكدا له بانه لا ينوى الاعتداء عليه فى الاحساء . واعلمه فى نفس الوقت بأن حكمه فى نجد كان باسم السلطان العثمانى. ويبدوا أن شيئاً من

هذا ، كان قد تم بينه وبين ابراهيم باشا الذى كان يعامله معاملة ودية فيها الكثير من الصداقة والاحترام .

ومهما كان رد فعل ماجد ، على هدايا ابن معمر وتأكيداته، فالبدو هم الذين انهوا القضية، فعاد ماجد الى بلاده يجر اذيال الخيبة . وتمكن ابن معمر ان يوسع ويثبت نفوذه فى الارياف التى انتهزت فرصة ارتفاع اسعار المواد الغذائية فى العاصمة فبدأت ترسل قوافلها الى الدرعية ، لبيع منتجاتها ومحاصيلها بربح وفير .

اما الرياض وحريملة والخرج ، فلم تعترف بحكم ابن معمر ، ليس هذا فحسب بل يبدو أن حريملة كانت فى طليعة العناصر المناوئة له . وكان لا يعدل عداوتها له الا ظهور تركى بن عبد الله بن محمد بن السعود واخيه زيد ، المفاجىء بعد أن اعطيت لهما التأكيدات بالولاء والمساعدة . وكان من جراء ذلك التشجيع ان دعى تركى لان يتدخل نيابة عن بعض اهالى حريملة ، فوعدهم بمساندتهم فيما اذا نظموا ثورة على حمد بن راشد الزعيم المحلى عندهم . فارسل ابن معمر ابنه مشارى ، وزيدا شقيق تركى ، على رأس قوة انضمت اليها عناصر اخرى اثناء مرورها بالمحمل والسدير ، لمساعدة أصدقائهم فى حريملة .

وبعد محاصرة حمد بن راشد فى حصنه اسبوعا واحدا استسلم على شروط ونقل الى الدرعية ، وهكذا سارع خضوع حريملة فى خضوع باقى المدن والقرى فى العارض والوشم والسدير ، واعلن زعماؤها قبولهم بالحكم الجديد ، اما بحضورهم شخصيا الى الدرعية، او عن طريق رسل من طوفهم .

وقعت هذه العمليات فى بداية آذار من سنة ١٨٢٠ تقريبا .

وفى نهاية الشهر ذاته تزعزع مركز ابن معمر بوصول مشارى بن سعود المفاجىء الى الدرعية . وكان احد ابناء عبد الله السئ الحظ، فكان من حقه المطالبه بولاء الاهلين كوارث شرعى لامجاد العائلة المالكة .

وكان مسارى هذا قد تمكن من الفرار من حراسه اثناء نقله الى منفاه فى مصر فى مكان يقع بين المدينة وينبع ، فعاد الى القصيم، حيث جمع فى زلفى وثرمدة ، عددا من الانصار لمساعدته فى مطالبته الجريئة بالعرش . اما ابن معمر فقد انزعج طبعا من هذا المنافس الجديد . الا انه لم يقم تجاهه بأى عمل عدوانى ظاهر . على العكس من ذلك فقد رآه الناس يعلن ولاءه للامام الجديد . وتقبل الامام التهانى وفروض الولاء من الاقاليم الاخرى بما فى ذلك الرياض وحريملة والمحمل والسدير والوشم .

وكان اعظم مكاسبه انضمام تركى بن عبد الله اليه ، ثم تبعه عمه عمر وابناؤه واخيرا انضم اليه عضوان من عائلة مشارى ، هما حسن بن محمد ومشارى بن ناصر وكان هؤلاء جميعا قد فروا من الدرعية قبل سقوطها .

كان هم مشارى الاول الان اخضاع اقليم الخرج الذى كان لايزال يقف فى صف المعارضة بالنسبة اليه اما السليمية Sulaimiya واليمامة فقد قاومتا فترة وجيزة ، الا انهما عادتا فاستسلمتا . فطرد مشارى اميرهما البجادى من منصبه ، ثم عاد الى الدرعية ،

وهناك وجد أن ابن معمداً قد غادرها الى سدوس متظاهرا بالمرض فلم تنطلِ الحيلة عليه ، وقدر ان ذلك الادعاء الكاذب يخفي في طياته نية في تزعم الثورة عليه . وقد افصح ابن معمر عن نياته الى زعيم حريملة ، فرحب بخطته هذه ، وطلب منه القدوم الى المدينة ليجعلها قاعدة لعملياته الحربية المقبلة . وكان قد جمع لها المجندين والمتطوعين ، ومعظمهم من عشيرة فيصل الدويش، وقبائل مطير.

وقد انضم اليهم آخرون في الهجوم المباغت الذى شنه على العاصمة ودخلها دون مقاومة فعالة ، ليتجه بعد ذلك الى قصر مشاري ، حيث القى القبض عليه وسجنه.

وبعد ذلك ترك ابن معمر ولده يتولى شؤون العاصمة وتوجه بنفسه الى الرياض كي يلقي القبض على تركي بن عبد الله وافراد اخرين من العائلة المالكة . الا أن هؤلاء كانوا قد سمعوا بالخبر فهربوا من المدينة قبل وصوله اليها . وحينئذ تمكن ابن معمر من احتلال المدينة بسهولة ، فاسرعت القرى المجاورة في اعلان خضوعها .

وهكذا انتهى حكم مشاري الذى لم يعمر طويلا ، وحكم ابن معمر البلاد من جديد ، وباعتراف من الاتراك هذه المرة . فقد اسرع وأعلم « عبوش باشا » التركي الذى كان قد وصل قبل فترة وجيزة الى عنيزة على رأس قوة من الجيش ، بانه لم يحكم باسم السلطان فحسب ، بل انه القى القبض على مشاري وسجنه ليسلمه اليهم في الوقت المناسب.

واثناء ذلك كان تركى بن عبد الله مع عدد من اتباعه ، قد ذهب الى ضرمى فى شأن من شؤونه . وبلغ هذا الخبر ابن معمر فارسل ، فى الحال ، ابنه مشارى (حاكم الرياض الان) على رأس قوة كافية لالقاء القبض عليه . اما تركى فاعتقل الرسول وسلمه الى سكان ضرمى ، ثم عمل على تجنب الخطر باحتلاله احد حصون القرية كى يدافع عن نفسه فيه . ولكنه خرج منه ليلا وداهم بيتا كان فيه بعض انصار ابن معمر ، فهربوا بادىء الامر الا أنهم عادوا ووضعوا انفسهم تحت تصرف تركى وقد هرب مشارى بن عمر مع بعض من اتباعه على جواد . وبقى تركى فى ضرمى ، حيث وفد عليه الانصار والمؤيدون من قبيلة سبيع والمناطق الجنوبية .

وفى كانون الاول من سنة ١٨٢٠ زحف تركى على الدرعية والقى القبض بنفسه على بن معمر بمساعدة محلية من اهل البلدة . ثم اعتقل فيما بعد ابنه مشارى فى الرياض ، ووعدهما بالحرية بشرط اطلاق سراح مشارى بن سعود الذى كان لايزال محبوسا فى سدوس.

ولكن السكان الذين وصلتهم قوة من الجيش التركى مع فيصل الدويش ، تهيبوا ان يطيعوا اوامر ابن معمر ، فسلموا مشارى بن سعود الى الاتراك ، كما وعدهم بذلك ابن معمر نفسه من قبل، وانتقل الخبر الى الدرعية فقتل تركى اسيره ابن معمر وابنه فى الحال.

اما مشارى بن سعود فتوفى بعد وصوله الى عنيزة بقليل ، ولم يثبت ان عبوش باشا كان مسؤولا عن وفاته .

ثم قـام الاتراك وفيـصـل الدويش بهـجوم عـقـيم على الرياض ، وارسلوا بعد ذلك قوة اخرى الى الشمال والغرب ، وفرضوا غرامات كبيرة على الشادق والسدير والوشم . ومثل ذلك فعل عبوش آغا فى القصيم .

وبعودة الاتراك الى الجزيرة العربية عادت الفوضى تنشر سلطتها كرة ثانية ، وتجددت العداوات فى مناطق عدة ، بينما ساءت الاحوال الاقتصادية ، بسبب اسراب الجراد الهائلة التى اجتاحت البلاد . وفى غضون شتاء ١٨٢٠ - ١٨٢١ ، وصل حسين بك بقواته لمساندة جيش الاحتلال واستلام القيادة العامة فى نجد ، وزحف فى الحال على الوشم .

ومن هنالك ارسل عبوش آغا لمهاجمة الرياض ، بخليط من الاتراك والجنوب المحليين من المدن والقرى والقبائل المختلفة ، مع زعماء بارزين كان ابن معمر قد طردهم من الرياض . فأخذ تركى يعد العدة لمقاومة هذا الهجوم ، الا أن اهل الرياض كانوا قد ملوا القتال الذى انهكهم ، فدخل عبوش أغا المدينة دون مقاومة.

ولم يقنع تركى باندحاره هذا فتحصن فى القلعة مع سبعين من أنصاره ليقاوم الحصار ، وكان واضحا أنه يقاتل فى معركة خاسرة اذ سرعان ما دارت الدائرة عليه فهرب وحده ليلا ، تاركا رجاله يستسلمون فى الصباح التالى . وقد قتلوا جميعا فيما عدا عمر بن عبد العزيز وابنائه الثلاثة ، الذين ارسلوا الى المنفى فى مصر لينضموا الى اقربائهم الاخرين هناك.

وصل حسين بك الى المدينة ، وفرض غرامات باهظة على اهل الرياض ومنفوحة ، بينما طلب الى الاشخاص الذين استقروا فى الدرعية بأمر ابن معمر ، ان يغادروها فى الحال . فانتقلوا الى ثرمدة حيث استقبلهم خليل أغا . قائد المدينة استقبالا حافلا ، ووعدهم باعطائهم ارضا فى اى مكان يختارونه .

وقد بدا ذلك امرا غريبا فى حينه .. ولكنه سرعان ما اتضح بعد قليل فقد اعتقلوا وقتلوا فيما بعد ، بناء على اوامر صدرت من حسين بك لدى عودته من الرياض . وكان قد قام هنالك ايضا بقتل عدد من الاشخاص وتدمير ممتلكاتهم ومصادرتها .

كان هذا مجرد استهلال لا اكثر للحكم الارهابى فى نجد اما القطعان العسكرية المتمركز فى القصيم والسدير والمحمل والوشم والاماكن الاخرى ، فقد وفت ما عليها وزيادة ، اذ أخذت تسلب الشعب وتنهب امواله ، وتضطهد المواطنين حتى اضطروا للهرب باعداد كبيرة الى الصحراء . فانتهزت فرصة غيابهم وقامت بتدمير ممتلكاتهم ما استطاعت من تدمير . ولم تسلم النساء ولا الاطفال من الاعتداء .

لم تنته قصة الدمار والموت برحيل حسين بك حوالى نهاية السنة. فقد خلف وراءه تركة من المنازعات المهلكة ، استمر من جرائها سلب الاقليم ، وخصوصا السدير والمجمعة الدائمة الاضطراب ، ثم العارض والقصيم بدرجة اخف . وزاد الامر سوءا ان تُوِّجَت فظائع

السنة بانتشار وباء الكوليرا الوبيل ، الذى وفد من الهند الى الجزيرة العربية عن طريق الخليج والعراق ، ليزيد فى حياة أهلها مأساة الى مأساة .

ومرة أخرى كان اقليم السدير فى مقدمة الاقاليم المضطربة فى سنة ١٨٢١ - ١٨٢٢ ، بينما كان لمنفوحة ولبريدة نصيبها الوافى من هذه القلاقل . اما ابرز الاحداث فى هذه السنة فكان قدوم القائد التركى حسن ابو ظاهر ،و الى رس . ذلك القائد الذى اعلن بانه جاء لاخضاع القبائل البدوية لمصلحة سكان المدن . وقد استحق تقدير البلاد وشكرها بالفعل حين اطلق سراح الكثيرين من الرهائن الذين كانوا قد طال اعتقالهم فى حصن ثرمدة وفقا لاوامر سلفة . فارسل السكان بما فى ذلك أهل المجمعة وقرى السدير يؤكدون له ولاءهم .

غير أن ارساله حملة عسكرية على هذه الاقاليم ، بقيادة موسى كاشف ، لجمع الضرائب المعتادة ولد فى نفوس الناس من التردد والاحجام . فعمد الاتراك الى اتخاذ اجراءات عنيفة لافهام الناس ما يريدون لقد نهبوا عدة مدن ، واعتقلوا كثيريين من اعيان الاقليم وقتلوهم ، فثار البدو ونشب القتال . ولما كان موسى كاشف قد تنطح لذلك فقد خسر حياته فى معركة وقعت بين قواته وبين عشيرة السهول التى قام بغزوها . اما اخو موسى واسمه ابراهيم ، فقد تقدم الى الوشم ثم الرياض حيث اتخدها مركزا لعملياته فارتفع علمه حتى على منطقة جنوب الخرج.

وفى هذه الاثناء زار حسين بك جبل شمر ، طالبا من اهله

تسديد جميع الضرائب المستحقة منذ رحيل ابراهيم باشا . ولما دفعوها فرض عليهم الوالي التركي ضرائب اخرى . فامتنع اهل مقاق عن الدفع ، مما دفع القائد التركي الى أن يقتل معظمهم بعد استسلامهم في اعقاب حصار قصير . وفي نفس الوقت تقريبا ، قاد ابراهيم كاشف جيشا قويا الى الجنوب لغزو السبيع على مقربة من حاير . غير أن رجال القبائل قاوموه بضراوة، وهزموا الاتراك وحلفاءهم من اهل الرياض هزيمة نكراء. وقد قتل ابراهيم نفسه في هذه المعركة مع ثلاثمائة رجل ، بينما هرب ناصر العيضى زعيم الرياض . غير أن البدو لحقوا به وذبحوه في مغارة كان يختبئ فيها كان تركي بن عبد الله قد اختبأ بعد مغادرته الرياض، في منطقة الحوطة .

واستمر الاتراك في جمع الضرائب ، وارسال الحملات التأديبية الى القرى والعشائر العاصية . وفي شهر ايار من سنة ١٨٢٣ ، وفي خلال شهر رمضان ، خرج تركي من مخبئه مع اتباع له يقدر عددهم بثلاثين رجلا ، ووصل الى قرية عرقة في وادي حنيفة ، بين الدرعية والرياض . ثم استكان فترة من الزمن ، يجس نبض البلاد . وكان زعيم الشقرا ، حمد بن يحيى بن غيهب ، اول من رحب بظهوره وعرض عليه المساعدة . فاستبشر تركي خيرا ، وارسل ابن عمه مشاري بن ناصر بن مشاري سعود الى سُوَيْد، وزعيم جلاجل، في اقليم السدير ، يدعوه الى الانضمام اليه والمجئ مع اي عدد من الرجال يستطيع تسليحهم .

وكما أن سويد هذا قد اختلف مع الاتراك في السنة السابقة .

ولدى وصـول رجـال رفع تركى علم الثـورة، وزحف على الرياض. وكـانت تحـميـها آنذاك حـامـية تركـيـة تحت امرة ابى على البهلولى المغربى. غير أن المحاولة باءت بالفشل، فدب الذعر فى قلوب سويد ورجاله وعـادوا الى بلادهم تاركين تركى مع حفنة من انصاره فى الميدان . فبادرهم الاتراك وحلفاؤهم بالهجوم ، وحاصروهم فى عرقة، ولكن بلا نجاح يذكر.

واستـمرت المناوشات الغيـر المنظمـة حتى مطلع ايلول وعندها هاجم تركى مدينة ضرمى المهمة واحتلها تاركا قوة صغيرة له فى عرقة .

والحق .. إنه ابدى فى احتلالها بسالة شخصية نادرة تركت فى نفوس الاعراب اثرا كبيرا .

اما حسن ابو ظاهر ، فبعد أن آب من حملته على حايل ، وجد نفسه فى جو من المتاعب فى القصيم . ذلك ان الناس كانوا ساخطين عليه لكثرة الضرائب التى فرضها على مواردهم الضئيلة . وكان سجنه، لعبد الله الجامعى ؟ حاكم عنيزة الممالى للاتراك ولقادة اخرين ، قد أدى إلى ثورة بين السكان ، فاجبروه على التسليم بشـروط ووافق على سـحب جنوده الى المدينة المنورة بما فى ذلك القوات الموجودة فى ثرمده لكنه ترك قوة صغيرة فى حصن صفا فى عنيزة ، فاستسلمت هذه بعد ذلك بقليل وتبعت قائدها خارجة من البلاد . ولم يبق فى المنطقة قوات غير تلك الحاسيات الصغيرة المبعثرة فى الرياض ومنفوحة . وكانت هذه الحاميات قد اشتبكت مع قوات تركى كما ذكرنا .

وفى هذه الاثناء بدا ان ماجدا بن عريعر قد وطد مركزه فى اقليم الحسا الذى لم يشأ الاتراك أن يدخلوه ، فنعم بالطمأنينة والسلام . وكان لتركى من المشاغل ما جعله يضرب صفحا عن التفكير باقاليم الخليج الفارسى . ومع هذا وجد ماجد نفسه يواجه تحديا سافرا من فيصل الدويش ، حليف الاتراك القديم . فقد خرج اليه على رأس جيش مختلط من قبائل مطير والعجمان . فوقعت معركة الرضيمة في هضبة عرمة ، وانتهت بهزيمة بني خالد هزيمة شنعاء . غير أن فيصل لم يكن آنئذ فى وضع يمكنه من متابعة انتصاراته.

وقد وقعت اضطرابات فى اقليم السدير ، غير أنها لم تكن خطيرة هذه المرة تستأهل من تركى بن عبد الله ان يغادر ضرمى فى شهر تموز ويتجه الى ثادق ليتدخل فى الأمر . ولكنه فعل ، وطلب الى الاطراف المتنازعة أن تعمل على انهاء خلافاتها فى سبيل المصلحة العامة . وكانت دعوته مثمرة ، فقد سارع زعماء المدن والقرى فى السدير يعلنون عن ولائهم له . وتقدم بعد ذلك باتجاه جلاجل مركز الاضطراب الذى حدث ، على رأس قوة جندها من اهل المحمل ، فما كان من سكانها الا أن رحبوا به اجمل ترحيب، عارضين عليه خضوعهم وولاءهم .

اما أهل المجمعة ، فقد ترددوا فى الانضمام اليه ، باديء الامر ، لكنهم عادوا فقبلوا بما عرض عليهم بعد أن حاصرهم بقوة كبيرة من جيشه . ثم عزل مزيد زعيم المدينة وحاكمها ، وعين مكانه محمداً بن صقر ، وهو شخصية بارزة من العمارية ، وزوده بحامية جعل مركزها الحصن . بادر السكان لتأدية يمين الطاعة والولاء الى فرد

من بيت آل سعود مرة اخرى ، وإن كان لا ينحدر من الفخذ الذى سبق له أن حكم نجدا آنداك.

وقد بقى تركى فى المجمعة زهاء الشهر ، فأعاد تنظيم ادارات الاقليم وما جاوره . وأرسلت غات وزلفى والشقرا وقرى الوشم ، وفودا عنها لاداء فروض الولاء والخضوع فقبل تركى ذلك . ثم استولى على جميع المعدات الحربية والذخيرة والمتاع الذى خلفه الاتراك خلال حملتهم الاخيرة على الاقليم.

وما إن اتم تجهيز القوات اللازمة من العناصر المحلية حتى زحف على حريملة ، وكانت هذه لم تبد رغبة فى دخول الحظيرة الوهابية حتى ذلك الحين . وما كاد يعد العدة اللازمة للهجوم ويجهز قواته بالسلالم الضرورية لتسلق الاسوار ، حتى ارسل انذارا الى امير المدينة ، حمد بن راشد يطلب منه الخروج والاعتراف بالولاء، وإلا فإنه ورجاله سيقا بلونه فى وسط المدينة قبل غياب القمر .

واستسلم حمد .. فلم يستقبله تركى بالحفاوة والتكريم فحسب ، بل ابقاه فى منصبه وترك له جميع ممتلكاته ، العائلية .

وبعد أن انضمت قوات حريملة الى الجند ، زحف تركى على منفوحة البعيدة.

فاستسلمت دون مقاومة ، وخرج اميرها ابراهيم بن مزروع شخصيا ليقدم فروض الطاعة والولاء .

اما الحامية التركية فطردت من المدينة ، وخرجت لتنضم الى حامية الرياض ، هدف تركى التالى . وأما الامير حمد العيضى

الذى خلف اخاه ناصرا فى منصبه لدى وفاته فى حاير ، فقد ظهر انه لا يريد الاستسلام .. فأدى ذلك الى نشوب بعض القتال حول المدينة وتكبد الطرفان بعض الاصابات . وقد أمر تركى جنوده أن يجمعوا محصول التمر ليستفيد منه فى اطعام قواته، تحت سمع وبصر الحامية التركية فى المدينة . وكانت هذه عاجزة لا حول لها ولا طول.

وعاد تركى فرفع الحصار عنهم بعد مرور شهر تقريبا ، اذ هرع فيصل الدويش بقوات كبيرة من عشيرة مطير لنصرة الحامية المحاصرة . وتراجع تركى الى عرقة ، غير انه عاد فحاصر الحامية ، حالما رحلت العناصر البدوية بعد مكوثها فترة وجيزة فى تلك الانحاء.

وطلب القائد التركى عقد الصلح فقبل منه تركى ذلك ، مشترطا عليه رحيل الاتراك نهائيا الى المدينة المنورة.

وانسحبت الحامية بالفعل .. وسقطت الرياض ، فعين مشارى بن ناصر حاكما للمدينة ، بينما زحف تركى نفسه الى ثرمدة وشقرا ليتأكد من ان الاتراك لن يحاولوا البقاء هناك ناكثين بالعهد الذى قطعوه على انفسهم بترك البلاد.

وفى اثناء وجوده فى شقرا وصلته وفود تحمل رسائل من عنيزة وبقية نواحى القصيم يعرضون ولاءهم ، فتقبل ذلك ، ولكنه لم يفارق شقرا الى أن اطمأن الى مرور الاتراك بالوشم فى طريقهم الى المدينة . وحينئذ عاد الى الرياض .. الى عاصمة نجد ، منذ الحين .

ولد سقوط الرياض ، ارسل اهل الحوطة والحريق ، وفودا من طرفهم تعرض ولاءهم للنظام الجديد . وبهذا خضع القصيم والوشم: ووجد تركي نفسه يسيطر على نجد بكاملها فيما عدا اقليم الخرج الذى كان حكامه آنئذهم الذين طردهم الحكم السعودى من قبل ، فتربصوا به وعادوا بعد سقوط الدرعية .

والحق أن تركي كان حكيما حينما لم يحاول التسرع في معاقبة عناصر عاجزة عن الاضرار به . ولم يتخذ الخطوات الفعالة لاخضاع الخرج الافى شهر أيار سنة ١٨٢٥ . وذلك ان الامير زقم بن زامل امير دلم أبدى شيئا من امارات المقاومة ، فضايقه تركي حتى اضطره الى عرض الاستسلام بعد ضمان سلامته وسلامة اتباعه .. وتم ذلك بسهولة . فاستولى تركي على الحصن بما فيه من العتاد الحربى، وارسل زقم الى الرياض ليبقى هناك فى ضيافة الحكومة (سجينا) ثم خضعت السليمية واليمامة بدون مقاومة تذكر ، فاستقر الامر لتركي وعاد الى عاصمته الجديدة مطمئنا راضيا من أن نجدا قد تخلصت من السيطرة الاجنبية وآبت الى الحظيرة الوهابية . ومنذ وصوله لاول مرة الى عرقة لم يجد تركي الموارد المادية التى وجدها الان تحت تصرفه .

ويعود الفضل فى نجاحه التام فى مثل هذه المدة القصيرة الى شخصيته فقد كان يجمع فى شخصه سحرا مغناطيسيا غامضا ، غريباً هذا بقطع النظر عن الجو وشيئا من السيطرة الذاتية الذى خلفه بشجاعته الشخصية وفروسيته .

وتذكر بعض الروايات أن الامام سعودا كان يرغب فى أن

يخلفه تركى على العرش الا أن تركى نفسه قد حال دون ذلك . فقد كان ولاؤه لشقيقه عبد الله عظيما ، ولم يتغير قط . والحق يقال بأنه كان روح الدفاع عن الدرعية ، وكان مستعدا لان يخدم ابن معمر ومشارى ايضا فى سبيل مصلحة البلاد .

وكان الفضل فى بعض نجاح تركى يعود الى اخفاق الاتراك فى تغيير خططهم التعسفية والاستعاضة عن الطغيان والعنف فى ادارتهم بشىء من تحسين اوضاع نجد التى انهكها الاستبداد والفوضى والتى رحبت بالاتراك فى بداية الامر للتخلص من نظم الوهابيين .

وتعتبر بداية حكم تركى فى نجد عند وصوله الى عرقة فى ايار من سنة ١٨٢٣ أما تمام سيطرتة فقد تحقق عندما استسلمت حامية الرياض التركية فى تشرين الاول سنة ١٨٢٤ . وظهر اثره فى برنامج اعادة بناء الاسوار المدمرة وبناء القصر والجامع اللذين يحملان اسمه . وقد ظلت آثاره تمثل اعظم الاعمال الهندسية فى عاصمته حتى تهدمت سنة ١٩٥٠ ليقوم مكانها ابنية عصرية اضخم واوسع .

وبالاضافة الى هذا النشاط العمرانى ، عمل تركى فى اعادة الادارة الفعالة الى اقاليم مملكته ومقاطعاتها . فعين فى مناصب الحكام والقضاة اشخاصا يمكن الاعتماد عليهم فى فرض هيبة القانون والمحافظة على الامن دونما خوف أو مراعاة وجوه. اما اقليم الخرجفمنهجه إلى عمر بن عفيصان الذى قتل الاتراك عددا كبيرا من عائلته فى دلم قبل انسحابهم .

ويبقى هرب ابن عمه ، مشاري بن عبد الرحمن بن مشاري بن سعود ، من مصر ووصوله الى الرياض ، فقد جعل له ذلك الامر عذرا في وضع مدينة منفوحة المنافسة للدرعية تحت حكم احد اعضاء العائلة المالكة الكبار . الا أن مشاري لم يكن جديراً بثقة تركي واحترامه ، ولم يكن تركي يستطيع أن يتغاضى عن اية اساءة .

ثم وصل من مصر شخص بارز آخر، هو الشيخ عبد الرحمن بن حسن ، حفيد محمد بن عبد الوهاب ، فاحتل منصب قاضي الرياض ، ذلك المنصب الذى قدر للشيخ أن يشغله سنوات عدة ، يشاركه في ذلك ابنه وتلميذه عبد اللطيف .

وقد لعب الوالد وابنه دورا مهما في جعل الدين عاملا له اثره في حياة العرب ، وان كانت الوهابية الان لم تعد تأخذ بناحية التعصب الدينى الذى تميز به نظام الدرعية ايام سعدها .

والواقع ان الحافز السياسى ، لا الحماس الدينى هو الذى أوجد الامبراطورية السعودية خلال حكم تركي وفيصل ، وإن كانت المؤسسات الدينية لم تنزل من على مستواها السابق كثيرا . وكان العقد الثاني من القرن العشرين فقط أن بدأ الحماس الديني يسيطر مرة اخرى، على حياة العرب ويضع اسس الامبراطورية الوهابية الثالثة.

لم يكن تركي فيما يبدو ، يريد الاسراع فى توسيع حدود بلاده وامتداد رقعتها فى هذه الفترة . ففى شتاء سنة ١٨٢٦ - ١٨٢٧

لا قبل ذلك ، بادر الى اعداد حملة ضد بنى خالد الذين كانوا قد عبروا الصحراء ونزلوا على ابار حفار العتك . واسندت قيادة هذه الحملة الى مشارى بن عبد الرحن بن حسن بن مشارى بن سعود الذى يصفه ابن بشر بانه ابن عم تركى ، الذى جرح جرحا طفيفا اثناء اشتباك وقع مع البدو .

ونحن لا نعرف على التحقيق فيما اذا كان مشارى هذا هو نفس مشارى الذى عينه تركى حاكما على منفوحة في السنة السابقة . ويقول ابن بشر: انه كان خاله وليست هذه بالنقطة المهمة على كل حال ، الا انها ترينا ما اشد ما كانت انساب السعوديين معقدة بسبب ترديدهم لنفس الاسماء : ويصدق هذا بالطبع على عائلة مشارى.

* * *

تميزت هذه السنة نفسها (١٨٢٨) بالجفاف الذى أناخ بكلكه على البلاد وبالمجاعة التى انتشرت فيها ، فتسببت فى وفاة الكثيرين من اهل القصيم والسدير ، التى عين فيها امير جديد من اهل ضرمى ، اسمه محمد بن عبد الله . وكان ابرز احداث تلك السنة وفاة رحمة بن جابر ، قرصان الخليج الفارسى ، اثناء اشتباك بحرى بينه وبين الحملة التى وجهها اليه ماجد بن عريعر ، بالتعاون مع حكام البحرين والقطيف .

وقد حاول ابن جابر المقاومة ، فترك ابنه يحرس مقره الرئيسى فى الدمام وخرج الى عرض البحر ، غير أنه سرعان ما حوصر واجبر

على الاستسلام. وكان رحمة هذا، صديقا وحليفا قويا للسعوديين، قبل كارثة الدرعية . وبموته تقوى مركز ماجد كثيرا فى الاحساء .

ولقد غيرت غزوات تركى المتعاقبة على الوشم وغيرها طبيعة عهده البنّاء وأيامه السلمية فانقلب الى ضده . وكان مما زاد الضيق أن خابت آمال المواطنين فى محصول جيداً ، اذ أن غزارة الامطار التى هطلت فى خريف سنة ١٨٢٦ ، ثم هطو لها فى نيسان من العام التالى ، سببت تعفن التبن والزرع على البيادر . كما أصيب التمر الناضج بآفة اهلكت محصوله . واستمرت هذه الاحوال الزراعية السيئة عاما آخر الا انها كانت على نطاق اضيق . ومع هذا بنى. فأمر ابن عبدان ، حاكم السدير ان يردم آبار حفار العتك وأم جماجم ، الا أن الاعراب اهتدوا اليه بسهولة.

وكان على تركى ان يعالج غزوة قام بها العجمان بالقرب من بلاده ، فى بابان (وربما بنبان او ممر العرمة القريب من بابان) وقد وصف المؤرخ النجدى (ابن بشر) هذه السنة بقوله:

«انها كانت سنة يمنٍ وبركات ولو ان سعادة السكان فى ان لايكون لهم تاريخ يدون»

اما زيارة حاكم جبل شمر ، عيسى بن على ، الى الرياض لإعلان الولاء والخضوع واستعداده لوضع الاقليم كله تحت تصرف تركى فكانت حدثا بارزا وتطورا بالغ الاهمية . خصوصا وانه اعقبها عودة فيصل ، الابن البكر لتركى ، من مصر الى الرياض ، فلم يكن هذا حدثا محليا مبهجا فحسب ، بل كان فأل يمن وسعادة للعائلة المالكة والدولة .

كانت القلاقل المحلية التي وقعت في القصيم تتطلب تدخل تركي .. فاستدعى قادة الاقليم الى الرياض ، ليجددوا ولاءهم وطاعتهم . وعزل محمد آل على الشاعر ، حاكم بريدة من منصبه واعتقله بصورة مؤقتة في الرياض ، وعين عبد العزيز بن محمد بن عبد الله خلفا له . اما مطير والعناصر الاخرى من بنى خالد ، حلفائهم ، فقد تم اخضاعهم بعد غزوة شنها عليهم في الربيع ، في جهة صمان وبعد قليل ، استقبل تركي وفدا يمثل عددا من قبائل اواسط نجد (السبيع والسهول والعجمان ، ومطير وقحطان) جاءه معلنا الولاء راغبا في مساندة حكمه .

والآن ، اتضح استقرار الدولة واتساع نفوذها وسلطانها بوصول وفد من عمان يطلب مد يد المساعدة بارسال قوة من الجيش وتعيين وال وقاض .

فلبى تركي طلبهم ، وارسل عمر بن محمد بن عفيصان على رأس قوة كافية ، لينصب عبد الله بن سعود من القويعية واليا على الاقليم ، على أن يتخذ مركزه في البريمي . وعين كذلك الشيخ محمد بن عبد العزيز العوسجي (؟) قاضيا . ولدى وصولهم الضاهرة استقبلتهم وفودها مع عناصر اخرى من البطينة ، الواقعة في المنطقة الساحلية من عمان ، بمظاهر الترحيب والتكريم.

وفي هذه الاثناء، طلب تركي وولده فيصل، (وكانا في الرياض) اجتماع عشائر مناطق واسعة تمتد من وادي الدواسر جنوبا الى الوشم والسدير في الشمال؛ بغية القيام بمناورات الخريف والشتاء. وكان الغرض الرئيسي من ذلك هو اظهار الوحدة والوفاق . فعين تركي

الوشم مكانا للاجتماع الا انه عاد فاستبدله بمرتفعات الطويق، ابتعادا عن شرور وباء الكوليرا الذى كان منتشرا فى اقليم الوشم. ومع هذا ظهرت اصابات الكوليرا بين افراد الجيش ، فمات الكثيرون منهم فى معسكر المجمعة ، غير ان المرض لم ينتقل الى المدينة .

ومن الوشم سار فيصل بجيشه للاغارة على عنيزة فى الاراضى المجاورة ألا أن رجال القبيلة كانوا قد لاذوا بالفرار قبل وصوله ، فلم يتم له ما أراد . وأمضى تركى قرابة الشهر فى المجمعة وهو يصرف شؤون الاقليم ، فأعفى ابن عبدان من منصبه ، كحاكم للسدير ، وعين مكانه احمد بن ناصر الصانع.

وانقضى صيف عام ١٨٢٩ ، هادئا دون حوادث . اما خريف ذلك العام فقد شهد تركى يرسل محمد بن عفيصان فى غزوة على الاحساء ، فيستولى هذا على قافلة محملة بالبضائع الوفيرة ، وهى فى طريقها من العقير الى الهفوف . ويبدو أن الغرض من هذه الغزوة كان مضايقة عائلة عريعر فى الاقليم . لكن ابناء عريعر اخذوا بزمام المبادرة فأعلنوا الحرب على تركى ، وتجمعت قواتهم الكبيرة العدد فى الصُّمّان .

وهكذا وجد تركى نفسه مضطرا الى أن يحشد قوات عشائره بسرعة ويرسلهم بقيادة فيصل لمقابلة التهديد بالمثل . فنشبت معركة ضارية متكافئة بين الفريقين عند آبار عقلة Aqla بالقرب من خفيسات المحمارى ، استمر فيها القتال من منتصف شباط حتى الرابع والعشرين منه ، اى الى اول شهر الصوم فقتل ماجد ابن

عريعر . وقد أرسل فيصل يعلم والده بما حدث وهو واثق كل الثقة من النصر فى النهاية . فوصل ابوه الى مكان المعركة بامدادات قوية للسير قدما فى قطاف ثمرات النصر.

وحينئذ تجدد القتال بين الطرفين قاسيا مريرا . ويبدو ان جيش تركى كان ينتزع النصر من عدوه شيئا فشيئا ، حتى قام تركى فى الثانى والعشرين من آذار ، بشن هجوم كاسح على مواقع الاعداء فتقهقروا ولاذوا بالفرار . وظلت قواته تطاردهم وتذبح الهاربين منهم حتى بعد استيلائها على معسكر عريعر وذخائر غنيمة خالصة .

غير أن عددا قليلا منهم نجا بجلده ، مثل مطير حليفة ماجد ، التى كانت قد انسحبت لدى رؤيتها تطورات المعركة قبل الهجوم الأخير ، وبذلك اسهمت فى نجاح تركى اسهاما كبيرا .

* * *

زحف تركى وابنه فيصل على الاحساء بعد ان امضيا زهاء الاسبوعين فى ميدان المعركة ، يجمعان الاسلاب ويوزعانها على الجند . ثم ارسل تركى رسله امامه الى القبائل والمدن طالبين من اهلها اعلان ولائهم . وسار بعد ذلك فى اثر رسله ارهابا ، فعرضت معظم القرى خضوعها لحكمه. اما محمد بن عريعر واقرباؤه ومشايعوهم فقد سارعوا الى تحصين الحصون والقلاع للمقاومة. غير أن معظم زعماء بنى خالد هربوا لدى وصول تركى. فاحتل مدينة الهفوف سلما ثم اقام قاعدة عملياته فى غنيمة، قريبا منها.

وهناك زاره الزعماء المدنيون والروحيون من مختلف المدن والقرى في الواحة الكبيرة ، واخذوا يقدمون فروض الطاعة ويتعهدون بالاخلاص للوائه . هذا في الحين الذي كان فيه ابن عريعر يحتل حصن الكوت العظيم في الزاوية الشمالية الغربية من المدينة . يستسلم خصمة بشروط مشرفة . وهكذا عادت الاحساء تحتل مكانها المرموق في الدولة الوهابية من جديد . وقد ظل تركي وفيصل في المنطقة قرابة الشهر والنصف ، والوالد يدير شؤونها ويصرف امورها مهتما بالحاجات الدينية على الخصوص ، طالبا الى الاهلين ان يحافظوا على تعاليم الله ويطيعوا اوامره ونواهيه في سبيل خيرهم وفلاحهم . وان يواظبوا على الصلاة في الجوامع، ويطبقوا بصورة عامة انظمة الوهابيين واحكام مذهبهم وعين بعد ذلك عمر بن عفيصان حاكما على الاقليم بينما أسند الامور الدينية الى الشيخ عبد الله الوهيبي . وشارفت السنة على الانتهاء والبلاد مستبشرة بالامطار الغزيرة التي هطلت ، فكانت المحاصيل جيدة وفيرة وهبطت اسعار الحاجيات.

ولم يأت ذكرلاى حادث مهم في اخبارنجد حتى نهاية سنة ١٨٣٠ .

وفي اواخر كانون الثاني من سنة ١٨٣١ ، قام تركي بشن غارة في ناحية حفار البطين قرب الحدود العراقية ، على عناصر من قبيلة السبيع . الا أنه أعاد لهم الاسلاب حين ادعوا ان هجومه كان خرقا للاتفاقية المعقودة بينهم ، والتي قدموا بموجبها فروض الطاعة وتعهدوا بالولاء والاخلاص.

السبيحية فى الكويت ثم زحف باتجاة رامض هنالك وقتا طويلا ياتقبل الهدايا من جابر بن عبد الله صباح زعيم الكويت ، والطاعة والولاء من قبائلها ووصلته بعد ذلك اخبار من نجد أقلقته ، فسارع بالذهاب اليها ليقف على الحقائق بنفسه .

لابد واننا نذكر ان تركى قد عين ابن عمه مشارى بن عبد الرحمن حاكما على منفوحة ، قبل سنوات ، وانه ارسل مشارى هذا على رأس حملة ضد بنى خالد فى حفار العتك . ويبدو أن هذا التعيين كان عذرا انتحله تركى لابعاده عن منصبه فى منفوحة (إذا كان « المشاريات » هما نفس) . وها هو الآن يبلغه الخبر ان مشارى قد غادر الرياض مع اتباعه للقيام بثورة عليه . غير أن تركى لم يأبه للأمر ولم يتخوف بل سرح معظم قواته وأعادهم الى بلادهم . وكان مشارى آنذاك فى طريقه الى الشمال ليطلب مناصرة حركته . فاجتمع فى المستوى بزعيم عشيرة من عشائر مطير يطلب منه المساعدة ، غير انه اختلف وإياه ، فرفض الزعيم ذلك .

ومن هناك توجه مشارى صوب القصيم ينشد المساعدة من عناصر مختلفة ، لكنه باء بالفشل . ثم شخص الى شريف مكة محمب بن عوف فلم يقبل اقتراحه .

فغادر مكة يائسا ، بعد أن ثبت له ان اهل نجد لا يريدون الثورة على تركى ، وقر رأيه على أن يقصد الرياض حيث يلقى على اقدام عمه راجيا العفو بعد المقدرة. وكان تركى امل قريبه فاستقبله بلطف وترحاب ووهبه منزلا فى الرياض قرب القلعة .

ويذكر ابن بشر ان تاريخ عودته والعفو عنه كان فى نهاية ايار سنة ١٨٣٢، فاذا كان هذا صحيحا ، فلابد من ان مشارى قد امضى معظم السنة فى مكة . ومهما كان الحال فقد كانت محاولته القيام بالثورة عقيمة ولم تترك اثرا فى تاريخ نجد الحديث.

وفى تموز من سنة ١٨٣١ قاد فيصل جيشا قويا الى مرتفعات نجد ليغزو عتيبة .

فوجدهم عند ابار طلال حيث تغلب عليهم وهزمهم شر هزيمة . الا أن جنوده تفرقوا يجمعون الاسلاب والغنائم فانتهز المنهومون الفرصة وعادوا بنجدات قوية ، من قبائل مطير (التى كانت آنذاك فى مواقعها الصيفية فى الاراضى المجاورة) ، فدارت الدائرة على الفائزين . لكن فيصلا وحرسه غطوا تراجع قواته فلجأت الى القويعية بكثير من الاسلاب التى غنمتها فى المعركة الاولى(وقيل انها بلغت ٣٠٠ جمل).

وفى الربع الاول من ايار ، هب اعصار مدمر على نجد فأخذت اضرارا بالغة فى مزارع النخيل ، وخصوصا فى الاشجار الصغيرة منها . وأصيب الحج الذى اتفق فى نهاية شهر أيار من صيف ذلك العام بوباء الكوليرا ، الذى انتشر بين الحجاج وتسبب فى وفاة الالوف منهم ومن الذين اختلطوا بهم.

ويذكر ابن بشر عددا من الظواهر الجوية التى أنذرت بوقوع الطاعون الذى أهلك العراق والكويت سنة ١٨٣٢ ، لينتقل من هناك الى نجد بعد عام .

ومن الظواهر الطبيعية الاخرى التى ذكرها ابن بشر ذلك النور الذى ظهر فى الفضاء . فقد أضيئت السماء خمس ليال متتالية بنور يشبه نور القمر . وكان هذا فى آخر شهر صفر (من آب- ١٠ منه) وكذلك لون المس الاخضر عند الشروق ، وظهور الشفق الشمالى الباهر فى الليالى الاولى من الشهر التالى ، وتقابل الكواكب السيارة الخمسة (الشمس والقمر والمريخ وزحل وعطارد) فى برج ليو Leo .

قضى تركي صيف سنة ١٨٣٢ فى صحراء العرمة ، ولم يكن هنالك من امور خاصة تشغل باله سوى تقاعس بعض القبائل عن دفع الضرائب المستحقة وما تبع ذلك من حملات عسكرية لاجبارها على الدفع . وفى اواخر الصيف او بالاحرى اوائل الخريف ، ارسل ابنه فيصل على رأس جيش حشده له ، لمعاقبة. احد بطون قبائل عنزة الذى كان انذاك يرعى ابله فى اراضى ضرمى . الا أن البدو ولوا الادبار لدى سماعهم بهذه الحملة . فسار فيصل إلى المجمعة للاقامة فيها فترة من الزمن ، وهناك حشد قوة ليغزو بها عمان تحت قيادة معمر بن محمد بن عفيصان . ولا يذكر ابن بشر شيئا عن تفاصيل هذه الغزوة.

وبعد ذلك عاد فيصل الى الرياض . اما والده تركى فقاد حملة الى اقليم الحسا لمعاقبة العجمان على بعض تصرفاتهم السيئة . ففر فلاح بن هذ لين قبل وصول تركى الى ام ربيعه . وقد انتهز زعيم قبيلة مرة فرصة وجود تركى وعرض عليه ولاءه وخضوعه . ولما سمع فلاح بهذا ، استسلم بلا قيد او شرط ، ونقل الى الرياض

ليظل معتقلا فيها ، وبعد ذلك زار تركى القطيف حيث قدمت اليه الهدايا المعتادة بالاضافة الى تأكيدات الولاء والاخلاص . ثم امضى شهرا فى منطقة الهفوف قبل ان يعود الى الرياض . وقد توقف فى الطريف عند آبار وثيلان Wuthailan الى الغرب من الدهناء لعقد اجتماع عشائرى عام ، تحدث فيه عن فلسفة الحكومة الصالحة .

وعندما طلب اليه امير بريده ان يكون حازما وصريحا فى تبيان اخطاء القادة ومخالفاتهم ، رد عليه تركى بقوله :

« ان كلماتى موجهة فى الواقع اليك والى امثالك . لانكم تعتقدون بانكم انتم الذين فتحتم البلاد بسيوفكم ، بينما الواقع ان سيف الاسلام لا سيوفكم هو الذى انقذ البلاد وصانها بالاتحاد تحت لواء قائد واحد. »

وتفرق الاجتماع بصورة تدل على خضوع المكره المغلوب على امره امام رجل يعرف كيف يحسن الانتقال من القول الى العمل ، وخصوصا حين ينشد القضاء على الفساد بين علية القوم . فقد اكد الناس ولاءهم لتركى وقطعوا عهدا بطاعته ، الا أن حديثه بمثل هذه الصراحة في الوقت الذى استعاد فيه الامبراطورية التى اضاعها عبد الله يدل على أن هناك الكثير من العمل الواجب انجازه قبل ايصال سفينة الدولة الى شاطئ السلامة.

لقد أثبتت الحوادث التى مرت ، انه لم يكن امام تركى غير هذا السبيل ، اذا اراد ترسيخ حكمه . الا أن المنازعات القبلية والحزازات الشخصية والضغائن العائلية مكنت الفتن من ذر قرنها من جديد.

وفى هذه الاثناء مات فيصل الدويش ، فأضعف من زعامة قبيلة مطير القوية التى آلت زعامتها الى ابن محمد المكنى .

وظهر فى القصيم دعى زعم انه خالد بن سعود ، الذى نفاه ابراهيم باشا الى مصر، فاحدث ظهوره بلبلة فى الاوساط الوادعة فى اقليم نجد . واستقبل الرجل بحفاوة بالغة بامر من تركى ، غير ان الناس الذين يعرفون خالدا معرفة جيدة ، سرعان ما اكتشفوا فيه دعيا كاذبا اذ كان آخر ما يعرفونه عن خالد هو اعدامه، كما قيل، بامر من محمد على .

وربما كانت عودة مشارى كما ذكر آنفا ، اخطر من هذا الحدث . غير ان الخطوات التى خطاها تركى فى الترحيب به واتخاذ جميع الترتيبات التى تكفل راحته كان لها الاثر الاكبر فى التخلص من جميع المشاكل والمخاوف الناجمة عن وجوده فى نجد.

وتحسنت الاحوال الاقتصادية فى البلاد بعد الامطار الموسمية الغزيرة بالرغم مما رافقها من برد قارس خلال شتاء ١٨٣٢- ١٨٣٣ . فقد كان الماء يتجمد بعد خروجه من البئر ، واصيبت مزارع النخيل باضرار بالغة وتلف عظيم الا ان اثار ذلك لم تظهر الا فى صيف كلتا السنتين التاليتين.

أما أحداث الزبير والبصرة وتهامه اليمنية، فقد اراحت الجزيرة العربية ومنحتها هدوءاً نسبياً فى حكم تركى. غير ان السلام عاد فتعكر خلال الصيف والخريف من سنة ١٨٣٣ اذ وقع شغب وقتال فى المربى Murabba فى مقاطعة السر. وكانت قبائل عنزة ومطير

وحلفاؤهم الذين جاءوا من معظم عشائر الصحراء هم الذين اثارروا الفتنة. ولسنا ندرى ما هو السبب الذى جعل تركى لايتدخل فى القتال الذى انتهى بهزيمة عنزة وحلفائها هزيمة منكرة تامة. ويعتقد ابن بشر بان تركى كان مشغولاً آنئذ بقضية مشارى.

وهنالك تعليل آخر معقول، يذكره ابن بشر حين يرجح ان امتناع تركى عن التدخل يعود الى اهتمامه بارساء الاستقرار فى اقليم الحسا. فقد وردته أخبار عن نشوب اضطرابات فى منطقة القطيف بين اهل جزيرة العماير وحاكم قطيف، عبد الله بن غانم. وقطعت طرق المؤن وتعطلت. فحشد تركى قواته وارسلها بقيادة فيصل لنصرة تابعه. وزحف فيصل عن طريق آبار الرمحية على حافة الدهنا، وهاجم اهل العماير وحاصرهم شر هزيمة. ففروا الى حصن الدمام، التى كانت من املاك حاكم البحرين. ثم طاردهم فيصل حتى سيهات ووضع خطة لمحاصرة الحامية واكراهها على التسليم. فاحتل جزر تاروت ودارين واقام فيها حاميات من جنده. غير انه توقف عن العمليات الحربية لدى ورود اخبار مرعبة من الرياض، تتحدث عن مقتل والده تركى، على يد انصار مشارى ابن عبد الرحمن، عند خروجه من الجامع بعد صلاة الجمعة، واحتلال مشارى للقلعة واجباره سكان العاصمة على الاعتراف به اميرا عليهم.

حدثت هذه المأساة المروعة قبل العاشر من ايار سنة ١٨٣٤ .. الا أن فصيلا كتم الخبر، ففك الحصار عن سيهات واخذ معه عبد الله ابن غانم الى الهفوف وهناك جمع قواده واركان حربه، ومن جملتهم حاكم الاحساء، عمر بن عفيصان، وامير حايل، عبد الله بن على

بن راشد صديقه الحميم منذ قدومه الى الرياض ليعرض خدماته على والده.

وكان هناك اخرون غيرهم يعتمد عليهم فيصل اعتمادا كليا، مثل حاكم بريدة عبد العزيز بن محمد بن عبد الله بن حسن، وحمد بن غيهب من اهل شقرا ، وتركي الجيزاني من الحريق . واسر اليهم فيصل الخبر المفجع الذى ورده ، ثم طلب نصحهم فقر رأيهم بالاجماع على ان يعملوا على استعادة الرياض ومعاقبة المغتصب باقصى سرعة ممكنة . ولتوثيق ما ارتأوه اقسم الجميع بمين الولاء والخضوع لفيصل كإمامهم وحاكمهم ، ووضع ابن عفيصان الخزينة المحلية تحت تصرفه التام ، ثم وضعت الترتيبات للزحف فى اقرب فرصة.

وفى العاشر من حزيران سنة ١٨٣٤ ، وصلت قوات فيصل الى مشارف الرياض . ويبدو ان مشارى لم يكن على علم بهذه التحركات ، غير أن اسوار المدينة وابراجها كانت محروسة بقواته . وارسل فيصل طليعة جيشه لدخول المدينة واحتلال الابنية المحيطة بالقلعة ، وحين تمكنت هذه من دخول الاسوار ، بوشر بعد ذلك بقصف القلعة فى الحال . وكانت القلعة مزودة بالذخيرة والاسلحة لمقاومة الحصار والصمود فى وجه المهاجمين . الا ان هرب فريق من قبائل السبيع ، اضعف الحامية التى كان تعدادها مائة واربعين رجلا . وكان مشارى وحليفه سويد بن على ، امير جلاجل ، قد ارسل رسالة الى فيصل ، يعرض عليه الاستسلام هو واتباعه على ان تكفل سلامتهم فوافق فيصل على هذا العرض ، شريطة السماح الرجاله بدخول القلعة .. ودليت الحبال من على الاسوار وصعدت

بواسطتها فرقة مؤلفة من اربعين رجلا بقيادة عبد الله بن رشيد الى السطح وتوزعت تبحث عن مشارى واتباعه ، فأخرجوا من مخابئهم وسحبوا سحبا ثم ذبحوا . والقى الجند برأس مشارى فى الساحة العامة ليؤكد للشعب بانهم قد ثأروا لمقتل إمامهم .

وبعد ذلك تقاطر أهل الرياض للسلام على فيصل ، حاكمهم الجديد.

كان ذلك فى الثامن عشر من حزيران سنة ١٨٣٤ ، اى بعد مرور اربعين يوما من مقتل تركى الذى دام حكمه زهاء احدى عشرة سنة ، محسوبة من تاريخ وصوله الى عرقة.

الفصل السابع

فيصل بن سعود

كان حكم تركى القصير الأمدذا اثر عظيم فى استعادة بعض أمجاد الدولة الوهابية التى تمزقت شذراً مذراً، واعادة مركز بيت سعود السامى. فقد رسخ تركى مرة ثانية الاسس التى قامت عليها الدولة، وسارت عليها العائلة المالكة فى حكمها خلال نصف قرن الذى سبق كارثة الدرعية. وبفضل ذلك تم له انشاء تلك الدولة التى امتدت حدودها فاضحت امبراطورية لم تعرف الجزيرة العربية لها مثيلاً منذ عصر ماقبل الإسلام- هذه الأسس التى مكنت الوهابين فى الماضى، وستمكنهم فى المستقبل من النهوض مرة اخرى، ليأخذوا مكانهم فى العالم المتمدن، بصورة تفوق ماكان يحلم به تركى ومعاصروه. ولابد ان يمر كل تطور واصلاح بمحن كثيرة ونكسات متنوعة فالدهر غلب قلب. ويجدر بنا ان ننوه بتركى فنقول: ان من الحق القول بانه: لولا صبر التركة وجهوده المتواصلة فى سبيل اصلاح التركى التى تسلمها مثقلة بالخراب والدمار، لما قامت الدولة السعودية العربية فى عهد حفيد سعود العظيم. واذا كان قدر لأى رجل ان يقوم بهذا العبئ فهو تركى.

لقد ولد هذا الرجل فى البيت المالك ولكنه لم يكن ليتوقع الحكم أو يطمع فيه. وها هو الأن.. لقد دعى فى الوقت الملائم.. وحين

كانت بلاده فى امس الحاجة لأن يتولى قيادها . . ونجح. بينما فشل الأخرون الذين كانوا يطمحون الى الحكم، وفى مهمتهم التى سعوا اليها من ذات انفسهم.

كان تركى متقدماً فى السن حينما اغتيل. بيد انا لا نعرف تاريخ مولده الا بالحدس والتخمين. وجل ما نعرفه انه لعب دوراً بارزاً جديراً بالتقدير، مثل أى شخص من بيت سعود، فى الدفاع عن الدرعية ضد ابراهيم باشا، وان ابنه فهداً قتل فى المعركة. وكذلك دافع فيصل هو الآخر فقدر له ان يكون خليفته على الدفاع الدرعية هم: زيد، ومحمد، وسعود، وقتل الأخيران منهم.

والواقع انه لا يرد ذكر لتركى فى العمليات العسكرية التى قام بها عبد العزيز الأول وسعود الاول، غير انه كان مع اخوته حين حضور والده عبد الله وابنائه الى البلاط الملكى، كما ظهرت لأول مرة فى تاريخ الوهابين سنة ١٧٤٦، عندما رافق الحملة التى سيرت لانقاذ منفوحة من حصار دهام بن دواس، حاكم الرياض.

ومن هذا الوقت فصاعداً، نجد اسمه يذكر فى قيادة حملات حربية عديدة، نيابة عن والده، وعن اخيه العظيم عبد العزيز الاول.

وفى سنة ١٨٠٣ نجده بجانب عبد العزيز الاول عندما قتل اثناء تاديته صلاة الجمعة فى جامع طريف، على يدا حد الشيعين المتعصبين، انتقاماً لتدنيس كربلاء. ويذكر المؤرخ كذلك انه كان يعيش عن سعة خلال السنوات الاحدى عشرة التى امضاها ابن اخيه سعود فى الحكم، وان كان تاريخ وفاته غير مدون. ولابد ان وفاته

وقعت فى زمن ما قبل عام ١٨١٤. وربما سنة ١٨١٢. وبهذا يكون قد امض ستاوستين سنة من العمر منذ الحملة التى جرت سنة ١٧٤٦. ومن المعقول ان عمره آنذاك كان عشرين عاماً. فيكون عمره حين وافته المنية ٨٦ سنة بينما ولد اخوه عبد العزيز الاول سنة ١٧٢١، وابنه البكر وخلفه سعود فى سنة ١٧٤٨، ولهذا يكون عمر عبد العزيز عندما اغتيل سنة ١٨٠٣، ٨٢ سنة، ويكون عمر سعود يوم ارتقى العرش ٥٦ سنة وعمره عند فاته ٦٦. وهكذا نجد ان ابناء العم سعود وتركى لايكبر أحدهما الآخر بكثير. وعليه فلا يمكن ان يكون عمر تركى اقل من ثمانين عاماً يوم اغتياله سنة ١٨٣٤.

والمعروف ان فيصل بن عبد الله اشترك فى القتال الذى وقع فى الدرعية. ويذكر ابن بيشر: انه رافق حملة سعود التى ادت الى احتلال مكة سنة ١٨٠٣ ولم يكن قد تجاوز الخامسة عشر فى تلك المناسبة بينما كان فى منتصف العقد الرابع عندما اعتلى العرش، واكثر من سبعين عاماً عندما توفى سنة ١٨٦٥.

وطول اعمار حكام السعودية البارزين ظاهرة غريبة. فقد بلغ عمر ثمانية اجيال فقط ثلاثمائة سنة: منذ مولد محمد بن مقرن والد سعود الجد الكبير سنة ١٦٤٠. وهناك مائة عام تفصل بين مولد سعود وموت اكبر ابنائه وخلفه محمد. بينما هنالك اكثر من قرن كامل بين مولد ابى الملك المتوفى(عبد العزيز) واسمه عبد الرحمن وبين وفاة ابنه عبد العزيز نفسه سنة ١٩٥٣.

لم يبلغ تركى قط الحدود التى كسبها ثم أضاعها سلفه. فلم

يكتب للحجاز ان تعود الى الحظيرة الوهابية الا بعد قرابة قرن من الزمن. اما اليمن فقد ضاعت نهائياً، بينما كانت اقاليم نجران وعسير مستقلة فعلاً تحت قبائلها الحاكمة. ومن ناحية ثانية نجد ان اقليم الاحساء قد استسلم وخضع، بخلاف عمان التى لم تخضع كلية، بل اعيدت الى الحكم. وكان جبل شمر ووادى الدواسر يشكلان الحدود الشمالية والجنوبية للحاجز الاوسط بينما كانت الواحات الغربية (بيشة ورنيا، حرمة وترابه، خيبر وتيماء) فيما يبدو متصلة بدولة سعود براوابط اضعف ولقد استطاع تركى ان يرسى قواعد شئ من السلام والنظام فى المناطق العشائرية والحضرية وان كان وصف المؤرخ الشعرى للحالة فى زمنه يجب أن يسقط من الحساب عند تقدير التركة التى آلت الى فيصل.

كان فيصل رجلاً ديناً ، ميالا للبحث و الدرس والتقشيف ، مطلعا تمام الاطلاع على مبادئ الدين . فقد حفظ القرآن فى صغره، وكان يقضى الساعات الطوال فى التجهد ، والتضرع الى الاله القدير طالباً المعونة الربانية ليتغلب على متاعبه الدنيوية.ويالها من متاعب ! تلك التى انصبت عليه ، كما يقول ابن بشر . واى مخاطر تلك التى واجهها! تلك التى تبعث اليأس فى نفس الأتقياء والعلماء على السواء، ناهيك عن الحكام والامراء.

ولقد خيل اليه عندما ارتقى العرش ان حكمه سيسوده الهدوء والازدهار. فقد كان تكريس حياته لدينه وبلاده وشعبه لايقل قطعاً عما كان يتميز به والده فى هذه الناحية. ولدى عودته الى نجد سنة ١٨٢٨ كان قد امضى زهرة ايام حياته اسيراً عند الاتراك بمصر.

وفراره من مصر للانضمام الى والده دليل هعلى عزمه المخلص على تحرير بلاده من والحكم والتدخل الأجنبيين.. وبعد مروورست سنوات اصبح يد والده اليمنى فى اعادة بناء الدولة وارساء الاستقرار فيها.

لقد لعب دوراً بارزاً فى استرجاع اقليم الاحساء الحيوى الذى كان يعتمد عليه اقتصاد البلاد الى حد كبير. ولم تكن دعوته لتسلم عرش اجداده بالصورة المفاجئة التى عرفناها فاصلاً فى تصريف امور الدولة بل استمراراً له.ومع هذا فلم يكتب لحكمه ان يمر بسلام. فهذه الصور الاخيرة التى رسمها وليم جيفور بلغريف William Gifford palgrave والكولونيل لويس بلى Colnel Lewis Pelly له فى اواخر ايام حياته تظهره لنا كشيخ اعمى محطم، كثير الشكوك، سريع الغضب منقل الأطوار، ينقاد الى رجال البلاط ولايزال ظل الفتن الداخلية يخيم على اواخر أيامه.

وقد عاش ابن بشر ليرى هذه المتاعب تتطور وتصبح نزاعاً يقتل فيه الاخ اخاه. الا انه ليس من سبب يدعونا للاعتقاد بان تقدير ابن بشر الموجز لمزايا اولاد فيصل يعود الى معلوماته السابقة. وكونه لا يذكر عبد الرحمن الذى ولدسنة ١٨٥٠، وانهاؤه تاريخه بسنة ١٨٥١، يدل، كما يبدو، على ان ابن بشر لم يكن مهتماً بالأمر ولا متحمساً له الا ان دعاءه الى الله أن يجعل ذرية فيصل جديرة باسمه، وان يسدد خطاها للسير فى الطريق السوى يثير فى نفس قرائه الشك فى ان الامور كانت مسائرة سيراً حسناً.

ومهما يكن من امر فإن المؤرخ ليفضل محمداً على اخوته ابناء فيصل، دون ان يذكر بأنه كان اكبرهم سناً. وهو يذكر مثلاً عن

محمد هذا واخيه عبد الله، أنهما كانا أنموذجاً للفضيلة والحماس الديني، بينما يمتدح سعوداً، اصغر الثلاثة، على مسلكه الملكي وشجاعته وكرمه منذ طفولته.

وهكذا يظل القارئ لا يعرف تاريخ مولد اي منهم، وان كان من المحتمل ان يكون محمداً وعبد الله على الاقل، ولدا قبل سقوط الدرعية. هذا اذا لم يكن سعود ايضاً. ومن الجائز ان سعوداً ولد بعد هرب والده من مصر سنة ١٨٢٨. وعندئذ، لابد انه كان لا يزال طفلا يوم ارتقاء فيصل العرش. فقد مات سعود وعمره يقل عن الخمسين.

كان ذلك سنة ١٨٧٥م.

كانت الاضطرابات التي حدثت في اواخرعهد فيصل لاتزال بعيدة طي الغيب سنة ١٨٣٤ حينما تسلم زمام الحكم. وقد افتتح عهده بمؤتمر الرياض الذي استمر شهراً كاملاً، حضره اثناءه جميع فقهاء الدولة البارزين، ومنهم علي وعبد الرحمن، حفيد الشيخ محمد بن عبد الرحمن عبد الوهاب وولدا حسين، اللذين كانا قاضيين في الحوطة والخرج.

ثم تبع هذا المؤتمر زيارات التهنئة المعتادة من زعماء مختلف المناطق والمقاطعات لتأدية فروض الطاعة نيابة عن الاهلين في اقاليمهم.. وانتهى فيصل من هذه المراسيم ، فارسل وجباته شمالا وجنوبا وغربا وشرقا لتحصيل الضرائب المستحقة لبيت المال. اما الجباة الذين أرسلوا الى الجنوب فذكروا قيام فتن داخلية في وادي

الدواسر والافلاج، مما دعا فيصلاً الى ارسال حملة عسكرية لاعادة النظام بين السكان.

وفى هذه الأثناء تمكن من إخضاع شرذمة من قبيلة الدواسر كانت تعسكر فى مرابعها الشتوية فى صحراء العرمة، أثناء طريقه الى معسكره الربيعى قرب الطوير. وكان قد عينها كنقطة اجتماع للفرق العشائرية والقوات الحضرية التى تؤلف جيشه. ثم سار بجيشه لإقامة طويلة فى الشعرا Sha'ra من مرتفعات نجد، وهناك وجه اهتمامه الأول نحو حاجات الناس الدينية فجعل فقهائه يفرضون على الاهلين حضور الدروس كل يوم بعد صلاة العصر. غير انه لم يهمل حاجات الدولة الدنيوية، وخصوصاً خزينتها. فقد ظل الجباة يعملون بلا هوادة.

وحين نُمى اليه ان جماعة من قحطان هربوا فراراً من دفع الضرائب المستحقة عليهم بحث الجند عنهم حتى وجودهم. وقام فيصل بنفسه يعاقبهم على فعلتهم عقاباً صارماً، فقتل زهاء الستين رجلا اثناء هذه الاجراءات التأديبية. ومثل هذه الحوادث شئ عادى كثير الوقوع فى حياة الصحراء، ولايعنى السخط على الحكومة مطلقاً.

وفى أيام سنة ١٨٣٥، جلب فيصل على نفسه المتاعب فى اقليم قصى، عندما قرر بان يكافئ عبد الله بن على بن رشيد، صديقه الحميم ونصيره الجبار فى القضاء على فتنة مشارى، بتعيينه حاكماً لجبل شمر بدلا من صالح بن عبد المحسن، حاكمه آنذاك. وكان هذا يمثل مشيخة العائلة الحاكمة فى حايل.

وقد ارسل فيصل مع الأمير الجديد أحد الفقهاء البارزين ليلقن الأهلين مبادئ الدين الصحيحة. غيرانه حدث اضطراب في حايل من اثر هذا التعيين الجديد، بدأ بنزاع حدث في الجامع بعد صلاة الجمعة، وانتهى بفرار الحاكم المخلو مع جميع افراد عائلته الى القصيم، بعد اشتباك شديد مع رجال الزعيم الجديد. فلما علم فيصل بالأمر، أصدر تعليمات الى امير القصيم ان يلقى القبض على الفارين ويقتلهم. فنفذ الأمير ذلك، وقتل صالحاً وبعض افراد عائلته، بينا هرب الاخرون الى المدينة المنورة.

وهكذا ظل عبد الله سيد شمر المطلق تابعاً للدولة الوهابية . ثم خلفه في الامارة ولدان من أولاده . اما ابنه الثالث محمد فلم يكتف أن يعمل على استقلال دولته استقلالا تاما عن الرياض بل استطاع ضم الدولة الورهابية الى دولته حتى نهاية القرن .

وفي هذه الفترة، كان الاتراك في الحجاز يحاولون ، جاهدين ، ان يسيطروا على اقليم عسير، بمساعدة شريف مكة، محمد بن عوف. غير ان الضرائب والغرامات الفاحشة التي فرضها الجيش الكبير الذى وفد من اجل هذه الغاية، ادت الى رد فعل بين لقبائل. فاحتشدت للهجوم على جيش العدو واوقعت به شر هزيمة، ولم ينج من افراده الاالقلائل الذين فروا الى مكة مع احمد باشا والشريف. وعلى اثر ذلك استدعى محمد على باشا، الشريف واحمد باشا الى مصر، في صيف ١٨٣٥ واعتقل الشريف: اما لارتيابه في انه لم يلعب دورالتابع المخلص الامين، او انتقاما منه جزاء الفشل الذى منيت به الحملة .

وفى هذه الاثناء ، ارسل شيوخ عسير . معظم الغنائم والاسلاب، التى استولوا عليها من الاتراك الى فيصل . وكان هذا دليلاً على دعمهم للقضية الوهابية، بينما ارسل محمد على الذى كان فى سبيل وضع خطة لاخضاع فيصل ، ارسل اليه الدو اسرى ابن عبد الوهاب ابى نقطة الذى كان اسيراً فى مصر منذ سقوط الدرعية ، ليطلب منه ان يدفع الجزية.

اما فيصل فكان قد أرسل هدايا ثمينة الى احمد باشا فى مكة مع اخيه جاوي.. وكان هذا شاباً لايربو عمره انذاك على الخامسة عشرة. فقد ولد اثناء اقامة ابيه فى المنفى بعد هربه من الدرعية.ثم مكث جلوى فى مكة ليؤدى فريضة الحج فى نيسان من سنة ١٨٣٦ ، اى قبل عودة اخيه من مضاربه الربيعية فى روضة طنحة (فى الطرف الغربى من الدهناء) ، حيث كان يجمع الضرائب ويعمل على حفظ الأمن والنظام فى الصحراء . ومن المحتمل ان هذا المكان هو نفس المكان الذى استقبل فيه فيصل ابناء عبد الله بن خليفة، شيخ البحرين . وكان هو نفسه قد قام بزيارة ساحل الخليج ليتقبل فروض الطاعة والولاء من حكام القطيف وسيهات .

ولدى عودته الى الرياض ، ارسل احد عبيده الموظفين الى القصيم ليجمع الضرائب من قبيلة عنزة . كما وأرسل ، بناء على طلب زعماء القصيم البارزين ، عبد الله بن عبد الرحمن ابو بطين ، احد الشيوخ المعروفين، الى عنزة ليرعى الشؤون هناك خلال زيارة اراد الشيخ ان تكون قصيرة .. وقد نجح فى مهمته حتى ان السكان ألحوا عليه ان يأتى بأهله ويقيم بين ظهرانيهم اقامة دائمة . وصادف

ان احتبس المطر سنة ١٨٣٥ - ١٨٣٦ فتميزت السنة الجديدة بفترة طويلة من الجفاف وارتفاع فظيع في الاسعار هاجرت بسببه اعداد كبيرة من السكان الى جهات البصرة والزبير .

ويذكر ابن بشر ظهور مُذنّبٍ معروف ، في برج الدب الاكبر ، مدة خمسه او ستة أسابيع ، وينذر نذير شؤم يدل على الجفاف الذى اجتاح البلاد انتقاماً لمقتل تركى وما نتج عنه من شر . ويذكر المؤرخ ان جفافاً مثل هذا اصاب البلاد بعد مقتل عبد العزيز.

الا ان المذنب والجفاف وانحباس الأمطار كانت نذير سوء وشؤم لكارثة اعظم واشد. فقد صمم باشا مصر على اخضاع الصحراء العربية لإرادته . وساعفه في سبيل تحقيق مشروعه مساندة خالد ابن سعود (الجد) ، وشقيق مشارى الذى حاول اعادة العائلة المالكة سنة ١٨٢٠ ففشل . وكان خالد هذا ، احد افراد العائلة المالكة الذين اخذهم ابراهيم باشا معه الى المنفى في مصر ، حيث امضى ثمانية عشر عاما ، كما انه اكبر الذكور الاحياء من اخوة عبد الله ، السيئ الحظ.

وقد انتحل احد الاشخاص شخصيته محاولاً بذلك تحدى مركز تركى في الرياض غير ان المحاولة فشلت كما رأينا . أما الآن فلا حاجة الى الانتحال . وانها لحركة بارعة من محمد على ، ان يشرك معه في مشروع الاغارة على نجد شخصاً قد يعتبره النجديون الوارث الشرعى لامجاد البيت الحاكم.

وفي اواخر سنة ١٨٣٦ او في بداية السنة التالية، وصل خالد

هذا الى ينبع. وكان يصحبه اسماعيل أغا، القائد التركى للحملة التى قدر عددها بالفى مقاتل. اما فيصل فارسل جاسوساً مع بعض الهدايا الى اسماعيل وكلفه ان ينقل اليه ما ينوى القائد عمله. وبناء على المعلومات التى نقلها الجاسوس عن تقدمه ماراً الى الحنكية، وتمشياً مع نصيحة عبد الله بن رشيد والزعماء الآخرين الذين كانوا موجودين فى الرياض انذاك، قرر فيصل احتلال القصيم، استباقاً للعدو، ولئلا يؤدى وصول اسماعيل الى خضوع اهلها. وبعد ان اصدر اوامره الى قواته بوجوب الاحتشاد فى مكان معين يقع فى الشمال، غادر الرياض فى شهر آذار عن طريق خفيسة الى صريف. وهناك علم بان اسماعيل وخالداً قد وصلا الى رس. فانتقل الى عنيزة حيث انضم اليه جنودها وجيش بريدة تحت قيادة امرائهم، فى زحفه على موقع رياض الخبرة، القريب من رس.

وبعد مناوشات غير منتظمة ورفض سكان شنانه، الذين ذهب امراؤهم الى رس للمفاوضة على شروط الاستسلام، ان يسمحوا لقوة من جيش فيصل بدخول المدينة، انسحب فيصل الى عنيزة. وكان هذا بدء انهيار القوات الوهابية، فعاد فيصل نفسه الى الرياض وتخلى كما يبدو، عن فكرة مقاومة احتلال العدو للقصيم.

وحتى فى الرياض وقع فيصل فريسة للخداع. فقد وجد الناس هناك غاضبين ليس لديهم ادنى ميل الى مساعدته: اما لفشله فى مقاومة احتلال الاتراك للقصيم، واما لان اصدقاء خالد قد نجحوا فى تأليب الرآى العام عليه. وخوفاً من الخيانه والخديعة بقى فيصل فى عاصمته حتى فرغ من جمع الاسلحة، والمؤن والأموال الموجودة فى

القلعة.. فحملها معه وسار ببقايا جيشه الى الخرج. وبعد ان مكث فيها عشرة ايام، اتجه نحو الاحساء فوصلها في بداية شهر أيار سنة ١٨٣٧ تقريباً. ومكث هناك منتصف شهر تموز حتى تأكد من ولاء حاكمها، عمر بن عفيصان. ثم اخذ يحشد جيشاً يتالف من قبائل مطير والعجمان وسبيع والسهول، ومن مدن الاحساء وقراها. وكانت هذه القبائل تكره رؤية الاتراك بين ظهر انيهم مرة اخرى.

وفي هذه الاثناء زحف اسماعيل أغا بجيشه على عنيزة فاستسلمت بعد مقاومة قصيرة. ثم خضعت بريدة بدون مقاومة. وكذلك باقي الاقليم. فوجه اسماعيل انتباهه الى حايل. وفر اميرها عبد الله بن رشيد تاركاً المنصب خالياً، فعين فيه اسماعيل أغا رجلا يدعى عيسى بن علي نيابة عن خالد بن سعود وفي هذه الأثناء وصل وفدس الرياض إلى عنيزة كي يعرض على خالد بن سعود خضوع بقية نجد فيما عدا الخرج وفرعة. وكان زعماء هذين البلدين قد كاتبوا خالدا يعرضون عليه قبولهم به حاكماً على نجد شريطة ان لا يكون للاتراك به علاقة. ووصلت هذه الرسالة لدى وصوله واسماعيل آغا الى الرياض في بداية شهر أيار، فاصر اسماعيل على تأديب هؤلاء على وقاحتهم.

وفي الاول من تموز قام خالد واسماعيل باخضاع اهل المحمل وتنظيم الشؤون الادارية في المنطقة، ثم سار بجيش من الاتراك والعرب يقدر بسبعة الاف مقاتل الى الجنوب. وانضم اليهما في الطريق، فهد بن عفيصان حاكم الخرج. اما سكان الحوطة والحريق وبقية اهالي وادي فرعة فقد قرروا ان يقاوموا الاتراك مهما كانت

النتيجة. وقد شجعهم على اتخاذ هذا القرار ثلاثة من احفاد الشيخ محمد بن عبدالوهاب وجميع مشايخ الرياض البارزين الذين كانوا قد هربوا الى الحوطة قبل وصول خالد واسماعيل.

وقد قابل الفلاحون كتائب الجيش الغازى وقاوموها بكل بسالة. ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة اندحر فيها الاتراك ومشايعوهم اندحاراً ساحقاً. ومنوا بخسائر فادحة فى الميدان، فولوا الادبار باتجاه الصحراء، مخلفين جميع مدافعهم ومعداتهم. وفر خالد واسماعيل الى الرياض مع فلول فرسانها، بينما فر فهد بن عفيصان الذى انضم الى المعتدين فى الطريق، تحت جنح الظلام. واخذ هو وجنوده يبحثون عن الهاربين ويقتلون منهم من امكن قتله.

وعاد فيصل الى الاحساء لدى سماعه بهزيمة العدو، فعسكر بجيشه فى دلم، حيث انضم اليه اهل الخرج واعداد كبير من اهل الحوطة والحريق. وكان اسماعيل اغار قبل زحفه الى الجنوب، قد وضع قوة من الاتراك والمغاربة فى الرياض وعندما وصل فيصل الى قرية المصانع الزاخرة بمزارع النخيل، خرج اليه خالد بقواته الاحتياطية الى اتون المعركة. فلجأ خالد الى منفوحة لأن الطريق الى الرياض كانت مسدودة بقوات فيصل.

ويبدو ان خالداً نجح فى الفرار الى العاصمة، وان كان قد حضرمعركة المصانع. لأنه لم يكن بين الذين استسلموا لفيصل بعد حصار منفوحة. ثم اخذ فيصل يحاصر الرياض نفسها بعد ان احتل جميع مزارع النخيل المحيطة بها. اما خالد واسماعيل فلم يكن فى ايديهما غير المدينة الواقعة داخل السور.

وقد بدأ هذا الحصار فى السابع من ايلول سنة ١٨٣٧ واستمر حتى نفذت منهاجميع ضروريات الحياة. فقتلت جميع الحيوانات الموجودة داخل المدينة من اجل لحمها، حتى خيول الفرسان ذبحت وأكلت. وارتفع سعر البن حتى بلغ سعر الصاع ثمانية ريالات.

واخذ خالدينتقم لنفسه بتدمير بيوت كل من فى معسكر الاعداء، وبعد ذلك بمدة جمع جميع الذين لا يصلحون للدفاع وقذف بهم ليلاً من احد ابواب السور ليجدوا لهم عوناً فى معسكر الاعداء اذا استطاعوا.

وقد استمر الحصار حتى من تشرين، عندما قرر فيصل، بناء على نصيحة مستشارية، أن يقتحم المدينة. فنصبت السلالم على نقاط كثيرة من السور.. ونجح المهاجمون فى فتح ثغرة ثبتوا فيها اقدامهم. غير ان المدافعين قاتلوا بشراسة.. ففشل الهجوم وأحبط.

وفى هذا الوقت الشديد الحرج، اى فى العاشر من تشرين الاول من ذلك العام وصلت قوة كبيرة من قبائل السبيع وقحطان لتخفيف الضغط عن المدينة. وغربت الشمس.. وتحت جنح الظلام، رفع فيصل الحصار عن المدينة وانسحب الى منفوحة. وبعد مرور خمسة أيام تم اثناءها تبادل الرسائل بشأن تسوية سليمة للنزاع، ولكن دون نتيجة. فلم يكن هنالك اى امل فى حل مشكلة وجود الاتراك الذين انضم اليهم خالد. هذا من جهة. اما من الجهة الاخرى فان فيصلا وجميع ضباطه البارزين علاوة على اهل نجد، كانوا يرفضون عودة الاحتلال التركى.

وهكذا استمر القتال من جديد، مع ان انسحاب فيصل مكن انصار خالد من ارسال الاغنام والمؤن الى الحامية، بالرغم من محاولة فيصل الاستيلاء على القافلة التى حملتها. فنشبت معارك متفرقة في نهاية تشرين الثانى واوائل رمضان. ووصلت قافلة اخرى من القصيم بالرغم من الجهود التى بذلها فيصل لمنعها، ولم تات هذه القافلة بكميات من النقود للجنود الاتراك فحسب، بل حملت معها اخباراً مشجعة عن وصول خورشيد باشا مع نجدات الى اسماعيل وخالد.

حدث ذلك في الثالث من كانون الثانى سنة ١٨٣٨.

وكانت المشكلة الان هي كيفية الاسراع في مجئ الاتراك الى الرياض، فقد تأخروا في القصيم خوفاً من ان يهاجمهم فيصل في الطريق. فتقرر ارسال حرس من العرب مع عدد من الجمال إلى هذه القوة، تحت إمرة شخص يدعى السُيـيفى بصحبة ضابط تركى. ووصل الحرس القصيم.. ولكنهم وجدوا ان خطة الاتراك تقضى بمداهنة فيصل وملاطفته بدلا من مداهمته والقضاء عليه.

ومن اجل هذه الغاية، اصطحب خورشيد باشا، عبد الله، وهو من ينبع، ومضى لزيارة فيصل حاملاً اليه بعض الهدايا. وتحدث اليه بكلام معسول واعداً بتثبيته في منصب امارة نجد. ولذا بقيت النجدات والامدادات مع خورشيد في القصيم ولم يحتاجوا الى حراسة السيـيفى غير ان الشريف عبد الله، خرج لمقابلة فيصل. واغراه فعلاً على ترك مقاتلة خالد. وربما كان هذا على امل ان يفي الاتراك بشئ من وعودهم التى قطعوها له في وقت ملائم. واقتناعا

بهذا جمع فيصل المؤن والذخائر في الرياض وضواحيها، وصرف حلفاء من قبائل، ثم قصد الى الخرج، حيث استقر في دلم في ضيافة عائلة عفصيان. وكان يصحبه هناك قوة من المناطق الجنوبية كافية للدفاع عن نفسها ثم ارسل فيصل اخاه جلوى الى خورشيد باشا في المدينة المنورة، في الرابع والعشرين من شباط، مع بعض الهدايا والرسائل، ليقف على مايضمره الاتراك نحوه.

وفي الوقت ذاته، اتخذ جميع الاحتياطات اللازمة لتأمين الجنوب الطوارئ. ويبدو ان فيصلاً كان محظوظاً آنئذ في الشمال. فقد نجح ابن رشيد في الاستيلاء على حايل من عيسى بن على منتخب الاتراك. اما شمالي الخرج، فقد كانت البلاد تحت سيطرة خالد، الذي استقبل وفوداً من مقاطعات المحمل وضرمي، فطلب الى جباته بان يحصلوا الضرائب من البلاد التي كانت لاتزال ترزح تحت وطأة الجفاف والمجاعة.

ووصلت الامدادات التركية من القصيم في وقتها المحدد، بقيادة القائد الكردي الملاّ سليمان، وكان قد وقع عليها الاختيار، ليخلف اسماعيل أغا الذي عاد الى مصر. وأرسل احمد السديري حاكماً لاقليم السدير ومعه قوة من خيالة الاتراك. ثم صدرت اليه الاوامر بتحصيل الضرائب المستحقة للحكومة وتحصيل غرامة من زعماء الاقاليم، عقاباً لهم على الدور الذي لعبوه في حصار الرياض قبل مدة. واستطاع احمد ان يهدئ من عاصفة غضب الاتراك على بلاد انهكتها المجاعة وقتلها الجفاف. وفي نفس الوقت كان حازماً في

تحذيره للسكان من بداء إبداء ميول عدائية نحو حكامهم الجدد (الاتراك).

وفي نهاية ايار وصل خورشيد باشا الى عنيزة، يصحبه جلوى. فاستقبل بحفاوة واكرام بالغين وبتاكيد الولاء والاخلاص، من قبل السكان. غير ان حادثا تافهاً وقع في حزيران كان من أثره، اثارة العداوة بين الشعب وضيوفهم. مما ادى الى خسائر فادحة بين الطرفين. لكن الأمن اعيد الى نصابه بعد ثلاثة ايام.

وقد امضى خورشيد في عنيزة زهاء الخمسة اشهر، قضاها في تصريف شؤون الاقاليم، واستقبال الزوار والضيوف. وكان اعظم الزيارات تلك التي قام بها عبد الله بن رشيد، فثبته خورشيد أميراً على حايل وقدم له الهدايا الكثيرة لدى رحيله. وكان من جملة الزوار البارزين الاخرين، زعيم قبيلة مطير، محمد الدويش واحمد السديرى الذى جاء معلناً ولاء الاقليم وخضوعه، فاستقبل بمظاهر الحفاوة الخاصة.

اما خطة خورشيد في احتلال الجزيرة العربية احتلالا دائماً والاقتتال الذى لابد من بينه وبين فيصل، فقد بدأت تتضح وتنجلي. ولم يكن جلوى في الواقع الا اسيراً لدى مضيفه، فتمكن من النجاة بجليده، بحيله بارعة. اذاً استحصل على اذن بزيارة بريدة، ومن هناك هرب فانضم الى اخيه في الخرج. وكان خورشيد آنئذ منهمكاً في اعادة بناء حصن الصفا الواقع في واحة عنيزة وتزويده بما يلزمه من المؤن والعتاد.

وفى اواسط تشرين الاول من سنة ١٨٣٨ زحف خورشيد جنوباً الى الرياض عن طريق الوشم، حيث انضم اليه خالد وجنود العارض، للزحف على الخرج. فوصلت هذه القوات المشتركة الى نجعان فى اخر يوم من تشرين الاول، لتجد أن السكان جميعهم قد انضموا الى فيصل فى دلم. فهاجمها خورشيد وخالد. وخرجت جماعة من حامية المدينة، الاانها ردت على اعقابها بعد معركة ضارية تعرف باسم معركة الحزب، على اسم خرائب قرية قديمة كان خورشيد قد اتخذها مقراً لرئاسة اركانه.

اما فيصل، فبعد ان حصن أسوار المدينة وحفر حولها خندقاً واقام حصونا للاشراف على المنبع الرئسى للمياه خارج الاسوار،نظم جيشه أعده لمواجهة هجوم العدو.. واستعرت المعركة بشراسة فى نقاط حيوية مختلفة. وخاصة حول حصن هنا، الذى تبادلته الايدى مراراً كثيرة. غير ان الاتراك احتلوه آخر الامر فأصبحوا يسيطرون على موارد المياه.

وفى هذه المرحلة الخطيرة من القتال وصل عمر بن عفيصان الى قرية السليمية على رأس قوة من الاحساء ، وبعث الى فيصل يقترح عليه ان تخرج من الحامية جماعة قوية تهاجم الاتراك، كى يقوم هو بالهجوم من الخلف.. ونشبت المعركة فى ٢٥ تشرين الثانى.. وسيطر الموت من الفجر حتى العصر. وكان هجوم الاتراك عنيفاً بعد هجوم معاكس قاموا به واضطروا ابن عفيصان ان يتوقف عن هجومه ويرتد الى السليمية.. ونظم ابن عيفصان كميناً لقافلة تركية قادمة من الرياض، عند حاير فى وادى حنيفة. غير ان

خورشيد ارسل طابوراً من الجيش لانقاذ القافلة وصد الهجوم، فوصلت بامان الى هدفها .

وانتقل ابن عفيصان بعد ذلك الى قرية زميقة قرب دلم، حيث كان قسم كبير من ذخيرة فيصل. لكن خيبة امله في النتائج البسيطة التى حصل عليها حتى الآن، ادت الى تزمر بين جنوده فرفعوا عقيرتهم بالشكوك . ثم انسحبت فرقتا الحواطة والحريق ومضتا الى بلادهما. اما اهل زميقة فقد اعتراهم الذعر لدى حدوث هذه التطورات ففروا مع عائلاتهم الى الصحراء.

وحينئذ انسحب ابن عفيصان الى السليمية ومنها الى آبار السدير ليكون بمنأى من مطاردة اعدائه له. فاحتل خورشيد قرية زميقة، واستولى على مخازن المؤمن، فى الثانى من كانون الأول (١٤ رمضان). وبعد اربعة عشر يوماً ارسل اهل الحوطة الهاربون وفدا عنهم الى خورشيد يطلبون العفو وعقد الصلح، لا بالنسبة اليهم وحدهم بل بالنسبة الى مواطنيهم الذين انضموا الى فيصل ايضاً. فمنحهم خورشيد ما طلبوا.

وهكذا وقع فيصل فى ورطة كبيرة. فما كان منه الا ان وافق على طلب العفو العام عن الحامية بأكملها.. وكان ما دعاه الى ذلك أنه شعر بأن فرقة الحوطة ستنسحب من جيشة او تعذر به. وقد أبلغ خورشيد رسول فيصل أن الاتراك على استعداد لأن يوافقوا على طلبه، شريطة ان يستسلم فيصل نفسه، ويذهب الى مصر لينضم الى بقية أفراد عائلة سعود هناك.

عندئذ توقف القتال بعد ان قرر فيصل الاستسلام للقائد التركى بعد ضمان سلامته وحماية ممتلكات الذين اخلصوا له وخدموه. وتم له ذلك.. وانقضت اربعة أيام، اى فى العشرين من كانون الاول سنة ١٨٣٨، ثم بدأ فيصل السير الى مصر بحراسة حسن اليازجى ومرافقه أخيه جليو وأينيه عبد اله ومحمد (قد كان سعوداً صغيراً فلم يرافقهم)، وابن عمه عبد الله بن ابراهيم بن عبد الله بن محمد المعروف باسم سنيتان.

ولدى وصول فيصل الى القاهرة أعد له منزل يقيم فيه تحت الحراسة.ويبدو انه كان يقضى أيامه ولياليه فى التهجد والصلاة، حتى قيل ان المرضى كانوا يقصدون ليتلو عليهم شيئاً من القرآن الكريم وليشفيهم ببركته.

اما عمر بن عفيصان الذى كان مخلصاً لقضية فيصل فلم يثق بوعد خورشيد بالعفو العام، والتجأ الى البحرين فترة من الزمن، ثم استقر نهائياً فى الكويت. الا انه اسدى النصح الى اصحابه فى الاحساء ان يذهبوا الى الرياض ويقسموا اليمين على الطاعة لإمامهم الجديد الذى اصبح السيد المطلق على اقليم نجد تحت نائب السلطان المصرى وممثليه المحليين.

وهكذا دام حكم فيصل اربع سنوات ونصف، وأمضى عشر سنوات حراً طليقاً قبل ان يعود ثانية الى الأسر.

ونقل الاتراك احمد السديرى من امارة السدير الى اقاليم الاحساء الذى لم ينس اهله اعتداءات جيش ابراهيم باشا. وكان هذا

النقل اشارة الى ان العهد الجديد سيكون ارحم من القديم، الا ان تغيير الاسلوب كان مؤقتاً فقط. فما كاد احمد يهدئ مخاوف الاحساويين وينظم ادارة اقليمهم ومنطقة القطيف، حتى نقل ليشرف بنفسه على الخزينة العامة ، بينما خلفه في المنصب رجل تركي اسمه محمد افندي صار يضرب المثل بطغيانه وقسوة معاملته.

وطبيعي ان الظالم قصير العمر، فقد قتل محمد افندي على يد مجهولين بينما كان عائداً من زيارة قام بها الى عين نجم ذات المياه المعدنية. وخشى احمد السديري ان تسند اليه تهمة التحريض على مقتله، فأعلن عن مكافأة سخية لمن يدلي بمعلومات تؤدي الى اعتقال القتلة وتنفيذ حكم الاعدام فيهم. واتجهت التهمة الى ثلاثة رجال من قبيلة العوازم من اتباع امراء بني خالد، كانوا قد طلبوا الغاء منصب الحاكم. ولكن خورشيد باشا لم يقتنع بصواب رأيهم فأرسل من الرياض حاكماً آخر اسمه محمد افندي ايضاً. وتابع الحاكم الجديد سياسة العنف والطغيان التي انتهجها سلفه، فسخط من ذلك احمد السديري وبانت نظمته على هذه التصرفات الرعناء، فطرد من منصبه وعين مكانه عيسى بن علي بن فايز، تعويضاً له عن منصب امارة حايل الذي فقده من قبل. وكان مقتل محمد افندي الاول في تشرين الاول سنة ١٨٣٩، وطرد احمد السديري في الشهر التالي.

كان خورشيد باشا في هذه الاثناء منهمكاً بتخريب اقليم الخرج، فدمر تحصينات دلم ووضع حامية في السليمية، ووكل اليها أمر

الاشراف على الاعمال الزراعية والرى التى تعتمد على ينابيع منطقة سيح Saih المشهورة هذا كما فرض على الحوطة ووادى فرعة ان يدفعوا مقادير كبيرة من التمر والحنطة.

ولدى عودته الى الرياض ارسل خورشيد الى قائد الحامية، حسن المعاون، بتعليمات يطلب اليه فيها وجوب احصاء المحاصيل الزراعية والواردات فى نجد باكملها: من القصيم حتى الاحساء. ولم يكتف القائد التركى بكل هذا. ففى ١٨٣٩، نقل مركزه من الرياض الى ثرمدة، حيث بنى حصناً كبيراً لإقامة الحامية، وطلب من سكان المدن والقرى أن يرسلوا نصف محاصيلهم الى هناك بالرغم من ان الاحوال السيئة التى خلفتها المجاعة وكانت لاتزال سائدة فى البلاد.

وفى آذار من سنة ١٨٣٩ علم خورشيد بوفاة السلطان محمود بن السلطان عبد العزيز، وارتقاء ابنه عبد المجيد العرش خلفاً له. وبعد سنة من استقراره فى ثرمدة، وصلته الاوامر من مصر تطلب اليه العودة مع جيشه كله. فاصبح همه الآن ان يجمع عدداً كافياً من الجمال ينقل عليه رجاله ومعداتهم الى المدينة المنورة.

وقد كانت تلبية طلبه هذا تختلف من قبيلة الى اخرى، فزودته ثرما - فى الحال بسبعمائة جمل جمعتها من مناطق شمر، وارسلها عبد الله بن رشيد الذى كان يستعجل رحيل (ضيوف) الجزيرة. وانتظر خورشيد وخالد الذى لحق به، وصول الجمال. وفى هذه الاثناء نظم حملة على قبيلة Shamir شامر فى صحراء البياض جنوبى الخرج. فلم يكتب لها النجاح.

وتنحصر اهميـة هذه الحملة فى ان قائدها خالداً صحب معه عبد الله بن ثنيـان الذى يذكر لاول مرة، فى تاريخ نجد. وكـان عـبد الله هذا، ابن عم بعيد لخالد. فقد كان جده الاعلى اخاً لجد خالد الاعلى محمد الاول، اول امير للوهابيين.

وفى نيسان سنة ١٨٤٠ احدث خورشيد تغييراً فى منصب حاكم الاحساء. فقد عين فيه حمد بن مبارك من اهل حريملة، خلفاً لمحمد افندى الشـانى. ولكن خـالداً عـاد فـاسـتـدعى حـمـد، وعـيـن مـوسى الحاملى، احد زعـمـاء بنى خـالد، بعـد ذلك بعـام. بينمـا عـين عـبد الرحمن بن مانع للاشراف على الشؤون المالية خلفاً لعيسى بن على الذى توفى وهو على ظهر جواده. وكـان هذا بعـد رحـيل خورشـيد الذى بدأ سـفـرته فى ايار الماضـى، جـامـعـاً فى طريقـه حـامـيـتى: الشقراء وزلفى.

وقد توقف خورشـيد فى منطقـة السر ليتزوج امراة أكره زوجها على طلاقـهـا اوتخلص منه بشكل مـا، ثم وصـل شنانة فى الـوقت المعين، فقام بوضع الترتيبات الاخيرة لانسحابه . وفى منتصف تموز سحب حامية ثرمـدة: فأصبحت نجد خالية من القـوات التركـيـة فـيمـا عـدا بعض الجـيـوب فى ثرمـدة نفـسـهـا (عـشرون جنديـاً) وضـرمى والرياض واماكن اخرى.

وفى نهـاية تموز، اسـتـدعى خالد الى شنانة للمقابلة الاخيرة، فزار عنيـزة وبريدة فى طريق عـودته الى الرياض. وتبـعـه الـيـهـا امـيـرا المدينـتـين. وفى الشـقـرا التـقـى بعـبد الله بن رشـيـد الذى كـان فى طريقه الى زيارته.

وفى تشرين الاول (رمضان) اصدر اوامره لاجتماع جيوشه فى حشد عام فى الرياض. ويبدو انه لم يكن هنالك غاية واضحة من عمله هذا غير تثبيت مركزه فى الأقاليم المختلفة التى يعتمد فيها على مساعدة الاتراك، ضد الحكام المتقلبين الفاترى الاخلاص، وغيرهم من العناصر التى لايمكن الاعتماد على ولائها. فاحتشدت قبائل السديرى مع حاكم الاقليم محمد السدير وابيه الذى كان قد طرده خورشيد من الاحساء واصبح مواطناً عادياً فى موطنه. وانتهز خالد فرصة تجمع القبائل، فاتخذ يحقق فى الشكاوى التى كانت وردته عن سوء تصرف السديريين وغيرهم من الحكام المحليين. وكان من نتيجة ذلك ان طردهم جميعهم من مناصبهم، وعين عبد الله الحسينى حاكماً جديداً على الإقليم. وصدرت اليه التعليمات بوجوب طرد عائلة السديرى من قلعة المجمعة، ووضع جيش السدير تحت قيادة عبد العزيز بن الشيخ عبد الله ابى بطينى، ليقوم بحملة على بعض بطون قبيلة قحطان. بينما كانت قيادة الجيش العليا فى عمر بن عفيصان الذى قدم الى الرياض لعقد الصلح مع خالد، بعد ان عاد من الكويت التى اختارها منفى اختيارياً مؤقتا له.

كان خالد قد ظل موضع شبهة وريبة فى نظر اهل نجد، لاعتماده الظاهرة على الاتراك وتبعيته لهم. لكن رحيل خورشيد مع كامل جيشه محا هذه الوصمة وازال تلك الشكوك فلم يكن هنالك مايدل على زوال حكم خالد وعدم بقائه.

ومع هذا فقد ظهر الى الوجود مطالب جديد بالعرش يتحداه. أو تشب فى الاقاليم الشمالية كالقصيم وجبل شمر حرباً سرية ذات

اهمـيـة نسـبـيـاً، بين حـاكـم حـايل وبريـدة، دون ان تحـاول الحكومـة المركزية ان تتدخل. فكان هنالك نفوز بين عبد الله بن رشيد حاكم حايل، وبين عبدِ العزيز بن محـمد، حاكم بريدة. وقد ظهرت بوادر هذا النزاع بعد وصول خالد من شنانه، لكن حضور خالد اجبر كلا منهما على الانطواء.. اما حين عادا الى بلديهما فقد كان الامر يختلف عن ذلك. وساعدت حادثة طفيفة على الحرب المكشوفة بينهما. اذ أغار فريق من عنيزة كان نازلاً في القصيم، فريقاً من شمو يقوده طوالة واستولى على عدد من الجمال. فقام عبد الله بن رشيد بغارة معاكسة، استعاد فيها الاسلاب واستولى على معظم جمال فريق عنيزة.

وقد وضح ان المعتدى هم فريق عنيزة، الا ان حاكم بريدة أخذ على عاتقه معاقبتهم. ولكنه فعل العكس. اذا استشار حليفه حاكم عنيزة وزعماء قرى القصيم، بشأن حشد قوة كبيرة والقيام بهجوم شامل على حايل نفسها. ولما وافقوه في الرأى سار حاكما على عنيزة وبريدة، على راس جيش كبير يتألف من مجندى مدن القصيم وقراها، وعربان عشائر عنيزة، واحتشدوا في البقيعة.

ومن هناك سار الجيش لغزو عشيرة شمر. وحالف النجاح هذه الغزوة، فاستولى العنزيون على قدر كبير من الغنائم واقترح يحيى بن سليمان حاكم عنيزة على صاحبه القائد الآخر أن يكتفيا بالغنيمة. ويعود ا الى بلادهما. غير ان زعيم بريدة ابلغه انه لن يفعل ، ولن يحمله شئ على العودة قبل ان يحارب ابن رشيد في حوارى عاصمته وعقر داره.

وهكذا تابعت الحملة زحفها ... وتقدم الحليفان الى آبار البقيعة ومزارعهاالخيه عبيد، للهجوم على رجال قبيلة عنزة عند آبار ساعدة، على مقربة من هناك. وعلى اثر الهجوم نشبت معركة ضارية مريرة تأرجح فيها النصر، حتى خف يحيى على رأس قوة لنجدة اصحابه من اهل البقعة. وما ان رأس جيش كبير كان قد لحق به أخاه. وكان هجومه عنيفاً حاسماً، ففر رجال عنيزة على جمالهم لا يلوون على شئ .. وتبعهم فرسان شمر، تاركين يحيى ووجاله من المشاة يواجهون مصيرهم أخذين معهم رواحل يحيى نفسه .

امايحيى ورجاله فقد قاوموا ببسالة، ولكن ابن رشيد لم يكن حديث عهد بالقتال. ولما ادرك يحيى ان وصوله الى الآبار مستحيل، بدأ يشعر بوطأة العطش حين اشتدت الحرارة. فقتل معظم رجاله، بينما نقل هو الى خيمة ابن رشيد بناء على طلبه.

كان يمكن ان تشفع الصداقة القديمة التى كانت قائمة بينهما وتحول دون قتله . غير ان عبد الله ابن رشيد وصل فى تلك اللحظة واخبره عن مقتل عبيد فى المعركة ولم يستطع ابن رشيد احتمال هذا الخبره، فقتل يحيى فى فورة غضبه . الا انه فيما يبدو، ندم كثيراً على فعلته هذه لدى اكتشافه بان عبيداً كان لا يزال حياً يرزق.

وقيل بأن قوات بريدة وعنيزة، فقدت مائة وخمسين قتيلاً، سبعين من بريدة وثمانين من عنيزة . هذا فضلاً عن خسائر البدو واهل القرى، من جيش قوامه ١٢٠٠ جندى . وكانت الغنائم التى استولى عليها ابن رشيد هائلة للغاية . وكان شقيق يحيى فى تلك

الاثناء يقوم بزيارة لخالد في الرياض، فأسرع الى عنيزة ليتولى الحكم فيها وأخذ يتشاور مع زعماء القصيم في الوسائل الكفيلة باخذ الثار من ابن رشيد. ولما بدا القصيميون متحمسين للحرب، حشد قوة قوامها اربعة آلاف مقاتل للزحف على حايل . وما كادوا يصلون الى حدود العدو عند كحفه حتى تخلى الرجل عن فكرة الغزو، لسبب غير معروف فتفرق الجيش. وربما كانت التطورات الخطيرة التي وقعت في الرياض ، هي العوامل الرئيسية التي حملته على التخلي . اذ ان تلك الاحداث كانت تتطلب منه استعداداً لمواجهتها . فقد ادرك عبد العزيز ان قيام اي تحالف بين الرياض وحايل ، سيقلب ميزان القوى ويضعف مركزه ، فلا يستطيع المضي في القتال.

كان لخالد الحق كل الحق في جعل ابن عمه عبد الله بن ثنيان تحت مراقبته الشخصية. وقد رأينا كيف انه اخذه معه اثناء حمتله على شامر وفي تموز سنة ١٨٤٠ ، ودعا عبد الله ليرافقه عند زيارته لخورشيد باشا في شنانه، ولكن ثنيان در على ذلك معتذاراً بسوء صحته، فرفض خالد تعلله وعزمه على البقاء في العاصمة. ومع ذلك فقد تمكن عبد الله ان ينسل من القافلة في غفلة من رجالها ، والتجأ الى عيسى بن محمد زعيم المنتفك بالقرب من الحدود العراقية . الا ان خالداً أرسل اليه ، لدى عودته من شنانه، يدعوه اليه ، ويؤكد له علاقات المودة والصداقة ، ويطمئنه مما يخشاه .

ولكن عبد الله لم يطمئن .. فأرسل رجلاً الى الرياض ليستطلع

الأمور هناك ويعلمهم بمقدمه ثم يعود فيخبره جلية الواقع. ولابد ان الرسول عاد باخبار سيئة ،لأن عبد الله فر الى حاير السبيع فى وادى حنيفة فور وصوله.

ويبدو ان رشيد بن جفران ، زعيم قيبلة سبيع ، عرض عليه المساعدة ، فلقد كانت تربطهما روابط المصاهرة .

ثم طلب عبد الله المساعدة من الحوطة والحريق ، وشرح لأهلهما سياسته الرامية الى تخليص البلاد من سلطان الاتراك وحامياتهم . كما استخدم نفوذ الشيوخ الذين كانوا الاجئين هناك ، كرهاً منهم للبقاء فى الرياض تحت سلطة حاميتها التركية . وجاءت محاولة خالد استرضاءه عن طريق بعض الزعماء الموالين له من السبيع، لتلقى نوراً على حقيقة الوضع فى البلاد . فأعلن عبد الله عزمه على المضى فى الحرب . واصاب الذعر خالداً فأخذ يدعو الى تجنيد اتباعه . غير ان استجابة المناطق لدعوته هذه ، كانت مخيبة للامال . فماذا يفعل؟ لقد امر اهل الرياض ان ينضموا الى الحملة المزمع تسييرها ضد عبد الله ، وفر بنفسه واهله الى الاحساء تاركاً الحاميات التركية و المغربية مع أتباعه فى القلعة، بقيادة حمد بن عياف امير الرياض ، وعمر بن عفيصان، قائدها .

كان هذا فى بداية تشرين الاول سنة ١٨٤١ . وهكذا انتهى حكم خالد الذى استمر اقل من ثلاث سنوات ، قضاها عميلاً وتابعاً للاتراك فى بلاد آبائه واجداده . وبعد ان هاجره اعوانه الواحد تلو الاخر، حين تلقوا اخبار الاحداث السيئة فى الرياض ، انسحب خالد

من الهفوف الى الدمام ، ومن هناك سار الى حصن مكة الأمبن، عن طريق الكويت فالقصيم حيث مات بعد ذلك بعشرين عاماً.

وفى هذه الآونة ، رفع عبد الله بن ثنيان علم الثورة واخذ يتتبع خطة تركى فى مطالبته بالعرش ، يساعده فى تلك قبيلة السبيع والمناطق الجنوبية . وقد زحف اولاً على ضرمة حيث كانت لاتزال هناك حامية تركية صغيرة عرض عليها الاستسلام فرفضت، مع أن قرية المزاحمية المجاورة لها رحبت به واعترفت بملكه . وبعد قتال طفيف وحصار قصير ، قبلت الحامية التركية ان تخرج من المدينة وتنضم الى رفاقها فى ثرمدة. فاحتل عبد الله ضرمة واعدم احد زعمائها البارزين ، وصادر امواله الطائلة ، كمقدمة لتطبيق اساليبه الجديدة فى الحكم . اما سكان حريملة فاختاروا سياسة الحياد ، عندما طلب مساعدتهم . بخلاف اهل العمارية وابى الكباش الذين ارسلوا اليه فرقاً من المتطوعين . فسار عبد الله قدماً صوب عرقة ، واحتلها قسراً رغم المقاومة الضارية التى أبدتها حامية اقامها حمد بن عياف هناك . ثم توجه الى منفوحة إثر اعترافها به .

ولنعد الآن الى الرياض . كان اهل الرياض يطلبون الى خالد مساعدة عاجلة بينما اخذ الذين كانوا يرافقونه يلحّون عليه فى إرسال النجدة المطلوبة أو السماح لهم بالعودة إلى بلادهم، وعقد الصلح مع الغاصب، فأرسل قوة مؤلفة من ثلاثمائة هجّان وخمسمائة رجل. وسرعان ما اشتبكت هذه القوة مع العدو فى قتال نشب حول منفوحة، تساعدها فى ذلك قوة أخرى خرجت من حامية الرياض، ولدى عودتها إلى المدينة، باغتها ابن ثُنيّان ورجاله تحت جنح

الظلام، وكان أعوانه قد مكنوا له التسلل إلى أحياء الدْخنة أثناء ما كانت القوات العائدة تحتفل بالاهازيج والرقص، فرحاً بهزيمة العدو في منفوحة .

ويبدو أن عبد الله كان يتمتع ببعض مزايا تركي العسكرية، ومن ذلك أنه ظهر بين المختلفين فجأة، وقائم سيفه في يده، فلعب دوراً بارزاً في القتال الذي نشب أثر ذلك، فتقهقر المغاربة إلى داخل القلعة وأغلقوا بابها في وجه المهاجمين. إلا أن ثنيّان كان قد وزع جنوده في أماكن مختلفة من المدينة، واتخذ من بيت أميرها حمد بن عياف مقراً له، فتقاطر إليه المواطنون ليعترفوا به حاكماً عليهم، وحتى عمر بن عفيصان، لبّى هو الآخر دعوته وأقسم له يمين الطاعة، ثم عرض عبد الله على الأتراك والمغاربة ان يستسلموا بشروط سخية مشرفة، اهمها ان يغادروا الرياض ويأخذوا معهم كل ما يملكون .

وفي اليوم التالي، أخذ عبد الله يحصن البيوت خوفاً من قيام الحامية بإطلاق النار عليه، غير أنها عادت فقلبت بشروطه وخرجت من المدينة، وهكذا أصبح عبد الله بن ثنيّان سيد نجد بلا منازع .

وتقاطرت الوفود المعتادة على الرياض لتؤكد له ولاءها، أما هو فأعلن بصورة واضحة أنه لن يتغاضى عن أي أضطراب أو قلاقل في الأقليم، وكان قبل استسلامك الحامية قد أرسل يطلب حضور اثنين من أقوى أعوان خالد، وهما سعد بن دغيثر أحد أفراد عائلة بارزة ، والعبد زويد، فأعدمهما في الحال .

ثم وجه انتباهه إلى وفد السدير واختار منهم خمسة يعدمهم بسبب الدور الذى لعبوه فى نصرة خالد ومساعدته فى تنظيم إدارة الأقاليم، غير أن اثنين منهم تمكنا من الافلات فاعدم الثلاثة الآخرين.

وطلب من سكان المجمعة أن يعيدوا بناء قلعتهم التى دمرها خالد، واحتفظ بخمسة منهم رهائن عنده فى الرياض حتى نفذت أوامره، ثم عيَّن عبد العزيز بن مشارى بن عياف حاكماً على الأقليم.

وجاء دور وادى الدواسر ليدفع ثمن ما اقترف أهله من جرائ، فعزل محمداً ابن جلاجل حاكم الاقليم، وطرد الزعماء المحليين من وظائفهم ، وعين عبد الرحمن بن عبيقان أميراً مطلق الصلاحية فى الوادى .

وفى مطلع سنة ١٨٤٢ أرسل عبد الله القائد عبد الله بن بطّال المطيرى، وهو من عائلة محاربة مشهورة، ليحتل الأحساء، فقام بن بطال بالمهمة على خير وجه، وحينئذ تعيّن عمر بن عفيصان ليتولى منصب الحاكم هناك، وقد نقل عمر مركز قيادته إلى كوت الهفوف، وأمر زعماء الأقليم أن يذهبوا إلى الرياض، لتقديم فروض الطاعة لسيدهم الجديد، مرتهناً أربعة من مشياخهم، كى يضمن حسن سلوك البقية، والاقليم، بوجه عام . وكان لا بد لعمر من معالجة الأمور فى المنطقة الساحلية المحيطة بالقطيف، إلا أن المشكلة بدت معقدةً بسبب وجود بعض المصالح للعائلة المالكة فى البحرين .

وفي حزيران، أمر ابن ثُنيان بحشد جيوشة على آبار رمحية ورماح في منطقة عرمة، حيث أقام مركز قيادته، وأرسل من هناك جيشاً يقوده العبد بلال بن سالم الحرْق، ليحتل القطيف نفسها، وأمر عمر بن عفيصان أن يشخص إليها لتولى الأمور هناك في حين يبقى بن عمه، فهد بن عبد الله بن عفيصان، نائباً له في الإحساء أثناء غيابه.

ولقد سار عمر، بصحبة فلاح هذْلين زعيم العجمان، وقوات بن هاجر فاخضع المثناء. وقد توجه حاكم القطيف السابق واسمه على بن غانم لزيارة ابن ثنيان فحبسه هذا لاتهامه بالتجسس لحساب البحرين، كما صادر املاكه الكثيرة. وفعل ذلك ايضاً مع ابن مانع خزانة الاحساء وآخرين كثيرين. والقى عمر القبض على حاكم سيهات ودمر اسوار المدينة، وكانت من املاك آل خليفة في البحرين.

كان مرجل الاختلافات المهلكة والمنازعات القتالة يغلى بين حكام البحرين في هذه الآونه بالذات. فقد ثار محمد بن خليفة، على عمه عبد الله، شيخ البحرين فاستدعى عبد الله قبيلة آل مرة لدخول البلاد، فشرعت تنهب وتدمر مدن الجزيرة. ولم يتمكن محمد من السير قدماً في مطالبته بالعرش فما كان منه الا ان لجأ الى ابن ثنيّان في رمحية.

وفي الوقت ذاته، تمكن حاكم سيهات من الهرب من سجنه فقصد البحرين. ولم يهتم ابن ثنيّان بشئ من ذلك، بل انصرف الى تدبير ملكه، فعين احمد السدير اميراً على القطيف ومنطقتها، وأعاد عمر بن عفيصان الى منصبه السابق في الهفوف ثم انتهى من بحث

شؤون أقاليمه الشرقية، فصرف قواته وامرها بالعودة الى بلادها بعد ان نفحها بهبات سخية. وتوجه الى مقره في الرياض. ومن هناك حاول ارضاء السلطات التركية فأرسل الهدايا الى عمر باشا حاكم مكة، والى الشريف عون، شريفها، مع محمدبن جلاجل، الحاكم الذى عزله من وادى الدواسر قبل حين. ومن هناك ايضاً ارسل ابن ثنيان شرذمة من جيشه وكل اليها احتلال ميناء الغقير الذى كان لايزال فى يد سلطات البحرين. وبذلك أتم احتلال الاحساء.

وفى خلال النصف الاول من تشرين الثانى، (أى فى النصف الثانى من رمضان) توقف الجفاف الذى اجتاح البلاد طوال التسع سنوات التى تلت مقتل تركى. فقد هطلت امطار غزيرة فى كافة انحاء نجد، فامتلأت مسايل الاودية على صورة لم يشاهد مثلها من قبل. وحدثت فيضانات فى السدير التى لم تشهد ذلك منذ اربعة عشر عاماً غير ان البلاد بأسرها استفادت كثيراً، فأمرعت الهضاب وكثرت المحاصيل.

ومن الطبيعى ان يكون كل ذلك الخير فألاًحسنا من ناحية سياسية.. فهل يتم ذلك؟ لنرى...

وفى شباط سنة ١٨٤٣، تمكن فيصل رابن عمه عبد الله الإبراهيم، وزينه عبد الله وأخوه جلوى من الفرار فى سجنهم فى قلعة القاهرة بالرغم من الحراسة المشددة، وذلك بأن تدكُواْ من علوّ مائة قدم بواسطة الحبال : ثم أمتطوا ظهور الجمال .

وجل مايذكره المؤرخ النجدى، عن هذه القصة الرومانتكية

البطولية، أن الفارين توجهوا الى جبل شمر، حيث استقبلهم عبد الله بن رشيد، صديق فيصل القديم، بكل حفاوة وترحاب، واضعاً جميع موارده وجيشه ونفسه تحت تصرفهم. فارسل فيصل الى كافة المناطق طالباً من زعمائها ولاءهم ومعونتهم. اما عبد الله بن ثنيان، فأعلن الجهاد بناء على نصح اصداقائه، وخرج لمجابهة الخطر مؤملاً ان خروجه الى القتال سيحول دون الناس والانضمام لفيصل. ولكنه سرعان ما تأكد من أن فيصلاً يحظى بالتأييد العام، فأرسل له بعض الهدايا مع أمير ضرمه، موصياً رسوله بدراسة اوضاع فيصل.

وفى نفس الوقت سار هو الى السدير عن طريق خفس Khafs حيث اتصل بأمير بريدة الذى سبق ان وجده اكثر حلفائه استعداداً لمناصرته اثناء المعارك المريرة بينه وبين رشيد. واتجه بعد ذلك الى بريدة، فعاهده اميرها على الولاء والمساعدة. غير ان هذه التطورات الجديدة، أوجدت اضطراباً فى عنيزة.

فعقد أميرها عبد الله بن سليمان بن زامل مؤتمراً من الزعماء والشيوخ للبحث والتشاور فيما يجب عمله.

وكان قرارهم الاجماعى، وجوب مساندة فيصل. فارسلوا عبد العزيز بن الشيخ عبد الله ابى بطين لينقل اليه قرارهم هذا ويدعوه للمجئ الى عنيزة. وكان فيصل قد سار الى الجنوب، فقابله عبد العزيز عند كحفة وابلغه رسالته. فشكره فيصل واتجه الى عنيزة بينما أرسل اخاه جلوى وعبيد بن رشيد مع قوة صغيرة لزيارة زعيم مطير، محمد بن فيصل الدويش، فى معسكره فى سهل حمدان.

ولدى سماع ابن ثنيان بخطط عدوه، ترك معداته الثقيلة فى بريده ومضى سراً ليباغت فيصلاً غير ان هذا كان قد سلك طريقاً منحرفاً فسبق ابن ثنيان. وكان اول ماسمعه هذا عند وصول فيصل الى هدفه، الغناء واطلاق النار والاهازيج التى حيابها الناس مقدمه..

وعاد ابن ثنيان الى بريدة، آسفاً على فوات الفرصة من يده. وهناك وجد أن معظم أتباعه قدانضموا الى فيصل، وأهل السدير والمناطق الجنوبية على الخصوص. فاستشاط غضباً وأمر جيشه بالاستعداد لشن هجوم على عنيزة، الا انه عاد فغير رأيه وسار الى مضنب لينعطف من هناك الى الجنوب، خوفاً من ان يهاجمه جلوى وحلفاؤه من بنى مطير. وكان هؤلاء قد اشتبكوا مع بعض الفارين فى مؤخرة جيشه فى منطقة الوشم.

وفى هذه الاثناء فر عدد كبير من جيش ابن ثنيان وعادوا الى منازلهم، فكان هذا زيادة فى مصيبته. وخاصة بعد أن علم أن جلوى وحلفاءه من مطير يتجهون شرقاً. استولى جلوى على واحة ثادق الهامة التى تشرف على الطريق من الرياض الى السدير. وقد استولى جلوى على بغيته، وارسل عبد الله بن ابراهيم لتطهير الواحة. ثم كتب الى فيصل يعلمه بان الطريق الى الرياض باتت أمينة خالية من الاعداء.

كان ابن ثنيان منهمكاً فى تحصين الرياض آنذاك بعض المنازل القريبة من القلعه ووضع الحاميات فى الابراج والحصون المختلفة على السور المحيط بها.

وفى نيسان سار فيصل الى حريملة، حيث انضم اليه جلوى مع قواته، بينما زاره زعماء السدير ليعرضوا عليه ولاءهم. وبعد ان امضى فى حريملة بعض الوقت، كتب الى ابن ثنيان مقترحاً عليه تسوية النزاع سلمياً، تجنباً لاراقة الدماء، وواعداً إياه بشروط سخية، من جملتها ان له ملء الحرية فى الذهاب والاستقرار بأمان فى أى مكان يختاره فى نجد أو سواها. وأن له الحق فى اخذ اتباعه واسلحته معه. وان فيصلاً يتعهد بدفع راتب سنوى يكفيه، ويسد حاجاته. ولكن ابن ثنيان رفض هذا العرض.

واتجه فيصل الى سدوس عند ذلك، ومن هناك كتب الى امير منفوحة يقترح عليه جعل مدينته قاعدة لعملياته الحربية كما كانت يوم حاصر خالداً فى الرياض قبل خمسة اعوام.. فرضى أمير منفوحة بذلك، واستقبلت المدينة فيصلاً المطالب بالعرش من جديد . ولم يبادر فيصل الى اتخاذ اى عمل عدوانى ضد الرياض، فقد كان يتصل سراً ببعض زعمائها البارزين.

وفى الثانى والعشرين من أيار، ارسل اخاه جلوى ليدخل برجاله المدينة من بوابة الدخنة التى كان سيفتحها لهم حلفاؤهم فى الداخل. وسمع ابن ثنيان بدخول جلوى المدينة، فأسقط فى يده وهرع الى القلعة.

واحتل جلوى البيوت العديدة المقابلة للقلعة،واخذ يحصنها ويضع فيها الحاميات. ثم دخل فيصل المدينة بنفسه فنشبت معارك استمرت بصورة غير منتظمة طوال ثلاثة اسابيع.

وفى اثناء ذلك اكتشفت فيصل مؤامراة دبرتها عناصر من سبيع لاغتياله فأحبطها. وفى الحادى عشر من حزيران، كتب ابن ثنيان الى عبيد بن رشيد يطلب اليه التوسط من اجل تسوية سليمة. فزاره عبيد للبحث فى أمر هذه التسوية المقترحة، غير ان المفاوضات توقفت بسبب عدم التوصل الى اسس للاتفاق.

وبعد ليلة او ليلتين، غادر ابن ثنيان القلعة لسبب مجهول.. وعرفته دوريات فيصل فألقت القبض عليه. وسجن فى احدى حجرات القلعة التى استسلمت آنذاك بعد هجوم قصير. وقد صادر فيصل جميع ممتلكاته، وعفا عن اعوانه، واطلق سراح جميع الذين القى بهم ابن ثنيان فى السجن، ثم عوضهم عما فقدوه من املاك. فسارع اهل الرياض يهنئون (فيصلاً) بمناسبة توليه عرش اجدادهس بعد فترة تقل عن الخمس سنوات.

وكان اول ماقام به من اعمال الغاؤه كافة الاجراءات التى فرضها ابن ثنيان فى الإحساء ووادى الدواسر. فعين عبد الله بن بطال المطيرى أميراً على الاحساء، وابن عثيمين اميراً على وادى الدواسر. وصرف الجيوش التى ساعدته فى استعادة عرشه وارسلهم الى بلادهم. ولم يطل حبس ابن ثنيان، فقد توفى فى سجنه فى الثالث عشر من تموز سنة ١٨٤٣ وحضر فيصل نفسه صلاة الجنازة عليه وشيع جثمانه الى مثواه الاخير فى مقبرة المدينة.

واستبشر الناس بعودة فيصل الى نجد. وقد ظهر مذنب فى الغرب بعد غروب الشمس فى الثانى من اذار سنة ١٨٤٣، وظل ظاهراً للعيان حتى نهاية الشهر. ويقارن ابن بشر هذه الظاهرة بتلك التى

ظهرت فى السادس عشر من كانون الاول سنة ١٦١٨ كما ذكرها الشيخ مرعى بن يوسف الحنبلى، وان لم يرافق ظهور المذنب الاول اى نشاط ملحوظ بين الناس.

ويشمل تاريخ ابن بشر الثمانى السنوات الاولى من حكم فيصل بعد استعادته عرشه. اذ يذكر المؤرخ انه فرغ من تصنيفه فى شهرايار سنة ١٨٥٤ غير انه لا يشرح السبب الذى دعاه الى التوقف عن التدوين. وبما انه ظل حياً يرزق حتى الخامس عشر من آب سنة ١٨٧٣، فلا بد انه كان شاهد عيان لجميع الاحداث التى وقعت اثناء حكم فيصل، ومعاصراً لنتائجها المباشرة. وليس بوسعنا الا ان نأسف لتوقف المؤرخ عن تدوين تعليقاته وملحوظاته عن العهد الذى عاصره، والذى لابد لمعرفته من الاعتماد على المؤرخ ابراهيم بن صالح بن ابراهيم بن عيسى المولود فى عشيقير من اقليم الوشم سنة١٨٥٤ .

تعتبر المرحلة الثانية من حكم فيصل، مدخل تاريخ الجزيرة العربية الحديث. وجل مانعلمة أن الحاميات التركية الصغيرة الموزعة فى الصحراء ، قد انسحبت جميعها الى الحجاز فى حكم ابن ثنيان... وهكذا لم يكن هنالك قوات اجنبية تزعج فيصل، فاستأنفت نجد مجرى حياتها العادية. غير ان هذا لم يكن ليعنى الحياة السلمية الهادئة او الإنتعاش والانسجام بين الناس، فقد كانت هذه بركات نادرة فى الصحراء. مع العلم ان فيصلاً لم يشر الى هذه الحقيقة من قريب اوبعيد فى رسالته التى وجهها الى رعيته فى جميع انحاء مملكته، بعد تسلمه العرش.

لقد كانت الرسالة فى معظمها تتعلق بالمسائل الفقهية الدينية. ويبدو انها كانت ثمار وحى وتأملات روحية طويلة اثناء سجنه فى مصر، حيث كان ايمانه العظيم بالله وثقته الوطيدة فيه هما عزاء فيصل الوحيد فى كربته ومحنته. وقد وجه انظار قراء رسالته والمستمعين اليها الى هذه النقطة: فتقوى الله ومخافته اساس الحياة السعيدة، واهم عناصر هذه السعادة الاعتقاد بواحدانية الله: ومن جاءت فريضة الصلاة والتصدق بالمال او الزكاة صفة لازمة للصلاة: ويتبعها بالطبع تادية الضرائب المستحقة للدولة. ومن واجب كل مسلم صادق مؤمن، ان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. ثم استطرد القول مستشهداً بالحديث المأثور، ان اعمدة الاسلام عشرة: فمنها الشهادتان- (الشهادة بان الله واحد وان محمداً نبيه ورسوله، والصلاة والزكاة، وصيام شهر رمضان، والحج ، والامر بالمعروف ، والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله ، والشورى فى الحكم، والطاعة لذوى الامر والسلطان) وقد اضيف مبدأ جديد الى هذه المبادئ: الا وهو الاحسان الى الفقراء والمعوزين والرافة بهم. وطلب الى شعبه ألا يسيروا فى طريق الاشرار الذين يقترفون الذنوب ويطلبون الغفران، لان التمنى هو رأس مال المفلسين. ثم طلب الى حكام الاقاليم فى مملكته أن يقرأوا هذه الرسالة فى جوامع البلاد وان يعيدوا قراءتها كل شهرين. وفيما عدا هذه النصائح كان اهتمام فيصل الخاص منصرفاً الى اختيار الموظفين الاكفاء للمناصب المختلفة فى الاقاليم والمقاطعات.

ويبدو ان فيصلاً، شأنه شأن والده، لم يكن يفكر فى استغلال

الحماس الديني لصالح النشاط الدنيوى في دولته، مثلما فعل اسلافه من قبل أيام «حشود الوهابيين المتحمسة»، ومثلما فعل حفيده ب«الاخوان» في زماننا الحاضر. فقد كانت ترتيباته العسكرية ادارية محضة. فالتعبئة العامة الجيوش تستند الى قيود وسجلات تفرض على كل قرية ومدينة وقبيلة ان تقدم عدداً معينا من الرجال والجمال والخيول. وكانت هذه النصوص جميعها مفهومة ومعروفة لدى كل من يعنيهم الامر. وكانت الدولة تقوم بتزويد الجيش بالسلاح والذخيرة عند الضرورة. غير ان المجندين هم الذين كانوا يحضرون معهم جمالهم (في بعض الحالات رحلين لكل جمل) او يسيرون على اقدامهم، بينما كان الخيالة يحظون بمعاملة خاصة. وكان كل موظف، يتناول راتبه من نتاج دائرته. واذا ما استولى جيش وهابى على غنائم، خصص فائدة خمسها لخزانة الدولة، ووزع الباقى بنسبة سهم واحد لذى الراحلة وسهمين للفارس.

اما مجرى الحياة العادية فى نجد فقد كان يتضمن الخروج للرعى او الغزو، خلال فصلى الشتاء والربيع من كل سنة، وفترة استراحة خلال اشهر الصيف الحارة. ويلذ لنا ان نعرف كم من النشاط العسكرى امتد حتى اشهر الصيف الحارة وكم بدأ فى شهره الشديد الحرارة التى تكاد تجعل القيام باية اعمال حربية متعذار.

اما بخصوص الشتاء والحملات التأديبية التى كانوا يوجهونها ضد القبائل ايامه، فلربما كان السبب ان القبائل تنتشر اثناء ذلك الفصل الممطر فى مساحات واسعة من الصحراء، فتسهل الاغارة عليها. اما فى الصيف فانها تتجمع قرب موارد الماء للسقاية.

ويبقى العمل ضد الاتراك.. وربما كان تأثير الطقس في الاعداء يعتبر عاملا ملائماً للعرب في حملات الصيف.

ويمكن تلخيص تاريخ الثماني السنوات الاولى من المرحلة الثانية من حكم فيصل وبعض الاحداث الاخرى التي يفصلها ابن بشر بتوسع واسهاب، من وجهة نظره كمشاهد عيان: يمكن تلخيصها، في مجموعة لوحات تعطينا صورة عامة على الوضع في نجد، في العقد الخامس من القرن التاسع عشر.

كان فيصل بادئ ذي بدء منزعجاً قليلا بسبب الضغط على بلاده من الخارج والحادث الوحيد الذي حاولت فيه دولة اجنبية الاعتداء، كان في نيسان سنة ١٨٤٧، اذ زحف محمد بن عون شريف مكة على القصيم. فقد قامت بعض العناصر من سكان القصيم الذين اختاروا النفي في الحجاز من تلقاء انفسهم، بسبب كرههم للحكم الوهابي، فأشارت على الشريف ان يهاجم نجداً لمصلحة خالد بن سعود. وكان خالد لاجئا في مكة كما أسلفنا.. وأقنعته ان فيصلا لن يعتبر الهجوم احتلالا اجنبياً لنجد، وأن خالداً سيحظى بمساندة السكان هناك. وسارت الامور سيراً حسناً مع الغزاة الذين رافقهم خالد على رأس قوة من الجنود الاتراك. اما اهل القصيم فكانوا يؤمنون بفكرة الاستقلال تحت نوع من الحماية التركية. وكانوا يكرهون عبد الله بن رشيد المعروف بولائه واخلاصه لفيصل، فخضعوا لقوات الشريف دون ابداء اية مقاومة. وكذلك سارع زعماء مطير وغيرها من القبائل إذ ربطوا مصيرهم بمصير الغزاة.

اما رد فعل فيصل على هذه التطورات فلم يكن كما تصوره

اعوان الشريف.. لقد ارسل ابنه عبد الله الى المجمعة على رأس قوة جهزها عاجلاً من اهل الاقاليم الوسطى لحماية مناطق السدير والطويق ضد اى هجوم يقوم به الاعداء. وأرسل الشريف محمد بن عون، رسولاً الى فيصل يؤكد له حسن نواياه السلمية، فكان جوانب فيصل بالشكل التقليدى الذى اعتاده، ان أوفد اليه اخاه عبد الله مع بعض الهدايا. الا ان الشريف، بناء على تصخ بعض الاشخاص، رفض هداياه وطلب اليه ان يخبر أخاه فيصلا ان يجئ بنفسه، لكنه فى الوقت ذاته اكرم الرسول وزوده بهدايا ثمينة. فما كان من عبدُ الله الا ان أعاد هدايا الشريف حالما وصل الى مكان آمن فيه على نفسه ، وبعث معها رسالة يهدد فيها الشريف . وعندما وصل الى شقرا ارسل يخبر فيصلا بما حدث ، وبقى هناك فى انتظار اوامره .

اما فيصل فاعتبر مسلك الشريف هذا ، بمثابة اعلان حرب .. ولذلك سارع الى شقرا بقوات حشدها فى الرياض واصدر التعليمات الى ابنه عبد الله فى المجمعة ان يوافيه الى المكان المعين .

ويبدو ان الشريف تملكة الذعر ، فارسل رسولا الى فيصل فى قرية شمس Sham على حدود الوشم ، يقترح عليه سلما وصداقة دائمة . ووافق فيصل على مطلبه هذا مشترطا ان يتخلى الشريف عن المطالبة بالقصيم او اية منطقة من مناطق القبائل فى نجد بلا قيد او شرط . وارسل اليه بعض الهدايا ، ليخفف عليه وقع المبلغ هذا المطلب. كذلك أرسل له مبلغاً من امال. وربما عاد الشريف فقدم

هذا المبلغ بدوره الى الاتراك في مكة ، على اعتبار انه الجزية التى دفعها له تابعه فيصل .

وعلى كل ، فقد رحل الشريف عن القصيم فى حزيران ، واغار فى طريقه على احد بطون عشيرة مطير فى الحيد ، وسمح للاتراك فى جيشه ان يحملوا معهم بعضا من نساء القبيلة . وفى نفس الوقت وقبل عودة فيصل الى بلاده ليصرف جنوده قام بالاغارة على تجمعات من قبائل الشامر وغيرهم من البدو عند آبار البنا Alban-ma قرب قويعية .

اما العملية الحربية الوحيدة الاخرى ضد بلد اجنبى فكانت اجراءات تأديبية على نطاق محدود ضد آل خليفة حكام البحرين ففى سنة ١٨٤٣ قاد فيصل قواته الى ساحل الخليج الفارسى قرب القطيف ونجح فى غاراته على عشيرة المناصرة، وآل مرة وبنى حجير Hajir عندما هاجم الدمام وقوات البحرين ، تحت إمرة عبد الله بن خليفة احد ابناء العائلة المالكة . وبعد حصار دام اقل من اسبوعين استسلم المدافعون بلا قيد او شرط فاستولى فيصل على الذخائر الموجودة فى الحصن ، ووضع فيه حامية من مائة رجل مع كافة مؤنهم وذخائرهم الكافية لصد اية محاولة من جانب البحرين لاستعادتها .

وفى هذا الوقت بالذات وقعت معركة ضارية بين العجمان وسبيع من جهة ومطير بزعامة الدويش من جهة اخرى . واندحر جيش محمد الدويش. فتوجه محمد الى فيصل عند الدمام يطلب منه

التعويض عن الخسائر التى تكبدتها قبيلته فى اراضى بنى خالد . ومع هذا فقد عرض فيصل على محمد ما لحقه من خسائر بكرم وسخاء ، ودفع اليه من حصة الدولة فى غنائم الدمام قدرا كبيرا .

ثم توجه فيصل الى الهفوف فى زيارة طويلة زاره خلالها كثير من الناس ، وأحدث تغييرات موفقة فى ادارة مقاطعات الخليج. وكان من هذه التغييرات أنه عين احمد السديرى اميرا على الاحساء، وعبد الله بن سعد المداوى حاكما للقطيف .

وبعد ان عاد فيصل الى الرياض فى بداية صيف سنة ١٨٤٤ استدعى المداوى سلفه حاكم القطيف السابق ، عليا بن عبد الله بن غانم ، وامر بجلده ، لعدة مخالفات اقترفها منها ان الرجل كان شيعيا ذا اتصالات سرية مريبة مع البحرين .

ولقد توفى ابن غانم نتيجة هذه المعاملة ، الامر الذى ازعج فيصلا وأسخطه فأوفد بلا بن سالم الحارق ، شقيق عبيدة ، ليحل محل المداوى ، ويرسله مخفورا الى الرياض . وهناك اقنع المداوى سيده بانه تصرف بنية حسنة ، فأعيد الى منصبه ، ليقوم باعمال عدوانية ضد البحرين ، واهل عماير . ولا نعرف شيئا عن هذا ، غير نشوب قتال مرير .

ثم وجه فيصل حملة اخرى الى عمان بقيادة عبد الله بن بطال المطيرى . وقد رافقه قاضى البريمى الذى كان قد عين حديثا ، واسمه الشيخ ناصر بن على العرينى الا أن المطيرى أعيد الى

الاحساء فى السنة التالية ، قائدا لجيوش الاقاليم تحت امرة احمد السديرى .

وفى نهاية سنة ١٨٤٧ تقريبا ارسل فيصل اخرى الى عمان بقيادة رجل من منفوحة اسمه عبد الرحمن بن ابراهيم واصدر اليه تعليمات خاصة تطلب منه ان يتخذ من البريمى قاعدة لقواته ، بعد ان يضم اليها حامية يسحبها من الاحساء .

ثم تلا ذلك قلاقل فى هذه المنطقة سببتها مؤامرات بعض الزعماء المحليين ، فاضطر فيصل الى ارسال حملة اخرى بقيادة سعد بن مطلق المطيرى، وهو ابن عم عبد الله بن بطال ، ليعالج الوضع . اما ابن طحنون ، الرجل الوحيد الذى اخل بالامن ، فجمع انصاره واراد ان يكمن للحملة فى الطريق . لكن بعض الزعماء المخلصين من مثل مكتوم من دبى وسلطان بن صقر احد ابناء الشارقة ، ارسلوا رسولا الى قائدها يحذرونه من الكمين .

وكان من سوء الحظ أن اخفق الرسول فى الاتصال فوقع جيش فيصل فى الشرك الذى نصب له ، وانسحق تماما فى الاشتباك اليائس الذى تلا ذلك . اما الذين كتب لهم السلام من المعركة المريرة فقد قتلهم العطش اثناء فرارهم الى دبى ومن هناك واصلت بقيتهم مسيرها حتى بلغت الشارقة .

وبعد معركة العانكة ، تآمر سعد المطيرى وانصاره ، على مهاجمة البريمى فاحتلوا قلعة ابن طحنون وجميع المواقع المحصنة الاخرى فى الواحة ، واستعادوا جميع الاسلاب التى أخذت منهم فى

الكمين . اما سعد المطيرى فقد القى القبض عليه ليؤدى حسابا عن هذه الكارثة ، وعزل من نصب القيادة فى تشرين الثانى سنة ١٨٤٩ .

والان .. لقد رأينا أن ساحل الخليج الفارسى كان احدى المناطق الرئيسية التى سبق ان احتلها فيصل فى تلك السنوات . فمن البريمى فى الجنوب الى القطيف واراضى بنى خالد شمالا ، كانت الحاجة ماسة لأخذ المحيطة والحذر المستمر ضد من قد يعمدون الى تعكير السلام.

وفى سنة ١٨٤٥ قام العجمان بقيادة فلاح بن هذلين فشنوا هجوما فظيعا غادرا على قافلة من الحجاج كانت تعبر الإحساء فى طريقها الى مكة ، بالرغم من انها كانت فى حراسة حزام بن هذلين ، قريب فلاح نفسه .

واستنكر فيصل ذلك ، فسار بنفسه الى حريملة التى عينها ملتقى لقواته ، بما فيها فرقة حايل ، بقيادة متعب بن عبد الله بن رشيد ، الابن الثانى لصديق فيصل القديم . وتمركز فيصل فى سلسلة المجزل فى الجناح الشرقى من الطريق ، مارا بالكاظمة فزارته هناك عناصر كثيرة من قبيلة العجمان المعتدية واظهرت رغبتها فى التبرؤ من جماعة فلاح راعمالها . فأمنهم فيصل على انفسهم مشترطا عليهم مغادرة اراضى بنى خالد التى اتخذها فلاحج مركزا له استعدادا للمعركة القادمة . ثم ارسل عشائر مطير بقيادة حميدى بن فيصل الدويش لاحتلال منخفض السر ، ففر فلاح لينضم الى محمد بن هادى بن قرملة زعيم قبيلة قحطان فى معسكر فى خفس الا أنه عاد ففر الى عشيرة الملاعبة احدى بطون مطير ، وطلب منهم

الحماية والمساعده . ولكن منديل بن غنيمان زعيم العشيرة رفض هذا الطلب وارسل يشرح الامر لرئيسه حميدى الدويش ، فسارع حميدى بالحضور وابقى فلاحا فى حمايته الى ان تتم المفاوضات مع فيصل بشأنه.

وقد اصر فيصل على تسليم فلاح اليه كى ينال عقابه على ترويعه قافلة الحجاج ، فأخذ اسيرا الى الهفوف وسلم الى احمد السديرى الذى اعدمه هناك اما شريكاه الرئيسيان فى الهجوم على القافلة والاعتداءات الاخرى كقطع الطريق والسلب والنهب ، وهما مشعان بن هذال وهادى بن مذوذ فالقى القبض عليهما وأعدما. واما القبيلة كلها فخضعت للحكومة وأجبرت على تسليم جميع ما بحوزتها من غنائم واسلاب.

ويذكر ابن بشر فى هذه المناسبة بانه تشرف بالمثول بين يدى فيصل اثناء هذه العمليات فى معسكره فى المجزل ويرسم لنا صورة شيقة عن النظم المتبعة فى البلاط انذاك ، وبصورة خاصة عن ساعات الصلاة والمواعظ والخطب التى اعدت لمجابهة الفتور الدينى الذى ظهر بين افراد القوات المسلحة .

وبانتهاء هذه الحملة التأديبية الناجحة التى تمت سنة ١٨٤٦ ، اخذ فيصل يعد العدة لتصفية الحساب مع حكام البحرين الذين ما فتئوا يقومون بنشاط عسكرى ويطالبون علنا بحق السيطرة على مواقع مختلفة من بر الجزيرة العربية . وكانت مطالبهم المرفوضة هذه، مصدر قلاقل واضطرابات وازعاج فى المنطقة .

والواقع ان فيصلا لم يوجه انظاره الى الشرق الا فى مطلع كانون الاول سنة ١٨٥٠ ، وذلك بسبب انهماكه في انحاء مختلفة من البلاد . وكان ابنه عبد الله موجودا آنذاك فى شقرا يراقب التطورات فى القصيم ، فطلب اليه فيصل أن يلحق به فى الرمحية على الطرف الغربى من الدهناء ... وتم ذلك ، فقاد فيصل قواته الى إقليم الاحساء مارا ببابار النجبيه ثم عسكر فى حليون بين الواحة الرئيسية والقطيف ، حيث ازداد عدد قواته بانضمام جيوش الاحساء والقطيف ، وقبائل بنى حجير مهاجمة جزر البحرين بسبب القلاقل الداخلية فيها ، وعدم دفع اهلها الجزية .

ورفض فيصل بشدة محاولة امراء آل خليفة التخفيف من حدة غضبه بكلامهم المعسول ووعودهم الخلابة . فزحف فيصل على شبه جزيرة قطر التى كان قد أقام مخيمه عند طرفها فى مكان يدعى عريق السلوى . وكان هدفه حصن بدع فى ميناء الدوحة . وكان هذا فى حوزة على بن خليفة ، شقيق شيخ البحرين الذين زوده بكل ما يحتاج اليه من طعام وذخيرة كي يصمد فى حالة وقوع اى اضطراب.

وقد ارسل فيصل ابنه عبد الله لمحاصرة الحصن ، الا أن قائد الموقع كان يتوقع هذا الهجوم ، ففر فى القوارب التى كانت راسية فى الميناء . وعندها سارع اهل الدوحة؛ فأعلنوا خضوعهم لأبن فيصل، الذى أكتفى بالإستيلاء على المستودعات الزاخرة بالذخائر بقليل من العناء ؛ هذا بالاضافة الى طرد آل خليفة من آخر حصن لهم على البر .

ويبدو ان فيصلا لم يقنع بما انجزه فاتجه على التو نحو آبار مسيمير بالقرب من الساحل ، واحتل احمد السديرى حصنها ، فوجد ما لا يقل عن ثلاثمائة ومركب سرعان ما جهزها للقيام بهجوم على جزر البحرين نفسها . وقد جعل هذه الحملة البحرية بقيادة ابناء آل خليفة المنفيين الذين كانوا معه . وفي هذه الاثناء طلب امير البحرين المساعدة من سعيد بن طحنون امير « ابو ظبى» فسارع طحنون الى الاشتراك فى المعركة باسطول قوى . ويبدو انه لدى اقترابه من قطر ، فقد رباطة جأشه فتملكه الفزع . فأرسل رسالة الى فيصل يقترح عليه عقد صلح دائم بينه وبين آل خليفة .

غير أن فيصلا اصر على حضوره بالذات ليقدم فروض الطاعة . وتم ذلك بكل سهولة بعد ان ضمن احمد السديرى شخصيا عدم اعتقاله ومعاقبته . وبعد اجراء بعض المفاوضات وافق فيصل على عقد الصلح مع البحرين بشرط ان يدفع امراؤها تعويضا . وهكذا سويت المشاكل بصورة أرضت جميع الاطراف المعنية وبدون سفك نقطة واحدة من الدم .

وعاد فيصل فى شهر حزيران أو تموز عبر الصحراء الى بلاده . وكان من المحتمل ان تتكبد قواته اصابات فادحة لولا سقوط الامطار الغزيرة المصحوبة بالفيضانات فى جميع الاودية الواقعة فى طريقه الى الاحساء .

وكان الوضع فى القصيم من جملة المشاكل التى ادت الى تأخير تسوية الامور مع حكام البحرين . فبعد الغزو العقيم الذى قام به الشريف محمد بن عون سنة ١٨٤٦ ، غفر فيصل لسكان القصيم

مساعدتهم للشريف ، غير أنه ظل يشك في ولاء بعضهم . وها هو امـير عنيزة ، ابراهيم بن سليمـان بن زامل تثبت فـيـه الشكوك والريب. ها هو يقـوم بخلق فتن في المدينة . فـقـرر فـيـصل الان ان يطرد الامـير ويعين نـاصـرا بن عبد الرحمن السـحـيمي مكانه وقد ارسل الامير الجديد أخاه مطلق الضرير الى الحصن الكبير مع حامية كافـية ، بينما قبل اهل المدينة بالنظام الجديد ولو في الظاهر على الاقل .

اما عبد الله بن يحيى بن سليمان ابن اخى ابراهيم واعوانه فلم يقبلوا الخضوع لهذه الاهانة التى وجهت لعائلتهم . فـهاجم خدمهم السحيمي في الشارع العام ذات ليلة واطلقوا عليه ثلاث رصاصات اصابته بجرح بليغ . الا أن قائدهم عبد الله وجد الحصن محروسا حراسة قوية ، فهرب الى بريدة ، واقام هناك في حماية اميرها عبد العزيز آل محمد . وارسل عبد العزيز هذا الى فـيـصل يبرر الجريمة على انها بسبب من مسلك السحيمي الاستفزازى . الا ان فيصلا أصر على ارسال عبد الله الى الرياض ، حيث ظل هناك في انتظار بحث القضية .

وفى هذه الاثناء ، قام ضرير بجلد احد اتباع زامل حتى الموت . اما ناصر الذى شفى من جرحه ، فاعتقل سلفه ابراهيم بن سليمان بن زامل واعدمه . واما شقيق ناصر فهرب الى مذنب خوفا من بطش السحيمي . وسخط الناس على ذلك . فامر فيصل السحيمي بان يمثل للمحاكمة امام محكمة الشرع في الرياض وكانت تحكم بدفع الدية . وما أن تمت المحاكمة حتى عزله فيصل وعين مكانه في

عنيزة عبد الله المداوى ، حاكم القطيف السابق . وذلك خشية من ان يؤدى النزاع الى وضع خطير ربما كان آخره اللجوء لشريف مكة .

ورفض مطلق الضرير اخلاء الحصن ، فسار المداوى الى بريدة ، ولما وصلت اخبار هذه التطورات الى الرياض اقنع السحيمى فيصلا بان الحل الوحيد لمنع الفتنة هو آن يعيده الى منصبه ويسنده فى القيام بعرض عسكرى عند حدود القصيم الجنوبى .

وقد قبل فيصل ذلك ، فتحرك السحيمى الى عنيزة . وهناك وجد فى أهلها حالة من الثورة والهياج والاستعداد لتحدى سلطة فيصل . وكانوا يعلمون جيدا بان فرص نجاحهم ضئيلة للغاية ما لم يقنعوا جميع سكان الاقليم ، وعلى الاخص عبد العزيز آل محمد زعيم بريدة ، أن ينضموا اليهم . ولهذا طلبوا الى عبد العزيز ان يقود جميع قوات الاقليم ، فوافق على شرط ان لايكون هناك تراجع بعد اعلان الثورة . هذا من جهة معسكر الثائرين .

اما فيما يتعلق بفيصل فقد غادر الرياض على رأس جيوشه فى مطلع نيسان من سنة ١٨٤٩ ، يرافقه ابناه عبد الله ومحمد ، اما سعود ابنه الثالث الذى عين اميرا على الخرج سنة ١٨٤٧ فقد انضم اليه فى الطريق مع قواته الاقليمية . وكان يرافقه كذلك اخوه جلوى والشيخ عبد اللطيف ، وهو حفيد بعيد لمحمد بن عبد الوهاب ، بينما بقى اخوه تركى نائبا عنه فى الرياض . وقد توجه الى السدير والمجمعة عن طريق بنبان والحسى ، حيث امضى بعض الوقت للتأكد من اخلاص اهل القصيم .

وهناك زاره مؤرخنا ابن بشر الذى يذكر انه كان فى خيمة فيصل بعد صلاة العصر ، حين جاء الخطيب والقى درسا عن موضوع الوثنية من كتاب التوحيد للشيخ ابن عبد الوهاب.

وفى اليوم التالى سار فيصل من المجمعة الى الجريفة فى سهل حمادة ومن هناك سار الى عشيقير ومنطقة السر ، ثم قضى بعض الوقت فى ساجر قبل ان يواصل زحفه الى مذنب . ومن هناك ارسل جيشا قويا بقيادة محمد بن احمد السديرى ، حاكم السدير لاحتلال واحة العو شزية على مسافة قصيرة من عنيزة . كما أرسل الى اهل القصيم يحذرهم من مغتبة اصرارهم على الاستمرار فى ثورتهم . وقد رد الثوار على تحذيزه هذا بان ارسلوا مهنا بن صالح ، احد أعيان بريدة لبحث الامر معه.

كان فيصل متفائلا، يعتقد ان الامور ستسوى دون اراقة الدماء. وبعد أن غادره منها ليحمل نتائج المحادثات الى الثوار، علم فيصل بان هناك حشودا من بدو الدهامشة (عنزة) فى طرفية tanghiya إلى الشرق من بريدة . فارسل ابنi عبد الله على رأس جيش قوى لغزوهم، وحذره من الاشتباك مع اية عناصر من اهل القصيم ، وأبلغه انه قد وعدهم فى رسالته التى بعثها مع مهنا ان لا يعتدى عليهم . وعلى اساس ذلك سمح لقافلة متوجهة الى بريدة ان تمر بأمان .

غير ان اخبار حملة عبد الله وصلت الى الطرفية ، فبارحها بدو الدهامشة قبل وصولها ، لكن مقدمة جيش عبدالله لحقت بهم

فطاردتهم وقست فى معاملاتهم. ووصل بعض الفارين إلى عنيزة لينذروا أهلها. ولم يجد عبد الغزيز آل محمد صعوبة فى إقناع انصاره بان فرصة مثل هذه فى سبيل الحرية قد لاتعود ثانية.وانطلق مع الف وخمسمائة مقاتل ليتمركزوا فى تلال اليتيمة الرملية بين شماسية وتعمية فى قناة وادى ريما.

وفى هذه الأثناء أرسل عبد الله من الطرفية رسالة إألى أبيه يخبره فيها عن نجاح حملته الحربية ضد الدهامشة، غير أن الرسول شاهد آثار جيش كبير متجة إلى الشرق فعاد ليعلم عبد الله بالأمر.

وقد نصح المستشارون عبد الله أن يتجنب الثوار فى طريق عودته إلى أبيه غير أنه أصر على الأشتباك معهم بالرغم من تفوفهم العددى الكبير، فساق الأغنام والجمال التى استولى عليها من الدهامشة باتجاه مراكز العدو، تغطية لفرقة خيالته، ثم قامت الخيالة بالهجوم فى الوقت المحدد، وأخذ الثوار يتقهقرون ويقاتلون، ألا أنهم انهزموا شر هزيمة.

وقد نجا عبدد العزيز آل محمد ووصل الى حصن نعمية. من حيث سار الى عنيزة. عندما علم عبد الله أمر بايقاف المطاردة والعودة الى المذنب. وكانت اخبار نصره قد سبقته الى هناك، الأمر الذى اراح بال والده. فقد كان اصدر أمره بارسال الامدادات اليه، كما اراح بال الجيش الذى أخذ يهلل ويهزج حتى امرهم عبد الله بالكف عن الغناء والرقص وطلب اليهم ان يشكروا الله على دلائل رحمته.

كانت كل قرية فى القصيم قد فقدت بطلاً عليها ان تبكيه

وترثيه، اما بريدة فقد منيت بأفدح الخسائر واعظمها ، اذ بلغ عدد قتلاها مائة قتيل. دخل عبد العزيز مدينة عنيزة مع انصاره بمظاهر الرقص والحماسة لبث الطمأنينة في نفوس حلفائه ولتشجيعهم على مواصلة القتال ولكنه ادرك ان اهل المدينه قد سئمو القتال، فصاروا على استعداد لأن يستسلموا لفيصل. فسار الى بريدة، بينما فر السحيمي وتوجه الى طلال بن رشيد الذى كان آنذاك في قرارة، وفي طريقه ليساعد فيصلاً ضد الثائرين. وعلى ذكر طلال نقول : كان طلال قد خلف والده عبد الله بن رشيد في إمارة حايل بعد وفاة الوالد في آيار سنة ١٨٤٧ حيث غزا شريف مكة القصيم. فأخذ سكان عنيزة يتشاورون فيما يجب عمله في المستقبل. ثم عرضوا على الشيخ عبد الله ابي بطين، قاضي الاقليم، ان يتوسل لدى فيصل للعفو عنهم. ووافق عبد الله، بعد لأي، على شرط ان يكفل محمد ابن عبد الرحمن بن بسام، زعيم احدى العائلات الكريمة المحتد في المدينة، عدم نكوصهم.

وهكذا سوت الأمور بسهولة، فدخل فيصل المدينة ليتسلم ولاء اهلها ، وبعد ان غفر لهم دورهم في ثورة الاقليم ثم كتب الى عبد العزيز آل محمد يدعوه ان يختار بين السلم والحرب، وكان عبد العزيز قد قرر الفرار، الا ان اقاربه وزعماء بريدة أقنعوه ان يسمح لهم بالتوسل الى فيصل من أجل العفو عنه.

وبعد أخذ ورد ومباحثات طويلة ووساطة من ذوي النفوذ ، وافق فيصل على ان يتناسى الماضي بعجه وبجره وان يسدل عليه ستار النسيان، وثبته في منصب حاكم المدينة. ثم عين جلوي حاكماً عاماً

للاقليم على ان يكون مركزه فى حصن عنيزة العظيم، كى لا تتكرر مثل الاحداث السابقة في المستقبل، خصوصاً فى مثل تلك البيئة المعروفة بعدم استقرارها، وبين اولئك السكان الذين لا يركن اليهم. وكان جلوى أول أجنبى وأمير سعودى يشغل هذا المنصب الذى كان مقصوراً على الزعماء المحليين.

ولا بأس بهذه المناسبة ان نذكر ان الجد الأعلى لعبد الله بن مساعد الحاكم الحالى، ١٩٥٤ للاقليم ومن قبله عمه عبد الله بن جلوى المشهور، وأبوه عبد العزيز بن مساعد حاكم حايل الحالى، كانوا يشغلون هذا لمنصب.

وهكذا يكون فيصل قد أدخل مبدءاً ادارياً جديداً فى الحكم سار عليه السعوديون بلا انقطاع لأكثر من قرن.

كان الآن قد انتهى كل شئ... فتوجه فيصل الى بلاده بعد ان اقام شهراً فى عنيزة. وقابل أثناء عودته طلال بن رشيد فى المذنب. غير انه سرعان ما عاد ليستأنف عملياته الحربية فى فصل الشتاء (سنة ١٨٤٩- ١٨٥٠). فقد توجه شمالاً لمهاجمة تجمعات متنقلة من قبيلة عتيبه فى جراب. الا انهم كانوا على علم بنواياه فتراجعوا الى قبة حيث احتشدت عناصر كبيرة من مطير. ولدى وصول فيصل زاره زعماء الدويش وقدموا له الهدايا فعفا عنهم وغفر لهم ما قاموا به فى الماضى. ثم سار نحو القصيم حيث انضم اليه جلوى مع جيش القصيم عند بئر «غأبو الدود» قريباً من الحدود الشمالية. ويبدو ان عبد العزيز حاكم بريدة او جس خيفة من هذه التحشدات فلاذ مع اولاده بالفرار الى مكة تاركاً وراءه نساءه واملاكه. ووصل فيصل

الى بريدة فكان تصرفه غاية في الحكمة حين لم يصادر املاك الحاكم الفار بل تركها لافراد عائلته الذين بقوا في المدينة كما عين اخاه عبد المحسن آل محمد، حاكماً مكانه.

استقبل شريف مكة عبد العزيز آل محمد بالعطف والود. غير ان مظهره هذا سرعان ما تبدل عندما علم ان الهدايا الصغيرة التي احضرها عبد العزيز كانت هي كل ما يملكه في العالم. فاخذ يكتب الى فيصل بخصوص ضيفه الغير المرغوب فيه. وكان رد الشريف على طلب عبد الله المساعدة رداً يتسم بالغلظة، اذ اجابه ان جنوده ليسوا من اولئك الذين يقاتلون دون أن تدفع لهم رواتب معقولة، ويشرط ان تدفع سلفاً.

وفي هذا الوقت اي حوالي نهاية تشرين الاول سنة ١٨٥٠ سار عبد الله بن فيصل من الرياض الى الحجاز للقيام بغزوة عامة، وزحف على رأس قوة كبيرة كانت تظل تزداد عدداً بمن ينضم اليها في الطريق. وبعد ان مكث فترة في القويعيه، شرع يبحث عن معسكر مرزوق الهيذال (من عتيبة). فمر بآبار شبكة وبئر مطلوب في مرتفعات نير، واقترب من الحنايج دون ان يلتقي بأحد. غير انه كاد يقع على فريسته عند آبارثعل في الحزم، لولا ان مرزوقاً وجماعته اركنوا الى الفرار لدى سماعهم بزحفه، ولجأوا الى ابن ربيعان في نيفي، وهو من زعماء عتيبة البارزين.

وقد ذعرت الحجاز من اقتراب الجيوش الوهابية من مران في منطقة حرة الكشب البركانية. وخشي الشريف ان يحدث وجود عبد العزيز آل محمد في مكة اضطراباً، فبدأ يرسم خطة لإزعاجه. اما

عبد العزيز فثبت له ان آماله في مساعدة الشريف له قد ضاعت.. فما عتم ان طلب منه ان يتوسط لدى فيصل من أجل العفو عنه، وألمح له بالعودة الى بريدة. وكان فيصل آنذاك على ساحل الخليج الفارسي يهاجم سكان البحرين.

ولامندوحة من الاعتراف بأن فيصلاً كان رجلاً فذاً يتحلى بطول اناة وصبر نادرين، فقد قبل وساطة الشريف فى العفو عن عبد العزيز، واشترط ان يشخص عبد العزيز الى عنيزة لينضم الى الحملة التى كان يعدها جلوى للزحف على سلوى. وحين وصل عبد العزيز الى معسكر فيصل فى كانون الثانى من سنة ١٨٥١ عفا فيصل عنه، وإعاده الى منصبه حاكماً لبريدة، وذلك بعد ان اعترف بجرائمة فى حق سيده، وعبر عن توبته وندمه عليها.

وفى مطلع السنة التالية انتشرت الشائعات بان هنالك غزوة اخرى لنجد، أعدها نائب السلطان آنذاك عباس بن طوسون، حفيد محمد على باشا، وكان ماروج تلك الشائعة أن المصريين ارسلوا فعلاً عبد الله بن فيصل وحشوده قرب الحدود الحجازية.

وكانت العمليات الحربية التى تلت وصول قوات عباس، ذات طابع متقلب وان كانت احداها قد وصلت حتى دفينة. وحينئذ عبأ فيصل جميع قواته، كإجراء احتياطى لضمان مملكته، وسار بها إلى المجمعة . وفى تموز وردت الأخبار أن عباساً وجه جيشاً كبيراً إلى إقليم عسير، وأمر قواته فى المدينة فى المدينة المنورة الإنضمامَ إليه استعداداً للعمليات المتوقعة فى تلك المنطقة. فتنفس أهل نجد الصعداء لدى سماعهم بهذا التطور الجديد، أما فيصل، فأمر جنوده

أن يتفرقوا ويعودوا إلى منازلهم، بعد أن غزا بطناً من بطون عشيرة مطير، عند أم الجماجم وهو فى طريقه إلى بلاده .

ولم يلقَ الأتراك نجاحاً فى حملتهم على أهل عسير، الذين بادر زعيمهم عايض ابن مرعى إلى ربط قضيتة بقضية فيصل حين أرسل إليه وفداً يحمل الأخبار السارة مع نصيبه فى الغنائم، غير أن فيصلاً كان منهمكاً آنذاك بمشاكل الشرق فلم يأبه لأحداث الحجاز .

وقضى فيصل قسماً من شتاء عام ١٨٥٢ - ١٨٥٣ فى الصحراء، فأغار على أحد بطون مطير فى وفرة، كما وكل إلى عبد الله أمر الاقتصاص من آل مرة .

وكان هؤلاء قد أخلّوا بالأمن حين استولت فئة منهم على قافلة ثمينة الأحمال كانت وافدة من عقير إلى الهفوف. فالحق عبد الله خسائر فادحة فى معسكرهم فى نَعْرِيَّة. ومن ثم سار إلى سلوى، حيث غزا عشائر بنى نعيم القطرية، وعشائر حجير والمناصير، وكان لهم ضلع فى سلب القافلة المذكورة .

وصرف فيصل الآن جزءاً من جيشه وسار بما تبقى منه إلى عمان ليرفع علمه هناك وليتأكد من أن كل شىء فى المنطقة يسير على ما يرام، ولم يعد إلى بلاده من هذه الحملة إلا فى نهاية عام ١٨٥٢. وفى هذا العام (أو فى مطلع السنة التالية) وردت إلى الرياض أخبار اغتيال عباس باشا وتولى سعيد باشا ابن محمد على منصب نائب السلطان خلفاً له .

وفى الأول من أيار سنة ١٨٥٤، استرعى وانتباه فيصل قيام

الاضطرابات في القصيم، فقد ثار أهل عنيزة على جلوى وطردوه من المدينة، فجاء إلى بريدة. ثم لحق به الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطيّن الذى اشمأز من روح المشاكسة والشغب في أهل تلك المدينة، فقد اغتصب عبد الله بن يحيى بن سليمان الذى تشتهرت عائلته باسم آل سليم، منصب إمارة المدينة، وما أن سمع فيصل بهذه الأخبار حتى حشد قواته وأرسل جيشاً قوياً إلى بريدة بقيادة عبد الرحمن بن إبراهيم، وهو من مدينة منفوحة، وأصدر إليه تعليماته بعزل عنيزة وقطع اتصالها بالعالم .

وفى أواخر آب أرسل فيصل أبنه عبد الله إلى شقرا ، حيث أصدر إلى الوحدات الاقليمية بالتجمع فيها ، وبعد قرابة الأسبوعين قام بغارة شديدة عل قرى وادى ريما ونخيلها الذى يملكه سكان عنيزة، وأستولى على أملاكهم وماشيتهم وقتل منهم عشرة رجال، ثم أمر بقطع نخيلهم وإبادته، فخرجت من المدينة قوة حاولت منع إبادة النخل، ونشبت بين الفريقين معركة ضارية انسحب عبد الله على أثرها الى العوشزية ومن هناك توجه إلى رُباعية، واتخذ منها مقراً مؤقتاً لعملياته الحربية .

وفى رباعية انضم إليه طلال بن رشيد مع قوات حايل، وبدأ عبد الله مناوراته للقيام بهجوم شديد على عنيزة نفسها ، ولم تكد تبدأ المناوشات المعهودة، حتى سارع عبد الله آل سُليم يطلب الصلح والعفو من فيصل مباشرة، فاصر فيصل على حضوره شخصياً إلى الرياض، إلا أنه استبق ذلك فبادر إلى العفو عن جرائمه ورضى أن يظل فى منصبه، حاكماً فى عنيزة، وعاد عبد الله وجلوى مع

قـواتـهـا إلى الرياض لدى صـدور الأمـر بذلك، بينمـا سـار الشـيخ أبو بطين معهما حتى شقرا مسقط رأسه .

وكان هذا سنة ١٨٥٥ .

ويبدو أن نجداً بعد ذلك، قضت عامين من حياتها دون حدوث ما يعكر السـلام، فلم يذكـر المؤرخ ابن عـيسى شـيئـاً، عدا اسـتمـرار سـقـوط الأمطار الموسـمـيـة وقـيـام اضطرابات بين عـشـائر المنتـفك العراقـية التى أخضعـها مصطفى باشا للحكم التركى المباشـر، بسبب الشغب الذى كان يقوم به زعماء عائلة سعدون المتنافسون، وكان كل منهم يحاول جاهداً الاستئثار بمنصب زعامة القبيلة .

وفى سنة ١٧٥٦ - ١٨٥٧ نجد عبد لله بن فـيصل فى طريقـة لغزو عنزة وعتيبة فى أنحاء مختلفة من الصحراء، وبعد سنة قامت عشيرة بُرَيْح إحدى بطون مطير فهاجمت تجمعات من أهل عنيزة عند آبار داث واستولت على قطعان أغنامها، وفى شتاء هذا العام بالذات نزلت بقبيلة مطير خسارة فادحة، حين توفى زعيمها حميدى ابن فيصل بن وطبان الدويش، وفى أواخر سنة ١٨٥٧ توفى محمد ابن عون شريف مكة فى السبعين من عمره تاركاً منصبه لأكبر أبنائه عبد الله .

وفى هذه الآونة تقريباً أشتبكت قبيلتا عتيبة وحرْب بالقرب من الساق، شمال القصيم، فدارت الدائرة على عتيبة، وكانت خسائرها فادحة فى الغزوة التى شنها عليها عبد الله بن فيصل، إذ وصل غرباً حتى أراضى البُقوم وسبيعَ بجوار ترابة وخُرمة .

غير أن أبرز أحداث هذه السنة ولا شك كان انتشار الطاعون الذى دخل نجداً عن طريق البحرين والأحساء فقضى على عدد كبير جداً من الأهلين فيها .

ولنرجع الآن إلى سنة ١٨٤٧. ولا بد أننا نذكر مع اخبار ثورة القصيم سنة ١٨٤٧ ، كيف هرب زعيما الحركة، عبد العزيز آل محمد وناصر السحيمى، إلى بريدة .. لقد مر معنا ما قام به عبد العزيز من مجازفات، إلى أن أعاده فيصل حاكماً على بريدة، أما جل ما نعرفه عن السحيمى منذ هربه، فهو أنه قتل فى شتاء سنة ١٨٥٨ فى ظروف غامضة تشير إلى الضغائن وعادات الأخذ بالثأر المستحكمة بين العائلات الحاكمة فى الدول المدينية الواقعة فى أواسط الجزيرة العربية حينذاك .

كان جد ناصر وابنه عبد الرحمن هما اللذْين هاجرا من عشيقير فى الوشم واستقرا فى عنيزة مع فخذ من سبيع يعرف باسم آل بكر، كان يطمح إلى منصب زعامة المدينة الذى كان يشغله آنذاك سُليم، وحين وفد ناصر السحيمى دخيلاً كان يحيى بن سليم أميراً يسانده آل بكر بصفته أليق وأنسب المرشحين للزعامة .

وأصبحت الأحوال خطيرة بالنسبة إلى يحيى .. ولم ير بدأ من بحث الوضع مع المطالب بالزعامة، فتكرم وعرض عليه أن يختار بين .. الإمارة أو النفى الاختيارى، مشترطاً بأنه إذا أختيار الإمارة فإن يحيى سيترك له الأمر ويهاجر من المدينة، وقال : هكذا كان العُرف السائد أيام الفوضى بعد سقوط الدرعية قبل استلام تركى زمام الحكم وتهدئة الأحوال فى نجد .

أما ناصر الذى كان فيما يبدو ذا كرم غزير فتأثر بهذه التضحية الذاتية فى سبيل سلام المجتمع وخيره، ورفض الاقتراح، وأعلن أمام الله والناس بأن يحيى صاحب الحق فى الإمارة، وقدم له وفقاً لذلك، فروض الطاعة والولاء .

وبقيت التنظيمات الإدارية فى عنيزة كما هى دون تغير، وعندما قتل يحيى فى البقعة سنة ١٨٤١ خلفه أخوه عبد الله بن سُليم بحكم العادة، وقتل بدوره فى معركة مع ابن رشيد وقعت سنة ١٨٤٥ . فآلت الإمارة إلى الأخ الثالث، إبراهيم بن سليم الذى طرده فيصل بعد ثلاث سنوات وعينت ناصر السحيمى مكانه فنتج عن ذلك أن عادت جذوة التِّرات القديمة فأشتعلت من جديد، وتحركت الضغائن العالية التى ظلت خامدة فترة من الزمن، وحاول أولاد يحيى وعبد الله أن يقاتلوا ناصراً فى شوارع عنيزة، إلا أنهم أخفقوا، كمنا حاولوا أحتلال الحصن الذى فى حوزة شقيق ناصر، مطلق الضرير؛ فباءت المحاولة بالفشل أيضاً .وزاد الأمر سوءاً أن اعتدى ناصر على أحد أتباع عائلة سليم بالضرب المبرح فتوفى، وذبح ناصر نفسه إبراهيم بن سلين عندما اندمل جرحه، ولا ندرى إن كان ناصر قد عاد إلى عنيزة أم لا غير أنه من المؤكد بأنه كان يعيش هناك كمواطن عادى مع أخيه مطلق فى أواخر سنة ١٨٥٨ ، تحت أمارة عبد اله بن يحيى الذى كان قد اغتصب المنصب بعد ثورته على جدوى، وقد أيد فيصل وجوده فنه .

وفى ايام الشتاء، خرج ناصر الى الهلالية الواقعة فى اعالى وادى ريما لتفقد اسطبل خيوله، فتعقبه عبد الله، الأمير وابناء عمه:

زامل ابن عبد الله، وحمد بن ابراهيم، وقتلوه فى الصحراء انتقاماً منه لقتله ابراهيم بن سليم. وهرب مطلق شقيق ناصر الى قرية عشيقير مسقط رأسه وبقى هناك حتى وافاه الاجل فى سنة ١٨٦١.

ويبدو انه لم يحاول ان يثأر لاخيه ولا اهتم فيصل بالامر، وان لم يكن راضياً عن مسلك عبد العزيزآل محمد امير بريدة عدوه القديم، الذى اكرم فيصل وفادته فى اكثر من مناسبة فاستدعاه فيصل الآن الى الرياض فى شباط سنة ١٨٥٩، وبعد ان واجهه بقائمة اساءاته، اعتقله مع ولديه اللذين رافقاه الى العاصمة، وعين عبد الله بن عبد العزيز بن عدوان من عائلة عليان، حاكماً للمدينة بدلاً منه. الا ان الحاكم الجديد قتل فى شهر ايلول التالى على ايدى بعض الافراد من عشيرته. فالقى فيصل القبض على سلفه وسجنه، لارتيابه بانه له ضلعاً فى المؤامراة.

ومن الغرابة بمكان ان يعود فيصل فيعين محمد بن غانم وهو واحد القتلة، حاكماً جديداً للمدينة. وكانت شائعات احتمال قيام اضطربات فى بريدة، قد شجعت عبد العزيز آل محمد الذى كان فى السجن آنذاك، على أن يعرض خدماته على فيصل لتسوية الأمور وإصلاح ذات البين. فوثق فيه، وقبل عرضه، وأعاده الى منصب الحاكم فى كانون الاول سنة ١٨٥٩ بعد ان الغى تعين ابن غانم.

وفى آذار من نفس السنة، استقر فيصل فى معسكر الربيعى فى رماح فاوفد ابنه عبد الله للإغارة على عشيرة البر يح احد بطون مطير لاقترافها بعض المخالفات. فلحق بها عند دخنة جنوبى

القصيم، وعاملها معاملة قاسية فظيعة. وبعد ان قدمت العشيرة الاعتذارات المعتادة وعرضت ولاءها، سمح لها عبد الله بالرحيل. ثم التقى رجال القبيلة بغزو من قبيلة قحطان قرب آبار شبيكة فكبدوهم خسائر اخرى، منها عدة شخصيات بارزة.

وقد تصرف المنتصرون بدون روية حين قاموا بزيارة لعبد الله، الذي ماكان منه الا ان اظهر سخطه عليهم وسجن اكثر من عشرين من رجالهم. هذا كما استولى على جميع رواحهم وعلى مائة واربعين فرساً، وطلب اليهم دفع دية نقدية كبيرة أعطى جزءاً منها الى عشيرة البريح المنكوبة ديةً للذين قتلوا.

وفي آذار من السنة التالية (١٨٦٠) كان دور العجمان في التعويض لغضب فيصل وسخطه، بسبب حماقتهم في الاغارة على ابل العائلة المالكة في مراعيها. وكان راكان بن هذلين زعيم العجمان انذاك. وهو الذي خلف اباه بعد اعدامه في الهفوف، انتقاماً منه لاغارته على قافلة الحجاج. وكان فيصل قد ثبته في الزعامة بعد أن قدم له راكان جميع التأكيدات والضمانات بعدم تكرار هذه الاعمال الاجرامية من قبل قبيلته، ولكنه الآن لم يف بوعده فسخط عليه فيصل.. وندم راكان على فعل.. وما كان منه الا ان فر الى سبيحية في اقليم الكويت. فاعلن فيصل الجهاد، واسند قيادة قواته الانتامية كالعادة، الى عبد الله..

اجتمع الجيش عند آبار دجاني ومن هناك سار عبد الله الى وفرة، حيث وجد ان قبائل العجمان قد تركت الحذر جانباً فهاجمها وكسرها واستولى على معظم مقتنياتها. ثم لحق بالفارين الى سبيحية

فهاجمهم هجوماً شديداً، وساق الهاربين من وجهه وهم يحاولون اللحاق براكان في معسكره في جهر قرب مدينة الكويت نفسها.

وجمع عبد الله قواته عند ملح القريبة، حيث قرر زعماء العجمان ان يهاجموه بشدة. وحسب الطرق التقليدية المعروفة في الصحراء، كان في مقدمة قواتهم الزاحفة سبعة جمال يحمل الواحد منها امرأة جميلة سافرة متحلية بكل زينتها لتشجيع الرجال على حماية أعراضهم. ونشبت المعركة في الثالث من نيسان سنة ١٨٦٠ .. وكانت حامية الوطيس ابدى الطرفان فيها منتهى الشجاعة والعزيمة الا أن العجمان لم يكونوا اكفاء لجيش عبد الله فدارت عليهم الدائرة وانكسروا شر كسرة ، وهربوا الى الكويت ينشدون النجاة . بينما سار عبد الله الى جهرا لاحتلال معسكر العدو وتوزيع الاسلاب على الفائزين حسب العادة . وقيل: إن خسائر العجمان سبعمائة قتيل.

وكان لانتصار عبد الله كل الوقع الحسن على تخوم العراق وفي الرياض ، لأن تكرار غارات العجمان على الزبير وضواحي البصرة احدث رعبا للسلطات العربية والتركية على السواء . فارسل الى البصرة وامير الزبير ، وفوداً تحمل هدايا قيمة الى عبد الله لتهنئته الصادقة على عمله الباهر .

ثم عاد عبد الله الى الرياض ، حيث استقبل بمظاهر رائعة توازي ما احزره من انتصار .

اما قادة العجمان الذين كسروا ولم يسحقوا ، فقد أخذوا

يتشاورون بأمر المستقبل ، فليس بمقدورهم وحدهم ان يأملوا فى الصمود امام قوات عبد الله المتكتلة . وكان قرارهم أن يتحالفوا مع قبائل المنتفك للقيام بسلسلة متعاقبة من الغارات المستمرة . وفى الخريف من ذلك العام بدأوا بازعاج تخوم البصرة والزبير والكويت. فانتدب حبيب باشا ، والى البصرة امير الزبير لحشد قواته والرد على عملياتهم الحربية . وقام الوالى بتزويد تلك القوات الكبيرة بالمال والسلاح والذخيرة والمؤن اللازمة ، وتجنيدها وارسالها الى الميدان .

كانت اول خطوة قام بها العجمان وحلفاؤهم ، أن اغاروا على مزارع نخيل شط العرب ، واستولوا على محصول التمر لاختزانه من اجل حملة طويلة الامد ضد نجد .

فهاجمهم جيش الزبير بمساندة الاتراك والمجندين من قبائل نجد ، وطردهم من مزارع النخيل الى الصحراء ، ثم طاردهم حتى لحق بهم واشتبك معهم وكسرهم مرة اخرى وحينئذ اضطر العجمان الى الانسحاب الى جهرا وكبدة وكو يبده .

اما حبيب باشا ، فأراد الانتقام من قبائل المنتفك الذين كانوا يملكون اراضى واسعة فى ولاية البصرة ، بتهديدهم بمصادرة اراضيهم ومزارع نخيلهم . وكان زعيم المنتفك ناصر بن راشد بن ثامر بن سعدون ، فتملكه الرعب من تهديد الوالى وكتب اليه ملقيا اللوم فى الحوادث السابقة على العجمان ومبرئا ساحة رجال قبلته ، لانهم كانوا مع العجمان فى البحث عن المراعى لماشيتهم فى صحراء نجد ، لا البحث عن الغارات والنهب والسلب . وبعد ان تبادلا

الرسائل فى هذا الموضوع وافق الوالى على الا ينفذ تهديده . ويبدو ان المساعدات الكاملة التى أمل فيها العجمان من قبائل المنتفك كانت مجرد عناصر غير منظمة من القبيلة تنزل معهم بالقرب من جهرا .

ولاشك أن فيصلا قد رسمع بان الثوار وحلفاءهم عازمون على مهاجمة الكويت ونجد نفسها . فأعلن الجهاد مرة اخرى ، وطلب من قوات المدن والاقاليم ان تتجمع عند آبار حفنه فى جهة عرمة ، حيث وافاها هناك فى نهاية اذار سنة ١٨٦١ ليتولى القيادة . ومن ثم زحف عن طريق وفرة ، حيث انضمت اليه مطير وبنى حجير . واتجه الى جهرا حيث قام بهجوم قوى على الحلفاء عند الفجر .

ومرة اخرى انهزم العجمان شر هزيمة فطاردتهم القوات المنتصرة ودفعت بهم الى موج البحر المنخفض المد آنذاك فغرقوا عند ارتقاعه . وقد نشبت هذه المعركة فى شهر رمضان مثل معركة وفرة ، وبعدها بسنة واحدة تقريبا . وكانت الغنائم التى استولى عليها المنتصرون كبيرة جدا . وقد شكر اهل الزبير لعبد الله صنيعه هذا ، وكانوا راضين كل الرضا عن النتيجة ، فقدموا اليه الهدايا الثمينة تقديرا منهم لنصره على الاعداء.

وصادف ان رافقه فى هذه الحملة اخوه محمد ، الذى استحق الاعجاب والتقدير لأشتباكة مع حمدى Hamdi بن سكيان زعيم مطير المشهور ، وقتله اياه ، اثناء إغارة عبد الله على عناصر من القبيلة كانت مخيمة عند منسف Manslf ، بالقرب من زلفى.

وكانت هذه الغارة ، مقدمة لزحفه على القصيم ، حيث عسكر عبد الله عند روضة رباعية فاحدث وصوله رعبا في قلب عبد العزيز آل محمد ، حاكم بريدة . وكان هذا غير مطمئن على نفسه فهرب في الحال الى عنيزة مع ثلاثة من اولاده وجماعة صغيرة من خدمه واتباعه ، ومن ثم واصل هربه الى مكة ، اذ لم يجد تشجيعا في عنيزة .

ولدى سماع عبد الله بهذه الحادثة ، ارسل قواته في الحال، بقيادة اخيه محمد لمطاردة الهاربين . فلحق بهم عند ابار الشكيكة Shu-kaiyika وذبح الجند عبد العزيز وابناءه الثلاثة ، واخذ ابناء عمه، وخادمين من خدامه . الا انهم سمحوا لبقية الجماعة ان تمضي بسلام.

ثم سار عبد الله الى بريدة لتنصيب حاكم عليها .، فوقع اختياره على عبد الرحمن بن ابراهيم من منفوحة ، وكان هذا قد قاد حملة على القصيم بعد طرد حلوى سنة ١٨٥٤ وامره بان يشرف بنفسه على تدمير منازل عبد العزيز وابنائه .

ويوم سمح عبد الله لعبد العزيز آل محمد بان يستعيد منصبه كحاكم لبريدة ، كان هنالك ولد من اولاده اسمه عبد الله ، معتقلا في الرياض كرهينة . وكان هذا الابن قد رافق عبد الله في حملته على العجمان فهو معه الان في رباعية عند قتل والده واخوته الثلاثة : فبقي مع الجيش وعاد معه ، الى الرياض ، غير انه انسل وهرب قبل وصوله مشارف المدينة فطورد في الصحراء وسجن في القطيف حتى توفي هناك .

وهكذا تم القضاء على بطن مشبوه من بطون عائلة قديمة مشهورة لاقى افرادها حسن المعاملة والاحترام من لدن سيدهم الذى لم يتورعوا عن خيانته مرارا وتكرارا .

وقام طلال بن رشيد ، الذى لم يشترك فى الحملة على العجمان بزيارة لعبد الله فى بريدة جالبا من بعض القوات للانضمام الى جيشه فيما اذا دعت الاحوال فى القصيم وكان اذلال عدوه الالد فى بريدة ، مصدر سرور له ، فقد كان ولاء اقليمة لحكومته المركزية يختلف اختلالفا كليا عن قوة الخيانات الدائمة فى القصيم فما كادت سنة ١٨٦١ تنتهى حتى اصبح مركز القلاقل فى الجزيرة العربية يتمخض عن اضطربات جديدة .

كان موت احمد السديرى فى مطلع هذه السنة خسارة مفجعة ليفصل الشيخ المهدم .، فعين مكان السديرى ابنه محمدا بصورة مؤقتة وكان ذا خبرة سابقة بالاقليم . غير أن الأحداث الجسام التى ستأتى على ذكرها فى القصيم جعلت من الضرورة تعيينه اميرا فى بريدة . ولكنه لم يعين هناك الا فى اواخر سنة ,١٨٦٣ وبناء على الحاح اهل الاحساء وافق فيصل بان يعود محمد الى ذلك الاقليم اميرا اصيلا .

وفى الاثناء (فى شباط سنة ١٨٦٢) ولسبب لم يعرف ، ثار اهل عنيزة وبرما كانت ثورتهم هذه بسبب سياسة عبد الرحمن بن إبراهيم الذى عين مؤخرا حاكما لبريدة . وكان رد فيصل السريع على هذه الثورة ، ان سمح للبدو بان يهاجموا المدينة وينهبوا الاراضى القريبة منها . ثم جهز جيشا قويا لإرساله مع صالح بن

شلهوب الى بريدة لمساعدة عبد الرحمن بن ابراهيم فى عملياته ضد السكان الثائرين وفى نيسان من ذلك العام استولت هذه القوات على جمال العنيزيين واغنامهم فى مراعيها . غير ان اهل عنيزة كالوا للمهاجمين الصاع صاعين ، فقاموا بهجمات كثيرة اضطرت صالحا الى ايقاف الهجوم .

وحوالى هذا الزمن (وفى شهر ايار) ، عاد محمد بن غانم احد قتلة عبد الرحمن بن عدوان وخلفه فى امارة بريدة لمدة وجيزة الى القصيم وكان ابن غانم هذا قد اختار النفى فى المدينة المنورة حيث كان منفيا اثناء وجود ابن ابراهيم فى منصبه وبما انه من عائلة عليان ، ومطالب بمنصب حاكم بريدة ، فقد انضم الى الثوار فى عنيزة وشجعهم على مهاجمة المدينة المنافسة . وقد نجحت الحملة فى الدخول الى المدينة تحت جنح الظلام الا انها أخفقت فى تشق أن طريقها الى القلعة التى تمكركز فيها ابن ابراهيم وجنود صالح بن شلهوب ، كما فشلت فى الوصول الى المنازل المحصنة التى كانت تملكها عائلة « ابو الخيل » المنافسة اما سكان بريدة فخرجوا الى الشوارع وطردوا الغزاة وكبدوهم خسائر فادحة .

وارسل فيصل فى ذلك الحين امدادات قوية الى بريدة لتساعد فى استمرار الضغط على عنيزة . الا أن اهل عنيزة هم الذين اخذوا بزمام المبادرة فى الهجوم فهزموا المدافعين فى اراضيهم بالقرب من رواق . وكانت خسارة جيش فيصل زهاء العشرين قتيلا ، منهم عبد الله بن عبد العزيز قائد الامدادات التى وصلت مؤخرا . وقد غضب فيصل من فشل ابن ابراهيم المستمر فى اخضاع الثوار ، فاستدعاه

بصـورة مـذلـة ، وامـر بمصـادرة امـلاكـه فى بريدة وابقى صـالح بن شلهوب قائداً للحامية فيها .

وبعد فترة الراحة والاستجمام فى الصيف ، وعدم قيام اى من الطرفين باى نشاط حربى يذكر ، قرر فيصل اتخاذ اجراءات اكثر شدة وعنفا ففى الخريف عبأ جيشه مرة اخرى وارسله بقيادة ابنه محمد ، الى القصيم ، وهناك انضمت اليه قوات السدير والوشم ، بالاضافة الى جيش حايل الكبير تحت امرة عبيد بن رشيد وابن اخيه محمد بن عبد الله ، الذى كتب له ان يكون الشخصية البارزة فى الجزيرة العربية .

ولقد احتشد هذا الجش القوى عند بريده .. ومن هناك انطلق الى مدينة الاعد[1] ، الى عنيزة واشتبك مع طليعة جيش العدو فى ممر وادى ريما الذى كان يشكل الحد الفاصل بين المدينتين المتنازعتين . فانكسر الثوار وتكبدوا بعض الخسائر . وخيم محمد فى الوادى ، كى يشرف بنفسه على عمليات تقطع خيل العدو فانبرت فرقة معادية لمنع ذلك .. ونشبت معركة ضارية فى العاشر من كانون الاول اندحر فيها جيش محمد وهرب الى مخيماته فى الجسر . غير ان تهطال الامطار الغزيرة حال دون نقل المعركة الى هناك . وكان الدور لقوات محمد ان يقوم بهجوم معاكس على اهل عنيزة فقتلت منه قرابة الاربعمائه قتيل ، ولاذ الباقون باذيال الفرار .

واستمر تقطيع الاشجار .. واصبح الثوار محاصرين فى مدينتهم ثم جاءت امدادات جديدة تستحق الثناء ، فقد وصل طلال بن رشيد شخصيا على رأس بقية جيش حايل . كما ارسل فيصل ابنه عبد

الله (فى كانون الثانى من سنة ١٨٦٣) واصبحت عنيزة الان مطوقة تطويقا تاما ، وتعرضت لقصف شديد من المدفعية استمر ليل نهار .. حتى اضطر سكان المدينة الى طلب الصلح .

وكان قد سبق لفيصل ان اصدر تعليماته لعبد الله بقبول اى عرض للاستسلام بشرط واحد : هو وجوب ذهاب الامير المعتدى ، عبد الله بن يحيى الى الرياض لتأدية فروض الطاعة والولاء فتوصل الفريقان لعقد الصلح على هذا الاساس .

وقد عفا فيصل عن الامير الثائر بمجرد وصوله الى الرياض ، وطلبه العفو والمغفرة وسمح له بالرجوع الى بلادةه . وارسل محمدا السديرى الى بريدة وعينه اميرا على الاقليم كله . وبعد مدة وجيزة ، استدعى السديرى كما ذكرنا انفا واعيد تعيينه حاكما على الاحساء . بينما آلت امارة بريدة الى سليمان الرشيد ، وهو من عائلة عليان . وكان هذا التعيين يعنى ازدياد حدة التوتر فى المدينة . فعزله فيصل بعد حين وعين بدلا منه مهنًا ال صالح من عائلة (ابا الخيل) المنافسة لعائلة عليان .

وفى خلال سنة ١٨٦٣ توفى فى مصر نائب السلطان سعيد باشا وخلفه اسماعيل باشا ، وهو ابن اخر من ابناء محمد على باشا . وفى اثناء حكم اسماعيل تم فتح قناة السويس ، واحداث اخرى اقل حظا من ذلك العمل الباهر ، جعلت الفرص مواتية ، وفتحت لاحتلال الاجنبى للبلاد ، وقد توفى فى هذا الزمن تقريبا الشيخ تركى بن حميد ، احد زعماء عتيبة البارزين ، وفى خريف سنة ١٨٦٤ كان عبد الله فى طريقة للحرب فى اقليم الاحساء ، حيث صادف حشدا

من العجمان فهزمهم وألحق بهم بعض الخسائر . ويبدو ان السلام قد ساد ارجاء الجزيرة العربية بعد ذلك .

وفى غضون هذه السنة توفى الشيخ عبد الله ابو بطين المشهور فى شقرا ، موطنه الثانى ، وله من العمر خمس وثمانون سنة . فقد ولد هذا الشيخ فى روضة السدير فى تشرين الثانى من ١٧٧٩ . وكان اول منصب شغله هو منصب القضاء فى الطائف . اذ عينه فيه الامام سعود نفسه سنة ١٨٠٥ بعد احتلاله للحجاز .

الا انه اصبح مجرد مواطن عادى عندما تم طرد جلوى من عنيزة سنة ١٨٥٥ .

فيكون بهذا قد شغل مناصب قضائية رفيعة طيلة نصف قرن كامل .

ومن الغريب ان المؤرخ ابن عيسى لا يذكر شيئا عن الزيارة التى قام بها الكلونيل لويس يلى ، المندوب السامى الانجليزى المشهور فى الخليج الفارسى ، ومن اجل اجراء مباحثات سياسية مع فيصل. واقل من ذلك مدعاة للاستغراب ان يصمت المؤرخ فلا يأتى على ذكر زيارة وليم جيفو رد بلجريف التى قام بها الى العاصمة الوهابية قبل ذلك بسنتين . وكم يكون شائقا لو اننا وقفنا على انطباعات الوهابيين المعاصرين .

آنذاك حول هذه الزيارات التى كانت اشبه ما تكون بقصص خياليه وعلى كل فأولى هاتين الزيارتين ادت الى توقيع اتفاقية عربية انجليزية بقصص خيالية . وعلى كل فأولى هاتين الزيارتين

ادت الى توقيع اتفاقية عربية انجليزية لم يعثر على نصوصها فى سجلات الرياض . غير أن الكولونيل پللى ترك لناتفصيلات رائعة حقا وقيمة للغاية عن النشاط والجو السائدين فى البلاط الوهابى آنذاك ، اى فى العام الاخير من حكم الامام فيصل فقد اناط فيصل (لسنوات عدة خلت) تصريف شؤون البلاد وادارة العمليات الحربية الكثيرة على الخصوص ، الى ابنه عبد الله بالاشتراك مع اخيه الثانى ، محمد . الا انه كان يحتفظ لنفسه بالسلطة العليا فى الدولة .

ويبدو انه لم يفكر يوما من الايام فى التنازل عن العرش . ومع هذا ، كان واضحا انه بدأ يفقد شيئاً من حيوته ونشاطه مع كر الايام . وتوفى فى الثانى من شهر كانون الاول سنة ١٨٦٥ ، بعد ان مارس الحكم واحدا وثلاثين عاما ، تخللتها فترة خمس سنوات قضاها اسيرا فى مصر .

الفصل الثامن

عبد الله الثانى وسعود الثالث ابنا سعود

كان لوفاة الإمام فيصل فى كانون الأول سنة ١٨٦٥ ، أعظم الأثر فى التعجيل بعهد من الفتن والمنازعات، بلغت أوجها فى زوال البيت السعودى المالك وكسوف شمسه كسوفاً كلياً، فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر. فقد كان واضحاً تماماً منذ الزيارة التى قام بها الكولونيل لويس بلى - المندوب السامى البريطانى فى الخليج الفارسى، إلى الرياض فى شهر اذار، من سنة ١٨٦٥ - أن صحة الإمام فيصل فى تدهور. وفى حزيران من نفس السنة عين ابنه عبد الله وارثاً للعرش بشكل رسمى، وبصفته هذه أخذ عبد الله على عاتقه تسيير دفة الحكم فى الدولة .

وقد سبق لعبد الله هذا أنه كان ساعد والده الأيمن قرابة العشرين عاماً فى مجالس الشورى وفى الحرب. فى حين لم يترك سعود ، أخوه الأصغر، أى أثر فى نفوس مؤرخى هذه الحقبة إلا بعد وفاة والده. إذ طفق يبدى شيئاً من الحسد والعداوة نحو أخيه : فأناة عبد الله وفضائله الراسخة لم تكن لتقارن بكياسة أخيه المطالب بالعرش ولا ظرفه الذى لا يعرف الحدود. وكان من اجراء هذا التناحر بين الأخوين أن تسببا فى إنهيار بيتها ودماره .

وكا أول عمل قام به عبد الله بعد نسلمه العرش أن شيد لنفسه قصراً ذا حصون وقلاع أسماه المسماك فى الجهة الشمالية الشرقية

من قلعة ترك الأصلية التى قنع فيصل باتخاذها مقراً له،ثم وسعها وفقاً لمقتضيات حاجته وظروفه حتى قُدّر له أن يعيد للحركة الوهابية سؤددها ومجدها حينذاك. وهى نفس القلعة التى أزال آثارها العهد الحاضر، ليقوم مكانها قصر حديث يفى بمتطلبات العصر الحديث .

وخرج عبد الله فى الربيع للإغاره على قبيلة الظافر عند الحدود العراقية، إلا أنه لم يتوصل إلى نتيجة تذكر فيما عدا استيلائه على بعض الجمال والأغنام. وسرعان ما وّجه انظاره إلى أمور أشد خطورة من غزو قبيلة قصيَّة الديار. إذ يبدو أن سعوداً رأى من الأوفق له أن يظل بعيداً عن متناول يدى أخيه، فنرح إلى إقليم عسير الجبلى الوعر . وهناك طلب إلى أمير المنطقة واسمه محمد بن عايض أن يساعده فى مطالبته بالعرش .

وتدبر عبد الله أمره .. ثم قرر أن يرسل وفداً إلى أبها، يحذر حاكمها من أن تداعب الثورة خياله، ويطلب إلى سعوده العودة إلى الرياض، وهو فى مأمن على حياته .

أما سعود فلم يجب وفد عبد الله إلى طلبه، بل رفض العودة. ولما أدرك أن لاأمل فى إغراء أمير عسير على الانتقاض، قصد مكرم زعيم نجران. وهناك كان حظه فى النجاح أفضل، وكان لعلائق المصاهرة والزواج التى تربط بينه وبين قبيلة العجمان النازلة فى الإحساء، عن طريق والدته، أثرها فى التقدير والحفاوة التى لقيها، وسرعان ما وجد نفسه على رأس جيش قوى من البدو يسوقه صوب سليَسّل فى وادى الدواسر. إذ كان قد وعده زعمها بالمساعدة .

وهكذا تهيأ المسرح .. وبقى على كل من الأخرون أن يبادر إلى اختيار قوته فيضعها فى كفة الميزان، فسارع عبد الله إلى إرسال أخيه محمد إلى الجنوب على رأس جيش قوى جنّده من حضر نجد وقبائلها. وكانت حواضر وادى الدواسر المهمة قد ظلت على ولائها له .. وكان سعود هو البادئ فى الهجوم، فالتحم الجيشان فى معتلى، إحدى قرى الدواسر، وتكبد الجانبان خسائر فادحة فى الأرواح، إلا أن النصر كان حليف الموالين للملك؛، حتى أن سعوداً فرّ من ميدان المعركة وهو يعانى آلام جراح بليغه فى أماكن عديدة من جسمه .

وما إن اندملت جراحه أثناء إقامته فى الصحراء بين أفراد قبيلة مرّة، حتى ارتحل إلى البريمى وتخوم عمان واستقر هناك ضيفاً على تركى السديرى، الحاكم الوهابى للمنطقة، وكان هذا فى أواخر سنة ١٨٦٦ .

وبعد أربعة أعوام من ذلك التاريخ استطاع سعود أن يعكر صفو أخيه من جديد. وفى هذه الأثناء قُتل تركى السديرى فى الشارقة وهو يحاول تجنيد قوة لمساعدة سالم بن ثوينى، سلطان مسقط، الذى خلع من العرش .

أما أهل البريمى الذين لم تطلب لهم أساليب تركى الإدارية الصارمة، فقد دعوا الغاصب الجديد عزّان بن قيس من مسقط وعمان لأن يحتل الواحة، وسواء كان هذا التغيير فى الحكم أثر فى خطط سعود أم لم يكن، فقد قام فى السنة التالية بزيارة للبحرين، حيث ضمن مساعدة حكامها من آل خليفة، ثم قام بهجوم عقيم على

قَطَر، شلتّه المقاومة الضارية التى أبدتها حامية كانت متمركزة هناك وتابعة لأخيه عبد الله .

ثم عاد سعود إلى البحرين وشمر عن ساعدية للقيام بمجازفة أكبر وأشد خطورة فى الخريف القادم، فبعد رسائل عدة تبادلها مع العجمان، نزل فى عقير وزحف على واحه الحسا. وقد احتل سعود جميع القرى ومزارع النخيل المنعزلة ونهبها ، وخرج قائد القوات الموالية لذلك لمقابلة جيش سعود فى قناة الوجأج بناء على نصيحة شيوخ قبيلة العجمان الموالية لعبد الله فى الظاهر .

لكن هؤلاء الشيوخ ورجالهم تخلوا عن قوات عبدالله وهاجموها ، فاندحر جيش الملك وانهزم هزيمة نكراء، إلا أن الهفوف؛ العاصمة، قاومت الحصار مقاومة ضارية طيلة أربعين عاماً .

وكان عبد الله فى الرياض يحشد قواته على أمل أن تصمد المدينة حتى يصلها المدد. وانفصلت رواحل الجند .. إلا أن سعوداً قرر أن يواجهها فى الصحراء فاحتل آبار جودا المهمة، قبل أن يصل إليها جيش الرياض الذى كان بقيادة أخيه محمد. ونشبت معركة فى الأول من كانون الأول سنة ١٨٧٠م ، وأبدى فيها الجانبان استماتة فى القتال، وأزهقت أرواح كثيرة. إلا أن النصر كان حليف جيوش سعود .

وقد أخذ سعود أخاه محمداً أسيراً فحبسه فى قلعة القطيف، وبعد ذلكم استسلمت الاحساء دون كبير عناء، وأصبح سعود سيد الجزء الشرقى من الجزيرة العربية فسيطر على جميع طرق تموين الرياض نفسها .

وفى الوقت الذى كان فيه سعود منفياً بملء اختياره فى واحة البريمى (كما أسلفنا)حدثت هنا لك تطورات كثيرة فى نجد، وكان أول ما قام به عبد الله بعد معركة معتلى أن حاول تأديب الذين ساعدوا أخاه فى الثورة، فأرسل عمه عبد الله بن تركى إلى الإحساء ليؤدب العجمان، فطرد عبد الله حاكم الاقليم، محمداً السديرى (شقيق تركى الأكبر حاكم البريمى)، من منصبه وعين مكانه ناصر بن جبر الخالدى، وسرعان ما أرسل الملك بعد ذلك حملة كبيرة كاسحة إلى وادى الدواسر ليعاقب العناصر الخائنة فى الواحة وبين البدو، ثم لحق بها فتسلم قيادتها بنفسه وظل فى الأقاليم المجاورة ازاء الشهرين ليرسخ سلطانه فى البلاد، ولدى عودته إلى عاصمته، إسترعى انتباهه الأحداث في جبل شمر، وكان هذا الإقليم مستقلاً فعلاً إلا أنه خاضع للعائلة السعودية المالكة إسمياً .

أما أحداث شمر فذات شجون .. ففى سنة١٨٦٦ أصيب الأمير طلال بن عبد الله بمس فى عقله فانتحر وخلفه فى المنصب شقيقه متعب. إلا أن هذا قتل بدوره بعد عامين من إمرته فى حايل، على يد ابناء سلفه، فآلت الإمارة إلى بَنْدرَ بن طلال، وفى هذا الوقت بالذات صدف أن كان محمد بن عبد الله شقيق طلال متغيباً فى زيارة للإمام عبد الله فى الرياض، فرأى من الحكمة أن يبقى حيث هو فترة وجيزة من الوقت، ليراقب أثناءها تطورات الوضع فى حايل. وفى السنة التالية قام بندر نفسه بزيارة إلى الرياض كى يقدم احترامه للإمام وليُقنع عمه بالعودة معه إلى بلاده متعهداً له بأن يلقى كل معاملة كريمة هناك .

وهكذا بدا أن بيت آل رشيد على عتبه مأساة مريعة قُدّر لها أن تعجل فى مجئ أبرز آل رشيد طراً، واحداً أفذاذ الرجال المشاهير فى تاريخ الجزيرة العربية .

يتوقف المؤرخ النجدى عند هذه النقطة (١٨٦٩) ليدوّن بداية أعمال الحفر فى قناة السويس، والتى تمت حسب قوله سنة ١٨٧٤، فيقول : « ان الحكومة الفرنسية والإنجليزية والخديوى إسماعيل باشا هم الذين أسسوا المشروع وأنجزوه وبعد أن فرغوا من مهمات الحفر انثنوا ليفرضوا الرسوم على البواخر المارة فى القناة حسب حمولتها، أما من ناحية حفر القناة ليتم التقاء البحرين، فقد كان هارون الرشيد يريد أن يقوم به منذ زمن طويل لتسهيل عملياته الحربية ضد البيزنطيين، إلا أن يحيى البرمكى نصحه بألا يفعل ذلك خوفاً من أن يطرد الفرنجة المسلمين من حرم مكة، ولذا امتنع هارون عن القيام بالمشروع» إذن كانت سياسية الدول العظمى فى القرن العشرين أشد دهاءً من مثيلتها فى السابق .

ولنعد الآن إلى الملك فى الرياض ....

كان رد فعل هزيمة جودا مريعاً بالنسبة لعبد الله ولبلاده بالدرجة الأولى. فقد كان يتوقع هجوماً صاعقاً يقوم به سعود على العاصمة، ولهذاسارع إلى الهرب منها قاصداً الإلتجاء فى حايل، وفى أثناء مسيرته إلى هناك أرسل وفداً إلى باشاوات البصرة وبغداد يطلب إليهم المساعدة الملحة لمواجهة ثورة أخيه وكان من حسن حظه أن زاره آنئذ زعيم قبيلة قحطان محمد بن هادى بن قرملة .

وكان محمد هذا قد قام بزيارة سعود إلا أنه اعتبر البرود الذى استقبله به مهيناً لكرامته. فتشبث عبد الله بعرض مساعدته وأستقتل، وغير رأيه وعاد إلى الرياض فى الوقت المناسب ليثبط همة سعود عن مهاجمة المدينة .

وعقب ذلك هدوءٌ قصير الأمد، انتشرت فيه الجماعة التى قدّر لها أن تمتد لأكثر من سنتين عمتهما فظائع الفوضى الضارية أطنابها .وكان الجائعون يلتهمون حتى جثث الحمير الميتة حين يجدونها .. ويموتون إن لم يفعلوا ..

وفى نيسان سنة ١٨٧١ زحف سعود على الرياض، فهرب عبد الله من هناك مرة أخرى إلى بلاد قحطان فى الجنوب، وكان قد أرسل قوة كبيرة بمؤنها ومدافعها وذخيرتها لتقابله فى مكان معين فى الطريق، غير أن سعوداً التقاها فوقعت غنيمةً باردةً فى يده بعد قتال شديد فى جِزْع على مرأى من العاصمة تقريباً .

وبعدئذ دخل سعود الرياض دون أية مقاومة، فأعمل فيها يد النهب والسلب، وكذلك جرى فى القرى المجاورة، وأصبح سعود الآن هو الحاكم الفعلى فى نجد بدلاً من أخيه الهارب، خصوصاً حين لبى زعماء المدن والقبائل دعوته فى الحضور لتأدية اليمين على الطاعة والولاء لنظامه الجديد .

وفى حزيران كان سعود متأهباً على رأس جيش كبير من البدو والحضر، لمطاردة عبد الله وحلفائه من قبيلة قحطان ، الذين نزلوا عند آبار أنجل، ثم انتقلوا لى واحة برّة، بعد أن مربها سعود فى

طريقه لإحتلال اقليم الوشم، ونُمى الخبر إلى سعود ، فعهد إلى عمه عبد الله بن تركى لحمايه شقرا وكر راجعاً لمقابلة العدو فى برةْ فكسر عبد اله شركسرة وهرب مع حلفائه إلى الرويضة فى منطقة العارض ومن هناك، توجه إلى الإحساء، لينضم إلى الحملة التركية، التى كانت قد انطلقت من البصرة فى حزيران، ووصلت إلى الهفوف عن طريق القطيف، حيث أطلق قائدها فاروق باشا ، محمداً بن فيصل من السجن، وفى القطيف طرد الأتراك الوالى الذى عينّة سعود وأعلنوا أنهم جاؤوا بطلب من عبد الله لمساعدته ضد أخيه المتمرد. وقد جاءوا فى الواقع، ليبقوا فى البلاد ، وكان عبد الله أسيرهم، وإن كان يلقى على أيديهم التجلة والإحترام .

كان مقدم الأتراك بلا ريب السبب فى عودة سعود إلى الرياض بعد معركة برةٌ.ولم يكن أهلها قدنسوا المعاملة الفظية التى كانوا يلقونها على يديه، قبل بضعة أشهر، فشجعهم وجود أتراك على مقربة منهم على أن يثوروا على ملكهم الجديد حالما صرف جنده الذين رافقوه إلى بره. فحاصره المواطنون فى القلعة بضعة أيام، إلى أن قبل إنذارهم النهائى بمغادرة الرياض مع أتباعه .

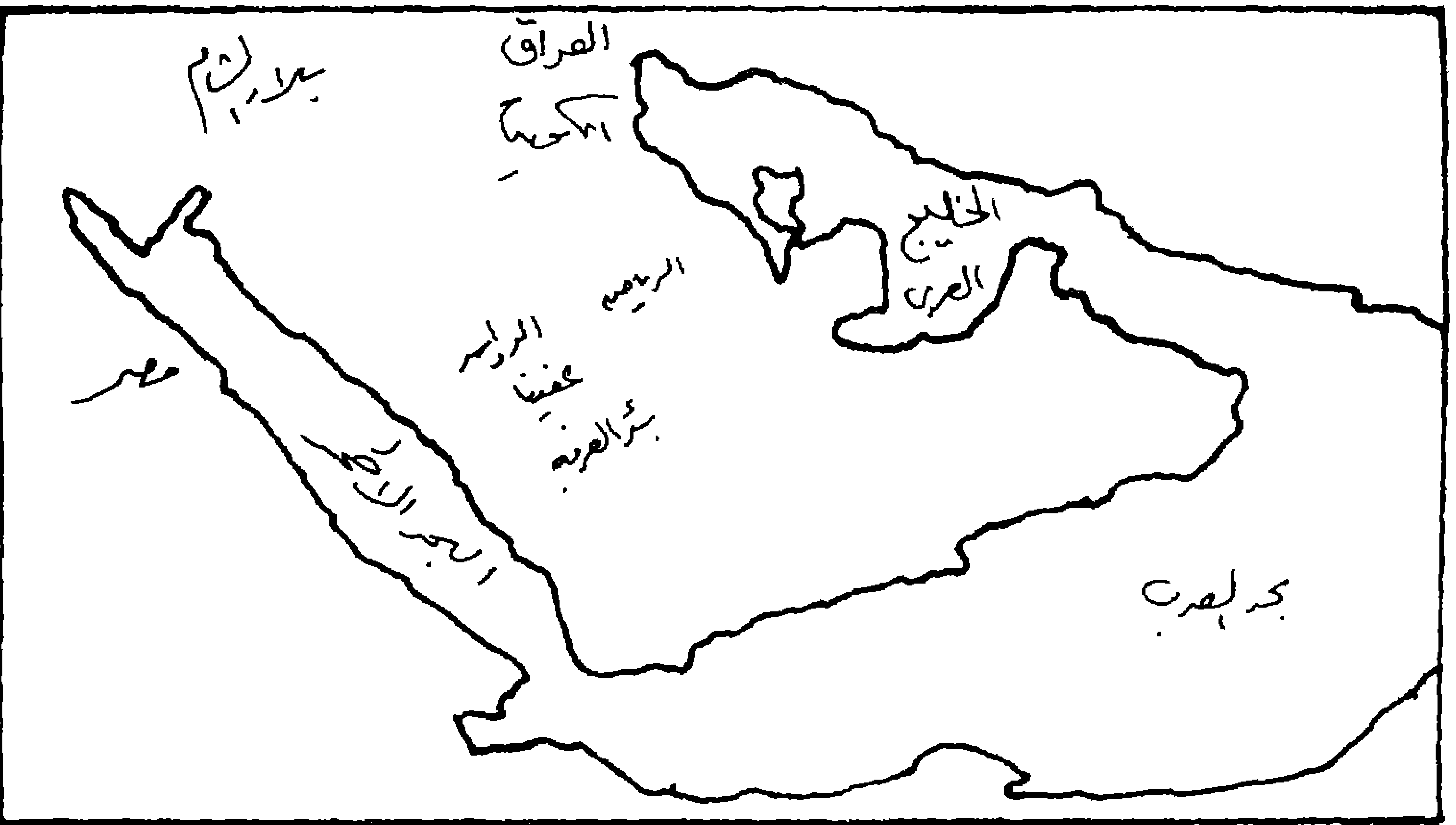
وقد خرج سعود من القلعة ذليلاً، فتوجه إلى دلم حاضرة إقليم الخرج، بينما سيطر عمه عبد الله بن تركى على الرياض، وما كان سعود ليظل عاطلاً عن العمل، فها هو يصل أصدقاءه من القبائل فى الإحساء ويأخذ فى الإغارة على القرى المنعزلة ومزارع النخيل، وقد هاجمه الأتراك حين علموا بأفعاله وهزموه شر هزيمة فى معركة خُويرة، وكان عبد الله نفسه حاضراً فى هذه المعركة ..

وأخذت الشكوك في نوايا الأتراك تساور عبد الله .. إذ وصلت إلى عقير أمدادات كبيرة جداً لجيش الإحساء، كما أخبره ضابط تركي بوجود مؤامرة للقبض عليه، وطرده من البلاد مع بعض أفراد عائلته، كي تخلو الطريق لاعاده الإحساء إلى الأمبراطورية العثمانية، وكان هذا يتفق مع سياسة مدحت باشا الصريحة في العالم العربي، ومن المؤكد أن المؤرخ النجدى لا يحالفه التوفيق حين يذكر أن مدحت باشا قد جاء بنفسه على رأس أمدادات كبيرة لتحقيق مآربة، فالواقع أنه لم يفعل ..

ومهما يكن من أمر، فقد وجد عبد الله نفسه واقعا في شرك يصعب عليه. الخلاص منه، غير انه وابنه واخاه تمكنوا من الفرار رغم الحراسة، بواسطة حيلة بارعة أثناء فسحة الظهيرة . وقد وصلوا الليل بالنهار في سيرهم. سالكين دروبا ومسارب غير مطروقة، حتى وصلوا الى الرياض نفسها، وسط هتاف الشعب وتهليله .

وها هو يعود الآن ولم يمر على فراره من العاصمة بعد معركة جودا سنة واحدة دارت فيها الدوائر على اخيه، بفضل سلسلة من الظروف التي لم يعمل لها ولم تكن له يد فيها .. هاهو عبد الله يعود بعد ان قامر بأهم اقاليم دولته فخسره.

ومرة أخرى وجد سعود نفسه شريداً ناشطا في اثارة الاقاليم الجنوبية ، عله يحظى بالمساعدة من أهلها . فانضمت اليه الدواسر والافلاج بأعداد كبيرة. واخذ عبد الله يفكر في منع زحف من جانبه على الرياض ، فارسل اخاه محمداً وعمه عبد الله بن تركي على رأس قوة كبيرة لاحتلال دلم. لكن سعوداً بادر الى محاصرة المدينة،



معركة الخليج الثانية

فاستسلمت له بسبب خيانة أهلها الذين أنهكهم الضيق والحرمان ، وتمكن محمد من الهرب .

أما عبد الله بن تركى فقد أخذ أسيراً وتوفى فى إحدى زنزانات سجن دلِمَ بعد بضعة أيام من أسْرة .

لم يكن هنالك انسجام بين عبد الله وبين سعود ، إلا أنه فيما يبدو كان العامل الوحيد ذا النفوذ فى غضون سنوات الفوضى التى تلت وفاة فيصل .

جرت هذه الأحداث فى كانون الثان سنة ١٨٧٣ على ما يظهر .

وبعد زهاء الشهرين كان سعود فى طريقه إلى الحرب فأنزلَ بضرمى وحريملة ما تستحقانه من عقاب، ثم سار نحو الرياض نفسها. وقد خرج عبد الله لمقابلته فكان النصر حليف سعود فى معركة الجزْع الثانية، مما جعل عبد الله يهرب مع حرسه باتجاه الكويت ليقضى فترة أخرى من النفى بين قبائل قحطان عند آبار الصبيحيّة، وملَك سعود بدلاً منه فى الرياض حيث تقاطر عليه أعيان الرياض وزعماء المناطق المجاورة ليجددوا له الطاعة والولاء للمرة الثانية .

وقد وجد سعود نجداً كلها مباءة للفوضى والاضطراب، فكان عليه أن يجاهد كثيراً فى سبيل استقرار الأوضاع القلقة التى ما كان أسهل على أى عدو أن يعكر صفوها فتنقلب على سعود .

ولا بد أنه أدرك خطورة الأحداث التى جرت فى حايل فى أواخر

عـام ١٨٧٢ عندمـا قـام مـحـمـد بن رشـيـد فـثـأر مـن قـاتل أخـيـه، وتفـصـيل ذلك أن بـندر بن طلال، وفـا ءاً منه لعـهـد عـلى نفـسـه فى الرياض، قد عـين محـمـداً فى منصب المشرف على قوافل الحجاج بين العراق ومكة، وكان هذه المنصب مهـماً ومربحـاً، وقد حدث بينمـا كان مـحـمـد عـائداً من الحدود العراقـيـة بعـد أن سلم مـا كـان بعـهـدته إلى السلطات التـركـيـة أن خرج بندر بنفـسـه مع أمـراء العـائلة الحـاكـمـة لمقابلته، وسخط بندر وأرعبة العـدد الكبـيرمن رجال قـبائل الظافـر الذين كانوا يواكبون محمداً .

وقد ساد الاجتماع الذى يتم بين العم وابن أخيه شئ من الفتور، فلم يطمئن أى منهـمـا للآخر .. وهاهمـا الآن يتـواجـهـان. كـان زمـام المبادرة فى يد محمد فحمل عليه وقتله بسيفه محافظاً بقدر إمكانه على قواعـد الفروسية العـربية: لقد قُتل القـاتل بيد الشخص الوحيد الذى يحق له أن يثأر للضحية، وكان لبندر خمسة أخوة، فتم البحث عنهم وقتلوا جميعهم، عدا طفـل اسمه نايف، فـقد أبقى على حياته مع طفل آخر من ابناء بندر من أرملة متعب التى تزوجها بندر بعد أن قتل زوجها .

وكان هذا الطفل، وأسمـه عبـد العزيز بن مـتـعب هو الذى خلف مـحـمـداً فى الإمـارة إذ ظلّ مـحـمـد عـقـيـمـا ، هكذا زالت اللعنة التى حلّت بعـائلة رشـيـد لانتـحـار طلال ولكن بإقـصـاء جـمـيع ابنـائه عن الحكم.

لقد قـيـل لشـارلزدوتى أثناء سياحـتـه بعـد ذلك ببـضع سنوات: صـحيح أن محـمـداً قد اقترف جرائم لم يـسبق لهـا مثيـل فى العـالم،

ولكنه حكم بشده وحزم لم تعرفهما الدولة من قبل، ولقد بررت هذه الحادثة التقدير المبكر لمزاياه ومواهبه، إذ كان مقدّراً لحايل أن تصبح حاضرة لا مبراطورية عربية فترة من الزمن .

وفى حزيران من سنة ١٨٧٣ كان سعود فى طريقه إلى الحرب يبحث عن قبيلة عتيبة فى مرتفعات نجد، فوجدهم نازلين عند آبار طلال، وكانت المعركة بادئ الأمر فى صالحه، إلا أن رجال القبائل لمُواشعثهم وتلقوا إمدادات كثيرة، فدارت الدائرة على سعود، وتكبد خسائر فادحة فى الأرواح والأموال. وقد استعاد أنفاسه فى الخريف من ذلك العام، فعاد إلى أراضى عتيبه حينذاك، إلا أن المؤرخين لا يذكرون شيئاً عن نشاطه هناك .

وفى هذه الأثناء بدأ الاضطراب يذرُ قَرنْه فى الإحساء حيث وصل إليها عبد الرحمن بن فيصل الأصغر، قادماً من بغداد فى تشرين الأولى سنة ١٨٧٤. ويجوز أنه قصد الأتراك كمندوب عن عبد الله بعد هربه للمرة الثانية من الرياض الى الكويت، إلا أن هذه الحقيقة ليست مذكورة فى كتب المؤرخين .

ومهما يكن فإن عودته كانت ذات أثر فى إحداث ثورة عامة ضد الحامية التركية فى الهفوف، حيث قتل حرس الأبواب واستولى عنوة عل حصن خزام الجديد .

غير أن القوة التركية الرئيسية تحصنَّت فى (قلعة)الكوت وصمدت للمحارصرين ثم وصلتها من العراق قوة مؤلفة من الجنود النظاميين والبدو، بقيادة زعيم المنتفك ناصر السعدون الذى كان

يتولى منصب حاكم الإقليم آنذاك، فخرج عبد الرحمن لمحاربتهم .. وكسروه شر كسره، فتعرضت الهفوف لموجة معربدة من النهب والسلب والتقتيل، أما العناصر الشيعية فى المدينة فلم يلحق لها أذى، إذ هاجم الأتراك والبدو كلٌ من اشتبهوا أن له علاقة بالوهابيين.

وكان ذلك انتقاماً منهم للأتراك الذين لاقوا حتفهم من قبل .

وقد قُتل فى تلك الأيام عدد كبير من الناس. أما الغنائم فكانت هائلة لا يمكن إحصاؤها، وقد نجا زعماء المدينة وأعيانها بفرارهم إلى البحرين بعد المعركة بساعات، بينما هرب عبد الرحمن وأتباعه إلى الرياض، فوصلوا إليها فى الوقت المناسب لاستقبال سعود الذى عاد مريضاً بعد غارة قام بها على جوار حريملة وكان ذلك قبل وفاته فى السادس والعشرين من كانون الثانى سنة ١٨٧٥ .

وهكذا إنتهت مرحلة مؤسيةٌ مضطربةٌ فى تاريخ العائلة المالكة السعودية هذا مع العلم بأنه قد قُدِّر لابناء سعود وآبائهم من بعدهم أن يعانوا البلاء الكثير من جراء الكوارث والمؤامرات التى شهدتها تلك الفترة، لعدة سنوات .

وأستولى عبد الرحمن على الحكم فى العاصمة، باسم عبد الله الذى كان غائباً مع أخيه محمد فى جهات الكويت، وكان عبد الله قد أرسل محمداً للإستيلاء على إقليم الوشم فأمضى محمد هناك بضعة أيام أقرّ فيها الأوضاع فى شقرا، ثم توجه إلى ثرمدة ويبدو أنه أسئ فهم هذ التحركات فى الرياض، لذا سارع عبد الرحمن ومعه

سـعـود ، وخـرج من الرياض على رأس قـوة من الأهلين والبـدو، فحاصروا محمداً وحلفاءه في ثرمدة حتى نشب بين الجماعتين قتال خسر فيه الطرفان بعض الأرواح .

وبعدمدة قصيرة تم عقد هدنة بين الطرفين وعادت العلاقات الودية إلى مجراها ، حين وضع محمد نفسه تحت تصرف أخيه الأصغر ، بعد أن سلم إليه أسلحته ورواحله، ومن الممكن في هذه المرحلة أن يكون عبد الرحمن قد بدأ يفكر في (جلب النار إلى فُرصة) العمل لمصلحته ، إذ كانت خطوته التالية هي السير نحو دوادمي، إلا أنه التقى في طريقه بزعماء عتيبه الذين كانوا قد عزموا على أن يثبتوا أقدامهم هناك وكان النصر حليفهم في الميدان.

ولدى عودته إلى الرياض وجد عبدُ الرحمن نفسه في متاعب مع ابناء سعود ولمّا لم يكن من تلك الطينة التي يبرز منها الأبطال في التاريخ أو رجال الحكم، وإن وجد فيه ابنه، فيما بعد، مستشاراً صائب الرأى فقد دفعته تصرفات ابناء سعود إلى ربط مصيره بمصير عبد الله ... فلحق به في الطرف الشرقي من الصحراء تاركاً الرياض تحت رحمة ابناء أخيه .

وحينئذ سار عبد الله بصحبة عبد الرحمن على رأس قوة كبيرة من البدوالى الرياض، وهاجمها . فانسحب المطالبون بالعرش بدونه إلى دلمْ. وعقد عبد الله بلاطه للمرة الثالثة ليتقبل التهاني وفروض الولاء من رعاياه. وكانت هذه هي المرة الثامنة التي تنتقل فيها السلطة العليا في الرياض منذ وفاه فيصل، قبل أحد عشر عاماً.

أما تاريخ بداية وانتهاء هذه التقلبات فليست مدونة بضبط في جميع الأحوال، إلا أنها تبدو كما يلي :

- عبد الله الثاني ابن فيصل ١٨٦٥/١٢/٢ إلى ١٨٧١/٤/٩

- سعود الثالث ابن فيصل ١٨٧١/٤/١٠ إلى ١٨٧١/٨/١٥

عبد الله بن تركي ١٨٧١/٨/١٥ إلى ١٨٧١/١٠/١٥

- عبد الله الثاني ابن فيصل ١٨٧١/١٠/١٥ إلى ١٨٧٣/١/١٥

سعود الثالث ابن فيصل ١٨٧٣/١/١٥ إلى ١٨٧٥/١/٢٦

عبد الرحمن بن فيصل ١٨٧٥/١/٢٦ إلى ١٨٧٦/١/٢٨

ابناء سعود الثالث ابن فيصل ١٨٧٦/١/٢٨ إلى ١٨٧٦/٣/٣١

- عبد الله الثاني ابن فيصل ١٨٧٦/٣/٣١

كان بين الزوار الذين وفدوا على عبد الله بهذه المناسبة إبراهيم ابن عبد المحسن ابن مدلج من عشيرة عليّان في بريدة، جاء يطالب

بترضية منصفة وتعويض معقول عن اغتصاب زعامة المدينة من يدى عائلته لصالح عائلة « أبا الخيل » المنافسة لها، ففى السنة المنصرمة كان زعيم هذه العائلة، مهنا الصالح أبا الخيل أميراً على المدينة، فاستغل منصبه وطرد بعض أفراد أسرة عليان لاشتباهه إنهم يدبرون مؤامرة لاغتياله. ولجأ المطرودون مؤقتاً إلى عنيزة، ثم عادوا إلى بريدة، حيث كمنوا لمهنّا وقتلوه عند مغادرته بيته إلى المسجد يوم الجمعة. ثم استولى القتلة على قلعة الحكومة، فهاجمهم أنصار الأمير المغدور بقيادة ابنه حسن وحاصروهم وضيقوا عليه الخناق، وتولى حسن الإمارة فى الحال .. فقتل زعيمين من أسرة « أبا الخيل » رمياً بالرصاص، وتابع هجومه على المحاصرين بعناد، وقد نجح رجاله فى وضع لغم تحت البرج الرئيسى، فانفجر اللغم ودمر البرج، ودُفن معظم الذين كانوا فيه تحت الأنقاض أو أسروا فقتلهم المهاجمون.

وهكذا ثأر حسن لمقتل والده وانتقم من قاتليه .

وكان إبراهيم، ضيف عُبداللة ، غائباً عن بريدة فلم يشترك فى الثورة. ومع هذا فقد ألقى حسن آنذاك، القبض على والده وأخويه وسجنهم بتهمة اتصالهم بعناصر من عنيزة، إلا أنهم فروا ليلاً من سجنهم، وما كادوا يفعلون ذلك حتى لحق بهم حسن وذبحهم جميعاً فيما عدا مدلج، الأخ الأصغر، الذى كُتب له النجاة ليروى القصّة .

وقد وافق ملك الرياض عبد الله، على مهاجمة حسن المهنا للاقتصاص منه. فوصل فى الوقت المناسب إلى عنيزة على رأس قوة كبيرة لينفذ قراره. وفى هذه الأثناء لجأ حسن إلى محمد بن

رشيد طالباً إليه مساعدته في صد هجوم الرياض، فسارع ابن رشيد إلى مد يد المعونة إلى حسن .. ودخل بريدة. وكان هذا ما أطفأ حماس عبد الله وجعله يقفل راجعاً إلى عاصمته دون أن ينجز شيئاً. ومن شأن هذا الحدث أن يظهر نوعية التحالف القائم بين حايل والرياض وخططهما، لقد كانتا على غير وئام .

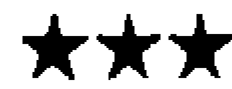
وسرعان ما قام حسن بن مهنا بموافقة حامية ابن رشيد، وتشجيعه، بالهجوم على الأراضي السعودية، فداهم مدينة شقرا إلا أنه أنكسر على أبوابها، وكان ذلك خلال أشهر الربيع سنة ١٨٧٧. ولكنه في زمن لاحق من نفس السنة انضم إلى محمد بن رشيد في أغارته عتيبة في نفس المواقع ونهبوا محاصيل قرية عشيقير (أُشيَقِر) التي سبق أن أضرت بها غزوة الجراد. واستولوا على التمور الناضجة في مزارع النخيل الواسعة فيها .

وجاء دور عائلة عليان لتجرب حظها مع ابن رشيد بعد أن فشلت في مسعاها مع الرياض، إلا أن أعضاء وفدها الثلاثة الذين قاموا بزيارة ابن رشيد، ومنهم إبراهيم بن عبد المحسن نفسه، وقعوا في كمين نصبه لهم حسن المهنا في أبْقارية في طريق عودتهم من حايل إلى عنيزة .

أما الحدث البارز الوحيد الذي وقع في سنة ١٨٧٧. فكانت موت شريف مكة عبد الله بن محمد بن عون، وتولى أخيه حسين مكانه بعد أن استبعد ولديه علياً ومحمداً من الحكم. ولا يذكر ابن عيسى شيئاً عن زيارة شارلز دوتي للقصيم خلال هذه السنة، ويقول: إنه لم يحدث في نجد أي شيء مهم خلال الأربع السنوات ما بين ١٨٧٨ إلى ١٨٨١م .

ولنعـد الآن إلى عـبـد الله فى الرياض .. فلم يكن بمقـدوره أن يفعل شيـئـاً لإعـادة أمـجاد عـائلتـه المتضـائلة بعـد أن ضـاعت منه الإحسـاء للأتراك، وتسـتـقل القـصيم فى ظلال حـمـايـة محـمـد ابن رشيدهذا بقطع النظر عن وجود ابناء سعود الساخطين فى إقليم الخرج .

أما من ناحية ابن رشيد، فقد كان مهتماً بتثبيت نفوذه وتوسيعه إلى الشـمـال، حـتى واحـة الجـوف ووادى سرحـان. وكـان الأتراك قـد بدأوا يدخلون إليها بمساعدة ظاهرة من عشيرة الرُوَلة وزعيمها سطّام بن شعـلان، وقبل هذا الزمن كانت قوة تركـيـة صغـيرة قد تمركزت فى الجوف، وفـقـاً لاتفاقـيـة صورية مع مـحمد ابن رشيـد. إلا أن سوء تصرف هذه القوات، أثار السكان المحليين فأجبروها على التراجع، وعلى العـموم، بقيت الواحة مواليـة لحايل فوّسع محـمد نفوذه شيـئـاً فشيئاً إلى وادى سرحان، وحتى حدود حوران .

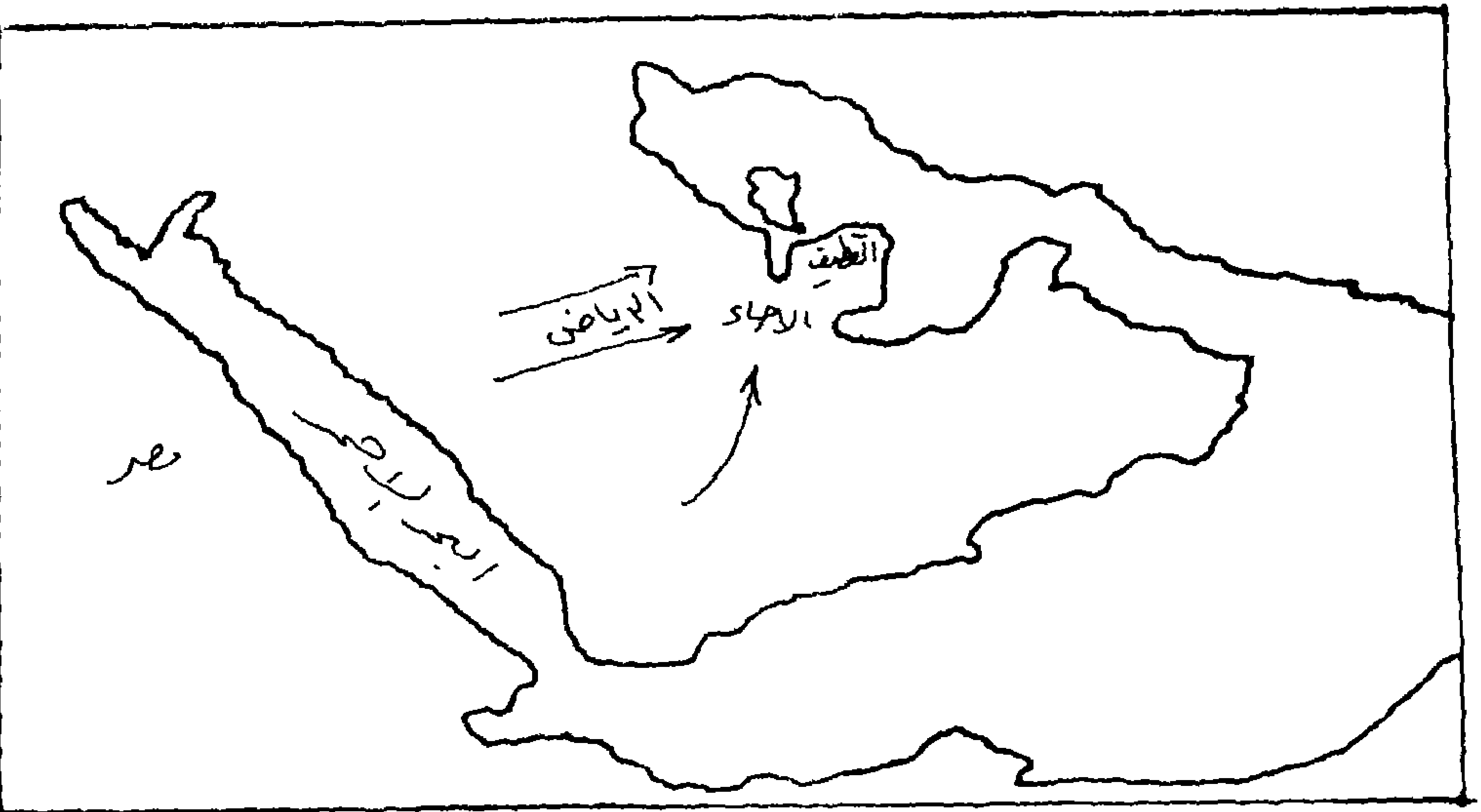


كـان مـحمـد بلا شك رجل الجزيرة العربيـة القوى فى هذه الفـتـرة. فـبـعـد أن أوقف التـوسع التـركى فى الشـمـال منع كل تـدخل للأتراك فى شؤون الأحسـاء والحـجاز، وكـان فى الاقليـمـين تذمـر شديد من صرامـه الحكم التركى، وكـان من سوء حظ الشريف حسـين أن يقع ضـحـيـة هذا التـذمـر، فـقـد قُتل ذلك الرجل سنة ١٨٨٠ بسـبب رضـاه على الـوضـع فى البـلاد ، وانتـهـز الأتـراك فـرصـة هذا الحـدث لإجـراء تغيير عائلى فى تولى إمارة مكة فاستدعوا عبد المطلب ابن غالب، من عـائلة ضـاوى زيد الذى كـان قد تولى المنصب من سنة ١٨٥١ -

١٨٥٦ ، ونصبوه أميراً. إلا أنه سرعان ما ثبت عقم هذه التجربة فى إرضاء الحجازيين، فخلعه الأتراك من الإمارة سنة ١٨٨٢ وعينوا مكانه عون آل رفيق، وكان هذا أخاً آخراً للشريف حسين الذى قُتل. وقدر له أن يشهد بداية مد الخط الحجازى فى أوائل القرن العشرين وإن لم يشهد إنجازه. فقد حكم حتى وافته المنية سنة ١٩٠٥ تاركاً وراءه سمعة طيبة لظُرفه وكفاءته .

أما من ناحية عبد الله فقد أخذ محمد بن رشيد يلعب به كما تلعب القطة بالفأر قبل أن تجهز عليه وتلتهمه. وكان جل ما فعله محمد أن ترك فريسته المقضى عليها بالفناء تشق طريقها إلى حتفها بظلفها. وليس يعنى هذا أن محمداً أطلق لخصمه العنان فى الاستفادة من مكائده السياسية، كلا، لقد أحسن محمد تقدير قوته الحربية وتوصل إلى تفاهم مع الشخصيات البارزة فى معظم الأقاليم الواقعة فى دولة عبد الله المنصلة، وذلك لمواجهة أيه أزمة قد تنشأ فى المستقبل .

وخير مثل على ذلك ما تمّ فى إقليمى المجمعة والسدير اللذين ثارا لتحقيق استقلالهما سنة ١٧٧٢. فحشد عبد الله عشائره فى العارض، وجنود عتيبه للزحف على أقليم المجمعة. وطلب المجمعيون المساعدة من ابن رشيد وفقاً لوعد قطعة لهم فى السابق، فأجاب محمد طلبتهم فى الحال، وجلب قوة كبيرة إلى بريدة، وهناك انضم إليه حسن المهنا وجيش القصيم، فتقدم مع حلفائه حتى وصل إلى زلفى، وكان من نتيجة ذلك أن تراجع عبد الله إلى الرياض لدى سماعه بخبر قوات محمد، بعد حصار عظيم ضربه على المجمعة



موقعة مطير "تمركز العمليات العسكرية في الجبهة الشرقية شبه جزيرة العرب"

طوال أربعين يوماً . وأمضى محمد بضعة أيام في المجمعة يُصرِّفُ أمورها ، ثم عيّن أحد سكان حايل واسمه سليمان بن سامى (صامى) حاكماً على المدينة نيابة عنه وعاد إلى بلاده، وهكذا أضاف محمد دون تفاخر ولااستعلاء إقليماً آخراً إلى دولته .

وقد كان يجب أن تكون هذه الحادثة إنذاراً كافياً إلى عبدالله، ولكن هذا تجاهلها في سبيل لقاء آخر مع القدر في حينه، كما سنرى.

وصدف أن تحدى فرع من عائلة سعود، سلطان ابن رشيد المتزايد في نجد، وقدمتا قبيلة عتيبة معظم القوات التى حشدها محمد، أكبر ابناء سعود لهذه الغاية وتمركزت هذه القوات على آبار أروى في مقاطعة العارض. فهاجمتها قوات مشتركة من جيش ابن رشيد وحسن المهنا، ودحرتها. فانسحب محمد إلى الخرج ليعد حملة أخرى في نفس الفصل (ربيع سنة ١٨٨٣). ولكنه لم يهاجم ابن رشيد بل قبيلة مطير في الصحراء الشرقية، فكأنه أراد أن يعوض عن الخسارة السابقة بالغنائم الكثيرة من الجمال والمؤونة التى استولى عليها الآن. وقد قتل أخوه عبد الرحمن في موقعة مطير هذه، فزاد ذلك من استقرار الأوضاع في ديار ابن رشيد .

كان شتاء ١٨٨٣ - ١٨٨٤ غزير الأمطار ففاضت الوديان وانتعش الناس و سار عبد الله إلى الميدان في أول كانون الثانى محاولاً إخضاع أهل المجمعة، ومن قاعدته المتقدمة في شقرا أرسل يستدعى العشائر الموالية له كى تحتشد في سهل حمادة، في مراعى أم العصافير المرعة، وحينئذ برز إلى الوجود ذلك التحالف المعهود بين حايل وبُريدة، للدفاع عن محميتّهم .

وقد انتهت المعركة التي نشبت باندحار عبد الله وحلفائه وهزيمتهم هزيمة منكرة ، وبقى محمد بن رشيد فى حمادة ليعيد تنظيم إدارة المناطق فى كلا الجانبين. فأصدر أوامره إلى المواطنين البارزين في مدن الوشم والسدير وقراهما للاجتماع اليه وتنفيذ أوامره، ويقال: بأنه عين حاكماً لكل قرية من قرى كلا الاقليمين. وكان هذا أول اصطدام مسلح فعلي يقع بين السيد وتابعه. وتدل أعمال محمد بعد هذه المعركة عل أنه كان يتوقع تغيراً فى الأوضاع والمركز بينه وبين عبد الله، ويذكر المؤرخ النجدى (الوهابى) فى هذه الآونة أن ابن رشيد بدأ يطمع فى مملكة نجد، يشجعه فى ذلك أصحاب المصالح والمنافع .

وفى أواخر شهر آب سنة ١٨٨٤ انتبه صاحب الرياض لما يجرى وراء ظهره، فأرسل أخاه محمداً إلى حايل يحمل رسالة ودية إلى ابن رشيد، فاستقبله هذا الاجلال والاحترام وأعاده إلى الرياض فى الحادى والعشرين من تشرين الأولى وهو يحمل هدية تليق بالأمراء، كما أعاد إلى عبد الله فى الرياض كلاً من الأقليمين اللذين كان ضمهما إلى أملاكه فى السنة السابقة .. فقد كان ابن رشيد موقناً أن هديّته ستعود إليه بالفائدة المركبة فى حينها . .

وكانت الخلافات والمنازعات قد بدأت تفعل فعلها فى الأراضى التى يحكمها عبد الله، لقد لاحت النهاية فى الأفق .. وبدت تباشير إنتصار ابن رشيد تُفصح عن نفسها .. ومن سوء الحظ أن المؤرخ إبراهيم بن عيسى قد توقف عند هذه النقطة فلم يدوّن شيئاً. وقد ذكر أحد الكتاب فيما بعد، أن قصة الثمانية والثلاثين عاماً التالية

قد مُنع تدوينها رسمياً. فمن الآن وصاعداً لا بد أن نتبع دليلاً آخر في معميّات التاريخ الوهابي المعقد، وإن كان هنالك من الأسباب المعقولة ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن مصنَّف عبد الرحمن بن ناصر، المسمى « السعد والمجد » يؤلف الجزء المفقود من قصة سلفه، وإن كان ذلك التصنيف قد تعرض لتحريف وتغيير سطحيين وتصحيحات هامشية على الحواشي، فالأسلوب واحد، والاجزاء الملغاه التي من السهل قراءتها في الخطوط، تنمُّ عن حقيقة أسلوب ونمط مؤلفه بالرغم من الذي بذله الكاتب الجديد لتغيير معالم الصورة. ومع ذلك فلدينا المخطوطان وبإمكاننا أن نختار منهما ما نشاء.

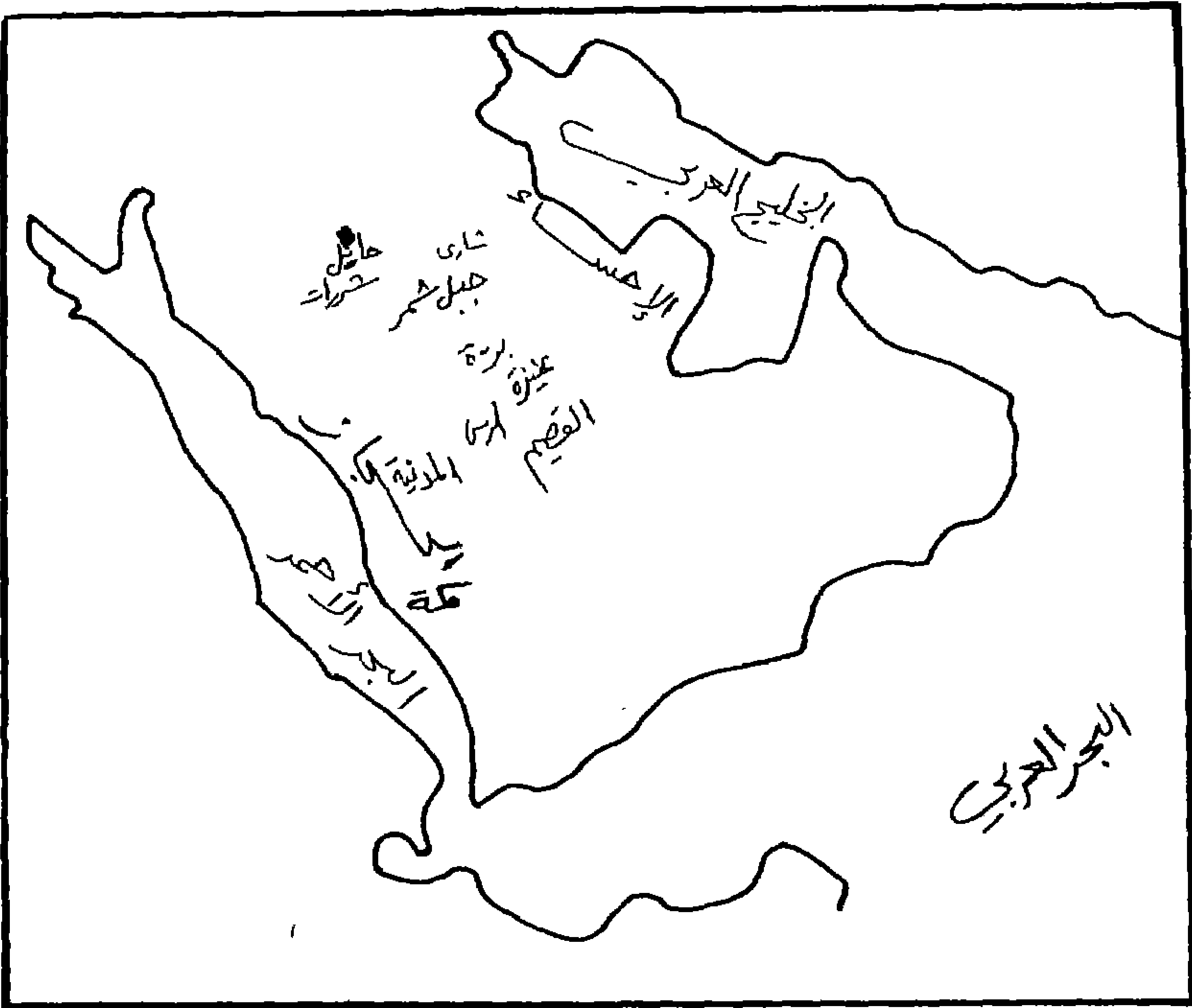
ومهما يكن من أمر، فبعد أن ينقل المؤلف الجديد حرفياً سجل سلفه للأحداث التي جرت خلال سنوات عديدة سابقة وحتى النقطة التي وصلنا إليها، يبدأ ملحقه بسنة ١٣٠٣ هجرية التي بدأت (في العاشر من تشرين الأول سنة ١٨٨٥) بالقاء القبض على عبد الله وسجنه في الرياض على أيدي أولاد أخيه ابناء سعود الذين استلموا زمام الحكم فيها .

وكانت هذه فرصة محمد بن رشيد لإظهار صداقته لعبد الله، وبسط سلطانه على ما تبقى من الدولة الوهابية. وهذا ما هدف إليه حين توجه إلى الرياض على رأس جيش كبير. وقد انسحب أمامه ابناء سعود إلى الخرج فدخل ابن رشيد المدينة وأطلق سراح عبد الله من سجنه وأخذه إلى حايل لتأمين سلامته، وعيّن سالم الصُّبحان حاكماً للرياض، وهو ضابط من أكثر ضباطه إخلاصاً وكفاءه

وإقداماً، وتختلف الكتب التاريخية بصدد ما إذا كان عبد الرحمن بين الذين نُقلوا إلى حايل في الوقت نفسه، ومن المحتمل أنه لم يُزرها إلا بعد سنتين عندما قصد لزيارة أخيه، ولا تذكر تلك السجلات التاريخية شيئاً عن مكان إقامة محمد بن فيصل في هذا الوقت. ولا نسمع عنه شيئاً حتى الربع الأخير من سنة ١٨٩٠ عندما ظهر في الرياض. وربما أنه ظل هناك طوال مدة غياب عبد الله في حايل .

وفي غضون خريف عام ١٨٨٦ الذي جاء بعد ربيع غزير الأمطار، حدثت اضطرابات في الخرج بين ابناء سعود والسكان المحليين، فلجأ الأهلون إلى سالم الصبحان لإنصافهم، وقد أرسل سالم فرقة من الجيش بقيادة شُنَيْف لمعالجة الوضع، فقتل الأخير ثلاثة من ابناء سعود، وهم : محمد وعبد الله وسعد حسب خطة مرسومة وتدبير مسبق، وكان عبد الرحمن، وهو ابن آخر من ابناء سعود قد قتل سابقاً في معركة أم العصافير، أما عبد العزيز خامس أؤلئك الأخوة فقد كان في زيارة لحايل، حيث زج به ابن رشيد في السجن بصورة مؤقتة، أما ابن سعود وهو طفل كان في الثانية من عمره آنذاك، فقُدر له أن يضايق ابن عمه، الملك الراحل، (الملك عبد العزيز) بمطالبته بالعرش في مطلع القرن العشرين مع أنه أصبح من أقوى مؤيديه فيما بعد .

كانت الأمطار غزيرة أيضاً في السنة التالية فخرج ابن رشيد للغزو في أراضي قتيبة، وصادف القبيلة محتشدة بكثرة وقوة عند أروى، أي نفس المكان الذي جرت فيه المعركة السابقة سنة ١٨٨٣.



خريطة امتداد الحكم الوهابي وسيطرته على مناطق شاسعة من شبه الجزيرة في هذه الفترة ١٨٩٩

ويبدو وصول حسن المهنا مع جيش قوى من القصيم مكّن ابن رشيد من أن يسحق البدو ويستولى على قطعان ما شيتهم وخيامهم .

وجاد الخريف التالى سنة ١٨٨٧ أيضاً وافر الأمطار خصب المراعى، فوجه ابن رشيد غزواته الموسمية المعتادة على قبائل العجمان مصطحباً معه حسن المهنّا أيضاً. وكان تاريخ السنة التالية مشابهاً لسابقتها مع فارق واحد، وهو أن عتيبة كانت ضحية غاراته فى هذه المرة. وقد طرد ابن رشيد نائبه على الرياض من منصبه بناءً على شكاوى مفجعة وردت بحقه من أهالى المدن، واختار مكانه فهّاد بن راخص الذى كان يمتاز بالرصانة والمرونة .

وفى خلال فصل شتاء سنة ١٨٨٩ - ١٨٩٠ كانت غارات ابن رشيد تتميز بطابع الطموح، فأوغلت حتى نقذت إلى أراضى بللى وجهينة فى الحجاز ولدى عودته من هذه الحملة وجد ضيفه عبد الله ابن فيصل فى مرض الموت فوافق فى الحال على طلبه العودة إلى الرياض مع أخيه عبد الرحمن. ولم يسمح بعودته فقط بل أعاد إليه جميع حقوقه فى حكم بلاده. إلا أن كرم محمد لم يكن ذا نفع للأمير المريض، فقد توفى بعد وصوله إلى الرياض بقليل، فى الرابع والعشرين من كانون الثانى سنة ١٨٨٩. وكان قد انقضى عشرون عاماً منذ خلف والده الفذ على عرش بلاده كوارث شرعى للدولة الوهابية التى امتدت من جبل شمر حتى ساحل عُمان؛ ومن الخليج الفارسى حتى الحجاز وحدود اليمن، وقد بدد بعجزه وعدم جدارته هذه التركة الواسعة، فلم يتورع عن طلب المعونة الأجنبية لتثبيت عرشه المتداعى، وكانت النتيجة أن ضم أولئك الأجانب

لبلادهم المقاطعات التي جاءوا من أجل إنقاذها، ولم يبق في يد المستنجد بهم غير منطقة العارض، وسلطة اسمية على الوشم والسدير عندما نقل إلى حايل لتطول سنواته الأخيرة في المنفى .

ولقد قضى عبد الله ثلث مدة حكمه لاجئاً لا وطن له، أثناء ما حكم الآخرون مكانه في وسط دولة متفككة منحلة، ومع كل هذا كان عبد الله رجلاً يمتاز بسحر ودماثه خلق، وإن كان تاريخه يشهد على أنه كان امرءاً تنقصه الحكمة والدهاء .

وكان من حظ أخيه الأصغر البالغ من العمر الأربعين عاماً أن يرأس مأتم إمبراطورية والده ويشرف عليه. فلم يتردد لدى موت أخيه في أن يحل محله بالرغم من وجود أخيه الأكبر محمد، الذي كثيراً ما لعب دوراً بارزاً في الحملات العسكرية التي جرت في زمانه. غير أن محمداً فيما يبدو، لم يكن ذا مطامع سياسية، ونقل عبد الرحمن في الحال نبأ وفاة أخيه لابن رشيد وأعلمه عن تسلمه زمام السلطة طالباً إليه في نفس الوقت، أبعاد فهاد بن راخص ممثل آل رشيد في الرياض، ووافق إبن رشيد على هذا الاقتراح الذي لم ينصّ على عدم إستبدال رجل بآخر، وأعاد تعيين سالم الصبّحان، الشرس الطباع، ليمثله في حاضرة الوهابيين، ويعتقد الرواة أنه لم يعمد إلى ذلك إلا ليراقب الحاكم الجديد مراقبة شديدة .

ولا تورد السجلات المتوفرة تاريخ وصول سالم، ولكنها تذكر مع وصفها احتفال عيد الأضحى الذي تلا مراسم الحج في عرفات (٢٩ تموز ١٨٨٩) أن سالماً طلب المثول بين يدى عبد الرحمن وأفراد العائلة المالكة الآخرين الموجودين في الرياض لينقل إليهم تحيات

سيده المعتادة. وهذه ترتيبات رسمية تغاضى عنها عبد الرحمن، إلا أنه لمح من تصرفات سالم ما جعله يرتاب بوجود نية الغدر. فما كان منه إلا أن أخذ بزمام المبادرة، فهاجم سالماً وضباطه، وذبح البعض منهم حال دخولهم قاعة الاجتماع، غير أن سالماً فيما يبدو تمكن من النجاة .

لقد وقع الصيد فى الشرك .. وتحدى داوودُ الصغير خصمه جالوت الجبار .. أما الذى فاز بالربح فكان الشيطان .

وبادر عبد الرحمن يفحص تحصيناته ويبحث عن الذخيرة وملح البارود وكان الحظ فيما يبدو حليفه بسبب التطورات الجديدة التى حدثت فى القصيم، فقد أساء ابن رشيد إلى أهل الاقليم لسبب غير واضح يجوز أنه ما كان قائماً بين بُريده وعنيزة من تنافس مستمر، فأخذ القصيميون يبحثون عن حلفاء لمواجهة ما قد يلحق بهم من متاعب، فكتبوا إلى عبد الرحمن يعدونه بالولاء ويطلبون إليه العون والمساعدة .

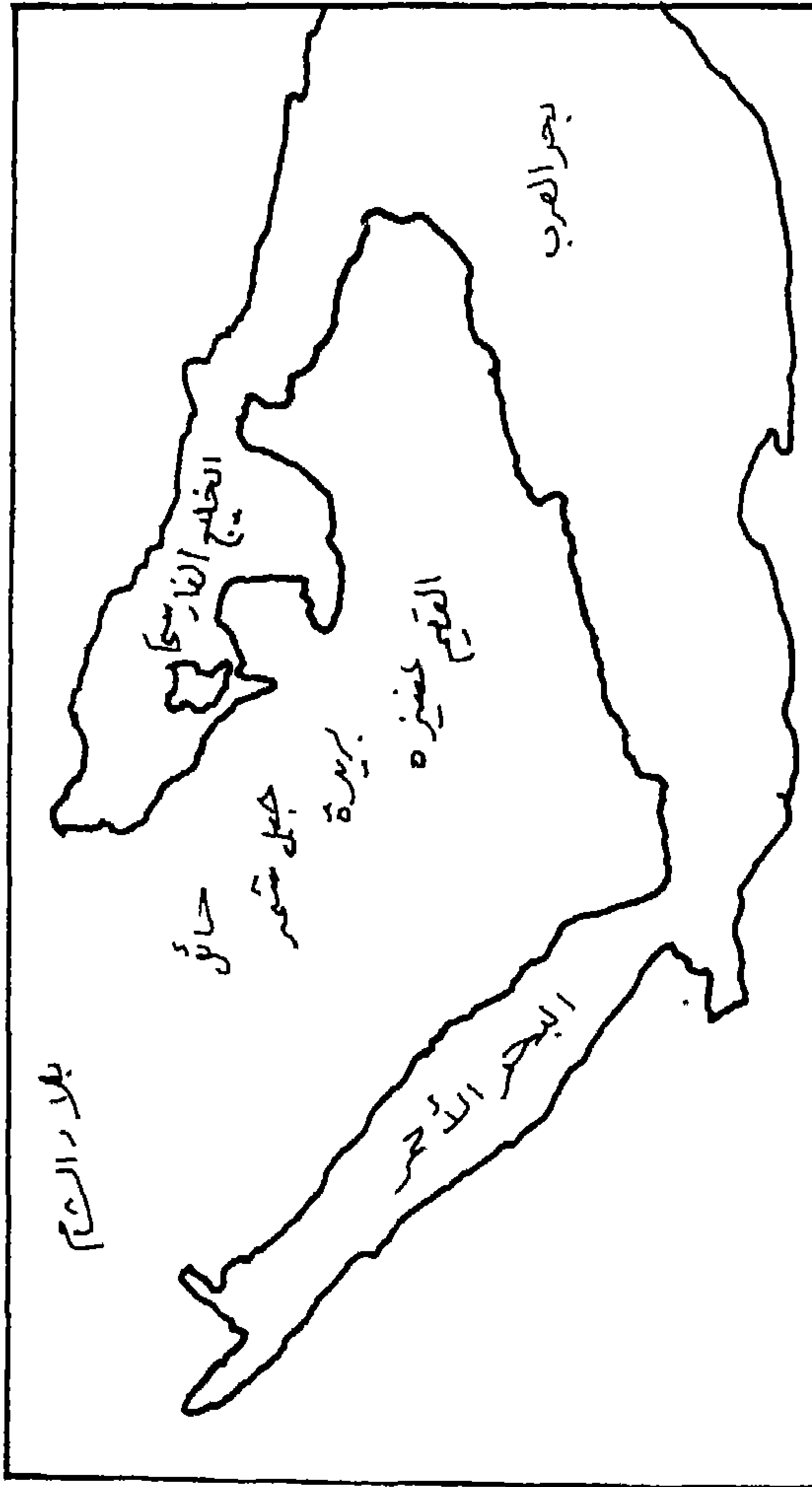
لكن ابن رشيد شرع فى العمل قبل أن يتم التحالف، فزحف فى الحال على الرياض، هدفه الرئيسى، ووجه رسلاً إلى عنيزه يؤكد نواياه الودية تجاه زعمائها وسكانها، ولدى وصوله إلى الرياض وجد المدينة محصنة تحصيناً قوياً؛ ليس بمقدوره أن يقتحمه، فضرب خيامه حولها محاصراً، ثم أخذ يغير على طرق تموينها وأهالى القرى المنعزلة المحيطة بها مزارع نخيلهم. ويقال: إن جيشه قطع ما لا يقل عن ثمانية آلاف شجرة نخيل .

وبعد أربعين يوماً قضاها ابن رشيد فى مثل هذه العمليات العقيمة، اقترح على عبد الرحمن أن يتفاوضا لعقد الصلح وتسوية الخلافات بالحسنى. فوافق عبد الرحمن على ذلك، وأرسل وفداً برئاسة أخيه محمد وعضوية آخرين من بينهم الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف قاضى القضاه، وعبد العزيز بن عبد الرحمن البالغ من العمر عشر سنوات، وهذه أول مرة يظهر فيها الفتى عبد العزيز على مسرح قدر له أن يسيطر عليه سيطرة تامة آلت إليه ملكيته.

وقد سُوِّيَت المسائل المتنازع عليها بسهولة.. وتم الاتفاق على أن يفك ابن رشيد الحصار عن الرياض ويعود إلى بلاده بسلام، بينما يستمر عبد الرحمن فى تسلم عرش أجداده .

ومن المشكوك فيه أن يكون أى من الجانبيين قد اعتبر الاتفاقية دائمة ونهائية، فقد أضاع صاحب الرياض جزءاً كبيراً من بلاده، فلا بد من أستعادته. بينما كان ينقُص الطرف الآخر شيء منها ليصبح حلمه فى الأمبراطورية حقيقة واقعة. وكان عبد الرحمن البادئ فى الإخلال بالهدنة .

قرر ابن رشيد أن يصفى حسابه مع أهل القصيم بعد أن خاب أمله فى الرياض، وكان حسن المهنا قد اتفق مع زامل السليم زعم عنيزة، على تحطيم نير حايل، لا نه فيما يبدو، قد فقد شيئاً من نعومته، فزحف ابن رشيد على جهات مُليدة وما يجاورها من رمال الضاحى، الشاسعة، وسط القصيم، بجيش قوى كبير حشده من قبائل شمر وظافر وحرب، وحتى عشائر المنتفك فى العراق. بينما اتخذ الأحلاف لهم مراكز حول مزارع النخيل فى القراعة (قرعَة)،



معركة مليدة سنة ١٨٩١م

واستمرت المناوشات بين الطرفين بضعة أيام تكبدت فيها قوات حايل خسائر أكبر مما تكبد الأعداء، ثم انتقل ابن رشيد غرباً إلى سلسلة جبال الضلْفعَة، مستدرجاً قوات القصيم إلى اراضٍ منبسطة مكشوفة حيث أصبحت تحت رحمة خيالته المتفوقة. فقُتل زامل بن سُليم في المعركة التي نشبت هناك مع عشرة أشخاص من وجوه بريدة، وبلغت خسائر الأحلاف ستمائة قتيل. وهكذا كان انتصار ابن رشيد ساحقاً حاسماً بكل معنى الكلمة، وغدا إقليم القصيم تحت رحمته، فنزل عند آبار الرّفيعة ليتقبل خضوع المدن والقرى، واستسلم حسن المهنا الذي جُرح في المعركة فاستاقه وعائلته ابن رشيد أسرى إلى حايل، حيث توفي حسن بعد ذلك بخمس سنوات، ثم عين سالم الصبحان حاكماً على بريدة بدلاً منه، كما عين شخصاً آخراً من عائلة سليم يدعى عبد الله بن يحيى حاكماً على عنيزة تحت إشراف سالم، بدلاً من زامل المتوفى .

كانت معركة مليدة هذه في الحادي والعشرين من كانون الثاني سنة ١٨٩١ .

وهكذا بقي محمد بن رشيد، بلا منازع، الحكم الفصل في مقدرات نجد، وإن كان يفضّل العود إلى بلاده والإخلاد إلى الراحة قبل أن يعالج مشكلة الرياض البسيطة .

لقد أظهر عبدالرحمن نواياه باستعداداته الكبيرة ونشاطه الهائل في مساعدة حلفائه من أهل القصيم، إلا أنه تأخر كثيراً عن المعركة التي طرقت أخبارها مسامعه لدى وصوله إلى جُريفه في سهل حمادة. فعاد مسرعاً إلى الرياض بعد أن أدرك أنه ليس من صَيْدٍ

بعد، وأخذ يعدُّ العدة للهرب من عاصمته مع عائلته وفى أثناء ذلك راح عبد الرحمن يتجول فى الصحراء الشرقية فى انتظار جواب عيسى شيخ البحرين على طلبه السماح لنسائه وأطفاله باللجوء إلى الجزيرة ريثما ينجلى الموقف . وكان جواب الشيخ بالموافقة فمكن ذلك عبد الرحمن من أن يبعد نساءه وأولاده عن مسرح النزاع والاضطراب .

ويبدو أنه جمع أتباعاً من البدو وعاد فعلاً إلى الرياض وإن لم يقصد البقاء هناك .. إذ أنه سرعان ما التجأ إلى حرملة، وما كاد ابن رشيد يسمح بهذا حتى سار إلى برّة بجيش لجب باغت به اللاجئين إلى حريملة بهجوم عنيف. وكان من حسن حظ عبد الرحمن أنه تمكن من النجاه بجلده، ليهيم على وجهه فى الصحراء من جديد.

وقد كاتب الأتراك، فى الإحساء وشيخ الكويت طالباً السماح له بالإقامة فى بلادهم، ولكن الأتراك والشيخ رفضاً ذلك، فسار عبد الرحمن فى نهاية ذلك العام إلى قطر حيث أمضى شهرين اتصل خلالهما بالأتراك. ووافقت الحكومة التركية أن تعين له راتباً شهرياً مقداره ستون ليره ذهبية وسمحت له بالإقامة فى أى مكان يختاره فى البلاد الخاضعة لها ، وكان هذا بفضل مساعى حافظ باشا متصرف الإحساء. فاختار عبد الرحمن الكويت علّه يستطيع من هناك مراقبة تطورات الأحداث في نجد، ويكون بمنجاة من حقد حاكمها الجديد .

سار ابن رشيد لاحتلال الرياض بعد حادثة حريملة .. فدمر

سورها الدائر وتحصيناتها ، إلاأنه ترك محمداً بن فيصل أميراً عليها نيابة عنه، غير أن ذلك كان ترتيباً مؤقتاً لا أكثر، فلم تنقض عليه سنة واحدة حت عيّن مكانه رجلاً من حايل يسمى عجلان، وخولّه أمر الدفاع عن أهل المدينة، وكان هذا التخويل بناءً على شكوى الأهلين من أن مدينتهم قد غدت معرضة لغارات البدو بعد هدم السور، ومن جراء عدم وجود وسائل دفاعية فيها .

والآن أصبح إقليم نجد الوهابى غُفلاً خاملاً لا أهمية له. أليس يسيطر عليه بيتٌ مالك أجنبى؟ وحتى تاريخ ذلك الأقليم أصبح مجرد سجل دين يسرد أسماء الأموات من « الرعيان » ويذكر التعيينات فى الوظائف الصغيرة لحكومة ابن رشيد، ويبدو أنه لم يكن هنالك ما يشغل ابن رشيد غير الإغارة على القبائل المختلفة. أما ما عدا ذلك فقد بدا جوُّه صحواً، ورياح الطمأنينة تهبّ على بطاح الجزيرة .

ومع ذلك فقد حدث فى الكويت سنة ١٨٩٤ ما جعله يفكر بقلق.. فقد قام مبارك الصباح فقتل محمداً بن صباح مضيف عبد الرحمن، وأخاه « جراح »، وتولى زعامة المدينة وقبائلها. وهو مبارك الذى قدّر له أن يمارس نفوذاً واسعاً فى شؤون الجزيرة العربية خلال السنوات العشرين التى تلت. إذ سرعان ما أدرك أن وجود أمير سعودى منفياً فى مدينته عاملٌ لا تقدرٌ قيمته فى مجال نشاطه السياسى، وعلى يديه تلقى عبد العزيز الصغير تدريبه فى شؤون السياسة والحنكة.، وبفضل ذلك التدريب استطاع أن يستعيد مجد آل سعود القديم فى الرياض والجزيرة .

وهكذا تستمر سلسلة أحداث الصحراء البسيطة مع كر الأيام، ومحمد بن رشيد فى مركزه لا ينازعه منازع .

وكان لخسوف الشمس الكلى الذى وقع فى الحادى عشر من تموز سنة ١٨٩٧ أثره فى حمل الناس على توقع كارثة تنزل بهم، غير أن شيئاً من ذلك لم يحدث، الا إذا أعتبرنا وفاة إبراهم آل عسكر أمير المجمعة بمرض الكزاز من هذا القبيل !

وفى كانون الأول سنة ١٨٩٧ توفى ابن رشيد العظيم بعد أن عاش عمراً طويلاً ونال فيه الكثير من المجد، فخلفه ابن أخيه عبد العزيز ابن متعب بن رشيد وكان هذا اباً فى الثلاثين من العمر آنذاك، وكان مقدراً له أن يبدد خلال عقد واحد من الزمن تلك التركة العظيمة التى آلت إليه بوفاة عمه .

الفصل التاسع

عبد العزيز الثانى ابن سعود

بوفاة محمد بن رشيدا أصبحت إمارة الكويت الصغيرة محور سياسة الصحراء وبؤرة للتنافس والتوتر الدولى فى المنطقة . فقد خسر الاتراك بموته حليفاً قديراً لهم فى اواسط الجزيرة العربية وادركوا انه لايمكنهم الاعتماد على خلفه فى حايل. فليس عبد العزيز بن متعب بن رشيد فى مكانة زعماء السعدون فى قبائل المنتفك العراقية او الشيخ مبارك الصباح، فى الكويت، الا انه بالمساعدات المناسبة فى السلاح والمال يصير قوة نافعة فى المضايقة والازعاج. وليس من المحتمل ان يكون سعدون باشا قد طمع يوماً ما فى حكم اواسط الجزيرة العربية، فقد كان فيما يبدو قانعاً بسيادته على القسم الادنى من العراق ويعتبر الصحراء بؤرة للغارات المعتادة ومسرحاً للمبارزة فى ذلك الزمن.

وكانت هذه النظرة مغايرة لنظرة مبارك، الذى اخذت تراوده الاحلام فى ان يحتل مكان محمد المتوفى (بانتعال حذائه)، ووجود افراد سعود البارزين ضيوفاً عليه فى بلاده. . لقد كانت فى يده الورقة الرابحة، لكنه لم يستطع التنبؤ بنتيجة المقامرة ووجهتها، الا أن صلف ابن رشيد وتجبره على رعاياه شجعا مباركاً وحملاه على التفاؤل ، وكان مازاد فى تفاؤله أن تعهدت الحكومة البريطانية بحماية الكويت ضد اى اعتداء خارجى عليها. فقد ارعب بريطانية

ما شهدته من تحالف تركي الماني يستهدف الكويت لمصلحة سكة حديد برلين ـ بغداد .

عندئذ أصبح مبارك طليق اليد يستطيع ان يقوم بمجازفات في الصحراء، خصوصاً وان مفتاحها كان في حوزته آنذاك، هذا علاوة عن امكانية اعتماده على مساعدة عشائر المنتفك له في الاغارة على اراضي ابن رشيد، مصدر الغارات على التخوم العراقية.

والواقع ان ابن رشيد هو الذي ابتدر العدوان ، حين قام في خريف ١٨٩٨ ، بزيارة الى ضواحي الرياض ليتعرف على سير الامور في البلاد ويتقصى رغبات السكان فيها. وليس من عجب في ذلك، فقد ظل عمه حاكماً نافذ الكلمة فيها طوال اثنتي عشرة سنة. وقد وفد أعيان المدينة وزعماؤها الروحانيون لتأدية فروض الطاعة والولاء لسلطانهم الجديد. وبعد ان تحقق لديه ان عجلان حاكم المدينة، يسيطر على الوضع فيها، باشر الاغارة على قبيلة الدواسر في مقاطعة مروطة.

وفي الخريف التالي وجه انظاره الى الشرق فقام باتصلات مع بعض اهالي الكويت الساخطين الذين اختاروا المنفى في البصرة ، ليمهد بذلك الى ما كان في نيته. ولم يتمهل في الافصاح عن نواياه تلك، اذ انه سرعان ما قام بغارة عادية على بدو الحدود العراقية ثم زحف بجيشه القوي الى الكويت. وقد قابله حلفاء الكويت من عشائر المنتفك في الطريق، فاشتبك معهم ودمرهم،. ثم طاردهم حتى سماوة الواقعة على نهر الفراتِ، وبقي هناك بعض الوقت. وبعدها عاد الى حايل لقضاء فصل الصيف .

وشهد الخريف الاول من القرن الجديد (العشرين تطورات اخرى في الوضع بعد ان كان كل من الجانبين على اتم الاستعداد للمعركة، فقد نظم عبد الرحمن غزوا على قبيلة قحطان، وتغلغل حتى اقليم السدير، ثم عاد يقول بأن الاحوال ملائمة للقيام بعمليات حربية خطيرة اخرى، بينما عاد ابن رشيد من جانبه فاتجه نحو التخوم العراقية مرة أخرى، وامضى فصل الشتاء في صحراء حجرة ليستفيد من أى تطور قد يحدث. وهناك علم بان مبارك الصباح قد غادر الكويت واتجه الى وادي الشوكي وراء رمال الدهناء، على رأس قوة فيها سعدون باشا وقبائل المنتفك، وجموع عشيرة الظافر، والامراء السعوديون ايضا. وقد انضم اليهم قبائل العجمان ومطير بقوات كبيرة، ومن هناك وصل الى بريدة حاضرة القصيم .

فأخذ ابن رشيد زمام المبادرة بلا تردد وارتحل مسرعاً الى الغاب.

اما الشاب عبد العزيز، فبعد ان سمح له والده ومبارك، سار من شوكي على رأس جيش قوى اراد به ان يجرب حظه في الرياض. فدخلها من خلال خرائب اسوارها المهدمة. الا انه لم يتسطع ان يؤثر في الحصنين اللذين لجأت اليهما حامية ابن رشيد لتقاوم الحصار . وقد دارت المعركة الفاصلة في الواقع في ميدان صريف بالقرب من بريدة، حيث القى الحلفاء بكل قواتهم وثقلهم ضد ابن رشيد ، الا انه كسرهم كسرة، فتواثبوا امام جيشه دون نظام.

وحينئذ تتبعتهم قواته، ولم يجدوا عند أفرادها رحمة ولاشفقة، ومن وقع منهم في ايدى خصومهم الظافرين على الخصوص . وقد انسحب عبد العزيز بن سعود من الرياض، عندما بلغته اخبار

الكارثه. وبقى ابن رشيد ليحتفل بالنصر بالانتقام من بريدة ومدن القصيم الاخرى انتقاماً وحشيا ، فى حين اوفد سالم بن صبحان المعروف بشراسته ، ليلقن سكان الرياض درساً مماثلاً.

وعاد ابن رشيد الى خطته القديمة فى الإغارة اثناء فصل الخريف. ويبدو انه توصل الى تفاهم مع الاتراك حول مهاجمة الكويت التى تضعضعت مواقعها بعد معركة صريف. فسار الآن على رأس قوة كبيرة إلى حفار البطين. ثم سرعان ماوجد نفسه امام اسوارجهرا ، وهى قرية فى الطرف الداخلى لخليج الكويت . اما مبارك (الشجاع!) فلجأ الى البريطانيين الذين شرعوا فى قصف معسكر العدو. فانسحب ابن رشيد الى قاعدته فى حفار البطين بعد حصار عقيم دام اسبوعين. ومن هناك سار الى حايل لقضاء العطلة الصيفية المعتادة. وها هو قد ثبت له . الآن ان انتصاره، فى صريف لن يعود ، فقد برزت فى الميدان سفن حربية، وانتقل زمام المبادرة من يديه الى أعدائه .

ويبدو ان مبارك وعبد الرحمن بن سعود ، اللذين ملأهما اليأس بعد الهزيمة التى أصيبا بها قبل حين، لم يجدا فى نفسيهما شجاعة كافية للقيام بأية مجازفات فى الصحراء، فى الوقت الحاضر على الأقل. ولكن عبد العزيز الشاب، وهو فى الحادية والعشرين من عمره آنذاك، كان يتحرق شوقاً لينشط. كما شجعته خبرته السابقة فى الهجوم على الرياض على التفكير بمهاجمتها من جديد. فوافق مبارك وابوه على خططه الرامية إلى غزو الصحراء فى خريف سنة ١٩٠١ ، ولكن بشىء من الريبة والشك .

وهكذا غادر عبد العزيز الكويت فى أربعين من أصحابه، وأخذ يحشد امداداً بدوية فى الطريق.

وكان يغير على القبائل المعادية حتى حدود الاحساء (التركية آنذاك) ومَشارف السدير. وفى كانون الأول وصل الشاب السعودى إلى مياه حَرَضْ (وهى الآن منطقة بترولية مهمة، حيث استقر هناك طيلة شهر رمضان. وما كاد يفرغ من أيام عيد الفطر الثلاثة حتى شمرٌ عن ساعده للمقامرة الكبرى التى بلغت اوجها بعد خمسة أيام، أى فى الخامس عشر من كانون الثانى سنة ١٩٠٢، وحينئذ تم احتلال الرياض.

أما تفاصيل تلك القصة الخيالية فقد كررها المؤرخون فى أكثر من تصنيف واحد، فلا حاجة لروايتها من جديد.

وقد ذبح المهاجمون الحاكم الرشيديّ عجلان مع عدد كبير من أفراد حاميته فاستولى الذهول على أهل المدينة، ودهمتهم المفاجأة وخافوا سوء العاقبة فسارعوا إلى تقديم الولاء لفرد من بيت سعود مرة أخرى، كما فعلوا فى الأيام السالفة.

وفى خلال شهر واحد أُعيد بناء الأسوار التى دمرها محمد بن رشيد لتمدٌ أذرعها مطوّقةً الحاضرة الوهابية فتحميها وتدفع عنها العدوان.

كان هم عبدالعزيز (الآن أن يؤمن نقل والده وبقية البيت السعودى من الكويت إلى الرياض حيث أُعدٌ احتفال فخم لاستقبالهم. وحضر الوالد.. وأخذ يبحث مع ابنِه كبريات المشاكل

التى تواجه نظام الحكم الجديد، فوصلا إلى وضع الترتيب التالى بكل سهولة: وهو أن يحتفظ عبدالرحمن بلقب الإمام، راسِ الاسرة المالكة، بينما يظل ابنه رأسَ الحكومة الفعّال، وقائد جيشها.

ولم يشكل هذا الوضع الشاذ أية متاعب، لأن عبدالعزيز كان دائم الرجوع إلى والده فى المسائل الرسمية بينما لم يتدخل الاب فى شؤون الدولة وان ظلت آراؤه مبذولة لابنه بدون تحفظ على الدوام.

هكذا نشأ ذلك التعاون السحرى العظيم الذى يعتمد على المحبة الأبوية والاحترام البنوى، والذى قدِّر له ان يدوم، لا يشوبه أى احتكاك أو اختلاف إلى أن توفى الامام عبدالرحمن سنة ١٩٢٨ وله من العمر ٧٨ عاماً. وبما أن عبدالعزيز قضى هذه المدة فى ميدان القتال فقد كان من نصيب الوالد أن ينوب عنه فى جميع الأمور الخاصة بالإدارة المركزية فى العاصمة.

لقد اصبح ابن سعود الآن طليقاً بمقدوره أن يأخذ على عاتقه مهمة استعادة مركز أسرته فى الاقليم، واثقاً تماماً من ان كل شىء سيسير على خير صورة اثناء غيابه. فسار بنفسه لاعادة السلطة فى الاقاليم الجنوبية، ثم فى المناطق القبلية التى لم تستمرىء حكم ابن رشيد فى أيامه. فزار الخرج والأفلاج والحوطة والحريق الواحدة تلو الاخرى، وتقبل فروض الولاء من شيوخ أهلها. كما استقبل وفداً ارسله وادى الدواسر. أما قبيلة قحطان التى استنكفت عن ارسال وفد للتهنئة، فقد هوجمت ونُهبت ديارها فى حالبان. وذلك لاظهار تصميم السلطان الجديد على ان يحكم بالفعل والاسم معاً.

أما الاقاليم الشمالية فقد تركها عبدالعزيز لمناسبة اخرى فى المستقبل، إذ كان الموالون من أهلها ليسوا فى وضع يتمكنون معه من تحدى السلطة الواقعية للحكام الرشيديين.

وقد تباطأ ابن رشيد فى الرد على الوضع الجديد فى الجنوب. ولم يكن فى موقف يمكنّه من الزحف إلا فى خريف سنة ١٩٠٢، وبعد أن جعل من رَغبة الواقعة فى سلسلة الطويق قاعدة له، ارسل دورية استكشافيةً لتتحرى اخلاص قبائل الاحساء: عجمان ومرّة. إلا أن ابن سعود قابل هذه الحركة بارسال اخيه محمد وابن عمه عبدالله بن جلوى لقطع الطريق على دسائسه واحباطها. فبانضمام قبيلة مرة إلى القضية الوهابية يمكننا ان نسقط من الحساب وضع العجمان الغامض فى المعركة القادمة ونأمنه.

وبعد ان عسكر ابن الرشيد فى رغبة كان ابن سعود حراً فى وضع خططه لجرّه إلى المعركة. وكانت حركته الأولى أن يترك الرياض فى حماية اسوارها وحاميتها المحلية بينما يزحف على حاير فى وادى حنيفة ومن ثم يتقدم نحو الحوطة لتعبئة أهلها الجبابرة. وفى نفس الوقت أرسل محمداً السديرى بجيش قوى لاحتلال دِلمْ، حاضرة الخرج بينما ذهب اخوه إلى الحريق ليحشد الامدادات.

ويبدو أن هذه الخطط العسكرية حيرت ابن رشيد، ولذا سار قُدماً نحو آبار الحاسى Hassi عند مدخل ممر الحيسيّة. وقد اضطربت اقامته بسبب الحمى التى انتشرت بين قواته. وبعد التأخر القصير الامد الذى اعتبره اخطر من الإصابات المرَضية التى لحقت بقواته، توّجه ابن رشيد إلى بنبان. وبحركة سريعة عبر وادى سُلَىّ،

وصل إلى الخرج، وكان عازماً الهجوم على دِلمْ فما لبث ان وصل إلى مزارع نخيل نعجان Najan فاحتلها، إلا أنَ الوقت كان متأخراً في النهار فلم يستطع القيام بأي هجوم فعّال.

ولم يعلم ابن رشيد حينئذٍ ان ابن سعود نفسه قد وصل إلى دَلمْ على رأس جيش قوي في الليلة السابقة. وعندما دفع صاحب حايل قواته للهجوم في صباح اليوم التالي تعرضت لنيران حامية شديدة من لدن المدافعين المختفين جيداً بين أشجار مزارع النخيل. فأكرهت على التراجع في شيء من الفوضى، وخصوصاً حين ارسل السعوديون الخيالة وراءهم في المنطقة المكشوفة الواقعة بين الواحتين. وقد جمع ابن رشيد رجاله واعاد تنظيمهم، فاستعرت معركة ضارية من الظهيرة حتى غياب الشمس. غير أن الانتكاسة الأولى الرئيسية كانت عاملاً حاسماً ضد وقوف ابن رشيد في وجه قوات اكبر مما كان يتصورها. فتقهقر خلال الليل إلى السليمية في الطرف الأقصى من الاقليم. ولدى رؤيته السعوديين، زحف بسرعة في وادي سُلَيّ حتى يصل بسلام في الوقت المعيّن. فوصل بأمان إلى آبار حفار العتكْ القصيّة.

وبعد هذه المعركة الفاصلة بعدة سنوات. كان ابن سعود يقول كلما أعيدت ذكراها: «لو أن ابن رشيد كان على علم بعامل حيوي واحد لتغيّر التيار بالنسبة لقضيته». ولا ينكر ابن سعود ان رجاله كانوا كافين للقتال إلا أن ذخيرته قد استُهلكت بالمعركة، أما مطاردة خيالته لاعدائه فقد كانت عبارة عن البدء بالتحدي. ومع ذلك فقد ادتواجبها.

لم يفزع ابن رشيد من هزيمته فى دلم. وهكذا بقى هناك فى خفار العتك بأمان واطمئنان، وامضى الاشهر الباقية من فصل الحملات والغارات لسنة ١٩٠٢ ـ ١٩٠٣ فى الاغارة على جهات مختلفة، وقد اغراه مالاقاه من ظفر على عشائر عتيبة بالقرب من ارطاوية، وضد السبيّع والسهول فى رمال الدهناء، بأن يغير على الكويت.

هذه هى الغارة التى وقعت على رجال قبائل العريبدار القريبة من مدينة الكويت نفسها، والتى ارعبت الشيخ مبارك وملأته فزعاً. وهى التى جعلته يرسل رسالة الى ابن سعود يطلب منه المساعدة. وبعد مدة وجيزة ظهر ابن سعود أمام المدينة على رأس قوة كبيرة، (يقال انها عشرة الآف جندى) .ولاشك انه كان مدفوعا الى هذا العمل بحاجته الملحة لسد النقص فى خيرته. وهنا انضم إليه جابر ابن الشيخ مبارك على رأس قوة تقدر باربعة الآف مقاتل لاظهار القوة الفعالة فى الصحراء الشرقية. فهاجمت حلفاء ابن رشيد من قبائل مطير بقيادة عماش الدويش، ونهبتها فى مقاطعة الصمان .

وفى أثناء ذلك قرر ابن رشيد القيام بهجوم على الرياض نفسها بعد عودته السريعة الى معسكره فى حفار العتك وسماعه بزيارة ابن سعود الى الكويت. فوصل تحت جنح الظلام إلى تل ابى مخرومة القريب من المدينة، دون ان يشاهده احد. ونزل هناك بانتظار طلوع الفجر.

ولكن بدوياً راجعاً الى المدينة رأى جيشه اثناء ذلك، فاتخذ المدافعون مراكزهم فى الحصون بعد ان حذرهم البدوى، واخذوا

يوزعون عليها الجند، ولما رأى ابن رشيد ان الهجوم المباغت لم يعد مجدياً، وجه غضبه الى مزارع النخيل المحيطة بالمكان، فقتل بعض المزارعين الأبرياء وأوقع فى البساتين اضراراً كبيرة جداً.

وكان هم ابن رشيد الوحيد الان ان يجعل الاقاليم الشمالية (الوشم والسدير والمجمعة) فى حالة ملائمة للدفاع ضد اية محاولة يقوم بها ابن سعود ليستعيدها فبنى حصنا فى ثرمدة من الوشم، ووضع فيه حامية قوية للدفاع عنها . كما وضع حاميات اخرى مثلها فى المجمعة وروضة السدير . ومن ثم عاد الى اقليم القصيم فى انتظار ما يطرأ من تطورات ، بعد ان ضمن شقرا عاصمة الوشم ، الى جانبه ولدى عودة ابن سعود من الكويت الى الرياض ، وجد نفسه يسيطر على العارض ، اقليمه ، وعلى الاقاليم الجنوبية النجدية بلا منازع ، وكانت اول الاخبار التى تلقاها من الميدان لدى وصوله عاصمته ،. ان مساعدا بن سويلم الذى اوفده الامام عبد الرحمن لاحتلال المقاطعات الشمالية فى اثر الجيش المتقهقر لم ينجز مهمته فحسب ، بل تجاوز تعليماته بالهجوم على شقرا . وأن القائد الرشيدى صويغ Suwaig لم يحاول الدفاع عن المدينة بل هرب الى حصن ثرمدة الجديد فتبعه مساعد بعد ان احتل عاصمة الوشم بلا ادنى مقاومة وحينذاك هرعت الامدادات الى اقليم الوشم بقيادة عبد الله بن جلوى . الا أن حامية حصن ثرمدة فيما يبدو كانت قد جلت عنه تحت جنح الظلام . وفى هذه الاثناء وصلت قوات اخرى من الرياض الى اقليم السدير حيث كانت روضة السدير هى المكان الوحيد الذى قاوم الاحتلال الا أن السعودبتين سرعان ما تغلبوا عليها ، وهربت الحامية الرشيدية الى المجمعة .

ويبدو أن ابن سعود قد وصل الى الشمال فى هذه الفترة ليدير العمليات الحربية بنفسه ، بينما وصل ابن رشيد الى عشيرة عن طريق زلفى فى الحدود الشرقية من السدير فى محاولة لتعديل الموقف . وكان كل ما استطاع فعله ان دمر بعض القرى الغير المحصنة قبل ان ينجو بنفسه ويغادر المكان وعندها بادر اهل المجمعة يطلبون رافة ابن سعود ليغفر لهم زلاتهم الماضية وكفر انهم بنعمته. ثم استسلمت مدينة زلفى .. وهكذا انهار ذلك النظام الدفاعى المرتجل الذى اقامه ابن رشيد قبل تراجعه الى القصيم .

وقد واجه قائد الجانبين مشاكل خطيرة فى المعركة نشبت فيما بعد من اجل الاستيلاء على إقليم القصيم الحيوى ويبدو أن ابن رشيد بدأ يدرك ان مركزه كان حرجا وخطيراً ، من جراء تخلى القرى والقبائل عن مناصرته بعد أن كانت فى يده . ومع ذلك كانت لاتزال لديه موارد يغذى جيشه بها طالما بقى هناك ، غير انه لم يكن يثق بقبيلة القصمان المعروفة بمشاكستها ، ان تقف الى جانبه فيما اذا ساءت الامور ويبدو ان امله الوحيد فى مجابهة زحف ابن سعود كان فى لجوئه الى الاتراك ، الامر البالغ الخطورة وأن كان لا مناص منه . وحينذاك سيبادر الاتراك لتثبيت اقدامهم فى اواسط الجزيرة العربية بانطلاقهم من الاحساء ، الاقليم الذى يسيطرون عليه نتيجة لتدخلهم ومبادرتهم لمساعدة عبد الله بن سعود قبل ذلك بثلاثين عاما .

وقرر ابن رشيد ان يقامر ويتمسك بهذه القشة الاخيرة . فأرسل رسائل الى الوالى التركى فى بغداد وباشر فى اتخاذ اجراءات مؤقتة

للدفاع عن القصيم في انتظار مجيء قوات السلطات المتوقعة ، فوضع حاميات قوية في عنيزة وبريدة . وكانت حامية عنيزة تحت إمرة حاكمها المحلي. أما حامية بريدة فقد كانت تحت إمرة ابن عمه ماجد بن حمود لسبب شكة في ولاء اهله . وقد اقام مركزا طليعيا لقواته في اقليم السر ، زوده بامدادات من قبيلة حرب بقيادة حسين بن حر اد ليقوم بالمراقبة وليصد اى تقدم تقوم به قوات ابن سعود ، اذا اقتضى الامر .

اما ابن سعود فوجد نفسه في ورطة تختلف عن السهولة التى تم بها احتلال جميع الاقاليم حتى حدود القصيم . وقد رأى الامراء البارزون المعروفون بولائهم له ان من الحكمة ان يرحلوا عن القصيم خوفا من انتقام ابن رشيد ، وكانوا فى الكويت بعد ان بحث التطورات في نجد . وعليه قرر ابن سعود ان يعود الى الرياض آنئذ، بعد ان بعث الى الشيخ مبارك رسالة يطلب فيها توجيه انصاره الموجودين هناك لينضموا الى قواته .

وكان هؤلاء يتحرقون شوقا للفرصة التى ستمكنهم من المساهمة في تحرير ارض الوطن من نير ابن رشيد . فوصلت الى الرياض جماعة منهم مؤلفة من مائتى مقاتل ومنهم عبد العزيز السليم وصالح المهنا ، زعيما عنيزة وبريدة .

وانتهز ابن سعود الفرصة فاستأنف عملياته الحربية . وفى اوائل آذار سنة ١٩٠٤ اشتبك مع قوات حسين بن جراد فى مقاطعة السر،وأحق به وبأنصاره من قبيلة حرب هزيمة منكره عند فيضان السر وفى اخر الشهر داخل مدينة عنزة ليلا بعد ان تجنب مراكز

ماجد بن حمود الامامية فقتل الحاكم فهيد بن صبحان نائب ابن رشيد ، وذبح عبد العزيز ابن سعود بنفسه عبيدا شقيق ماجد، الا انه لم يقنع بالاستيلاء على احدى المدينتين الرئيسيتين فى القصيم، فسار فى نفس الليلة يبحث عن قوات العدو الرئيسية ، التى يقودها ماجد نفسه ، وسط مزارع الاخير فى وادى ريما . وكان هجومه مباغتا للعدو بحيث ادى القتال المضطرب الذى نشب فى الظلام الى هزيمة ماجد والاستيلاء على معسكره ، مع جميع ذخيرته وعتاده .

اما الناحية المدهشة فى هذه القصة فهى ان ابن سعود وجد ابناء عمه الثلاثة احفاد عمه سعود فى معسكر وادى ريما فى عنيزة نفسها . وكان هؤلاء قد ربطوا مصريهم بمصير ابن رشيد املا منهم فى استعادة عرش الرياض بمساعدته فعفا عنهم بفضل شهامته التى اصبحت فيما بعد من خصاله التقليدية ولم يفرض عليهم شرطا واحدا . ثم عرض عليهم البقاء معه او الانضمام الى ابن رشيد فقبلوا (مؤقتا) الصلح الذى عرضه عليهم . وقد ظل هؤلاء مصدر ازعاج له لكثرة مطالبهم وادعاءاتهم .. فأطلق الناس عليهم لقب العرايف من هذه الحادثة وكان هذا اللقب يستعمل للجمال التى فقدت فى احدى الغارات ثم استعيدت فيما بعد .

لقد أصبحت طريق بريدة خالية الان .. ولم يجد ابن سعود اية صعوبة فى احتلالها ، وإن كانت الحامية الرشيدية هناك قد رفضت الاستسلام وتمركزت فى القلعة العظيمة لتقاوم الحصار ، على أمل أن يهب ابن رشيد الى انقاذهم فى الوقت المناسب الا أن هذا الامل لم

يتحقق . فبعد شهر من اطلاق الرصاص والقتال الغير المنظم استسلمت الحامية بشروط . فسمح لرجالها بان يخرجوا باسلحتهم ويلحقوا بزعيمهم فى حايل . وهكذا اصبح ابن سعود الان سيد الجزء الغربى من القصيم بينما بقى الجزء الشرقى مع رس العاصمة، مواليا لابن رشيد .

وفى هذه الاثناء أثمرت جهود ابن رشيد فى الحصول على مساعدة من الاتراك قوامها كتائب من الجند النظامى، جاء جزء منها من المدينة المنورة بقيادة صدقى باشا ، وانطلق الجزء الاخر من بغداد بقيادة فيضى باشا القائد العام للحملة .

لقد استسلمت بريدة فى اوائل حزيران سنة ١٩٠٢ .. ولم تكد تمضى بضعة اسابيع حتى اخذ ابن رشيد يتحرك . فبعد ان زوده الاتراك بالسلاح والمال والذخائر استطاع ان يجند قوات كبيرة من قبائل حرب وعتيبة وقبيلته ، شمر . فسار الى القصيم على رأس هذه القوات ، والمجندين المحليين ، والكتائب التركية ، ووصل فى شهر آب حتى ضواحى القراعة (قَرْعة) فقبل ابن سعود التحدى وقاد جيشه الى البصار ، احدى واحات المنطقة الصغيرة المعروفة باسم الجنوب ومن وراء التلال الرملية التى حمته من خياله العدو فاستطاع ان يرقب مناورات ابن رشيد بدون ان يقوم باى عمل ايجابى او اشتباك .

وقد ظلت المناوشات المنظمة طابع الاعمال اليومية الى ان سار ابن رشيد باتجاه الغرب الى رمال الشيحيات المتماوجة ، حيث بامكان جنوده ان يجدوا لهم مأوى أثناء النهار فى بساتين غراس نخلها

المتناثرة ، بينما يستطيع فرسانه ان يقوموا بعمليات حربية بكل سهولة اذا دعت الحاجة الى ذلك . وكان رد ابن سعود على هذا ان تقدم بجيشه ناحية بساتين نخيل البكيريه حيث اقام مشاته فى امان نسبى وراء سلسلة التلال الرملية العالية التى تفصله عن الاعداء. فلم يقع الهجوم المتوقع حدوثه عند الفجر .

ولازمت القوات السعودية مراكزها بين اشجار النخيل يستظلون بها من حرارة الشمس فهاجمهم العدو عند العصر فجأة ، واستمرت المعركة مستعرة حتى المغيب. وقد تمكنت القوات السعودية التى بوغتت بهجوم كامل من قوات العدو من تكبيد المهاجمين اصابات فادحة ، مستغلة فى ذلك وفاء البساتين ، غير انها لم تستطع البقاء فى مواقعها بعد ان ارخى الليل سدوله ، اذ قد تتعرض لهجوم الاعداء الذين يفوقونها عددا ويدحرونها . فشقت طريقها بين اشجار النخيل تدريجيا الى الوهاد الرملية بينما عهدت الى مؤخرتها ان تحارب لتغطية خروج المقدمة والقلب فيها . وما ان تملص السعوديون حتى اخذوا يتقهقرون بلا نظام وبالسرعة الممكنه فى الظلام الدامس .

اما جيش ابن رشيد فقد ظل سيد الميدان ينتظر مغيب الشمس كى يستفيد من عامل المباغتة . ولكن ذلك ما لم يقدر له ان يحدث اذ ان جيش القصيم الذى وصل متأخرا جدا للاشتراك فى المعركة - وكان لا يعرف شيئا عن تراجع حلفائه السعوديين - هاجم العدو وهو يقوم بجمع اسلاب المعركة . فدارت الدائرة على ابن

رشيد وتكبدت قواته اصابات خطيرة ، عندما استدارت لتنسحب من الواحة .

ويبدو من الروايات المتضاربة التى وصلت الينا عن هذه الواقعة، أن اشتباكا وقع خلال اليوم او اليومين التاليين . الا أن القتال الرئيسى كان قد انتهى، وقد توقف القصمان حين علموا بانسحاب الجيش السعودى الرئيسى ، توقفوا عن القتال وانسحبوا الى قاعدتهم، خوفا من وصول الامدادات الرشيدية .كما سحب ابن رشيد قواته الى معسكره فى الشيحيات بعد ان ترك قوة فى البكيرية التى وصلتها الامدادات .

و سار الجيش السعودى الى عنزة ليعيد تنظيم نفسه ، وهناك انضم اليه جيش القصيم . وبعد ايام قلائل اصدر ابن سعود امره بالزحف على البكيرية ، حيث تعرض معسكر ابى رشيد لهجوم مباغت مع غياب القمر ، فاندحر . وتراجع خصم ابن سعود ولجأ الى بكيرية فنشأ عندها قتال عنيف أستمر بقية الليل والى ان توقفت قوات ابن رشيد عن القتال وفرت باتجاه خبره . ولكنها اخفقت فى الاستيلاء على تلك القرية حتى بعد عدة ايام من الحصار جلبت فى غضونها بعض المدافع لقصف اسوارها .

واتجه ابن رشيد الى رس .. فوجد خيالة ابن سعود بقيادة اخيه محمد فى انتظاره . ولما فشل فى الوصول الى هدفه ، غير وجهة الزحف الى قرية شنانة المجاورة التى اصبحت قاعدته معظم ايام الشهر ، وفى خلال هذا الشهر لم يحدث اى نشاط حربى باستثناء

بعض المناوشات بين خيالة الجانبين . ونفذ صبر جنود ابن رشيد الاضافيين بسبب صعوبة ايجاد مراع لجمالهم ، بالنظر لغارات العدو المتكررة فاضطر للقيام بهجوم مبكر في شبه تراجع الى واحة صغيرة تسمى قصر ابن عقيل على مسافة الى الغرب من شناته ، فتبعه ابن سعود وهاجمه بشدة . وبعد عدة ايام من القتال المرير قرر التراجع نتيجة ضغط قواته البدوية .

ونقلت معداته على ظهور الجمال فانطلقت في سفرتها الطويلة الى حايل .

ارسل ابن سعود خيالته لتطارد قافلة ابن رشيد الهائمة على وجهها بينما اخذ جيشه الرئيسي يضغط ضغطا شديدا على مشاه شمر والقوات التركية في مجرى الوادي . وفي الاثناء وقعت قافلة ابن رشيد بما تحمله من دخائر وكنوز ومعدات في ايدي خياله ابن سعود . وما كاد ابن رشيد يعلم بهذا الخبر حتى قرر التراجع غير ان الضغط المتواصل من قوات ابن سعود على قواته حول هذا التراجع الى هزيمة وتحولت الهزيمة الى نجاه كل واحد بنفسه .

ويذكر المؤرخ النجدي هذه الوقائع بإيجاز فيقول :

وسار بعضهم في اثر البدو ونجو بانفسهم واتجه اخرون صوب الصحراء فهلكوا بينما استسلم الباقون للامام فآواهم واحسن معاملتهم . »

لقد شغلت معركة البكرية معظم ايام ايلول وتشرين الاول ، وبعد تناوب في الخوط انتهت ساحة الميدان بنصر ساحق لابن سعود.

ومن الصعب أن نصدق كيف أن قوة تركية تتألف من ثمانية كتائب قد دحرت فى المعركة! ولكنه ينبغى علينا ان نذكر ان الاتراك كانوا يقاتلون فى بيئة غير مألوفة لديهم وأحوال غير ملائمة لهم .. كانوا يحاربون فى صحراء جدباء بصورة ممتازة وقد عانوا الهزيمة على يدى عدو شجاع ماهر ، موارده تقل كثيرا عن مواردهم . »

ومهما كان الحال ، فلقد تراجع ابن رشيد نفسه الى كهفة ، وهى قرية فى اول حدود جبل شمر . ومن هناك ارسل الى السلطات فى بغداد يعلمها بالكارثة ويطلب مساعدات اخرى.

وصدف فى هذا الوقت بالذات أن وردت اخبار عن ثورة خطيرة قامت ضد الحكم التركى فى اليمن بقيادة الامام يحيى حميد الدين، فاضطرت الحكومة العثمانية أن تقصر عملياتها الحربية فى العمل على اعادة الوضع فى الجنوب . فصدر الامر لفيضى باشا بالتحرك فورا الى اليمن لقيادة القوات المرسلة الى هناك . اما قيادة الجيوش فى الجزيرة العربية فكانت بيد صدقى باشا . وقد صدرت اليه التعليمات فيما يبدو بالتفاوض مع ابن سعود لايجاد تسوية ما، لانقاذ جنود الحملة التركية من ورطتهم فى الصحراء .

وفى هذه الاثناء ارسلت السلطات العراقية رسالة الى الامام عبد الرحمن المقيم فى الرياض ، بواسطة شيخ الكويت ، تقترح عليه الدخول حالا فى مفاوضات سياسية عالية ، ولقد وافق الامام على هذا الطلب ، فسار بنفسه الى الكويت كى يبحث الامور مع والى البصرة بحضور الشيخ مبارك ، وقد اقترح الاتراك ان تصبح القصيم دولة حيادية ، على أن يكون فيها قوة عسكرية تركية لحمايتها

وحكمها الى ان يتوصل الى تسوية نهائية لجميع المسائل المتنازع عليها بين ابن سعود وابن رشيد ويبدو ان الامام وافق على هذا الحل» ، ولم يشترط الا ان يحال الامر الى اهل نجد لإقراره . ويقول المؤرخ بخبث : « لقد كان موقنا ان اهل نجد لن يوافقوا على ذلك الترتيب».

وعاد الامام الى الرياض وعلم ان ابنه كان عائدا من القصيم ، فذهب لاستقباله فى الحاسى . وبعد ان بحث الوالد وابنه قضية مفاوضات الكويت ، قررا العودة معا الى القصيم.

والواقع ان عبد الرحمن لم يذهب الى ابعد من الشقرا ، حيث بقى هناك كى ينظم الادارة فى المنطقة ويجند الجنود لحين الحاجة بينما سار ابنه الى عنيزة لمقابلة صدقى باشا وفيضى باشا اللذين كانا لم يبرحا المدينة بعد . فكرر الاتراك اقتراحهم الأول بشأن : ايجاد منطقة حيادية ، وتمركز القوات التركية فى بريدة وعنيزة . الا أن عبد العزيز رفضه ، بالرغم من موافقة صالح بن مهنا . وكان هذا قد وجد نفسه فى دور الزعيم للقصيم حين يكون تحت حماية الحكومة العثمانية مستقلا عن حايل والرياض على السواء . وكل ما توصل اليه المتفاوضون هو اتفاقهم على ضرورة جلاء القوات التركية الى بغداد والمدينة المنورة بضمان من ابن سعود ضد اى اعتداء تقوم به القبائل على الطريق . وعلى سبيل الاحتياط من غدر الاتراك ، اشترط ابن سعود ان تعبر قوات بغداد الحدود العراقية قبل أن يسمح لقوة المدينة المنورة بمغادرة القصيم فنفذت هذه الاتفاقية فى حينها فيما يبدو وبدون اية موانع او عقبات .

وهكذا غادرت القوات التركية اواسط الجزيرة العربية بأمان .

كان ابن سعود الان فى وضع يمكنه من فرض ارادته فى القصيم الا انه كان يهدف الى تسوية ودية لمصلحته . ولما كانت دسائس الاضراب المتنافسة فى الاقليم قد أسخطته ، فاننا نراه يغادر القصيم فجأة الى الرياض تاركا تلك الاحزاب تصرف شؤونها بنفسها ولماذا لا يفعل ذلك ! لقد اطمأن الى عدم امكانية رجوع الاتراك، كما حذر زعيم بريدة صالح بن مهنا الذى اختاره لهذا المنصب - من أن ابن رشيد سيعود عما قريب ليقضى الحساب معه .

وكان الباعث الحقيقى لهذا السفر المفاجىء ورود اخبار من قطر تفيد بان احمد قد ثار على اخيه قاسم بن ثانى (الشيخ الحاكم) بمساندة عشيرة مرة وأن نتيجة النزاع كانت فى مصلحته فسارع ابن سعود بالذهاب الى مكان الاضطراب ، ولم يجد صعوبة فى القضاء على الثورة واجبار احمد على الفرار الى البحرين .

وما كاد ابن سعود يغادر القصيم حتى جدد ابن رشيد نشاطه الحربى ضد الاقليم كما تنبأ ابن سعود . فارسل جيشا قويا يغير على رس ، فاحتلها بكل سهولة بينما فرسكانها الى شقة فتبعهم ابن رشيد. إلا أن القرويين تمكنوا من صد المهاجمين بيسر. وقام بغارة اخرى بالقرب من طرفيه حيث ذبح اربعين شخصا من الحصادين العزل وهاجم عشيرة حمادين الفقيرة واستولى على أغنائها وجمالها .

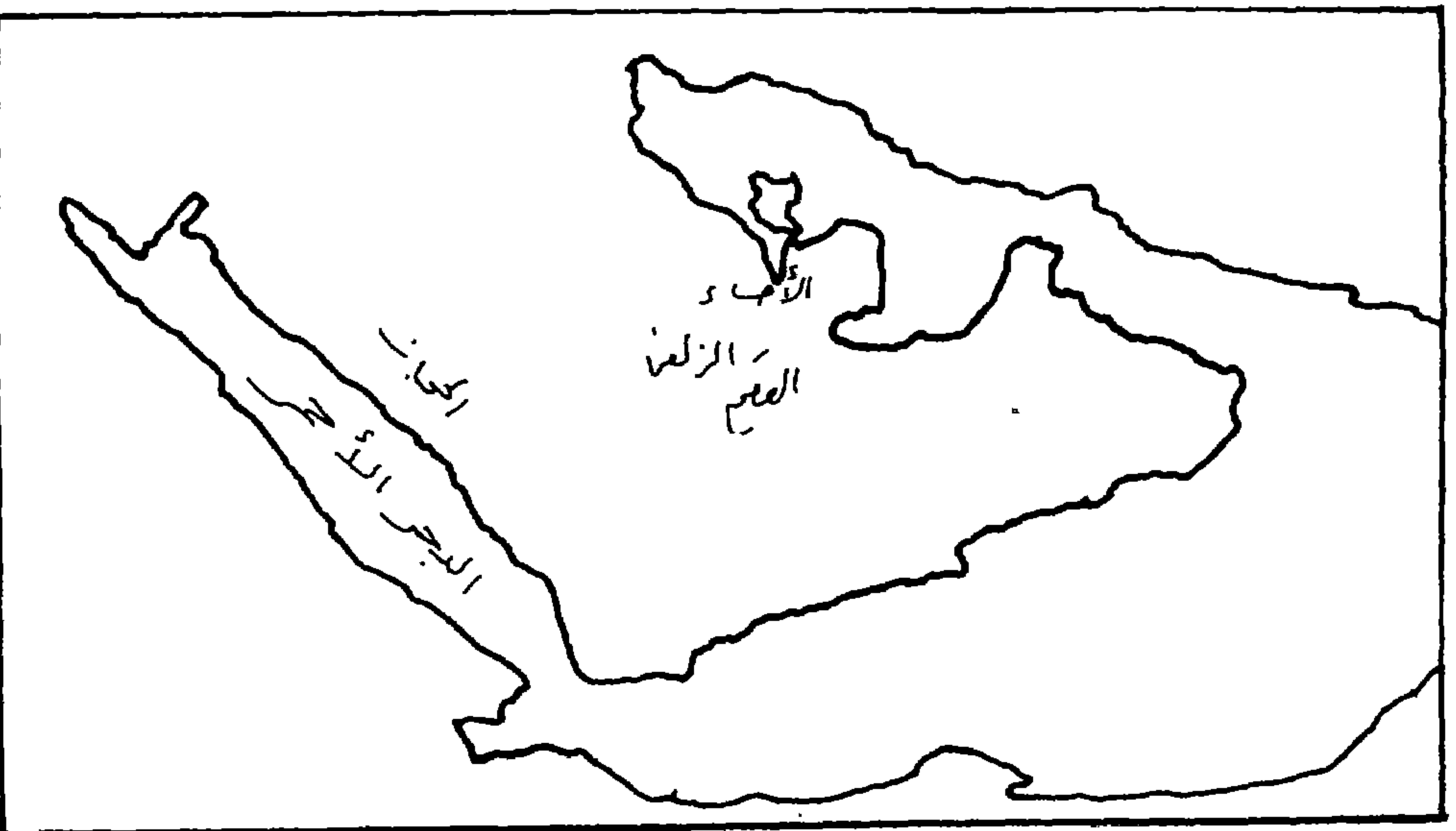
وكانت هذه الغازات تافهة اشبه بوخزات الابر ، 'لا انها تركت

شيئا من الشعور بعدم الطمأنينة فى الاقليم . ولما لام اهله صالحا بن مهنا على عدم تعاونه مع ابن سعود ، ارسل اخاه مهنا الى عنيزة ، كما بعث رسولا الى الشيخ مبارك فى الكويت ، وكان الشيخ مبارك آنذ على اتصال بابن رشيد يقترح عليه مفاوضة ابن سعود بشأن تسوية عامة . وكان ما قصده زعيم بريدة من ارسال الرسولين ان يصرف الانظار عن تآمره مع ابن رشيد.

اما ابن سعود فلم يتجاهل غصن الزيتون .. الا أن رده كان ينطوى على الحذر . وارسل اخاه محمدا ليغزو قبيلة حرب فى الغرب بينما زحف بنفسه على بريدة . وهناك انضم اليه صالح المهنا وجيش بريدة ، وسار الجميع الى سهل اسياح الرملى على حدود اراضى ابن رشيد . الا أنه لم يكن مطمئنا لمظاهر الولاء الذى ابداه صالح ، فرأى من الحكمة ان ينسحب الى زلفى ، ثم الى المجمعة تاركا جيش بريدة فى طريق العودة الى بلاده . وكان ابن رشيد فى هذه الاثناء مايزال يقوم بغاراته المتفرقة فى الصحراء الشرقية ، من معسكره فى روضة المهنا .

وقرر ابن سعود ان يضرب . .

وبعد وصل السهل بجيش قوى انضمت اليه عشيرة مطير بقيادة زعيمها فيصل الدويش الذى كان مسكله مبهما حتى ذلك الحين . ثم عبر المنطقة الرملية التى تفصله عن العدو مشيا على الاقدام تحت ستار الليل ووقع الهجوم فى الغسق فى الثالث عشر من نيسان سنة ١٩٠٦ .. واستعرت المعركة بشراسة . وأخذ ابن رشيد يشجع رجاله ويدير هجماتهم وبجانبه حامل العلم وفيما هو يقوم بهذا العمل



معركة سنة ١٩٠٦ م التي على أثرها زال كل أثر للقلق في نفس ابن سعود وطمأنته على استقرار حكمه حتى الحدود الشمالية للقصيم.

عرفه العدوَ فاطلقوا النار عليه وقتلوه .. وكان فى ذلك نهاية المعركة . اذ ما لبثت ان اندحرت قوات ابن رشيد وفرت ، بينما اسرع قادتها فى الفرار الى حايل لا يفكرون الا فى النزاع على العرش الذى خلا بموت صاحبه .

حينئذ استولى ابن سعود على معسكر ابن رشيد وعلى غنائم كبيرة وجدها هناك ، الا أنه لم يضع الوقت فى احصائها ، بل سرعان ما زحف وداهم بطنين من بطون قبيلة حرب فى Raha وابو مغير على التوالى . ثم ظهر امام بريدة حيث القى القبض على صالح بن مهنا وارسله مخفورا الى الرياض ليبقى رهن الاعتقال ، وعين ابن عمه محمد العبد الله ابا الخيل اميرا على المدينة .

★★★

ازال موت عبد العزيز بن رشيد كل اثر للقلق فى نفس ابن سعود وطمأنه على استقرار حكمه حتى الحدود الشمالية للقصيم ولم يطمع فى امتداد سيطرته الى ابعد من ذلك . كما قوى عزله لصالح بن مهنا من سيطرته على القصيم نفسها .

وخلف متعب بن عبد العزيز بن رشيد اباه على العرش ، وأخذ يفاوض بشأن ايجاد تسوية عامة فوافق ابن سعود فى الحال على استقلال جبل شمر حدوده الطبيعية ، فى حين تعهد متعب ان يعيد الى الرياض جميع الباقين من امراء عائلة سعود المتمردين . وكان هؤلاء قد لجأوا الى حايل مؤملين استخدام الوضع لمصلحتهم .بيد ان انسحاب سامى باشا الفاروقى ، القائد التركى الذى خلف صدقى

باشا ، لم يكن قد تم بعد فرأى ابن سعود انه طالما كان الاتراك موجودين فى البلاد سيظل الباب مفتوحا لحبك المكائد والمؤامرات .

والواقع ان متعبا نفسه كان يراسل السلطات فى بغداد ويتآمر معها دون نظر الى التسوية التى عقدها مع ابن سعود . ويبدو انه لم يستطع ان يقنع الاتراك بوجهة نظره الخاصة ، وإن كان سامى باشا قد حاول ان يرشو ابن سعود ليسمح ببقاء قواته فى القصيم . فرفض عبد العزيز ذلك المطلب بسخط، وارتحلت القوات في النهاية.

وعند ذلك سار ابن سعود عائدا الى بلاده . وتوقف عند شقرا حيث وافاه وفد من المجمعة ليؤكد له ولاء المدينة واخلاصها . وفى اثناء اقامته هناك وردته اخبار فيصل الدويش زعيم مطير واتصاله بالاتراك فسارع ابن سعود الى القضاء على المؤامرة بأن ارسل حملة تأديبية الى اراضى مطير . ومن ثمة قفل الى الرياض لاستقبال الوفد الذى ارسله السلطان عبد الحميد ليقدم له شكره على الحفاوة التى لقيها قواده وجيشه اثناء اقامتهم فى الجزيرة العربية .

لم يسترح ابن سعود طويلاً على اكاليل غاره . فقد دهمته اخبار من حايل عن مقتل متعب واثنين من اشقائه الثلاثه . اما الاخ الاصغر فقد هر به عبد مخلص من عبيده ونجا بجلده . وخلفه فى امارة حايل سلطان بن حمود - الذى قام بهذه المذبحة المريعة - لمدة سنة واحدة فقط . ففى كانون الثانى سنة ١٩٠٨ اغتيل بدوره على يد شقيقه : سعود فيصل . وأصبح سعود الحاكم الجديد بينما غدا فيصل حاكما فى الجوف والمقاطعات الشمالية التى كان نفوذ حايل فيها يتحدى نفوذ نورى الشعلان زعيم قبائل الرولى وكان

ذلك بلاشك بتشجيع من الاتراك الذين ما فتئوا يتلمسون طريقهم الى الحجاز عبر شمال الجزيرة . وقد سبق لواحة خيبر ان ألفت نير الخضوع لسلطان بن حمود الذى ادى عدم كفاءته الى تحويل قوافل الحجاج العراقية والايرانية عن طريق حايل الى تلك التى تمر بالقصيم ، غير أن السلطان لم يكن ليرضى بفقدان القصيم بصورة نهائية . كان لا يزال يعتمد على قبيلة مطير وحكومة بريدة لبقاء الوضع مائعا .

وكان فيصل الدويش زعيم مطير ، هو اول من رفع علم الثورة فى شهر ايار سنة ١٩٠٧ . الا أنه دحر وسحق سحقا . واصيب هو نفسه بجرح بليغ فى المجمعة - اما حكاية الاستسلام الاعتيادية والعفو فلم تحدث تغييرا دائما فى مسلكه فها نحن نجده فى الخريف معسكرا فى الطرفية لمساعدة سلطان ومحمد ابى الخيل البريدى، مقابل القصيم . ولقد بادر ابن سعود بالذهاب الى مقاطعة السر حتى طلب الى قبائل عتيبة وقحطان وسبيع والسهول ان ينضموا اليه بكامل قواتهم . ومن ثم تقدم نحو عينزة مغيرا على مراكز سلطان الامامية ، الموزعة هنا وهناك ، بعد أن ارسل قوة لقمع قبيلة مطير فى الطرفيه . ومن هناك زحف بنفسه ليوقع هزيمة ساحقة بفيصل ويستولى على معسكره . اما سلطان واهل بريدة فحاولو ان يباغتوا ابن سعود فى مكانه هذا فى العشرين من ايلول ، غير ان المعركة التالية انتهت بهزيمتهم التامة وفرارهم الى بريدة . ومن ثمة، عاد سلطان الى حايل تاركا أخاه فيصلا لمساعدة محمد ابى الخيل فى حالة حدوث اضطراب . وفى هذه الاثناء ارسل ابن سعود

قوة من الخيالة لمراقبة بريدة ، ثم قام بسلسة من الهجمات فى شتى الجهات حتى البكيرية والرس وبلاد حرب بجوار النبهانية وبعدئذ عاد الى الرياض ليستجم فترة من الزمن .

لكنه سرعان ما كر الى القصيم لدى سماعه اخبارا كاذبة عن ان سلطاناً كان يزحف على بريدة فتقدم حتى بلغ الى كهفة فى انتظار هذا الزحف ، ولما لم يجد اثرا للعدو اغار على معسكر طوالة شمر فى فيد . من ثم انسحب الى البكرية حيث بلغه خبر قتل سلطان فى كانون الثانى سنة ١٩٠٨ .

اما سعود ، الحاكم الجديد فانتهز الفرصه واخذ يبحث عن تسوية مع ابن سعود الذى غدا الآن حرا فى ان يوجه نضاله الى بريدة للوصول الى تسوية نهائية مع اهلها . كان البريديون قد انهكهم الخوف الدائم الذى وجدوا انفسهم يعانونه من جراء سياسة محمد ابى الخيل الانانية ، فاتفقوا على أن يصلوا بابن سعود سرا ليفتحوا له احد الابواب ذات ليلة أثناء صلاة العشاء . وقد تم ذسلك بالفعل ، فاستولى الرجال المخصصون لهذا الغرض على ابراج السور الدائرى بكل سهولة . وحجبت المساحة الواسعة التى امام الحصن عن بقية المدينة بقوة قوامها ثلاثمائة رجل بينما قرأ الناس فى الجوامع والامكنة العامة اعلان ابن سعود باعطاء الامان لكل المواطنين الموالين بعد ان يسلبموا ما معهم من الاسلحة . وكان تأثير ذلك سريعا حتى لم يبق امام ابن سعود من يقاومه سوى محمد نفسه ، وعدد ضئيل من رجاله الذين أغلقوا القلعة عليهم وتحصنوا فيها ليقاوموا الحصار . لقد كان وضعهم يائسا .

وبعد بضعة ايام من المناوشات العقيمة طلب محمد عرض شروط التسليم . وتم الاتفاق على اساس تسليم جميع الاسلحة وضمان سلامة محمد الشخصية وعائلة وخدمه الذين تركت لهم الحرية فى الرحيل فى سوق الشيوخ . وكان محمد ابو الخيل اخر حاكم وطنى فى بريده . ولم يعد بامكان ابن سعود ان يغامر بترك العائلات الرئيسية تعكر السلام فى مواطنها بفعل التنافس على إمارة الإقليم.. كانت الحاجة ماسة الى يد حازمة تبقى روح القصيم المتوقدة فى نطاق السيطرة عليها . ولهذا كان الحاكم السعودى الجديد هو ابن عم عبد العزيز ، عبد الله بن جلوى ، الجبار . فظل مسؤولا طيلة السنوات الخمس التالية، والى ان احتيجت خدماته للقيام بمسؤوليات اخطر فى مناطق اخرى .

وهكذا لم تعد القصيم بؤرة الاضطراب فى الجزيرة العربية ولا مصدر القلق فيها كما كانت خلال السنوات الحرجة من سنى كفاح ابن سعود للسيطرة على نجد .

لقد استسلمت بريدة فى التاسع والعشرين من ايار سنة ١٩٠٨ ، فسارع سعود حاكم حايل الجديد الى البحث عن تسوية مع ابن سعود الذى كان على استعداد للاعتراف باستقلال جبل شمر على شرط الا تكون مصدر تعكير لصفو بلاده بعد الان . وارسل سكان المجمعة وفدا برئاسة زعيمهم عبد الله الى العسكر al - Askar لتقديم الاعتذار عن موقفهم المبهم ، والاعلان عن ولائهم للنظام الجديد . ويبدو ان الفيضان العظيم فى مكة كان خاتمة بركات السماء فى هذه السنة التى شهدت انجازات باهرة . فدخلت المياه

المتدفقة رحبة الجامع الكبير (الحرم) وشكلت بحيرة عمقها عشرة اقدام حول الكعبة نفسها .

كان ابن سعود يأمل فى فترة سلام الان .. ولكن آماله قد تحطمت بانتكاس الحالة فى حايل وحدوث اضطراب فيها ، اذ أن الاهلين فى المدينة كانوا يرغبون فى اعادة الامارة الشرعية الى سعود بن عبد العزيز البالغ من العمر عشر سنوات والذى نجا بفضل احد عبيده حين اغتصب سلطان بن حمود الحكم ، وهرب الى المدينة المنورة وفتحت الابواب من قبل الموالين فى حايل ، وقتل سعودبن حمود في المعركة التى نشبت بعد ذلك بينما تخلصوا من بعض اعضاء العائلة الاخرين بقتلهم الا أن اثنين منهم وهما : ضارى وفيصل تمكنا من الهرب ، وحلاضيفين على الرياض . وقد اعلن تعيين سعود بن عبد العزيز الرشيدى اميرا تحت وصاية حمودبن صبحان الذى كان ابنه عبد العزيز زوج اخت الامير الرشيدى الوحيدة . وكان زامل ساعده الايمن فى حكم الدولة وقد خلفه فعلا فى منصب الوصى على العرش لبضعة أشهر عندما توفى حمود مسموما . ومن اجل تقوية سيطرته على امور الدولة تزوج زامل ام سعود الامير ، وكان زوجها الرابع فقد كانت سابقا وعلى التوالى زوجة محمد بن رشيد العظيم، وعبد العزيز بن رشيد ، وسلطان ابن حمود قاتل ابن زوجها ، متعب، وخلفه ان احتجاب النساء فى الجزيرة العربية لم يحل قط دون ان يكن ذوات دور هام فى تقرير الامور السياسية (فى لعبة شطرنج الدولة)

وكانت خطوة حمود الاولى محاولته تأمين رضا صاحب الرياض

عبد العزيز ابن سعود .الا أن هذا ولسبب مجهول فى كتب التاريخ التى بين أيدينا، رفض تقرب وصى حايل بان هاجم قبائل شمر فى جوار شعيبة بينما راح يبحث عن زامل فى النفود ، وكان معروفا ان (ابن سعود) يقوم بمناوراته هذه مقدمة للهجوم . ثم انتقل الى مكان يسمى الاشعلى ونصب خيامة كالمعتاد مع جميع عتادها وانسحب بعض المسافة ليرقب التطورات اما زامل فسار ليلا حتى واجه المعسكر وقام ببعض الاستعدادات للهجوم . فاعلمته احدى دورياته بانه كان خاليا . وكان هذا فشلا ذريعا لا يستأهل ما اجراه من ترتيبات ، فاتجهت القوة بكاملها صوب المعسكر ونهبوا ودمروا جميع معدات الاعداء الذين وقفوا يرقبون ما يجرى منتظرين ان تحين ساعة هجوم مباغت .. وحانت الساعة .. فتلت ذلك المعركة المحتومة ثم عقبها الفرار .

وسار ابن سعود مارا فى طريقه من القبة والى القصيم ، ثم الرياض .

وفى تلك الايام كانت اواسط الجزيرة العربية تعانى ضيقا شديدا من جراء الجفاف العظيم الذى دام عدة سنوات واصبح يعرف باسم الساحوت فى اخبار البلاد وتاريخها وبالرغم من هذا الجفاف او بسببه حل عهد من السخط وعدم الاستقرار وتحملت موارد ابن سعود الضئيلة اقصى ما يمكن ان تكلف به ففى خلال غياب ابن سعود فى الشمال بلغت والده عبد الرحمن اخبار مزعجة عن احتكار محلى فى منطقة الحريق ، حيث قتل امير حزّان على يدى اثنين

من ابناء عمه الصغار فأرسل الامام قوة لوضع حد للاضطرابات ، القت القبض على القتلة وسلمتهم الى اشقاء ضحيتهم فذبحوهم .

وما كادت القوة تغادر المنطقة حتى وقع حادثا قتل آخران . فشخص عبد العزيز بنفسه الى المدينة ليعالج الموقف هناك . ولكن الزعماء المتمردين رفضوا طلبه بتحويل القضية الى المحكمة الشرعية ، ولجأوا الى حصنهم واستحكموا فيه ليجابهوا حصارا استمر خمسين يوما . وفي نهاية هذه المدة وضع ابن سعود لغما تحت الحصن وهددهم بنسفه بكل من فيه مع الاطفال والنساء فاستسلم الزعماء ونقلوا الى الرياض ، حيث زجّ بهم في سجن المسمك مدة سنتين وعند انتهائهما اطلق سراحهم على اثر وساطة قاسم آل ثاني امير قطر.

وكان في هذه الاثناء ان نشب خلاف بين مبارك شيخ الكويت ، وبين سعود باشا زعيم قبائل المنتفك العراقية . وقد زحف ابن سعود الى مقاطعة حجيزة بالقرب من الحدود العراقية تلبية لنداء تلقاه من الشيخ مبارك ، وسار على رأس قوة قوامها سبعة الاف مقاتل معظمهم من الكويت بقيادة جابر .

وسرعان ما اشتبكت هذه مع قوات سعدون باشا التي كانت تساويها في العدد ولكنها ترجحها في القوة بفضل المدافع .

وتجاهل جابر نصيحة ابن سعود له بوجوب هجوم قواته البدوية على معسكر العدو ، وابتدأ معركة «هادية» في السادس عشر من حزيران سنة ١٩١٠ بهجوم من الخيالة . اما سعدون فكان قد

احتفظ بخيالته ولم يأمرها بالاشتراك فى القتال الا بعد ان توقف هجوم العدو واندحر فى فوضاه وهكذا اختفت القوات المتحالفة فى الصحراء هاربة الى الكويت بينما احتلت قوات المنتفك معسكرهم ونهبته.

كانت هذه المعركة جزأ فقط من حركة شاملة الغاية منها الحد من جهود زامل ابن ضبحان فى سبيل استعادة شيء من امجاد حايل الماضية . وفى الوقت الذى كان فيه سعدون باشا حليفا لزامل ، كان نورى الشعلان الذى انتزع الجوف ومقاطعة وادى السرحان من سلطة حايل ، قد انضم الى قبائل عمارات وعنزة للضغط على زامل فى الشمال والشمال الشرقى بينما فعلت قوات ابن سعود والكويت نفس الشيء من الجنوب . وقد رأينا كيف ان فقرة من فقرات هذا البرنامج لم تنفذ يوم هادية .

وفى نفس الوقت تقريبا هاجم زامل الحلفاء الشماليين فهزمهم هزيمة ساحقة وفى تلك الايام الحرجة ثارت واحة تيماء فى الغرب فاحتلها الاتراك الذين قدموا من المدينة المنورة ، بناء على دعوة من اهلها مما اضطر زامل الى الهجوم عليها حيث كان النجاح حليفه مرة اخرى . فأكره الحامية التركية على التقهقر وتعرض السكان الى انتقام مريع لعدم ولائهم .

وفى نفس الوقت انتهز سعدون وزامل الجفاف الذى كان يسود البلاد فتآمروا مع العجمان فى الصحراء الشرقية لاستمرار الضغط على جناح ابن سعود وتعقد الوضع اكثر فاكثر بسبب انضمام احفاد

سعود بن فيصل الى قبيلة العجمان المعادية بعد ان غادروا الرياض إثر استيلاء ابن سعود على عنزة سنة ١٩٠٤ كما ذكرنا .

كان هذا تطوراً سيئا بسبب نتائجه الوخيمة المباشرة . فقد كانت معاملة ابن سعود لابناء المنشقين كريمة بالرغم من كونهم اقل مرتبة بين اعضاء الاسرة المالكة ، مما جعل فى غير مقدروه استخدامهم فى مناصب الاقليم المهمة ، بدون مجازفة ولا غرابة ان نجد اشخاصا فى ربيع العمر يغضبون للبطالة التى فرضت عليهم فى زمن يعج بالاحداث والمغامرات المثيرة .

ومع ان هذه العوامل كانت كافية لابن سعود الا أن كأس مرارته وآلامه لم تمتلىء بعد. صحيح ان زامل قدم عرضا للصلح فى سنة ١٩١١ ، وقبلت على اساس محدود هو الاعتراف باستقلاله فى جبل شمر فقط .. الا ان هذا الاتفاق لا يدوم الا اذا كان ملائما للاطراف المعنية .

وفى هذا الوقت ظهر عدو آخر فى الغرب . فان الاتراك لم يتخلوا قط عن فكرة ارساء سلطانهم وتثبيته فى اواسط الجزيرة العربية ، ولما كانت اختباراتهم لابن رشيد مخيبة للامال نراهم يتجهون الان الى الشريف حسين ، الذى عينوه اميرا على مكة سنة ١٩٠٨ وهى السنة التى انجز فيها مد الخط الحديدى الحجازى حتى المدينة المنورة .

وكان هذا الشريف قد قضى طفولته بين البدو قبل نفيه الطويل فى الاستانة (اسطنبول) ، والآن وهو فى الستين من عمره كانت

لديه الفرصة لاظهار ما يمكنه ان يفعله فى سبيل تدعيم مركزه كعامل له خطورته فى سياسة الصحراء .

وعلى العموم ، بدون عمل ايجابى من لدنه ، واصل الشريف سياسة اسلافه فى منع امتداد الخط الحديدى الى مكة . ومن ناحية اخرى اظهر حكمة ومزايا قيادية فى اثناء الحملة التى وكلها اليه الباب العالى ضد الثائر ادريس زعيم قبائل محمد ، الذى احتل مرتفعات عسير وابها فى الوقت الذى كان فيه الاتراك منهمكين فى قمع ثورة الامام يحى الخطيرة فى اليمن ، فاستعاد حسين اقليم عسير لأسيادة وعاد الى مكة عن طريق واحة بيشة ورنيا وترابة ، رافعا علم النصر . وشجع نجاحه هذا الاتراك على ان يستخدموه فى توطيد نفوذهم فى الصحراء .

وفى نهاية عام ١٩١١ ، واوائل السنة التالية . زحف بقوة كبيرة الى بلاد عتيبة : فوصل القويعية فى اللحظة التى وصل فيها سعد شقيق ابن سعود المحبوب ليجند المقاتلين للقيام بحملة ضد العرايق الذين خرجوا فى ثورة سافرة ، ،وتمركزوا فى مقاطعتى الحوطه والحريق فالقى القبض على سعد ، واخذ حسين رهينة ، ثم دعا ابن سعود ان يفتديه بقبوله السيادة التركية ودفعه جزية سنوية اسمية عن القصيم .

ترك ابن سعود المطالبين بالعرش (العرايق) وشأنهم بصورة مؤقتة وتتبع حسين فى اثناء تراجعه الى الغرب مع غنائمه الكثيرة. اذ كان حسين يحرص دائما ان يكون بعيداً عن اى أذى قد ينشأ. وفى الواقع لم يكن لابن سعود اقل خيار فى الامر، فقد كان

مستعداً لان يذهب الى اقصى لانقاذ اخيه من براثن العدو. وبعد محاولات ناجحة للتفاوض بشأن امور اخرى، اضطر ابن سعود الى التوقيع على وثيقة قدمها حسين، الذى استمر فى سيره يهلل ويرفص طرباً. بينما أطلق سراح سعد وانضم الى اخيه.

لقد كسب امير مكة نصراً عسكرياً لقضية الاتراك. الا ان خصمه لم يقصد كما يبدو، ان ينفذ بنود الاتفاقية. فلم يدفع جزيةً على الاطلاق. وسرعان ما اخل بوعده الشفهى بالخضوع لسيادة السلطان، بقيامه باجراء لم يترك مجالاً لسوء الفهم.

عاد ابن سعود مع اخيه الى الحريق، واحتل المدينة.وكان قد فر منها المطالبون بالعرش ليطلبوا مساعدة اهل الحوطة لدى اقترابه منها. فرفض اهل الحوطة ان تكون لهم اية علاقة بالثورة مما اضطر الأمير سعوداً بن عبد العزيز وابناء عمه الآخرين، الى متابعة هربهم الى اقليم الافلاج حيث تمركز اخوه فيصل مع بعض من زعماء حزان فى السيح. اما بقية الاقليم فقد كان يسيطر عليه ابن سعود بواسطة الحاكم احمد السديرى الذى أبلغه ان معظم المطالبين قد هربوا والتجأوا الى الشريف.

وحينئذ وقع سعود ابن عبد العزيز وجماعة Hazzan اسرى فى يد صاحب الرياض فى ليلى. ولدى وصول ابن سعود استعرض الاسرى امامه، وحكم على زعماء حزان بالموت، فنفذ فيهم الحكم فى نفس المكان. اما سعود قائد الثورة فى الغريب أن خصمه أطلق سراحه وخيره بين اللحاق بأبناء عمه فى الحجاز او البقاء معه. فاختار البقاءمعه، وظل موالياً لرئيسه على الدوام.

وبعد ان تخلص ابن سعود من ابناء عم الثائرين قام بغارة على العجمان الذين. آووهم فكانوا بذلك مصدراً دائماً للمتاعب. وفي اثناء وجوده في الصحراء الشرقية وصلته رسالة من الشيخ مبارك يطلب فيها مساعدته ضد قبائل المنتفك والظافر عند العراقية. الا انه بعد ما رآه من جابر يوم هادية لم يكن ميالاً للتعاون على الاطلاق، لولا ان ورود رسالة اخرى اكثر اهمية من سابقتها حملته على تغيير رايه. فسار على رأس قوة كبيرة الى حفار البطين حيث وافاه حمود بن سويط وعقد معه الصلح. كما اعلمه في نفس الوقت ان مباركاً نفسه قد أنذره مسبقاً بالحملة لانه، فيما يبدو، كان يحاول ايجاد توازن في القوى في الصحراء. فاغار ابن سعود على قبائل المنتفك في كبدة وظهر فجأة في صموان بالقرب من البصرة والزبير.

ومهما كانت الدوافع في هذه التظاهرة التي قام بها ابن سعود والاتراك على احر من الجمر بسبب اشتداد الحركة العربية الوطنية في سوريا والعراق بعد ثورة ١٩٠٨ فقد بادر الى الانسحاب لدى وصول الوفد السلمي الذي يمثل والي البصرة وسكان الزبير. ثم سار الى جهرة بالقرب من الكويت حيث قام بغارة اخرى على العجمان في منطقة الاحساء. وذلك بعد ان اوضح له مبارك الامر معتذراً شديد الاعتذار عن مسلكه المبهم الاخير.

وكان دور لاتراك الآن، تحت ضغط اتساع سلطان ابن سعود في شؤون الصحراء، ان حاولوا جره الى جانبهم ليكون القوة المرجحة ضد الحركة الوطنية في البلدان الواقعة على الحدود. لذا ارسل سليمان

شفيق باشا والى البصرة ليتأكد من وضع الزعيم الوهابى، ولطلب مشورته بصدد افضل الطرق فى معالجة الوضع العام.

وكان جواب الامير الوهابى المدون شيقاً بلا شك، لانه كان اول اطروحة له فى ممارسة السياسة. فبعد مقدمة خاصة انحى فيها باللوم المحق على الاتراك أنفسهم، معتبراً اياهم السبب فى المتاعب التى ضيقت عليهم فى كل جزء من الامبراطورية العربية، قال: لقد كانوا قانعين بان يكونوا حكاماً دون ان يعرفوا مسؤولية الحكام فى التفكير بمصلحة رعاياهم. فاذا نشدوا السلاح فى الجزيرة العربية ليتفرغوا لمعالجة متاعبهم الداخلية يكون عليهم ان يتوصلوا الى تفاهم مع العرب على اسس من الحرية والرضا. كما يجب عليهم ان يجمعوا جميع زعماء العرب: صغيرهم وكبيرهم، بدون تمييز فى مؤتمر عام، وفى مكان لايخضع للإدارة العثمانية، حتى يكون هناك مجال لحرية الكلام المطلقة.

والغاية من هذا الاجتماع ايجاد توافق وانسجام فى البلاد العربية. ويجب ان يكون للزعماء الخيار: فإما ان تشكل الدولة العربية مجموعة واحدة يراسها حاكم يختارونه بانفسهم، اويبقى الترتيب الحالى القائم على كيانات سياسية منفصلة تتمتع كل منها باستقلال محلى تام، وتظل الواحدة منها تحت سيادة حاكمها الذى يشبه الوالى فى الاقليم التركى. واذا لزم الامر، يجرى تخطيط حدود معرفة وثانية بواسطة مساعى الاتراك الطيبة. وفى أى حاله ستبقى البلاد العربية تحت سلطة السلطاء العليا الذى سيكون مسئولاً عن تنظيم الدفاع وتطويره ايضاً، بينما يتوجب على اهل

كل وحدة حاكمة ان نتعاون مع جيرانها فى حماية الصالح العام وتشجيع العمل له، مع ضمان تعاون الجميع لدفع العدوان من اية كان.

ثم انهى كلامه قائلاً :

وبهذا الطريقة فقط يمكن لمصالحكم ولمصالحنا ان تتفق وتنجح، كما يمكن ضمان حمايتها ضد اى عدو خارجي.

ويذكر أن متصرف البصرة قد تأثر بهذا الخطاب، فأرسله الى الباب العالى لإمعان النظر فيه. ولا بد ان الباب العالى اعتبر هذا الجهد من جانب ابن سعود محاولةً لبسط نفوذه على كامل الجزيرة العربية بمساعدة الامبراطورية العثمانية وعلى حسابها. ومع ذلك كان الاجدى بالباب العالى ان يختار فترة الهدوء النسبى هذه، لتعد الدولة العثمانية شراعها للعاصفة القادمة.

اما بن سعود، فبعد ان ثبت لديه ان مقترحاته لم تلق آذاناً صاغية، لم يجد بداً من ان يحمى نفسه بترتيبات اخرى. وكان قدحاول، عبثاً، طوال السنوات الاثنى عشرة السابقة ان يثير اهتمام الحكومة البريطانية، بصفتها الدولة الوحيدة ذات المصالح الحيوية والقوة الكافية فى الخليج الفارسى، لضمان مركزه فى الجزيرة العربية ضد اى اعتداء من اية ناحية. الا ان بريطانيا لم تكن ميالة لزج نفسها فى مغامرات فى الصحراء. بل كانت مهتمة اشد الاهتمام بارضاء تركيا سياسياً، ترضية تتلاءم وحماية مصالحها فى الخليج الفارسى.

وهكذا وبسيطرة الاتراك على اقليم الاحساء سنة ١٨٧١ واستيلاء بريطانية على جميع منافذ ساحل الجزيرة العربية من الكويت حتى مسقط، وجد ابن سعود نفسه سجيناً فى الصحراء، ومكشوفا من الشمال والغرب لهجمات اعداء يتمتعون بمساعدة الاتراك وتشجيعهم، بينما كان هو يعتمدعلى ولاء القبائل،ومدن بلاده، الغير المضمون.

كان هذا مصدراً لضعف خطير. ولابد ان ابن سعود امضى ساعات وساعات خلال سنوات الكفاح السابقة وهو يفكر فى الوسائل الكفيلة بمجابهة اهواء القدر وتقباته، هذا القدر الذى أذل اسلافه بين الحين والآخر خلال تاريخ الحركة الوهابية التى بوأت البيت السعودى مكان السيادة فى الجزيرة العربية. وقد شاهد هو بنفسه انهيار دولة محمد بن رشيد (ولعب دوراً بارزاً فى هذا سبيل) حالما توفى صاحب اليد القوية وزالت قبضته عن دفة السفينة. وحتى الامبرطورية العربية فى ايام الاسلام الاولى تبددت بفعل القيادة الضعيفة والانحطاط الذى ولدته ثروة الاقاليم التى فتحها المسلمون.

ويبدو ان هناك ضعفاً فى جوهر المجتمع الصحراوى. فانه وان كان اهلاً للاعمال البطولية بدافع قضية كبرى او تحت تأثير شخصية عظمى، فهو فطرياً يعجز عن الحفاظ لأمد غير محدود، على النظم الضرورية لتطوير ثمار النصر للصالح العام. فالقبائل الصحراوية والدول المدينية كانت على السواء واقعة تحت تأثير شعور من الولاء المحلى او القبلى الذى تغلب على شعور الوطنية، والمشاعر العامة الضرورية لاقامة دولة يسودها النظام.

هذا هو الضعف الذى وجد ابن سعود نفسه مضطراً لايجاد علاج له. فتاريخ اسرته جعل من الدين العنصر الأساسى لهذه الدولة. ولاشك بانه وإباه كانا وهابيين صادقين مخلصين الا انه فى اوار القتال الضارى الذى دار فى تلك السنين الخوالى يعوزنا اى تاريخ مسطور يدل على الناحية الدينية فى عملياتهما الحربية.

ومع ذلك، يمكن الافتراض ان فكرة نهضة وهابية اخرى كانت تختمر فى رأس ابن سعود كعامل سياسى يستفيد منه..

لقد تأثر بفكرة جديدة من النوع العادى لهذه النهضات، وقد ركز جهود دعاته وحاملى رسالته بين البدو، تلك الجهود التى بدأت ثمارها فى الظهور سنة ١٩١٢. ففى تلك السنة اجتمعت جماعة مختلفة من قبائل حرب ومطير فى حرما بالقرب من المجمعة متأثرة بتحذيرات الدعاة من العقاب الابدى، واخذت تبحث عن معلومات اوفى حول هذا الموضوع ومن مصادر اوثق. وقد ساعدهم فى هذا الامر المتحمسون من السكان المحليين. إلا أن تعصبهم وشدة تمسكهم وتزمتهم لمظاهر التقوى الشخصية سرعان ما أسخطت عليهم السكان الآخرين.

وقد قررت هذه الجماعة التى عرفت باسم الاخوان، البالغ عددها خمسون شخصاً وعائلاتهم، الهجرة الى بيئة يكونون فيها اقل تعرضاً للخطر. فوقع اختيارهم على آبار أرطاوية الواقعة على طريق القوافل بين الكويت والقصيم، لتكون بمثابة مستعمرة نساك، وسرعان ما اصبح هذا المهجر نموذجاً لتجمعات العسكرية الدينية

التى ظهرت تباعاً بسرعة مدهشة فى جميع أنحاء البلاد التى تتوفر فيها الاحوال الملائمة للحياة الاجتماعية فى هذه المهاجر التعاونية.

اما ابن سعود الذى بدأ عملية التجديد بين البدو بواسطة دعاته ومرشديه، فقد وضع جميع التسهيلات الضرورية تحت تصرفهم: المال والحبوب والادوات الزراعية وعلماء الدين، وكل ما هو ضرورى لبناء الجوامع والمدارس والمساكن. واخيراً زودها بالذخيرة والسلاح اللازم للدفاع عن مذهب كان اهم مبادئه الاساسية نبذ جميع العادات الوثنية والتقاليد القبلية الموروثة. فالاخوة القائمة بين جميع الناس الذين اعتنقوا المذهب الجديد، بغض النظر عن انسابهم القبلية ومراكزهم الاجتماعية. وجهت شوق العرب للحرب، الى خدمة الله ووكيله على الارض. واصبحت الغارات المتبادلة والسرقة على قارعة الطريق، والتدخين وترف الحياة وطراوتها - محرمة. وتركز جل الاهتمام فى هذه التعاونيات (المستعمرات) فى التفكير والعمل لحياة اخرى.

اما نشاط الخمسين رجلاً من الاخوان واعمالهم، فقد كانت مدار بحث واسع فى القبائل التى هجروها، فوفد المتطوعون من كل ناحية لينضموا اليهم. وسرعان ما اصبحت أرطاوية مدينة مزدهرة تضم عشرة آلاف من السكان. وتبعتها غطغط فى مقاطعة ضرما فتأسست فيها نواة من عتيبة، اعتنقوا المذهب الجديد. ومع مرور الزمن اصبحت فى المرتبة الثانية بعد ارطاوية فى حماسها واهميتها. ثم أنشئت القرى فى كل مركز بسرعة مدهشة، فنالت كل منها جزاءها فى الدينا والآخرة.

هذا مع العلم ان حماسهم البالغ مبلغ التعصب فى القضاء على الوثنيين المشتركين (كلمة ضمنوها غير المسلمين، والمسلمين الذين لم يعتنقوا مذهبهم فى الدين القويم) كان يستلزم الضبط والتقييد فى ساعة النصر والسلم على السواء. ولهذا كان جيش ابن سعود يضم ايضاً قوة من الاخوان، يسيرون تحت اعلامهم الخاصة يرافقهم البدو الذين لم يعتنقوا المذهب بعد، والحضر من الجيش الوطنى القديم. فكل فصيلة لها مهمتها الخاصة التى تقوم بها فى العمليات الحربية الآنيّة. وكان الاخوان هم خميرة المجموعة كلها بحكم شراستهم واندفاعهم العظيم الذى كثيراً ما أفاد ابن سعود فى التغلب على اعدائه.

وفى السنوات التالية ازاداد عدد هجر الاخوان مع انتشار الحركة فى اقصى نواحى ديار البدو. غير أن المنزلة الرفيعة فى سجل الشرف يجب ان تكون من خظ الهجر الاولى التى اتخذت نموذجاً للاخرى. فاعتنقوا المذهب من قبيلة مطير واستقروا فى ارطاوية، عاصمة المذهب الجديد، وامتدت فروعهم الى مبيض وبوضا وفريتان Furaithan ومليح والقريتان The two Quariyas. اما بطن برقة من قبيلة عتيبة فكان صاحب غطغط ذات الصيت البعيد، والروضة واروى وسنام. بينما. اسس بطن رقة هجراً له فى داهنة وسوح والعرجا وساجر وعسيلة وكبشان ونيفى. اما هجر حرب فكانت دخنة وشبيكة والدليمية وقرين وساقية وحليفا، وحنيظل، وبارود وخصيبا وقبا وفواره. ونزل المهتدون من شمر فى بنوان وفطيم وقصير وحفيرة وبلازية وخبة واليتم والأجفر وكهفا وبيضة نائل. اما

عناصر عنيزة فاستوطنت فى شعبية والقلبان وشقيق. بينما قصدت قبيلة هتيم المتواضعة الى خريفات والمسعى ومرير. واما قحطان فهى صاحبة هياثم وجعفر وحصاة alHasat(حفيرية) فى حين ان اهل وادى الدواسر استوطنوا مشيرفة ووسيطة من جملة اماكن اخرى. وسكن العجمان فى صرار Sarar وحنينا Hanina وصحاف Sahaf والعقير وعريره ونطاع Nata اما العوازم فاستوطنوا الحاسى وتج والحنات وعتيق. وكان هناك مستعمرات مختلطة فى شباك وأبيرق وعين دار: اما الاخوان من سبيع والسهول فاستوطنوا ظبيع وبدع، وسنيسف وأخضر وطسم والرويضة.

وهكذا كانت القبائل ومهاجرها.. وهى التى كونت الناموس الجديد. وسرعان ما وضعها ابن سعود موضع العمل فى حملات المرحلة الثانية من مراحل زحفه لقيادة الجزيرة العربية وسيادتها. زحفة لقيادة الجزيرة العربية وسيادتها وقد بدا ان حملات تلك المرحلة قد تعدت بصورة ما ، نوعية الحروب الضيقة المحدودة الى مستوى اعلى فى الصراع الدولى ، لتواجه مجازفات خطيرة اعظم من اى مجازفة واجهتا من قبل .

وقد نجح ابن سعود فى حروبه هذه . وكان مدينا بهذا النجاح الى قوات الاخوان على الخصوص . غير انهم ما لبثوا ان وضعوا سياسته فى مأزق حرج ، عندما اصبحت مسؤولياته الدولية تصطدم مع المعتقدات الدينية لزعاياه فالمؤرخ النجدى - الذى كتب بعد الحادثة - يوضح كيف ان ابن سعود الكريم اختص المستعمرات ومكنها من الوقوف على اقدامها فعين اميراً وكل اليه تطبيق

العدالة بين الضعيف والقوى من ابنائها كما زود كل واحدة منها بفقيه يعرف اهلها بحدود الشرع ويهديهم الى ما فيه منجاتهم فى الدنيا والاخرة .

هذا علاوة على انه وفر للمهاجر الطعام بسخاء ويسر لهم الالات الزاعية والسلاح والذخيرة.

ويقول المؤرخ : ظلت هذه الهجر ثابتة الايمان مدة خمسة عاما حتى ملأتهم الثروة والرخاء بالكبرياء وجعلتهم يفاخرون بقولهم: ان انتصارات ابن سعود كانت ثمرة بسالتهم وشيمهم الكريمة.

ويضيف قائلا : هذا ما كانوا يعتقدونه .. وسافصل فيما بعد ما ترتب على مسلكهم هذا من نتائج .

الفصل العاشر

التثبيت والاستقرار

فى نهاية عام ١٩١٢ تأصلت حركة الاخوان بصورة حاسمة ، وضمنت سرعة تعبئة هذه القوة الضاربة المستوحاة من المثل المتعصبة وأصبح ابن سعود السيد المعترف به فى أواسط الجزيرة العربية ونجد ، من اقليم وادى الدواسر جنوبا الى حدود جبل شمر شمالا ، ومن الحدود الغربية للاحساء الواقعة تحت الحكم التركى الى الحدود الشرقية للحجاز الذى كان ايضا جزءا من الامبراطورية التركية .

وكان هذان الاقليمان متصلين بعضهما ببعض بواسطة قوس يحوش العراق وسوريا .

اما جبل شمر الذى كان يعترف بالسيادة العثمانية ، فشكل دولة مستقلة تمثل مقاطعة داخلية من العراق وسوريا ، والقسم الشمالى من الحجاز ، ما فوق خط عرض ٢٧ . كانت الدولة الوهابية لم تبلغ اية نقطة على البحر ، بينما تحيطها من كل ناحية مراكز امامية توسعية لدولة عدوة تقليدية تقوى مركزها باحتلالها اليمن وعسير .

هذا فيما عدا الجنوب ، حيث صحراء الربع الخالى الواسعة التى ظلت تشكل خطاً دفاعيا طبيعيا ضد المناطق الواقعة على ساحل المحيط الهندى . ففى الطرف الجنوبى من اليمن كانت محمية عدن،

المستعمرة البريطانية ، واراضى الكويت التى تعتبر عنصرا فعالا فى انشوطة الممتلكات التركية الشاسعة التى تحد الدولة الوهابية من ثلاث جهات ، كانت قد التجأت الى الحماية البريطانية . أما البحرين، والساحل المهادن ، وطرف عمان الساحلى ، ومداخل حضرموت فهى خاضعة للسلطة البريطانية بصورة او اخرى .

ومما زاد فى متاعب ابن سعود أن جميع البلاد التى كان يحكمها محرومة تماما من اية موارد طبيعية مهما كان نوعها . فمحصول التمر فى دولته لا يكاد يكفى حاجات سكان البلاد ، لا بدوهم ولا حضرهم .

وأما محصول القمح فقليل يحتاج الى امدادات من الحبوب تستورد من الخارج مثل الارز . وكان ابن سعود اول من عم استعماله كطعام رئيسى للطبقات الثرية .. وكان السكان الحضر يعتمدون كلية على مصادر ما وراء البحار فى لباسهم ، بينما اكتفى البدو بما يحيكونه محليا من ادثره . وكانت اللحوم والحليب والسمن وافرة فى سنوات الخير . ولكن اكل اللحوم كان يعتبر نوعا من الرفاهية بين البدو على الرغم من انهم يربون الاغنام . اما بيع الحليب فهو فى نظرهم عار وسبة فهم يمخضونه ليعرضون السمن وحده للبيع فى السوق . وكانت تربية الجمال مهنة البدو الوحيدة ، يبيعونها أو يؤجرونها للركوب وحمل الاثقال او يبيعونها للجزار .

هذا فى البادية . اما فى المناطق الحضرية فقد اقتصر الاهلون على ممارسة الزراعة ووجهوا انظارهم إليها اما النشاط المعمارى،

ولنقل مهنة بناء الاكواخ ، فكانت مهملة جل امكانياتها موجهة الى تزويد السكان الفقراء بما يأوون اليه .

وهكذا ... كان الوضع الاقتصادى متأزما حالكا للغاية .

اما الوضع السياسى فلم يكن مشجعا ابدا . فماذا يفعل عبد العزيز ؟ لقد بلغ اوجه . ولكنه كان يدرك جسامة ما يواجهه من مشاكل حتى بعد ان أتم ما استطاع من انجازات باهرة . ولا ريب انه كان يلجأ الى العزاء والتشجيع فى النص الكريم الذى اتخذه فيما بعد ، دستوره . ومعناه : " أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

وعلى كل حال ، سرعان ما اصبح ابن سعود على استعداد لتنفيذ الفصل الاول من مخططه للمستقبل . وقد يظن البعض ، لأول وهله ان مثل هذه الظروف ستضطرة الى الاتجاه نحو ضمان الاستقرار لحكمه فى الصحراء العربية بالقضاء على بيت آل رشيد فى حايل الا ان عبد العزيز لم يكن يرى هذا الرأى .

ولربما فطن الى أن ضمه جبل شمر الى دولته سيزيد من أعبائه الاقتصادية .

ومهما يكن من امر فقد اصدر ابن سعود امره فى شباط سنة ١٩١٣ ، لاحتشاد قواته كلها . ثم غادر الرياض متجها الى برك الخفس فى الطرف الغربى من هضبة عرمه ، حيث كانت تتوفر المراعى لحيوانات القوات المحلية التى يتألف منها جيشه وبينما هو ينتظر تكامل تعبئة جيوشه هناك ، ارسل فصيلة للاغارة على

قبيلة مرة فنهبوها . وكان تغطية لخططه الحقيقية ولصرف الانظار على قبيلة مرة فنهبوها. إذ أنه بعد مسيرة قصيرة وصل الى مشارف الهفوف ، عاصمة الاحساء . وهى المدينة التى زارها السائح الانكليزى الكابتن ج . ليشمان فى اواخر سياحته الصحراوية التى بدأها فى بغداد وانتهى منها الى الرياض ما راً ببريدة بعد مغامرات عديدة وقعت له فى الاحساء .

وقد وجد الرحالة الانجليزى القوات التركية متذمرة فى منفاها القصى، وغير راضية بتمضية بقية ايامها فى تلك البرارى .. كانت ما اكثر احلامها بالخلاص من الخدمة العسكرية فى الجزيرة العربية . وها هى فى أقل من خمسة اشهر بعد زيارة السائح الانكليزى تغادر البلاد الى الابد .

كان عدد الحامية التركية فى الهفوف ١٢٠٠ جندى . وكان فى القطيف فصيلة صغيرة تساندها ربايا متفرقة موزعة فى عرض الاقليم . فماذا كان ينتظرها جميعا ؟

قضى ابن سعود مساء الثامن من أيار فى الاستعداد للهجوم على المدينة والاستيلاء على حصنها العظيم ، مصدرا تعليماته الموجزة بصدر كيفية تنفيذ خطته . وكانت فصائل من جيشه قد قامت بقطع بعض اشجار النخيل فى واحة صغيرة قريبة ، واخذوا يصنعون منها ما يشبه بعض اشجار النخيل فى واحة صغيرة قريبة، واخذوا يصنعون منها ما يشبه السلالم للتسلق ، بينما وزعت حبال الابار ، التى كان يحملها جميع المسافرين فى الجزيرة العربية، على افراد فرقة المتسلقين كي يدلوها من اعلى الاسوار ، حين يبلغون اول هدف من اهدافهم .

وبدأ الزحف مشياً على الاقدام فى منتصف الليل .. فلم يبزغ الفجر حتى كانت الحبال على الأسوار . فقد تمكن المتسللون من اخراس بعض الحرس النيام الى الابد . وقبل ان تتمالك الحامية نفسها من الذهول الذى أصابها فى الظلام كانت قلعة الكوت الكبيرة فى ايدى الوهابيين. فانسحب الاتراك الى جامع ابراهيم باشا بسرعة، وتحصنوا هناك فى انتظار ما يجد من تطورات .

وفى هذه الاثناء استولى الوهابيون على احدى بوابات المدينة فتدفقت قوات ابن سعود للداخل ، يطلقون الرصاص ويرددون هتافاتهم الحربية لتزيد من قدر الذعر الذى تملك السكان ، وتحمل العدو على الاعتقاد بان لا امل له فى النجاة .

ثم ان السعوديين اسروا تركيا ، فارسلوه الى قائده ليطلب منه الاستسلام ، ويبلغه ابن سعود بضكتم سلامة ارواح الحامية التى ستنقل بامان الى البحرين واعدوا العدة لوضع تحت البنايات التى لجأت اليها قوات العدو الرئيسية ووجهوا للمحاصرين تحذيرا بتفجير اللغم اذا تأخر استسلامهم عن موعد مقرر .

وحينئذ أعمل القائد التركى فكره.. فلم يجد بدا من الاستسلام. وقد وافق على إلقاء سلاحه بالشروط التى عرضها ابن سعود .

وفى الوقت المعين خرجت الحامية كلها من الهفوف ، تحت الحراسة الوهابية وقيادة احمد بن ثنيان ، وهو ابن عم بعيد للقائد الوهابى . ومن هناك سافروا فى المراكب التى وجدوها الى البحرين ، حيث شرع القائد التركى يحاول جاهدا اعادة الوضع السابق . فقام بارسال قوات

جديدة الى عقير الا ان بعضها أسر حال نزوله الى اليابسة بينما عاد البقية الى البحرين على متون سفنهم .

وسار ابن سعود بنفسه الى عقير فأطلق سراح الاسرى وأعادهم الى سفنهم ومن ثم توجه الى القطيف فاخضعها بلا صعوبة وخرج السكان زرافات ووحدانا لتحية حاكمهم الجديد ، ومن هنا ومن مدن الاحساء وقراها استطاع ابن سعود ان يسد النقص فى مخازن مؤونته عاد ابن سعود فرحا الى عاصمته راضيا عما انجزه من اعمال خلال شهر واحد . وكان قد وضع الترتيبات اللازمة لادارة اقليمه الجديد .

ووجه انتباها عظيما لتعليم السكان الشيعيين المبادىء الجديدة التى ستسود من الان فصاعدا . فوضعت تصاميم بناء مدارس وجوامع ، وعين موظفون اكفاء فى الوظائف الخاصة بالجباية والانفاق ، وادخل الاصلاح الى المحاكم كى تعمل وفق امر الشريعة .

وأخيرا وليس آخرا عين ابن سعود حاكما جديدا بقى فى منصبه حتى وافاه الأجل بعد ربع قرن ، فأصبح اسطورة فى حياته ، وهو عبد لله بن جلوى الذى رافق ابن عمه سنة ١٩٠٢ فى هجوم الجرىء الذى استعاد به الرياض . كما ظل الحاكم العام فى القصيم منذ احتلها الوهابيون مرة اخرى . ولا شك أن ابن سعود إستشاره فى خطة الهجوم على الاحساء فغادر بريدة معه ليشترك فى تلك الحملة قبل مجىء ليشمان الى المدينة فى كانون الاول سنة ١٩١٢ .وكان الحاكم آنذاك فهيد بن معمر . ثم عين ابن سعود صديقه عبد الرحمن بن سويلم الذى قاد القوة المرسلة لاحتلال القطيف اميرا على

الميناء تحت اشراف ابن جلوى بينما جعل عقير تابعة لادارة عبد الرحمن بن خير الله الذى قدر له ان يبقى هناك ما بقى رئيسه فى الهفوف .

وهكذا وبقليل من الجهد ، وصل ابن سعود الى ساحل الخليج الفارسى وكسب جبهة واسعة ، تمتد من اراضى الكويت فى الشمال الى شبه جزيرة قطر فى الجنوب .

وفى قطر هذه توفى صديق ابن سعود وحليفه ، قاسم بن ثانى ، الذى بادر لنجدته سنة ١٩٠٥ اى نفس السنة التى انتصر فيها فى الاحساء . وكان قاسم قد شاخ وبلغ عمره ١١١ سنة . وكان هذا الرجل ذا سمعة اسطورية فاحتفظ بقدرته العقلية والجسمانية حتى النهاية. وكثيراً ما كان يشاهد وهو يمتطى جواده مع فرقة من الخياله كلها مع ابنائه واحفاده .، وقد خلفه ابنه عبد الله ، فظل يحافظ على العلاقات الودية مع جاره العظيم الذى كان حكيما فلم يتدخل قط فى استقلال شبه الجزيرة .

اما رد الفعل الذى احدثه فقدان الامبراطورية العثمانية للاحساء فكان غير طبيعى . فبدأت المفاوضات مع ابن سعود بواسطة سيد طالب النقيب من البصرة ، بينما ارسل والى البصره ، سليمان شقيق كمال باشا . للبحث مع زامل الصبحان ، الممثل لحاكم حايل (واسمه سعود بن رشيد) فى خطة لتزويده بالمال والسلاح اللذين يستخدمهما ضد ابن سعود . وبلغ الامر ابن سعود فاحتج على زامل لاخلاله بنصوص اتفاقية الهدنه السارية المفعول بين الدولتين،

حين قبل اثنى عشر الف بندقية ، وكميات مماثلة من الذخيرة والمال للإنتفضاض عليه .

وحينئذ أعلن زامل صراحة انه فى جانب الاتراك ، بصفتهم الدولة ذات السيادة . وأبدى أنه سيعمل لمصلحتهم فيما اذا اصطدمت رغباتهم بعلاقاته مع الرياض . فقبل ابن سعود ذلك التحدى الضمنى وانتهت بذلك الهدنة.

ولما كان ابن سعود يدرك حرج مركزه ، نراه التزم جانب السلام اثناء مباحثاته مع سيد طالب فى الصبيحية القريبة من الكويت . فانتهت باعطاء وعد شفهى بالاعتراف بسلطة السلطان فى الاحساء مقابل الاسلحة التركية والمال الكافيين لتأمين سلامة الاقليم . فعل ذلك ابن سعود وهو يعلم ان الاحساء اثمن جوهرة فى تاجه لما تنتجه من محاصيل زراعية وفيرة وتدره جماركها من واردات كثيرة ولم يحدث ان اضيف شىء جديدة الى هذه الاتفاقية . الا أن الحرب التى نشبت بين بريطانيا وتركيا سنة ١٩١٤ قضت على آمال الاتراك فى استعادة الاقليم الى الابد.

وعلى ضوء هذا التطور الجديد قام ابن سعود فى الوقت المناسب بتوطيد مركزه فى الاحساء خشية أن تقع فى يد قوات الحملة البريطانية المحتشدة فى البحرين وقد عمل جهده لتأمين عطف البريطانيين ومساعدتهم له فى الاستقرار ، بالنظر لانضمام تركيا الى جانب المانيا حينذاك .

لكن السياسة البريطانية كانت لاتزال تحاول ان تمنع مثل هذا

التطور . فعندما قام المندوب السامى البريطانى فى البحرين بزيارة مجاملة لابن سعود فى عقير بعيد سقطوط الاحساء ، لم يكن يحمل عزاء ملموسا يقدمه للامير الوهابى وحين مر الكابتن هنرى شكسبير الذى كان قد زار ابن سعود من قبل فى احدى مخيماته فى الرياض (أثناء رحلته العظيمة عبر الجزيرة العربية من الكويت الى السويس) لم يبحث معه اكثر من المشاكل العامة الناجمة عن الوضع الجديد .

ولم يستطع ان يسر اليه ببعض المعلومات التى لديه . وقد تعمد تلك التعمية فعلا . ثم ظل الامر كذلك طيلة سبعة عشر عاما .

اما فى سنة ١٩٣٠ فقد فأجات بريطانيا الناس حين ابرزت مستنداتها كوارثة لبقية تركة الامبراطورية العثمانية فى اراض لم تملكها هذه قط ، ولم يجرؤ تركى واحد أن يغامر بالوصول اليها . وقد اصبح هذا الادعاء السخيف معترفا به دوليا الان . وقد لاحقت الحكومة البريطانية مطالبها الجديدة لعدة سنوات بعد كشفها ولا تزال أصداؤها تدوى منذرة بالسوء فى بعض اجزاء الصحراء الشرقية.

كانت المعلومات التى لم يشأ شكسبير أن يميط عنها اللثام تشير الى أن السير ادوار جراى ، وزير الخارجية البريطانية قد عقد معاهدة مع ابراهيم باشا ، ممثل الحكومة التركية فى ٢٩ خريران ، اى قبل استيلاء ابن سعود على الاحساء بمدة شهرين . وأن هذه المعاهدة تتعلق بوضع مصالح بلديهما فى بعض الممتلكات الواقعة على الخليج الفارسى : كالكويت والبحرين والامارات الساحلية .

تقع جميع هذه الاماكن على حدود الاحساء بشكل من الاشكال، الامر الذى لم يذكر فى المعاهدة .. وإن ساد المفهوم بانها تعتبر جزءا من الامبراطورية العثمانية . وقد نص على ضرورة المصادقة على هذه الاتفاقية فى خلال ثلاثة اشهر ،غير أنه لسبب ما أجل التصديق عليها الى الحادى والثلاثين من تشرين الاول سنة ١٩١٤، اليوم الذى اعلنت فيه الحرب على الامبراطورية العثمانية. ثم تبع ذلك ما هو اسوأ . فلابد ان المفاوضات الخاصة بهذا الشأن قد تقدمت على الزمن الذى كان فيه شكسبير يتبادل المشاعر الودية مع ابن سعود اثناء زيارته له فى الرياض .

وعلى كل حال ، فما كان شكسبير يصل الى السويس حتى كان المفاوضان نفسهما يوقعان فى لندن معاهدة اخرى فى التاسع من آذار سنة ١٩١٤ ، صدقا عليها حسب الاصول فى الثالث من حزيران . سواءاً كان الاتراك يؤملون فى استعادة الاحساء بمساندة البريطانيين وموافقتهم ، ام انهم فعلوا ذلك بدافع الحقد على ابن سعود ، او ان السفير البريطانى قام بهذا مدفوعا بمقصد دنئ فى نفسه فلا يمكننا ان نعرف ذلك الان .

اما بنود المعاهدة فكانت تنص تقسيم شبه الجزيرة العربية باكملها بين الحكومتين ، على آن يتم ذلك حسب خط مستقيم يمر من اسفل شبه جزيرة قطر عبر الصحراء ويلتقى بالطرف الشرقى للحدود المعينة سنة ١٩٠٢ لتفصل بين اليمن وبين محمية عدن . وكان من أثر ذلك ان غدا كل ما هو شمالى هذا الخط ملكا للاتراك بما فى ذلك نجد نفسها .بخلاف ما يقع جنوب هذا الخط فهو من املاك بريطانيا .

ولهذا لا غرابة فى أن الحكومة البريطانية كانت حريصة على الا يعلم ابن سعود بدسائسها مع اقوى اعدائه .

والانكى من هذا ان تأخير افشاء هذه المكائد اوجد شعورا مازال سائداً حتى الان بان الحكومة البريطانية قد اخذت على نفسها دور تركيا ، كألد أعداء الحكومة الوهابية . وإنه ليمكن القول بان هناك عوامل اخرى نشأت فى غضون الحرب العالمية الاولى ثم بعده ، اخذت تثبت صحة هذا الشعور وتقويه .

عندما نشبت الحرب فى تشرين الاول سنة ١٩١٤ ، استدعى شكسبير من اجازته وارسله السير برسى كوكس الضابط السياسى الاعلى فى قوات الحملة فى العراق ، ليتمثل مصالح بريطانيا فى الرياض . وكان الرجل سفيرا مثاليا ، ذا ثقافة عسكرية وادراك وبداهة سياسية فى تعامله مع العرب ، كما كان مبعوثا الهيا لابن سعود وربما كان خطأه الوحيد أنه لم يتنازل أن يرتدى الملابس العربية اثناء وجوده بين ظهرانى البدو فى الجزيرة . وقد تطور ذلك مع الزمن الى شعور بالكراهية للاجانب ، اثاره التعصب الدينى وعند وصوله كانت الحرب المتوقعة بين حايل والرياض قد بدأها ابن رشيد بوحى من اصدقائه الاتراك . فقد وصل فى اواخر شهر كانون الثانى الى الحدود السعودية فاتخذ ابن سعود الترتيبات واعد الخطط لمقاومة هجومه ، وقد وافق شكسبير مضيفه فى هذه الحملة. واشترك الى جانبه فى المعركة التى نشبت فى موقع قريب من زلفى. وكان النصر حليف المشاه الوهابيين فى احد الجناحين بينما كانت الغلبة لخياله جبل شمر فى جناح آخر . اما شكسبير الذى كان

يشرف على مدفعية الوهابيين فقد قتل . وانسحبت القوات المتحاربة ، وكل منها يدعى النصر لنفسه فى حرب اشبه بالمعابثة والمزاح .

وكان موت شكسبير فى كانون الثانى سنة ١٩١٥ كارثة لبلاده كما هو لابن سعود فظل الاخير متجهما فى خيامه لا يؤثر فى التطورات الجارية فى الانحاء الاخرى من الجزيرة العربية ، والتى جعلته الان فى مركز ثانوى فى السياسة العربية . هذا علاوة على أنها زادت اعداءه وضخمت قوتهم . ونخص بالذكر من هؤلاء امير حايل ابن رشيد ، الذى انحاز الى الاتراك ، وكان اهم من غيره اذا قورن بالشريف حسين فى الحجاز او بالزعماء الاخرين من حلفاء الانكليز .

وزاد الامر سوءا ان السير برسى كوكس لم يكن مستعدا باى حال من الاحوال ان يجازف بحياة احد من موظيفه فى مهالك الصحراء مع انها آنئذ كانت فى الواقع اعظم الاماكن امنا فى العالم غير أنه هو نفسه اخذيهتم بامر ابن سعود ، فقد كانت بينهما اتصالات وعلاقات رفيعة احسن حبكها عبد اللطيف بن قنديل ممثل ابن سعود فى البصره .

وفى هذه الاثناء فوضته الحكومة البريطانية أن يسير فى الخط الذى اقترحه شكسبير بعد مباحثاته مع ابن سعود . فأرسلت مسودة معاهدة صداقة الى ابن سعود لدراستها وتوقيعها ، واعيدت اليه موقعة حسب الاصول مع بعض التعديلات وقد اقتضت هذه التعديلات دراستها من جديد . ولم يتمكن السير برسى كوكس من

مقابلة ابن سعود في القطيف الا في نهاية سنة ١٩١٠ . وهناك وقعا على معاهدة نصت على الاعتراف باستقلال ابن سعود وضمان بلاده ضد اي اعتداء خارجي عليها ، شريطة أن تكون حدودها حسب ما تتمخض عنه الحرب . وذلك مقابل تعهد ابن سعود الا يهاجم المحميات البريطانية في الخليج الفارسي . ونصت المعاهدة كذلك كالمعتاد على عدم نقل ملكية الاراضي الى اية دولة اجنبية ، وعلى ادارة العلاقات السياسية مع اية دولة مثل هذه .

أما اظهار المشاعر الطيبة نحو ابن سعود فقد تم سلفا في الصيف الفائت ، اذ قدمت له السلطات البريطانية الف بندقيه وعشرين الف جنيه انكليزي . كما سهل له وكيلها السياسي استيراد الذخيرة لحسابه الخاص من البحرين . وكان هذا يفي بحاجات الحملة التي سيرها في ذلك الحين ضد العجمان فدحرهم في شهر ايلول وألجأهم الى الكويت .

ومن الجدير بالذكر أن السير برسي كوكس ظل اثناء هذه المفاوضات متحفظا فلم يذكر امرا بالغ الاهمية كان يمكن ان يثير اهتمام ابن سعود ان لم يثر قلقه انه لم يشر الى المفاوضات الجارية بين السير هنري مكماهون والشريف حسين شريف مكة ، للقيام بالثورة العربية في حزيران سنة ١٩١٦ . ولم يورد اي ذكر للحدود الغربية لمملكة ابن سعود في المعاهدة، الامر الذي كان مصدر متاعب كثيرة فيما بعد .

وقامت ثورة الحجاز .. وبلغ الخبر ابن سعود ، فاحتفظ لنفسه مسلكا سليما وان كان لم يخف قلقه من ان مطامع الشريف حسين

(الملك) قد تتصادم مع مصالحه اما الحكومة البريطانية التى قررت أن تدعم الثورة العربية باى ثمن آنذاك فقد القت على عاتق السير برسي كوكس ان يلعب دور المعزى لصديقه فى محنته غير أن تأكيداته لابن سعود لم تقتلع غضبه او تحد من قلقه.

وفي نهاية عام ١٩١٥ توفى الشيخ مبارك ، شيخ الكويت ، الذى أخذ منه الحسد مأخذه ، فبدأ يساوره القلق فى شيخوخته من طموح رجل در به فى شؤون السياسة على يده . وذلك نقيض ابنه وخليفته جابر ، فقد كان هذا يكن الصداقة لابن سعود الا أن حكمه جاء قصيرا فلم يؤد الى نتائج ملموسة فيما يتعلق بالخطر على امن ابن سعود ، وهو الخطر المتأتى عن وجود اللاجئين من العجمان فى الكويت وما ان خلفه اخوه سالم سنة ١٩١٦ ، وكان هذا معاديا لابن سعود بشكل سافر ، حتى اتجه ببلاده نحو خصوم الرياض .

والحق ، ان ابن سعود كان فى وضع يحسد عليه ، بسبب النزاع القائم فعلا أو المتوقع سريعا بينه وبين كل من الحجاز وشمر والكويت ، بالاضافة الى البرود المتزايد فى علاقاته مع الانكليز ولهذا نراه الآن يلح فى طلب اجتماع ثان بينه وبين السير برسى كوكس ، فتم الاجتماع فى عقير . وكان فى الظاهر من اجل البحث فى الوسائل التى ستمكن ابن سعود من السير قدما فى حملته ضد ابن رشيد ، الا أنه فى الواقع ، ومن وجهة نظر ابن سعود (على الاقل) كان نوعا من محاولة جلاء موقف بريطانيا فيما يتعلق بالتدابير التى اتخذتها مع الشريف حسين خصوصا وأن الشريف كان قد اعلن ان الانجليز اعترفوا به ملكا على العرب.

وقد اكد السير برسى كوكس لابن سعود أن استقلاله لن يمس بشكل من الاشكال ، ودعاه للاشتراك في مؤتمر لزعماء العرب فى العشرين من تشرين الثانى سنة ١٩١٦ ، يتم عقده لتقديم النياشين والاوسمة له ولجابر وفى الاجتماع تبادلا المشاعر المهذبة وتمكن برسى كوكس من تهنئة جميع الحاضرين على علائم الوحدة العربية التى اخذت تظهر فى ذلك الحين . ولم يطل عمر جابر بعد الوسام الذى ناله .. بينما قبل ابن سعود دعوة السير برسى لزيارة البصرة ضيفا عليه وعلى القائد العام . وكانت هذه اول مرة يسافر فيها الى بلد اجنبى وقد تأثر لدى رؤيته ذلك العدد الوافر من المعدات الحربية الحديثة ، وربما استخف بواقع ان اعظم مضيفيه مكانه كانت مجرد امرأة تدعى جرترود بل .

وعلى كل حال فان النتيجة العملية لتلك الاتصالات كانت التوصل الى اتفاقية سيتقاضى ابن سعود بموجبها منحة شهرية مقدارها خمسة الاف جنيه ، بالاضافة الى اربعة رشاشات وثلاثة الاف بندقية ، وكمية كافية من الذخيرة كل ذلك من أجل الاحتفاظ بقوة قوامها اربعة الاف رجل فى الميدان تظل جاهزة لشل يد ابن رشيد بصورة دائمة ومهاجمة عاصمته الا أن التفاؤل البريطانى الرسمى بشأن مدى اتحاد العرب فى دعم قضية الحلفاء قد اسىء فهمه بصورة تبعث على الأسى . ففى خلال اثنى عشر شهرا بدأ التشكك والحسد يذران قرنهما فى السياسة العربية . وكانت اولى الرصاصات التى اطلقت فى الحرب ستؤدى الى سقوط الحسين وضم الحجاز ومدنها المقدسة الى الدولة الوهابية.

كان هم السير برسى كوكس الوحيد منذ مطلع عام ١٩١٧ وما بعدها حصار المراكز التركية الواقعة وراء العراق المحتل ، بقطع النظر عن الحاجة الى صرف انتباهه عن عمليات الحلفاء فى الحجاز بتشجيع على اتخاذ اجراء ضد ابن رشيد ومهاجمته . آن ندرة المؤن واختفائها فى سورية وارتفاع مستوى اسعار المواد الغذائية والسلع، اوجد سوقا رائجة للمهربين . فقد كان الحمالون يجلبون البضائع الممنوعة ، عبر الصحراء العربية الى دمشق من العراق نفسها ومن موانىء الخليج الفارسى . وقد كان الشيخ سالم شيخ البحرين يغض الطرف عن هذه العمليات التى كانت تجرى فى بلاده وكان يتقاضى ضريبة على الارباح مقدما فيما كان تجار القصيم والاجزاء الاخرى من البلاد السعودية ينقلون بضائعهم الى حايل ، ومن هناك كانت تنقل الى الاتراك .

كان المنتظر من ابن سعود ان يوقف هذه الحركة باعتبار انها جزء مهم من حملته على ابن رشيد ، وكان هناك ولا ريب بعض القوافل التى استطاعت ان تمر .

وكان الحاكم المدنى فى بغداد مهتما بالعلاقات الغير الودية القائمة بين الكويت والرياض ، وذلك لانها أوجدت قلقا فى البلاد الداخلة ضمن نطاق العمليات الحربية فى العراق بشكل جزئى ، ولأنها اوجدت تسهيلات كبيرة فى عمليات التهريب . وقد وعد ايضا بأن يتخذ اجراء يرضى ابن سعود بشأن قبائل العجمان الموجودين فى الأراضى الكويتية ، التى كانوا يستخدمونها] (دون خوف من عقاب) فى الاغارة على قبائل نجد.

وكان هناك ايضا امور اقل شأنا مما مضى : مثل نسبة الرسوم الجمركية التي تحصل في الكويت والبحرين على البضائع المصدرة الى نجد ، وامكانية ايجاد عملة نقدية تفي بحاجات البلاد اليومية . وقد بلغت هذه الامور ذروتها في خريف عام ١٩١٧ ، حين طفق السير ريجنالد وينجيت المندوب السامي البريطاني في مصر ، يطلب الالحاح على ابن سعود لحمله على الضغط اعلى حايل في الوقت الذي فقدت فيه الثورة العربية زخمها واصبحت مهددة بالتوقف التام . فأرسل الكولونيل لورنس الى جدة ليبعث الحياة في هذه الحركة ، بينما بعث المستر ستورز وهو ممثل اخر للسير ريجنالد وينجيت (فيما بعد سير) الى بغداد للبحث في الوضع العام مع السير برسي كوكس . فاقترح الاخير أن يذهب ستورز الى ابن سعود ممثلا شخصيا له لتقديم اقتراحات مدروسة لازالة أسباب الجفاء القائمة بين الصديقين العربيين الرئيسيين لبريطانيا .

وكان لسوء الحظ ان لم ينجح هذا المشروع لان ستورز اصيب بضربة شمس في الطريق ، فبادر الى مغادرة الجزيرة العربية بسرعة. اما السير برسي كوكس فلم يفقد الأمل في القدرة على حل المشكلة المعقدة ، وإن كان قد شعر باليأس متذكرا اختباراته اثناء بعثته الثانية الى ابن سعود .

وبعد مشاورات طويلة بين بغداد والقاهرة تقرر ان ترسل بعثة صغيرة الى الرياض ، وينضم اليها ستورز هناك عن طريق الحجاز.

اما الجزء الاخير من الاتفاقية فقد حال دونه الملك حسين منذ البداية . فلم يقبل ان يتحمل مسؤولية سلامة ستورز ، بسبب الحالة

المضطربة التى كانت تسود الصحراء . وفى تشرين الثانى عام ١٩١٧ وصل ممثلو السير برسى كوكس الى عقير . وساروا عن طريق واحة الاحساء حيث امضوا ايام فى ضيافة عبد الله ابن جلوى المشهور ، فوصلوا الرياض فى نهاية الشهر للبحث مع ابن سعود فى الوضع كله . وبعد ان اتموا هذا ، وارسلوا هذا ، وأرسلوا بتقريرهم الى بغداد ، سارت البعثة الى الحجاز بعد أن شملها ابن سعود بركته ، فوصلت الطايف يوم عيد الميلاد دون اى حادث يذكر ، الامر الذى ادهش الملك حسين واغضبه ، اذ اضطر لوضع الترتيبات اللازمة من أجل استمرار سفرها الى جدة .

كان من المؤمل انضمام ستورز الى البعثة ، غير ان القدس سقطت فى ايدى جيش الجنرال اللنبى البريطانى ، فاصبح ستورز اول حاكم لها ، ووصل الى جدة الكوماندر د. ج . هوجارث بدلا عنه ، وحضر الملك حسين من مكة فى الوقت المعين لاستقبال ضيوفه من الغرب والشرق . وكانت المباحثات التى تلت ذلك عقيمة، رفض الملك حسين الاعتماد كلية على ابن سعود ، وعلى الاخص فى قضية ملكية خرما التى هاجمتها حملة من مكة فى شهر كانون الاول ، فلجأت الى ابن سعود ليقوم بواجب الدفاع عن رعاياه .

ولقد عادت البعثة الى ابن سعود عن طريق البصره . اما السير برسى كوكس فغادر العراق الى طهران ليصبح سفيرا لبريطانيا فيها. بينما عين ارنولد ولسن مبعوثا سياسيا مكانه . ولم يكن ابن سعود ليتحمل استفزازات الملك حسين بشأن خرما التى اصبحت الان محك اخلاص بريطانيا وصداقتها هذا مع العلم بان مكة هاجمت

الواحة مرتين خلال فصل الصيف ولم يحرك هو ساكنا اكثر من اعلانه أنه سيزحف على الشريف فى حالة وقوع اى اعتداء آخر .

وفى هذه الاثناء وجهت البعثة جهودها كلها الى الالحاح عليه بضرورة مهاجمة حايل اذا رغب في استمرار العون البريطانى .

فوعد ببدء الحملة فى آب وقد صدق فى وعده : فتغلغل الى قلب جبل شمر ودمر بعض مراكز ابن رشيد البدوية الامامية . ثم ظهر امام حايل نفسها . وكانت على درجة من القوة تجعل القيام بالهجوم عليها دون مدفعية مستحيلا وعاد ابن سعود الى بريدة حيث أعلمته البعثة أن بريطانيا لم يعد يهمها مصير ابن رشيد - لأن تركيا خرجت آنذاك من الحرب . ولم تكن هذه اخبارا سارة لابن سعود الذى اصبح الان حرا فى أن يتبع اساليبه الخاصة اثناء ما كان الحلفاء المنتصرون منهمكين جدا فى تخاطف الانتدابات والامتيازات الاخرى ، فلم يأبهوا للتوتر الذى كان يسود العالم العربى آنذاك.

الا أن ابن سعود استطاع بعد مرور اشهر معدودة، أن يحملهم (او يحمل بريطانيا على الاقل) على أن يفهموا واقع الجزيرة العربية : هذه الاشهر التى كانت مأساة بالنسبة اليه ، فقد قضى وباء الانفلونزا الاسبانية فى اواخر فصل شتاء ١٩١٨ - ١٩١٩ على ولده البكر تركى ، وعلى ولدين آخرين ، وعلى زوجته الاولى جوهرة.

اما الملك حسين فهو الذى اخذ يجرجر ذيله مزهوا امام الامير

الوهابى الساخط .. فقد ارسل ابنه الثانى عبد الله على رأس حملة قوية ، مصدرا اليه التعليمات باحتلال خرما باى ثمن . فوصل عبد الله الى ترابة حيث مكث فترة فى معسكر محصن تحصينا قويا ، واخذ يعاقب بعض اهالى الواحة المشكوك فى ولائهم ، قبل ان يسير الى هدفه الرئيسى من هذه الحملة .

وفى هذه الاثناء وصلت قوة وهابية كبيرة الى خرما ، وفاءاً من ابن سعود لوعده فى الدفاع عن الواحة عند قيام الشريف بهجومه الرابع عليها . فبادر بعض المواطنين الساخطين واعملوا خالدا بن لؤى أمير خرما عن مواقع معسكر عبد الله . وفى جنح الظلام قام الاخوان المتعصبون بمهاجمة المعسكر من جميع الجهات ، واخذوا يذبحون المدافعين الضعفاء ، بينما نجا عبد الله واركان قيادته بفرارهم على ظهور الخيل عند اول انذار بالخطر . وكذلك نجا بعض المجندين من البدو االذين رافقوا قواته وخيموا خارج محيط مخيمه.

وكانت الهزيمة ساحقة ، اذ استولى الوهابيون على مدافع الحملة وبنادقها وذخيرتها وعلى جميع معداتها ومخازن مؤونتها . ووصل ابن سعود الى مكان المعركة بعد يوم او يومين فتوج النصر الساحق بضم الواحة الى ملكه .

ومن العدل بالنسبة للملك حسين ان نذكر بانه كان فى اوائل السنة قد قام باعلام الحكومة البريطانية عن عزمه على احتلال خرما وطلب منها ان تبارك مشروعه .

وفى منتصف شهر آذار عقد اللورد كيرزن مؤتمرا مع موظيفه

للبحث فى المشروع وتوصل المؤتمر الى قرار اجماعي تقريبا فحواه أنه: بالنظر لتأكدهم من ان قوات الشريف المدربة تدريبا جيدا والمجهزة تجهيزا كاملا تستطيع أن تلحق الهزيمة بالجيش الوهابى.، وبالنظر للسياسة البريطانية الراسخة فى مساعدة قضية الشريف، اذا تم ذلك بدون المجازفة بزج الحكومة البريطانية في اية مغامرات في الصحراء - لذلك يقرر المؤتمرون أن خرما جزء من المملكة الحجازية وانه يجب أن يسمح للشريف باتخاذ الخطوات التى يراها كفيلة باثبات حقوقه فيها .

وفى نفس الوقت استقر الرأى على ابلاغ هذا القرار الى ابن سعود مع التحذير المناسب من مغبة التدخل فى الامر خشية ان يخسر ثقة الحكومة البريطانية ومنحه الخمسة الاف جنيه الشهرية .

ولقد تجاهل ابن سعود الانذار وتصرف كما راينا ، وحشد قوات الاخوان وانطلق الى خرما . وما كاد يصل الى ابار سخا ، حتى هاجمت طليعة جيشه جيش . عبد الله وابادته .

لقد وقع الشحم فى النار .. ومرة اخرى عقد اللورد كيرزن لجنته الادارية للبحث فى نتائج القرار الاول . وفى هذه الاثناء ابلغت اوامر توقعت الدفعات الشهرية برقيا وبشكل اتوماتيكى الى ارنولد ولسن من قبل موظف متحمس . ولحسن الحظ انها سلمت اليه شخصيا من قبل ساعى بريد ، وهو فى طريقه لنزهة فى سيارتة. ولدى اطلاعه على محتوياتها ، وضع الرسالة فى جيبه ونسى كل شىء عنها .

اما من جهة لجنة اللورد كيرزن فأجمعت مطمئنه الى أن افرادها قد قاموا بشيء مالاثبات وجود السلطة البريطانية ولان يفهموا ابن سعود انه لا يستطيع أن يتجاهل رغبات وانذارات حكومة صاحب الجلالة . الا أن الهيئة المذكورة دعيت للبحث فى امور اكثر خطورة ، فلقد ابلغتهم السلطات البريطانية فى جدة ، بان مكة فى امور اكثر خطورة وجدة فى حالة فزع من صول الوهابيين . وأن احد عشر الفا من الحجاج قد لجأوا الى المياه ومعظمهم من الرعايا البريطانيين الذين لا يمكن تركهم يلاقون مصيرهم بدون الحاق الاذى بسمعة بريطانيا وشرفها وبسبب الحاجة الماسة الى وسائل النقل فى تلك الايام، صدرت التعليمات الى مندوب الاميرالية بابلاغ تلك الهيئة انه لا يمكن ارسال اية سفينة لهذا الغرض. كما ابلغهم مندوب وزارة الحربية أنه لا يوجد لديه جيش للدفاع عن اللاجئين!

أما الرأى القائل : بان ابن سعود لن يزحف على أن من جدة اومكة، فقد لاقى الازدراء لسخافته ، ولم يؤكده المراقبون المطلعون على خفايا الامور.

وبدا انه لاعلاج للوضع ..... الا أن مندوبا ارسل فى طائرة ليسترضى ابن سعود ليصرفه ، ان امكن عن احتلال الحجاز. كما ارسلت ست طائرات الى جدة لضرب الوهابيين من الجو اذا دعت الحاجة لذلك . الا انها لم تستخرج من صناديقها مطلقا . وعندما وصل المندوب الى مقر قيادة الجنرال اللنبى الذى كان آنذاك مندوبا ساميا فى مصر، أعلم بان ابن سعود قد سحب جيوشه المنتصره من ترابه ، الى الرياض .. لقد ضم ترابة فقط الى ملكه فتغاضت الحكومة البريطانية عن ذلك ووافقت عليه .

ودعت بريطانيا ابن سعود لارسال ممثل عنه الى لندن لبحث الوضع كله .

وتمت الزيارة خلال أشهر الشتاء سنة ١٩١٩ حين وصل الامير فيصل ، آنذاك وعمره اربعة عشر عاما ، مسؤولا عن البعثة الوهابية التى تركت أثرا حسنا فى لندن . فقد اعتبر البريطانيون أن مشكلة خرما قد انتهت حسبما تشير الاوضاع الراهنة . فقد اعتبر البريطانيون ان مشكلة خرما قد انتهت حسبما تشير الاوضاع منذ ايار الماضى ، وأنه لا مجال لاعادتها بدون مقابل . الا أن القدر كان يطوى مفاجأة موسفة للهيئة الادارية ، فلقد اعترض فيها على الادعاء القائل بان المنحة المالية قد أوقفت ولكن ، بما ان قابضى المنحة البريطانية كانوا فعلا فى لندن فلم يكن من الصعب التثبت من الأسرة انهم كانوا يتقاضون رواتبهم حتى ذلك التاريخ ولقد اوجد هذا شعورا حسنا فلا مجال للتفكير فى قطع المنحة .

وفى هذه الاثناء اخذ الوضع فى العراق يصبح دقيقا .. فقد اصبح الشريف فيصل ملكا على سوريا وأخذ يعمل سرا وجهرا على تقويض تدابير الامبراطورية البريطانية التى كان السير ارنولد ولسن يسعى لترسيخها فى العراق . وفى اوائل عام ١٩٢٠ نشبت الثورة ، واصبحت الاحوال السياسية فى تلك المنطقة تستدعى استعراضا محرجا . فقررت الحكومة البريطانية أن تستدعى السير برسى كوكس من طهران ، للتداول معه فى سياسة اكثر تساهلا فى العراق يضعها هو بصفته مندوبا ساميا .

وقد منحته الرحلة البحرية الى البصرة فرصة لتجديد الاتصال

بابن سعود فجاء لمقابلته في عقير . وكان جل اهتمام ابن سعود آنئذ منصرفا الى ما كان يشاع عن عزم الحكومة البريطانية تقديم تاج العراق الى الشريف فيصل بعد أن فقد عرشه في سورية يوم ميسلون في تموز عام ١٩٢٠. واستطاع كوكس ان يهدىء من قلق الوهابيين من هذه الجهة لانه قرر نهائيا الا يتخذ اجراء حاسما في العراق الا بعد دراسة الوضع دراسة دقيقة شاملة ، ولم يكن السير برسي راضيا باى شكل من الاشكال ، عن فكرة جعل مرشح لورنس حاكما للبلاد ، لمجرد أنه ساهم في الثورة وحين بحثت قضية ابن رشيد بصورة عامة كان من الواضح أن كوكس يعتبره عاملا مفيدا في المحافظة على توازن القوى في الصحراء . ولقد استنتج ابن سعود بلا شك ، ان مركزه سيصبح حرجا بسبب تحدى حاكم شمر ، منافسه القديم بتشجيع من الانكليز .. لان مبعوث ابن رشيد كان فعلا في بغداد يتفاوض مع جرترودبل آنذاك .

ويبدو انه قرر الدفاع عن نفسه ضد اعدائه الفعليين الاقوياء الذين شكلوا حلقة حول حدود بلاده الشمالية . مع ذلك كانت خطوته الاولى ارسال الامير فيصل الشاب على رأس جيش قوى لاحتلال مرتفعات عسير والواحات التى تحدها من جهه الصحراء . وكان الهدف من هذه الحركة ان يدعم الفوائد التى جناها في خرما وترابة . وهكذا اصبح خط دفاعه الغربي يمتد الى خميس مشيط مارا بـ «بيشة» وغدا في وضع يتمكن معه من السيطرة على قبائل المرتفعات حتى حدود الطائف .

ودفعته حركته الثانية الى الدرجة التى لابد منها كي يصل الى مطامعه الكبرى بصورة حاسمة .

وكان سعود ابن رشيد قد قتله ابن عمه عبد الله بن طلال اثناء نزهة لهما عام ١٩٢٠ ، غير ان القاتل قتل فى الحال على يد عبيد المغدور ، كما سجن عبد الله بن متعب الذى تنسم العرش ، اخاه محمدا بن طلال، وهو حفيد عبد العزيز بن متعب ابن رشيد ، عدو ابن سعود القديم . وقد ظهر ضعف عبد الله كحاكم ، فى ضعف الدولة العام ، التى اصبحت العناصر الشريفية تتودد اليها بشدة بدأ القدر يشير الى الشريف فيصل على انه الملك المقبل للعراق.

اما ابن سعود فلم يكن باستطاعته ان يتمهل فى مسألة حايل ، فالسيطرة عليها ستمكنه من السيادة على الصحراء كلها ، بينما يغدو مركزه فى الجزيرة العربية فى منتهى الحرج والخطورة اذا سيطرت عليها اية عناصر شريفية . ولهذا ارسل اخاه محمدا الى الشمال على رأس قوة من الوهابيين كان يساعدها فيصل الدويش فى الشرق ونورى الشعلان زعيم عشائر الرولى السورية ، بالضبط على واحات الجوف .

وكانت هذه العمليات مجرد جس نبض واختبار ، اثناء ما كان ونستون تشرشل يعقد مؤتمرا فى القاهرة لوضع مخطط عام لمستقبل الشرق الاوسط.

وجاء القرار الرئيسى للمؤتمر تنصيب فيصل ملكا على العراق . الا أن بطل معركة ترابة ، الشريف عبد الله ، اربك المؤتمرين بحضوره الى عمان على رأس جيش كبير لمهاجمة الفرنسيين فى سوريا ، وقد تمكنوا من حمله على التخلى عن هذا المشروع بأن عرضوا عليه امارة شرق الاردن .

وكـان هذا الامـر بالاضـافـة الى ثبـوت تولى فـيـصـل الحكم فى العراق ، حافز لابن سعود على العمل . انه لم يعد بامكانه التريث عن ان يفكر جديا بالحملة على حايل ، فتولى قيادة الجيش بنفسه وظهر امام حايل فى طريف، بعد تتويج فيصل فى بغداد بمدة يسيرة . وهناك طلب أن تتنازل اسـرة ابن رشـيـد ، وأن يضع اعـضـاؤها البـارزون انفسـهم تحت تصرفه ، الا أن وفـدا من الاهلين قـابله فى معسكره وابلغه رفض طلبه وكذلك فعل عبد الله بن متعب . غير أن عـبـد الله بن مـتـعب هذا كـان على وشك أن يقع فى عـقـاله ولمواجهـة الوضع البـائس فى الشـمـال ، حيث كـان الجوف فى خطر الاحتلال من قبل نورى الشعلان ، اطلق ابن متعب محمدا بن طلال من السجن ليقود جيشاً لانقاذها . ولدى عودة محمد بن طلال الى حايل ، دبر ثورة على ابن عمه الضعيف المتقلب ففر هذا والتجأ الى ابن سعود حيث عاش ضيفا مكرما الى أن وافته المنية سنة ١٩٤٧ .

ويبدو ان ابن سعود عاد الى عاصمته قبل حدوث التطورات .

الا أن تسـيـيـر الاميـر محـمـد بن طلال لدفـة العـمليات الحربيـة بعنف وشـدة واتخـاذ مـوقف الهـجوم على قطعات جيش الوهابيين التى كـانت تطوق حـايل على مـسـافـة قـريبـة اضطرت ابن سـعـود لاستـئناف اخذ زمـام المبـادرة فـوصل الى البـقـعـة شـرقى حـايل فى الشـامن من ايلول . اى بعـد ان احـبط فـيـصـل الدويش وجنده من الاخوان هجوما قـويا قـام به مـحـمـد الذين احـتـفظ بقـواته الرئيـسـيـة هناك . وقـام ابن سعود بهجوم شديد عـلى مراكز محمد فى البقعة، وسقطت الحصون الواحدة تلو الاخرى ففر محمد الى حايل عن طريق

جبل أجأ ويبدو أنه ادرك بان وضعه اصبح باعثا على اليأس ، فعرض على ابن سعود الاستسلام شريطة ان يبقى اميرا على جبل شمر ، تحت سيادته الا ان ابن سعود رفض العرض ، واعد العدة للتشديد فى الحصار ، وهيأ مدافعه لقصف المدينة ، ولكنه بناء على طلب بعض عقلاء المواطنين البارزين الذين طلبوا اليه وقف طلبا الى السلطات البريطانية والملك فيصل لمساعدته . وبعد صبر دام بضعة اسابيع ارسل ابن سعود انذارا اخيرا الى اصدقائه فى المدينة يطلب اليهم التسليم فى غضون ثلاثة ايام ، والا فانه سيعمد الى قصفها بالمدفعية . وكان هذا انذارا كافيا لهم جميعا سوى محمد فقد تحصن فى القلعة ليحارب حتى النهاية ، بينما فتحت ابواب المدينة فدخلتها قوات ابن سعود فى الثانى من تشرين الثانى سنة ١٩٢١ . وسرعان ما اقنعوا محمدا بالاستسلام ففعل ، وسار الى الرياض حيث عاش فيها مكرما حتى اصبح فيما بعد حمى الملك العظيم وكان هو آخر الاسرة التى حكمت حايل مدة تزيد عن التسعين عاما . وقد قتله احد عبيده فى الرياض عام ١٩٥٤.

قبل حملة حايل . كان ابن سعود قد عقد فى الرياض مؤتمرا ضم زعماء القبائل والممثلين البارزين من علماء الدين والفقهاء لبحث وضع البلاد ، ووافق المؤتمر على اقتراحه الرامى الى اعلان نفسه سلطانا على نجد وما يتبعها لاعطائها كيانا دوليا كما هو الحال بالنسبة لجارتها . وارسل نص هذا حينه ثم جاء احتلال حايل مؤيدا لكيانه الجديد ومجنبا اى تدخل فى شؤون نجد من قبل العناصر الشريفية المتاخمة له، سواء كان ذلك بتشجيع من البريطانيين او بدونه .

وهكذا اصبح ابن سعود الان في وضع يستطيع معه ان يسير قدما في الخطوة التالية من برنامجه الهادف الى توسيع حدوده الفعلية حتى أطراف الصحراء .

وانطلاقا من ذلك دفع سلطان نجد عام ١٩٢٢ بجيش الاخوان الى مقاطعتي الجوف ووادى سرحان ، اللتين ظلتا متمماً لامارة جبل شمر حتى عام ١٩٢٠ وكان مقتل سعود بن رشيد وما نتج عنه من انهيار سلطان آل رشيد هو الذى اغرى نورى الشعلان زعيم الرولى ، بتشجيع من الشريف عبد الله في الاردن ، وموافقة السلطات البريطانية التى كانت مهمته في ذلك الوقت بفكرة مد خط حديدى استراتيجي يربط العقبة ببغداد) ، وحمله على احتلالها ،غير ان الاخوان لم يجدوا ايه صعوبة في تثبيت اقدامهم في مقاطعة سكاكة بفضل حمد بن مويشر والاعيان المحليين الاخرين، الذين كانوا قد اعتنقوا المذهب الوهابي . وأرسلت حملة لجس النبض الى شرق الاردن نفسها ، فوصلت حتى الخط الحديدى وقتلت بعض الاهلين قرب زيزا ، الا أن قوة الطيران البريطانية ومصفحاتها قامت من عمان فهاجمهم وطردهم من البلاد بعد ان كبدتهم خسائر فادحة .

وكان هذا في اب .. فعاد الاخوان في الخريف وهاجموا الرولى في منوى بمنطقة قريات الملح وحول كاف ، فاستسلم سكانها بدون جلبة وتبرأوا من إخلاصهم لنورى الشعلان وبالطبع حذت قرى وادى سرحان حذوها فقبلت بهذا (المذهب الجديد) .

وفي هذه الاثناء احتلت القوات الوهابية واحتى خيبر وتيماء

بالقرب من الحدود الحجازية ، وكانتا من قبل خاضعتين لسلطة حايل منذ عهد محمد رشيد وهكذا اصبح ابن سعود عام ١٩٢٢ يسيطر سيطرة فعلية على جميع الواحات الصحراوية فى شبه الجزيرة العربية : من تخوم الهلال الخصيب حتى الربع الخالى - مع وجود طوق من الدول الشريفية حول الجزء الشمالى .

وقد ساعد على انفجار الوضع تحدى الملك حسين السافر ، وما كان يكنه ، ولداه فى العراق وشرق الاردن الواقعين تحت الانتداب البريطانى من عداوة عميقة هذا بغض النظر عن مطامع ابن سعود الظاهرة الامر الذى لم يعد بوسع الحكومة البريطانية ان تتجاهله ففى نهاية عام ١٩٢١ قام السير برسى كوكس الذى لم يكن يضمر لابن سعود مشاعر عدائية ، وإن كان مهتماً بصورة رئيسية بأمن العراق ورخائة وأخذ يبحث ابن سعود على ارسال بعثة الى بغداد للبحث فى قضية الحدود ، اما قضية الكويت فحلت بسهولة وتم تخطيط حدودها مع نجد ، بالاضافة الى تعيين منطقة حيادية بينهما للحيلولة دون حدوث المنازعات الطارئة . وبعد جدل حامى الوطيس ، تمكن الجانب العراقى من حمل البعثة الوهابية على توقيع معاهدة «المحمرة» التى أوضحت فيها الحدود الفاصلة بين نجد والعراق .

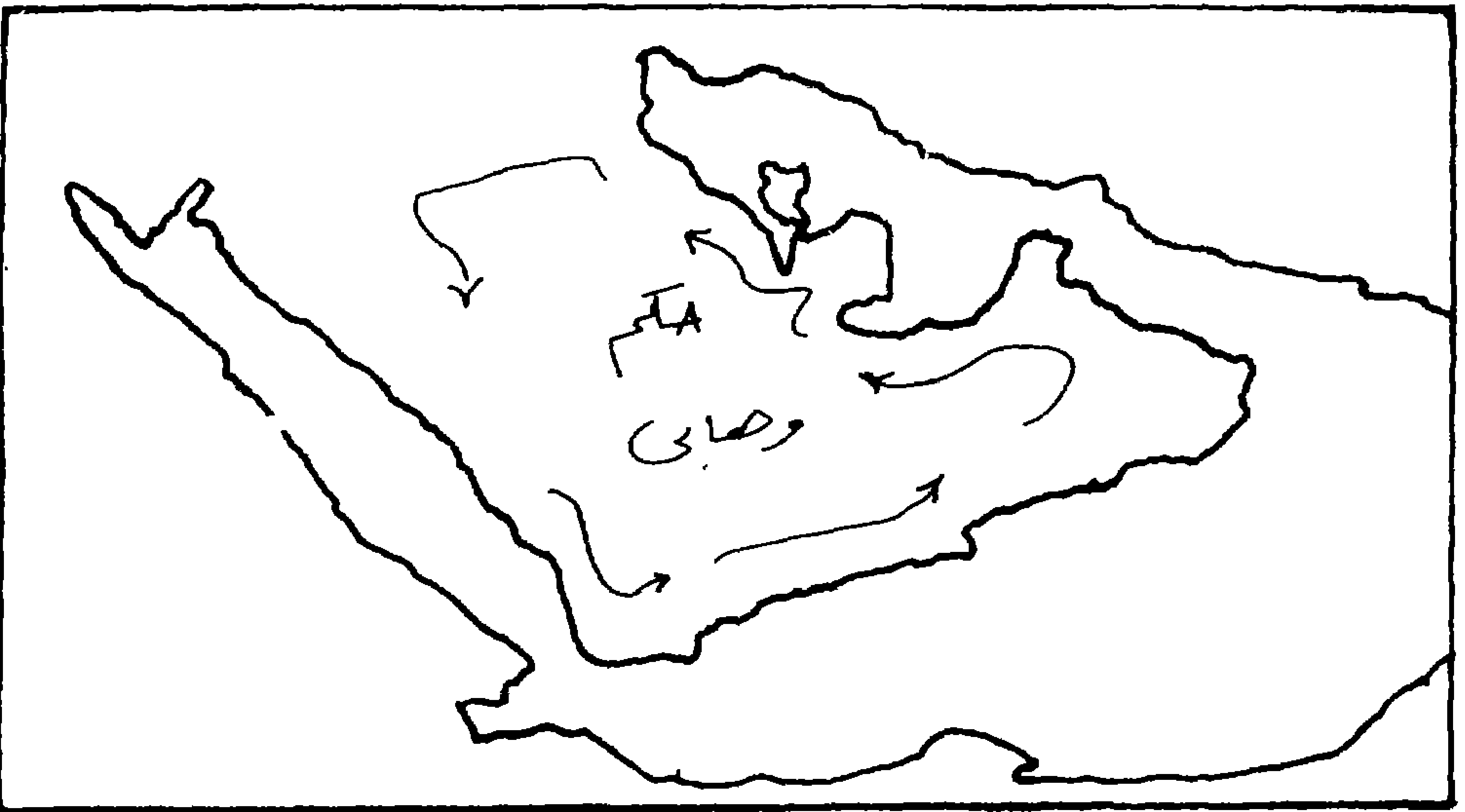
غير أن ابن سعود ابطل توقيع ممثليه بحجة انهم تجاوزو التعليمات التى صدرت اليهم ، واعلن انه لن يقبل بالحدود المقترحة ، اذ انها لم تتضمن حقوق الرعى - المكتسبة من عهد بعيد - للقبائل النجدية النازلة فى المنطقة التى الحقت بالعراق ولذا

اقترح اعادة النظر فى القضية برمتها أثناء مباحثات شخصية دارت بينه وبين السير برسي كوكس، الذى دعاه الى عقير فى خلال شتاء ١٩٢٢ - ١٩٢٣ فقبلت الدعوة، وفى الزمن الذى عقد فيه الاجتماع ، كان ابن سعود فى اوج قوته وسلطته كحاكم شبه الجزيرة العربية الصحراوية ، ولم يكن مقتنعا بمثالية السير برسى كوكس عن الحدود الثابتة .. بسبب وضع البدو التقليدى فى المنطقة المعينة لكن السير برسى قطع فى النهاية شوطا بعيدا باصداره بيانا فيه تنازل جوهرى فى القضية فتم الاتفاق فى « بروتوكول عقير » على أن يضم هذا الى معاهدة المحمرة .

وينص هذا البيان على عدم اقامة حصون أو أبنية ثابتة من قبل اى من الطرفين المتنافسين ضمن مساحة معينة من الحدود أو فى المنطقة المحايدة وذلك بغية تسهيل الوصول الى الابار ومناطق الرعى وجعلها مرافق عامة للفريقين .

أما الخط الفاصل الثابت الذى يحمى العراق والكويت من اعتداءات الوهابيين ، ضمان سلامة دول الخليج الفارسى الاخرى ضد اى تدخل من جانب ابن سعود ، بموجب نصوص المعاهده فقد كان نصرا لمهارة السير برسى كوكس السياسية الا أن ذلك ترك شعورا مريرا فى نفس ابن سعود .. لان مصالحه فى الغرب والشمال لم تؤخذ بعين الاعتبار حيث كان له اوضاع اقليمية هامة ومطالب بحاجة الى التثبيت والاستقرار .

وكان من نتائج الحد من مطامع ابن سعود فى الشرق أن وجه الرجل انتباهه الى جهات اخرى . فاضطرت الحكومة البريطانية عام



وهكذا أصبح ابن سعود عام ١٩٢٢م يسيطر سيطرة فعلية على جميع الواحات الصحراوية في شبه الجزيرة العربية: من تخوم الهلال الخصيب حتى الربع الخالي مع وجود تخوم مع الدول الشرقية حول الجزء الشمالي.

١٩٢٣ ان تأخذ بعين الاعتبار مختلف المخاطر المتوقعة التى تمكن هذه الاوضاع وعلى الاخص فيما يتعلق بشرق الاردن حيث كثرت الحوادث لعدم وجود حدود ثابتة بين البلدين . وكانت الحكومة البريطانية مسؤولة ادبيا عن الحجاز الا أن اهتمامها بالملك حسين وبمطامعه التى لا حد لها بدأ يضؤل وذلك عندما ادار اذنا صماء الى جهود لورنس الذى حاول اقناعه باقرار السياسة البريطانية فى فلسطين عام ١٩٢١ فالحكومة البريطانية لم تقبل ان تقر باية مطالب اقليمية فى الاماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز . وكان من المشكوك فيه فيما اذا كان بمقدورها ان تخلق وضعا سياسيا ذا اثر فعال لمجابهة مسلك الملك حسين المتطرف ، الا أنها كانت قد حصلت على ما تريد فى بلدان الهلال الخصيب من ابناء الملك المسرفين .

ولقد كان للمنح التى تدفعها الحكومة البريطانية الى الدول العربية المختلفة اثرها فى صد جماع اعتداءات اى منها ومنعها ، مع ذلك لم يكن البريطانيون يتوقعون استمرار دفع هذه المنح الى الابد . وكان من الاهمية بمكان ايجاد تسوية سياسية لجميع مشاكل شبه الجزيرة العربية اقصر وقت ممكن وبدون تأجيل .

وعلى ضوء هذه الظروف اقترحت الحكومة البريطانية عقد مؤتمر فى الكويت فى تشرين الثانى عام ١٩٢٣ برئاسة موظف بريطانى كبير ذى خبرة قضائية واسعة (كان الموظف المنتخب هو الكولونيل س . ج نوكس الذى كان موظفا سابقا فى الكويت ومسقط والعراق) بينما يجرى تمثيل الاطراف المنية بمندوبين موظفين فوافق العراق وابن سعود دون تردد او شروط مسبقة . .

ويجدر بنا ان نذكر بهذه المناسبة ان ابن سعود فى بداية ذلك العام، بناء على اقتراح من السير برسى كوكس ، منح امتيازا للتنقيب عن البترول فى كل الجزء الشرقى من الجزيرة العربية الى شركة بريطانية تسمى « ايسترن جنرال سنديكات» بأجرة اسمية مقدارها الفاجنيه فى السنة.

اما لملك حسين فعارض فكرة المؤتمر المذكور ، على اعتبار انه غير ضرورى على الاطلاق ، لان الامور التى ستبحث فيه واضحة لكل شخص عاقل . كما رفض الامير عبد الله ارسال اى مندوبين عنه ما لم يرسل والده . وبعد نقاش طويل اتخذ المؤتمر طابعا دراماتيكيا ، واعلنت الحكومة البريطانية مقدما أن جميع المنح المالية التى كانت تدفعها الى الدول العربية ستقطع اعتبارا من الحادى والثلاثين من آذار سنة ١٩٢٤ ، بينما تدفع جميع المبالغ المستحقة حتى ذلك التاريخ وبعد أن تم هذا اجتمع مندوبو الدول العربية يخامرهم شعور الارتياح بانهم لن يخسروا سلفا .

وكانت الحكومة البريطانية هى التى اضاعت الفرصة التى سنحت فى المؤتمر قبل ابتداء اللعب فقد لخصت للرئيس البريطانى تفاصيل النتائج التى توقعها رؤساؤه من ابحاث المندوبين وكانت احدى هذه النتائج التى توقعها رؤساؤه من ابحاث المندوبين . وكانت احدى هذه النتائج التى توقعها كافية لتؤكد انه لن يكون هنالك نتائج ما فقد طلبت الحكومة البريطانية من ابن سعود ان يتحلى عن خرما وترابة للملك حسين ، مقابل وادى سرحان وقريات الملح التى كان يسيطر عليها فعلا منذ احتلاله الجوف ، كما يمكنه احتلالها متى اراد .

وبعد أن امضى المؤتمر ستة اشهر فى أبحاث واعمال عقيمة ، قرر الملك حسين ان يظهر سلطته على ابنائة فقدم الى شرق الاردن فى موكب رسمى سنة ١٩٢٤ وتظاهر بتسلم زمام الامور بوجود أبنائه الثلاثة ، الامر الذى اذهل السير هربرت صموئيل المندوب السامى لفلسطين والاردن وأغضبه . اما الشريف على ابن الملك البكر فتسلم ادارة الخط الحديدى الحجازى ، واصدر اليه والده تعليمات باعادة انشاء الاتصال التام بالمدينة المنورة . وكان الوالد يفكر جديا باستبدال عبد الله بعلى أميرا على الاردن .

الا أنه وقع آنذاك حادث غير مجرى التاريخ العربى . لقد قرر مصطفى كمال باشا فى انقرة أن الوقت قد حان لالغاء منصب الخلافة التاريخى ، وخلع السلطان عبد المجيد خان وخلافته . هذا رغم انه كان قد سمح لعبد المجيد ان يحتفظ بمركزه الدينى عندما الغى منصب السلطنه العثمانية فسارع الملك حسين الذى كان يتمنى انتزاع هذا اللقب منه ، واعلن نفسه خليفة باحتفال رسمى مناسب . وبقى ينتظر خضوع الاردن والعراق والعناصر الاخرى ، التى تكون الهلال الخصيب - هذه العناصر التى كان مظهرها شريفيا منذ الحرب العالمية الاولى - ثم سارع بالاستعداد للرجوع الى مكة . اما قضية عبد الله وشرق الاردن فأجل موضوع تنفيذها وأنهت الحكومة البريطانية اعمال مؤتمر الكويت الذى شارف على الاحتضار .

وهكذا الاح فى الافق ان المسرح قد أعد للمأساة القادمة .. ففى غضون اقل من ستة أشهر بعد توقف محادثات الكويت ، ازيح

الستار في الثالث من ايلول على مذبحة الطايف . لقد امضى ابن سعود الصيف كله في اعداد تسوية نهائية مع ملك الحجاز ، الا أن الاخير باغتصابه الخلافه ، بّر الحرب المقدسة التي حشد لها عدوه كل ما لديه من قوات وارسل ابن سعود فرقة استطلاعيه لم يقصد منها غير اظهار القوة ، عله يمنع الملك فيصل من القيام بأى عمل من جانبه فتمركزت هذه على طول التخوم العراقية ، الا أنه لم يقع اى حادث ، ولم يعبر الوهابيون الحدود. هذا كما ارسلت الى الشمال قوة قوامها الف مقاتل من الاخوان فتغلغلت مسافة بعيدة في شرق الاردن وذبحت سكان قرية صغيرة قرب الخط الحديدى ، الا أن الطيران البريطاني قام بطردها وكبدها خسائر فادحة . وما كاد العالم يبدأ التفكير بهذه الامور المعقدة حتى حملت الاخبار نبأ آخر مرعبا . وهو سقوط الطايف بعد مذبحة شاملة . اما هذه الانباء التي كان مصدرها شريفيا فقد بولغ فيها عن قصد ، الا انها كانت تستند الى شيء من الواقع .

لقد سار سلطان بن بجاد زعيم غطغط Ghatghat الشرس، على رأس جيشه المؤلف من الاخوان وحدهم ، عبر الصحراء وهاجم القوات الحجازية ، فلم يلق الجيش مقاومة تذكر هرب علي وجيشه الى هدا Hada على المنحدر المشرف على تلال مكة وسهلها . وقد فر معهم الالاف من سكان الطايف أو المصيفين مما اربكهم . وكان هؤلاء الفارون لا يرغبون في رؤية الوهابيين . وطارد بعض الوهابيين القوات المتقهقرة واللاجئين الآخرين فقتلوا جميع الشاردين منهم ، واشتبكوا مع قواعت على في هادا Hada ومن

هناك فر جند ابن الشريف فى حالة من الفوضى والاضطراب عبر المنحدر الجبلي العميق . وقد سار علي الى جدة ، مخلفا مكة وراءه معتبرا الحكمة فوق شجاعة الشجعان . وذلك ليتجنب رؤية والده الغاضب.

اما سلطان بن يجاد مع بقية جيشه ، فقد اعمل السيف فى سكان الطايف واخضعهم لحكم ارهابى ، قاتلاً المشركين ونهب جيشه كل بيت وانسان .

والواقع ان عدد القتلى لم يتجاوز الثلاثمائة بما فى ذلك الذين قتلوا اثناء فرارهم فى معركة هدا ، ولكن هذا كان كافيا لبث الرعب والذعر فى مكة البعيدة ، وفى جدة ، الا ان ابن سعود ارجأ الهجوم على هاتين المدينتين بموجب أوامر مشددة اصدرها الى قائده المتحمس . لقد اصدر اليه تعليماته بتجنب الاعمال الحربية فى المنطقة المقدسة ، وأن ينتظر قدومه قبل احتلال مكة ، حيث اعلن الملك حسين عن عزمه البقاء فيها مستهينا بالاخطار التى قد تحدث له . الا أنه فقد السيطرة على الوضع. وما كان من أهل جدة، الذين كانوا يواجهون خطراً أشد من غضب الملك ، الا أن استأسدوا وتشجعوا فطلبوا منه التنازل عن العرش لابنه على الذى قد يسعده الحظ بالوصول الى اتفاق مع الوهابيين أو مع ابن سعود .

وهكذا غادر الملك حسين مكة بعد حكم دام ستة عشر عاما ، قضى الشطر الاخير منه ملكا مستقلا فعلا ، فابحر من جدة الى العقبة ، مصطحبا معه نساءه ،وكنوزه ، ومن ثم اخبرته السلطات البريطانية بضرورة مغادرته العقبة الى قبرص لئلا يغرى وجوده

بالعقبة الوهابيين فيندفعون الى الشمال قبل ان تتمكن بريطانيا من التمركز فى العقبة ، ذلك التمركز الذى تم فيما بعد فى صيف عام ١٩٢٥ .

خلف الشريف عليٌ والده على الحجاز .. فلم يطالب بمناطق اوسع مما طالب بها الاخير ولا بالخلافة التى انتهى بحثها او المطالبة فيها من جديد ، والى الابد .

اما ابن سعود فلم يتعجل تطوير الوضع ، ولم يصل الى مكة الا فى اوائل شهر كانون الاول . وقد دخلها فى لباس الحج ، لان سعدا آخر افراد اسرته والممثل الوحيد لها والذى زار مكة للمرة التاسعة والاخيرة فى عام ١٨١٢ ، فعل مثل ذلك .

وقد استولى سلطان بن بجاد على المدينة كلها بدون مقاومة ، بعد هرب حسين وهدأ من روع سكانها الخائفين وامنهم على ارواحهم واملاكهم مع ان قصور الملك تعرضت للنهب والسلب ودمرت جميع مقامات واضرحة ائمة الاسلام الاولين فى مقبرة معلى والاماكن الاخرى ، كما دمرت من قبل ، على يد سعود الثانى .

اما ابن سعود فقد كان مشغولا جدا باتخاذ التدابير لاحتلال ما تبقى من الحجاز ، وقد اخذ يلقن قبائلها المتمردة بعض الدروس القاسية لاقناع عقولهم الملحدة المتشككة بان السلام الوهابى لا يمكن مقارنته بحالة الفوضى التى كانت سائدة ايام الشريف. وكان هنالك مشكلتا المدينة المنورة وجدة البارزتان اللتان يتوجب عليه معالجتهما : مشكلتان تتطلبان مزيجا من الحكمة والحزم مع القوة،

حتى لا يثير العنف الجامع مع ما يصاحبه من إستفزازات المتاعب مع الدول الأجنبية او يجرح مشاعر بعض الطوائف الاسلامية وفى هذه الاثناء اخذ على ومستشاروه يبنون سياجا من الاسلاك الشائكة الضعيفة حول المدينة . وقد عزوها بحقول الالغام ، المشكوك فى جدواها والتى زرعوها على ابعاد متفاوته .

★★★

حشد ابن سعود قواته ومدافعه ضد هذه المراكز فى ثنايا التلال الساحلية البعيدة عن المدينة مسافة عشرة اميال ،. ثم بدا القصف الوهابى فى الثالث من كانون الثانى عام ١٩٢٥ ، واستمر بشكل متقطع حتى نهاية اذار . وبعدها سحب ابن سعود جيشه الى مكة ليقضى العطلة الصيفية التى شملت صيام رمضان فى نيسان من تلك السنة وابتداء الحج فى تموز وكان هذا هو الحج الاول الذى يحتفل فيه بحماية الوهابيين منذ اكثر من قرن من الزمن ، وقد حضرته جماهير غفيرة من سكان نجد والعناصر الاجنبية التى استطاعت أن تسافر عن طريق مينائى ليث ورابغ اللذين كان بن سعود احتلهما واستخدمهما من اجل هذه الغاية . وقد قام بتأدية الحج ألدن رتر ELdon Rutter وهو انجليزى مسلم كتب فيما بعد وصفا شيقاً عن مشاهداته فى الحجار فى اول سنة من سنى الاحتلال الوهابى .

وفى خلال الصيف بدأت الاستعدادات من اجل استئناف الاعمال العدوانية فى الخريف وعندها قدم الامير فيصل من نجد على رأس جيش كبير مجهز جيدا فاتجه قسم منه الى المدينة المنورة بقيادة شاب

آخر من ابناء السلطان اسمه محمد وقد اصبح الوضع فى كلتا المدينتين بائسا لا أمل فيه ، فالطعام والماء لم يكونا كافيين لطوائف ازداد عددها الى حد كبير بالعديد من اللاجئين الذين جاءوا من لمناطق المجاورة حيث كان الوهابيون يعملون تامة . وفى كلتا الحالتين منع ابن سعود بشدة القيام باى هجوم على المراكز الدفاعية الضعيفة بينما امضى جزءا من الخريف فى اجتماع عقد مع السر جلبرت كلايتون G . Clayton فى وادى فاطمة للمفاوضات بشأن معاهدتى هدا وحره Hdda, Bahra لتسوية المشاكل بين السلطنه الوهابية والعراق والاردن الخاضعتين للانتداب البريطانى وتشمل حدود الاردن نقط لم يتوصل الى اتفاق بشأنها بسبب رفض ابن سعود بعناد الاعتراف باحتلال الإنجليز لميناء العقبة ومقاطعتها خلال الصيف ، ومازال الخلاف بشأن العقبة قائما لم يحل حتى يومنا هذا ، مع ان هنالك خطاً فاصلا احترمه كلا الجانبين، بموجب الامر الواقع .

واستمر حصار جده والمدينة المنورة جنبا الى جنب مع هذه المفاوضات بشكل غير منظم . اما لمدينة المنورة فرفضت الاستسلام للجيش الوهابى الذى يقوده ابراهيم تشمى ويستنده فيصل الدويش مع قوات الاخوان وطلب اهلها الى ابن سعود ان يرسل ممثلا عنه ليقبل خضوعهم ويضمن سلامتهم من إجراءات الاخوان .

وما كاد محمد يظهر امام المدينة حتى استسلمت فى الخامس من كانون الاول ، بينما ارسل فيصل الدويش وقواته المتعصبة الى شمال الحجاز للقيام بعمليات التصفية .

واما الملك على فخضع لحكم القدر ، واستسلم ، بناء على مشورة كبار موظيفه ، بعد أن لم يبق فى يده الا جزء بسيط من الاراضى . وطلب الى الوكالة البريطانية ان تستخدمَ وساطتها لتأمين رحيله وسلامته ، واحتلال المدينة المنورة احتلالا سلمياً منظما وقد تمت هذه الاجراءات بكل سهولة ، ودخل ابن سعود جده فى ٢٣ كانون الاول بعد ان رحل الشريف على بحرا الى العراق .

والان ، وجد ابن سعود نفسه لاول مرة يحتك بعدد من الدول الكبيرة والصغيرة ويواجه مجموعة من المشاكل المربكة التى آلت اليه من نظام تسوده الامتيازات ، وبصفته وارث الديار المقدسة . فقد كانت هذه الامتيازات تهدف فى الاصل الى حماية الذميين فى البلاد الاسلامية ، غير أنها اصبحت تدريجيا مبررات للتدخل فى شؤون البلاد الاسلامية ، اما ابن سعود فقد اوضح منذ البداية انه لن يتحمل نقدا يوجه اليه أو تدخلا بشريعة الله على الارض ، وكان عليه كذلك أن يتعرض الى الراى العام للدول الاسلامية بخصوص طريقة ادارة الاراضى المقدسة الا أنه لم يجد صعوبة فى التخلص من البعثات التى جاءت بمحض اختيارها أو انبثقت عنها بأن وعدها بان يهىء فى الحج القادم فرصا ملائمة لبحث جميع الامور التى تهم الشعوب الاسلامية عند التقائه بممثليها فى مؤتمر يعقد لهذه الغاية.

وبعد أن اوضح ابن سعود عزمه أن يجعل مصلحة الديار المقدسة فى رأس الامور السياسية التى سيعالجها واستعداده لتقبل اى نصيحة توجه اليه من ايه جهة من أجل هذه الغاية ، قام باجراء حكومى افزع حمائم الغرب وأحدث أثرا سيئا فى بعض البلدان

الاسلامية التى اعتادت ، منذ عهد طويل ، حكم الدول الاجنبية وتقبلت ثقافتها مع الاحتفاظ باخلاصها للمبادىء الاسلامية التى كان زعماء تلك البلدان يفسرونها وفق مشيئتهم ذلك انه فى يوم الجمعة الثامن من كانون الثانى سنة ١٩٢٦ اعلن الملك سعود نفسه ملكا على الحجاز بعد صلاة الجمعة فى جامع مكة الكبير ، وبالاحتفال التقليدى الذى نصت عليه التقاليد الاسلامية وكان هذا عملا دينيا وتحديا للعالم فى نفس الوقت . غير انه اصبح فى حينه خيرا يحول دون الانحراف عن المبدأ الذى قام عليه ابن سعود لمجد الله ، الذى ما فتىء يعترف بمساعدته له فى جميع الاحوال ك تلك الاحوال التى قادت شعب الجزيرة فيما بعد بفضل ارشادات ملكة الجديد - من التيه الى ارض الميعاد) التى تفيض لبنا وعسلا فلقد انتهى القتال الذى استمر زهاء الاربعة والعشرين عاما كأنها يوم واحد . وكان امام المنتصر فترة اربع سنوات تقريبا ليجعل ثمار نصره خيرا على الاجيال المقبلة . هذه الاجيال التى لم تعرف يوسف الصديق ولا صيحة الاخوان الجريئة .

الفصل الحادى عشر

بلاد العرب السعيدة

انتهت الحرب ، وبلغ ابن سعود أوجه.. وأصبحت الجزيرة العربية، التى قدر له آن يحكمها قرابة الثلاثين عاما ، متحدة كما لم تكن من قبل ، وضمن اقصى الحدود العملية فى الظروف الدولية السائدة آنذاك . انها تزيد على اى رقعة سيطر عليها اسلافه سيطرة فعالة .

ضمن هذه الحدود الجديدة لن يتحداه احد مرة اخرى ، فالدولة التى انشأها وشق حدودها بسيفه وايمانه ستؤول الى خلفه فى حالة سليمة . وكان العامل الحيوى فى تلك الآونة ، اشتهاره بالعدل والحزم والتصميم التى لم توضع موضع الاختبار الا وتتحقق ، كلما دعت الضرورة الى ذلك .

ولأول مرة فى التاريخ يحكم الجزيرة العربية حاكم فرد جدير بما أبدى له الكل من احترام .

ولما بلغ عبد العزيز الخامسة والاربعين من عمره كان فى اوج رجولته ، مخلفا وراءه فى حياته سجلا حافلا بجلائل الاعمال . غير ان النصر انعشه وأعاده ماردا مستعدا للكفاح مرة اخرى . ومرة اخرى كان ينصب عليه وحده الانتقاد مع وجود العديد من المتفرجين ، وفى ظروف مختلفة . لقد كان الرجل ارستقراطيا قلبا وقالبا وتربية ومؤمنا الايمان الكامل بحق الملوك الالهى ، وبالواجب الملقى عليهم فى أن يحكموا رعاياهم ، غير انه كان بطبعه

ديمقراطيا ، الف الشورى في اعماله تلك الشورى التي كانت جزءا لا يتجزأ من حياة العرب.

وربما كان الفضل على شخصيته التي وفقت بين هاتين السجيتين الى خلقه فقد مكنه هذا من سهولة تقلد المركز القيادى : هذه الزعامة التي اعتاد تفسير مهمتها الحقة باستشهاده بالآية القرآنية ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ ثم .. اذا استخرت فتوكل على الله، ان الله يحب المتوكلين.

لقد كان هذا المنهاج يقوّمه في مواقف كانت آنذاك تتطلب استخدام الحذق الغريزى الذى هو من مزايا الخبراء . الا أن مكانته الجديدة كشخصية عالمية كانت تجابهه بمشاكل من نوع لم يألفه ، ولم تفده خبرته الماضية في معالجتها وكان الحمل الذى القى على عاتقه ثقيلا ، حتى انه لم يكن بمقدوره حمله دون مساعدة من احد ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالامور الفنية : كالاقتصاد والمالية .

كان يشعر بقصور خبرته في مثل هذه المجالات ، الا أنه لم يتردد قط في تحمل مسؤولياته .

أما عظمته المعروفة ، واعتماده الكبير على نفسه فكانا من العوائق التي حالت بينه وبين تجنيد نفر من الاكفاء لتسيير شؤون الدولة السياسية والادارية . وبمساعدة سته من الشخصيات المعروفة بمزاياها وقدراتها ، كان بامكان المملكة العربية السعودية ، المؤلفة من نجد والحجاز ، ان تصبح مثلا رائعا وفذا في السياسة العالمية . فقد جمعت بين الحكم الروحى والزمنى القائمين على اسس راسخة

من الايمان والعدالة ، اللذين كان الملك يهدف الى ارسائهما فى ربوع بلده مهما عز الثمن.

وفى سبيل تحقيق هذا ، كانت ارادة الشعب ضرورية مثلما كانت ارادة السلطات ولسوء الحظ لم تجتمع هاتان الصفتان اللازمتان فى نفوس الرجال الذين انتدبوا لمساعدته فى مهمته العلوية تقريبا هذا من ناحية أما من ناحية اخرى فقد كان هنالك العديد من هؤلاء ، بين صفوف النجديين ، الذين جازفوا بحياتهم لخلق مثالية روحية. وكانوا يتوقون ، بكل اخلاص ، الى أن يطبقوها فى البلدان الفاسدة التى فتحوها . الا أنه لسوء الحظ كان القلائل منهم هم الذين يتحلون بالمعرفة الادارية والخبرة الضرورية لتطوير الاوضاع الجديدة التى وجدوا انفسهم يجابهونها .

ومن حيث الكفاءة والمقدرة فانهما لم تعوزا أهل الحجاز ، الا أن هؤلاء كانوا قد فقدوا الفضيلة إبان الجو الفاسد الموبوء الذى عاشوه تحت الحكم التركى الطويل . ففى اثناء خدمة الاتراك أتقن الاهلون الاساليب الملتوية فى جمع الثروات والتوصل الى ارفع الوظائف الحكومية .

وعلى كل حال ، كان ابن سعود حذراً للغاية فى استخدام هذه الفئة من الموظفين المدنيين المتوفرين آنذاك والمشكوك فى اخلاصهم وولائهم له .. فاضطر تحت وطأة هذه الظروف ، الى أن يرجع الى مصدر القوى الاخر المتوفر لديه وكان هذا فى البداية على نطاق محدود جداً ، غير انه فيما بعد اصبح على نطاق واسع جداً فاستحالت السيطرة عليه .

ولقد كان ابن سعود محقا منذ البداية فى عدم قبوله استخدام غير المسلمين فى اية وظيفة عنده لئلا يتكرر فى بلاده ما حدث فى البلدان الاسلامية الاخرى.

وعلى كل فقد اوضح بنفسه ان الحجاز على الاقل ستبقى وديعة لكل المسلمين فى العالم ، وأنها ترحب بجميع المسلمين ، سواء جاؤوها حجاجاً او طالبى معاش ، على شرط ان يقبلو الشريعة الاسلامية نبراساً لحياتهم ومعاملاتم المشروعة فى كل شىء . وعلى هذا الاساس اضطر لان يطلب الموظفين اللازمين لادارة البلاد من الغرب غير السعوديين ، والمواطنين المسلمين الآخرين . وقد قسم هؤلاء الى فئتين منفصلتين فى بداية الامر : لان نجدا والحجاز بطتا برباط الملكية فقط فلم يعهد ابن سعود بسلطته الى اى شخص آخر غيره.

هكذا كان الوضع المحلى الذى وجد ابن سعود نفسه فيه أيام بداية حكمه فى الحجاز والطريقة التى بادر بها الرجل الى معالجة المشكلة فى ايجاد كادر ادارى اساسى ، تتمثل افضل ما تتمثل فى حقيقة ان جميع الرجال الذين جمعهم حوله خلال السنتين او الثلاث سنوات الاولى بعد احتلال الحجاز ، للقيام بفعاليات مختلف الادارات نيابة عنه - لم يظلوا جميعهم فى خدمته فحسب ، بل ظلوا يقومون بنفس الوظائف وفى نفس الدوائر تقريبا منذ ذلك العهد حتى نهاية حياته .

واذا لم تثبت هذه الحقيقة صدى حدسه الذى لا يخطئ فى اختيار الرجال الصالحين الاكفاء لمختلف وظائف الدولة - فانها على الاقل،

توضح لنا أن من مزاياه الخلقيـة نوع رقيـق من الكراهيـة للاجانب: كراهيـة كـان من اعـراضـهـا وعـلائمهـا عدم إظهـار الحماس للمجتمع الغـريب ، الا انه يخفـيـهـا بسهـولة عن طريق الكرم الزائد ، واظهـار المودة ، وتفضليه الاجنبى فى ان يكون حوله فـى جميع الاوقات : ليلا ونهارا وسنة بعد سنة ، ونفس الاشخاص دائما سواء أكانوا من افـراد عائلته او الموظفين او الرفـاق الفكهـين او الحشم والخدم . فـفى وجود هؤلاء فقط كان يجد الراحة بلا تحفظ ، ويظهر روح الكياسة واللطف والنفس الطيـبة التى جعلته يصـمـد ابدا تحت عبء التـاج الثقيل .. كان ابن سعود يثق بهؤلاء الناس لأنه كان يعرفهم معرفة صحـيحـة ، يعـرف فـضـائلهم واخطاءهم فـقـد شد وثاقـهـم الى نفـسـه وخدمته بسخائه الذى لا حد له ، والذى كان يزداد بازدياد موارده.

وهنالك مـثـال نادر شـاذ فـى طول الخدمة تجلى فى شخص خدمه اكثـر من غيـره وهو عبـد الله الدملوجى العراقى الاصـل والموصلى المولد . التحق هذا الرجل بخدمة ابن سعـود سنة ١٩١٥ كـمـستشـار صحى . وقد رفعته معـرفـتـه باللغـة الفـرنسية الى تحمل مسؤليات سياسيـة تجاه الزوار الاجانب فى بلاط الرياض . وبعد احتلال الحجاز عـين ممثلا خـاصـا للملك فى جده، ثم اصبح بعد ذلك نـائب رئيس الخارجيـة ، عندمـا عـين الامـير فـيصـل ، الابن الثـانى للملك ، فى هذا المنصب . وبعـد بضع سنوات من التـجـربة ، والاختـبـار فى هذا المنصب تخلص ابن سعود باسلوب لبق : باعطائه اجازة غير محدودة سنة ١٩٤٠ والسماح له بالاستقاله . اما خلفه فؤاد حمزة ، فكان قد وصل الى الســعـوديـة كـلاجئ من فلسطين سنة ١٩٢٨، واثبت

جدارة فى وزارة الخارجية السعودية الى أن توفى وهو على رأس عمله سنه ١٩٥١ . وقد كانت وفاته خسارة كبرى لوطنه الثانى . وفى خلال الحرب كان سفيرا للعربية السعودية فى فيشى ، ومن ثم فى انقرة، حيث خلفه فى هذا منصب أخوه توفيق.

اما العضو البارز فى سرب موظفيه ومستخدميه فقد كان بلاشك، عبد الله سليمان الذى عين وزيرا للمالية سنة ١٩٢٩، بعد تجربة السيد شرف رضا فى هذا المركز ، وهو شريف لم يكن لديه من الاسباب ما يدفعه ليكون مواليا لاسرة الاشراف . وكان عبد الله سليمان هذا يمتاز على زملائه بكونه ولد فى نجد وتمرس فى مهنة المحاسبة . وقد سبق ان كان اخوه الاكبر هو السكرتير الخاص الاول لابن سعود لعدة سنوات قبل وفاته . وكان عبد الله نفسه قد رافق سيده فى هذه الوظيفة تقريبا خلال حملة الحجاز . وقد وضح أنه اختير ليشغل وظائف مهمة .

وكان نحيف البنية واسع الاطلاع والحكمة الا انه انهك جسمه فى اداء مهمة اغتصاب قدرة الارملة بيده ، لمواجهة جميع المطالب التى كانت تنصب عليه والتى كان معينها لاينضب . وكانت شجاعته لا يعتريها النصب فى معالجة مشاريع الاعمار والتطوير المتعددة . لقد سار بعضها فى طريق منحرف الا ان معظمها ادت الى نتائج ثابتة افادت البلاد فائدة قيمة . فقد ادار مرافق ثروتها النامية بدهاء البرامكة وذكائهم فى خدمات مدنية خاصة به ، مع تعيين أفراد من عائلته فى المناصب المهمة الاساسية فيها . ومع انه كان يتمتع فى جميع الاوقات بثقة ملكيه التامة ، الا انه كان الوحيد بين اعضاء

السلك الادارى الذى يعمل عادة حسب مشيئته الخاصة وسلطته، مبررا ذلك باعتقاده بان اعماله سوف تحظى بتأييد جلالة الملك وموافقته.

وبين الموظفين الاداريين الذين شغلوا مراكز ادارية منذ تلك الايام حتى يومنا هذا : حافظ وهبة ويوسف ياسين . اما حافظ وهبة فكان مصريا قد اعتقل فى مالطة لعلاقته بالاضطرابات التى حدثت فى الاسكندرية فى حادثة سعد زغلول سنة ١٩١٩، الا انه بعد ان شغل منصب مدير المعارف اصبح فيما بعد ممثلا لابن سعود فى البلاط البريطانى ، كوزير مفوض ، سنة ١٩٣٠ ومنذ عهد قريب عين سفيرا وهو مازال يشغل منصبه هذا بعد ربع قرن قضاه فى الوظائف السياسية . ونتيجة لذلك كان اشهر ممثلى العربية السعودية السياسيين واكثرهم عملا وارهاقا فقد كان ابن سعود يستدعيه مرارا وتكرارا للتشاور معه ومع يوسف ياسين ، سكرتير جلالته الخاص . ومن ثم رقى حافظ الى منصب وزير دولة .

وكان يوسف ياسين فى خلال تلك السنين حلقة الاتصال بين سيده وشبكة المراكز السياسية الواسعة المنتشرة من الصين حتى بيرو ويوسف ياسين سورى الاصل من اللاذقية ، اشترك فى شبابه فى حوادث الاضطرابات التى جرت ايام الانتداب فى بلاده . ووصل الى الجزيرة العربية حوالى عام ١٩٢٣ حيث ربط مصيره بمصير الوهابيين وسرعان ما فاز بثقة ابن سعود فرافقه فى حملة الحجاز ، وبعدها اصبح محررا فى الجريدة الاسبوعية الرسمية « ام القرى» ، وكان يشرف على محتوياتها كجزء من المهام الملقاة على عاتقه

كسكرتير سياسي . (وبدون اجر) . ولاشك انه كان من ابرز موظفي ابن سعود في اكثر من ناحية من نواحي نشاطه . وكان عمله يتضمن القيام بسفرات الى الخارج لغاية او اخرى .

ويجئ في المرتبة الثانية ، مساعده رشدي ملحس . وهو لا جئ من فلسطين حالت واجباته الرسمية دون تطويره ذوقه الادبي والعلمي ، وهو المجال الذي كان يمكن ان يختاره لاريب ، لو كانت الاحوال عادية .

وبين الاشخاص الذين اسهموا الى حد كبير في تطوير حكم ابن سعود يجدر بنا ان نأتي على ذكر خالد الكركني الذي هجر وطنه في ليبيا ، بعد أن احتله الايطاليون وجاء الى جده في اوائل الحكم الجديد في الحجاز ، وفي نيته أن يمارس الاعمال التجارية هناك الا أنه سرعان ما اجتذبته وظائف الملك الخاصة فعين في وظيفة استشارية مع الاحتفاظ بجنسيتة التركية . ولم يكن بشكل من الاشكال اقل افراد حاشية الملك السياسيين والاداريين تأثيرا .. ففي اواخر ايام حياته ، التي فقد فيها شيئاً من نشاطه لتقدمه في السن، حظي بمركز قيادي مرموق وكان موضع ثقة وتقدير .

ولنكتف بما قدمناه عن الجانب الوظيفي للصورة . ويجب أن نذكر أن ابن سعود في اول مراحل حكمه ، رفض بشكل قاطع ، تدخل ابنائه أو اي فرد من افراد عائلته في الشؤون الادارية للدولة صحيح أنه عين ولديه سعودا وفيصلا نائبين له في نجد والحجاز ، ثم عين فيصلا وزيرا للخارجية بالنظر لخبرته الواسعة التي اكسبته اياها سفراته إلى الخارج وإتصاله بالحكومات الأوروبية المتعددة، إلا أن

مثل هذه التعيينات طبيعية ومناسبة ، بالنظر للمسؤوليات التى ستلقى على عاتقهما فى حينها . وكان مفهوما لديهما انهما سيمارسان مهام منصبيهما فى جميع الامور الهامة تحت اشراف والدهما ، وبموافقته . وعلى الاخص حين يكون موجودا فى احد هذين الاقليمين المعنيين.

ومن ناحية اخرى ، كان ابن سعود يحذر تعرض العائلة المالكة للنقد أو اللوم بسبب اختياره بعض افرادها لتحمل مسؤوليات ليسوا اكفاء لتحملها ، لا من ناحية الخبرة ولا التدريب . وقد اعتاد كلما ازدادت ثروتة وكثرت ذريته ان يحذر الناس فى مجالسة ويحذز نفسه ضمنا مستشهدا بالاية القرآنية : ﴿ إنَّ من اموالكم واولادكم عدو لكم .. ﴾ وحسب تجاربه كثيرا ما نجد أن هذا الخطر لا يقاوم وعندما شكل ابن سعود مجلس وزراء في وقت متأخر جدا ليحمل عنه أعياد الحكم الذى اثقل القوى ، وأن كان الان قد حناه السن والجهد المتواصل ، نال الامراء نصيبا من المناصب الوزارية لم يسبق له مثيل فى اى عصر أو اقليم منذ خليقة العالم . ومن المزايا الشيقة الجذابة فى العائلة المالكة السعودية نظام الاولوية المرعى بين اعضائها . هذا النظام الذى لا ينص عليه اى تشريع . الا أنه اصبح مفهوما ، ويجرى تطبيقه بكل حكمة من قبل الجميع . فالعامل الاول فى نظام الاسبقية هو السن . فالابناء والاحفاد واولاد الاحفاد لا يتقدمون على اعمامهم وابناء عمهم الاكبر منهم ، الا حين يكونون قد ولدوا قبلهم . ويبدو انه لم يكن هنالك اى استثناء لهذه القاعدة . وحتى سعود نفسه حين اعلن وليا للعهد سنة ١٩٣٣

استمر فى التقدم فى البلاط على غيره بعامل السن فقط . وكان هذا الترتيب مربكا للاجانب حين يجدون افرادا من العائلة متقدمين فى السن لا يعرفونهم .

وفى الواقع كان الابناء وابناء الاخوة فى ايام الحجاز الاولى يجلسون فى المقاعد الخلفية فى الجلسة التى يحضرها الملك . الا أن هذا النظام اخذ فى الزوال لعدم ملائمته الواضحة بسبب بلوغ عدد كبير من الامراء سن الرشد . وربما كانت نسبة هؤلاء واحد لكل خمسة الاف من مجموع السكان فى العربية السعودية .

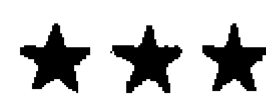
غير أن الامتياز الوحيد الذى كان يتمتع به سعود كولى للعهد او نائب للملك او وراث للعرش ، هو الحرس العسكرى والحاشية المسلحة التى ترافق الملك او وارث للعرش ، هو الحرس العسكرى والحاشية المسلحة التى ترافق سيارته . ومع مرور الاعوام منح الامتياز الملكى فى ترأس الحفلات الملكية والاجتماعات الرسمية الاخرى : هذه المهمة التى كان ابن سعود يقوم بها بدقة ولكن بدون لذة . وربما كان هذا بسبب كون الاطعمة اللذيذة وعادات المائدة البسيطة فى العهد القديم ، قد زالت : تلك العادات التى اخذت تحتل مكانتها تدريجيا وبلا هوادة عادات المطبخ والمائدة فى العالم الجديد مع مرور الزمن ففى عشق الماضى الذى بعثت يومنا الحاضر لابد للمرء ان يجد العذر للاجيال المتأخرة التى لم تعرف المشقة والضنك التى رافقت تطورها ، هذه الاجيال التى لها ملء الحق فى سلوك اسهل السبل والتمتع بأوفر الحظوظ والملذات التى يوفرها لها نظام آخر مختلف ، سيظل ميراثا للاجيال القادمة من بعدهم .

ولكن . لقد وقع الاختيار فلا يمكن النكوص .. اذ لا يمكن العودة الى الاشياء التى مضت وانقضت . هذه الاشياء التى اخذ بطلها العظيم المرحوم يتخلى عنها ليرتاح من اعبائه .

★★★

قد يعزى المرء ان يتنبأ عن الاتجاه المحتمل لمستقبل الجزيرة العربية الغارقة فى يانع يقظتها ، لو لم يكن ذلك حمقا من المرء ان يتنبأ عن مشيئة العناية الالهية كما يعترف بذلك حالم اليقظة فى Eothem فهل يسع المرء الا أن يقف اليوم كما فعل قبل اكثر من قرن مضى على ذروة جبال لبنان الشاهقة ويقول : لقد علقت عيناى بشاطئ البحر الداكن الذى لا يتغير ، لقد اعتدت منذ حين على السكان الصامته والسهول المهجورة . لقد اعتادت عيناى رؤية الرجال الصامتين والنساء المحجبات التاعسات ، وما أن ابصرت شاطئ البحر حتى قفزت بكل سهولة الى شواطئه البعيدة ، فرأيت جميع ممالك الغرب فى الطريق الجميل الذى سيبعدنى عن هذه الاراضى الصامته . لقد خلفت ورائى عالما قديما هرما .. ديانات ميتة واخرى على وشك ان تموت ، طغيانا هادئا يلفظ انفاسه فى صمت وسكون ، اين هى الممالك الغربية الان؟ انى اشاهد الممالك الشرقية فى صفوف متراصة تسير يدا بيد مع الجمهوريات الجديدة النشيطة . وكذلك المدن الكبرى التى نشأت قديما فى الصحراء وطبقت شهرتها الافاق فى العصور الخوالى تعود اليوم فتولد من جديد لتصبح شهيرة كما فى الماضى . انها لتكاد تكون الصورة التى توقع كنجليك أن يشاهدها خلفه اليوم فاذا كان قد اصاب نجاحا

فى التنبؤ عن امتداد نشاط الاستعماريين البريطانيين الى مصرف فإنه يستطيع ان يتنبأ كذلك عن انحلال الامبراطورية نفسها فى خلال قرن بعد صدور كتابه . ومن ذا الذى يستطيع ان يخبرنا عما يمكن ان يحمله فى طياته قرن آخر للعالم العربى ، او للعالم باجمعه ؟ فقد نشهد نهاية المدنية، وربما عادت الى حمى البلدان الشرقية كما كان الامر فى الماضى ، حيث نشأت وترعرعت فى العصور الخوالى.



ولنعد الان ، بعد هذا البحث الشامل فى العوامل التى كان لها الاثر فى ايجاد الاطار الذى يمكن ان تقام عليه نماذج المستقبلل الى اعلان ابن سعود نفسه ملكا على الحجاز : ان رد الفعل العالمى على هذا التطور الغير المتوقع كان اعظم فى البلاد الاسلامية منه فى الغرب ، الذى لم يظهر تحمسا للامر . . وكان اول العازفين هى الحكومة الروسية التى كانت لا تزال مخلصة للمبادئ المناوئة للسياسة الاستعمارية : تلك المبادىء المتمثلة فى الثورة البلشفية . فقد سارعت الى الاعتراف قانونيا بالنظام الجديد فى البلاد الاسلامية المقدسة . واعترفت بريطانيا وهولندا تباعا . ثم جاء بعدها دور تركيا وبلجيكا وسويسرا ، وفى سنة ١٩٢٩ انضمت المانيا الى الدول المعترفة .

وفى عام ١٩٢٩ قامت ايران التى تأخر اعترافها بسبب تدمير مقامات الاولياء فى المدينة المنورة ومكة ، واضر حتهم ، فبادرت الى فتح المفاوضات التى أدت الى اعترافها هى الاخرى . غير ان

مصر لم تعترف بحكم ابن سعود، بسبب خلاف خطير نشب بين الحجاج المصريين والوهابيين خلال الحج الذى حدث فى سنة ١٩٣٦ . وقد سحب المحمل من جدة فى السنة التالية بسبب رفض ابن سعود السماح له بالذهاب الى مكة وعرفات ، خشية ان يؤدى الى فتنة ونزاع .

ولم تعد العلاقات السياسية بين البلدين الا فى سنة ١٩٣٦ ، بسعى من مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر آنذاك ، وبعد موت الملك فؤاد الذى وضعت وفاته حدا لمطالبه التى لا تستند الى اساس بالخلافة . ومنذ ذلك الحين اصبحت العلاقات بين البلدين ودية ومقينة . وكان فى ذلك فائدة للمملكة السعودية التى استفادت طويلا من الخبرة الفنية التى كانت لجارتها المتقدمة عليها فى هذا المضمار .

Amantinm irae Amoris integratis ast

لم تكن امريكا بالطبع مهتمة بشؤون الجزيرة العربية آنذاك . ويفسر اختفاء اسم ايطاليا من بين الدول المعترفة ، بكل بساطة ، باهتمامها الافلاطونى باليمن تلك البلاد التى حددها السنيور موسولينى على اعتبار انها ارض ملائمة للاستعمار الايطالى اما اخفاق السير جلبرت كلايتون فى ان يتابع المفاوضات المرضية بشأن معاهدتى جدة وبحرة ، .ومعاهدة ابن سعود نفسه سنة ١٩٢٥، لتسوية جميع القضايا البارزة بين بريطانيا والامام يحيى فى الربيع التالى عند زيارته صنعاء - فكان من نتائجه ان القى الامام نفسه فى احضان ايطاليا .

وفى نهاية عام ١٩٢٦ تقريبا ، عقد السنيور جاسيزينى حاكم رتريا الايطالية . معاهدة صداقة وتجارة مع اليمن . وقد اعترفت يطاليا فيها بالامام يحيى ملكا على دولة اليمن المستقلة ضمن حدودها الحالية . وكانت هذه العبارة تتضمن اعتراف ايطاليا بمطالب اليمن الاقليمية التى كانت مدا ر نزاع بين الامام من جهة ، وبين بريطانيا والمملكة السعودية من ناحية اخرى.

ولقد شهدت جدة فى الاشهر الثلاثة قبل سقوطها ، زيارة مالا يقل من ثلاث بعثات أجنبية تهدف الى بحث امور ذات اهمية خاصة، بالنسبة للدول التى ارسلتها اما بعثة السير جلبرت كلايتون فقد بحثناها سابقا.. وسمح لبعثة رسمية ايرانية أن تمر من الخطوط الدفاعية الشريفية الى مكة ، حيث وضع ابن سعود تحت تصرفها جميع التسهيلات اللازمة لتقديم الخسائر التى لحقت بالقبور من جراء الاعتداءات . ثم انها لحقت بجيش الامير محمد الى المدينة المنورة لنفس الغاية . ذلك ان ابن سعود قد تعهد بان يعيد ، وفقا للشعائر الدينية ، بناء اى ضريح يستحق العناية . وقد ذكرنا نتيجة هذه الزيارة آنفا.

وكانت اكثر هذه البعثات الثلاث ارباكا وازعاجا البعثة الهندية الغير الرسمية الممثلة لهيئة الخلافة . اذ وصلت هذه الى جدة ، عازمة على ان تندد باعمال الوهابيين ، متذرعة بهذا السبب وباسباب غيرها ، كى تضغط على الحكومة الوهابية لتسليم ادارة الديار المقدسة الى لجنة ديمقراطية تمثل جميع البلاد . الاسلامية . وقد ظل ابن سعود صابرا الى ان اصبح مسكلها لا يطاق . فنفذ صبره ولم

يأمرها بمغادرة البلاد فحسب ، بل عمد الى اجراء الترتيبات لتسفيرها بحرا الى الهند ، وتحت الحراسة العسكرية .

وفى هذه الاثناء واجه ابن سعود الانتقادات التى وردته من شتى البلدان بالاعلان التالى.

اولا : انه لا يستطيع ان يتخلى عن مسؤولية المحافظة على الامن والسلام فى الديار المقدسة التى تشكل القبائل البدوية الجزء الاكبر من سكانها ، هذه القبائل التى تحدت ، منذ امد طويل الاتراك والحكومة الشريفية ، فأضرت بالحج ضررا بالغا .

وثانيا : ان يقترح عقد مؤتمر من جميع الاطراف والعناصر المعنية بمستقبل الحجاز ، فى مكة ، بعد الحج القادم .. أى فى اوائل سنة ١٩٢٦ ذلك لأن عدد الحجاج القادمين من وراء البحار القادمين كان فى حد ذاته كافيا ليثبت بان الثقة بسلامة الحج قد اعيدت الى النفوس تحت حمايته . ومتى تم عقد المؤتمر فيسمح له ببحث الامور المتعلقة وغير المتعلقة بالموضوع على اوسع نطاق ، وباصدار قرارات دينية تتسم جميعا بصحة المعتقد واستقامة الرأى .

وبالنسبة للمسالة السياسية الرئيسية التى لم تكن قط على الهامش ، بل فى رأس قائمة القضايا التى جرى بحثها ، فلم يكن لها الاجواب واحد فيما يبدو.. لقد عزم ابن سعود على أن يستمر فى حكم الحجاز لمنفعة المسلمين عامة ، وهو على استعداد لأن يأخذ على عاتقة المسؤولية الكاملة للقيام بالحكم على اكمل وجه .

ولقد انفرط عقد المؤتمر على هذه لاسس الواضحة ، فاصيب الكثيرون ممن حضروا المؤتمر بخيبة الامل .

واقل ما يقال ان الحجاج الذين زاروا الحجاز آنذاك ، وفيما بعد ، خلال السنوات القليلة التى سبقت التدهور الاقتصادى المريع فى اوائل سنة الثلاثين لم يجدوا اى سبب يدعوهم للشكوى او التذمر من الاخطار أو عدم تأمين سلامتهم .

هذا علاوة على أن الاجراءات التى اتخذت تحت اشراف ابن سعود شخصيا فى المحافظة على صحة الحجاج ، جدير بالتقدير ، خصوصا اذا عرفنا أنه خلال السبعة والعشرين حجا التى احتفل بها فى عهده لم تقع اية حادثة كبيرة على الاطلاق . . وبالاضافة الى هذا فان قرار ابن سعود ان يمنح الحجاج مختلف التسهيلات التى كانت ممنوعة عليهم ، قد زادت فى راحتهم الى حد كبير جدا فتشجيعه استعمال وسائل النقل الالية ، قد قلب الاحوال رأسا على عقب ، هذه الاحوال التى يواجهها الاف الحجاج الوافدين من الخارج . فاليوم وبعد أن استعملت الطائرات كوسيلة جديدة من وسائل نقل الحجاج ، لم يعد الحج بالعملية المتعبة على الاطلاق .

وحتى هذا التحول المدهش لم يكن كل ما تميزت بها ادارة ابن سعود ، واسحقته من تقدير فى الحرص على راحة الحجاج ومصلحتهم ، بعد ان كانوا يجأرون بالشكوى بسبب الرسوم الكبيرة التى كانت تجمعها الحكومة منهم. مع العلم ان الاحتياطات المتخذة لتأمين سلامتهم وراحتهم تكلف الدولة كثيرا من المال .

كان الرسم الذى يدفعه كل حاج خمسة جنيهات انكليزية .. وكان هذا فى الزمن الذى كان فيه الجنية الاسترلينى والجنية الذهب من

نفس القيمة . وليس الذنب ذنب الحكومة السعودية فى انهما لم يعودا متساويين فى القيمة .

اما الاستمرار بدفع الخمسة جنيهات الذهبية او قيمتها فى الاسواق العالمية فكان يبدو عبئا ثقيلا على عاتق الحجاج من وجهة نظرهم، الا أن هذا جرى فى جميع انحاء العالم . ومهما يكن من امر، فليس للحجاج اليوم ما يشكون منه . فقد الغيت رسوم الحج بامر من الملك ، حالما ازدادت عائدات الحكومة من البترول والموارد الاخرى التى جعلت بالامكان منح الامتيازات : تلك الامتيازات التى مكنت الحكومة من تحمل كافة تكاليف التسهيلات المتزايدة التى خصصت لمنفعة جميع قاصدى الحج ، (كطارق لسيارات الشحن الكبيرة التى تسير على المازوت . وعلى شبكة من الخطوط كتلك التى بين مكة وعرفات) .

وبعد أن تخلص ابن سعود من المؤتمر الاسلامى ، ارسل ابنه فيصلا على رأس بعثة صغيرة ، الى كل من حكومات بريطانيا ، وفرنسا ، وهولندا ، لشكورها على اعترافها بكيان حكومته الجديد . وقد بحثت البعثة جميع الامور المتعلقة بالمصالح المتبادلة للدول الثلاث التى زارتها ،، الا انه لم يكن لدى هذه البعثة اى هدف تسعى الى تحقيقه. ولدى عودتها الى الجزيرة العربية ، فوض المستر س. ر . جوردن الممثل والقنصل الانجليزى فى جدة ، ان يبدأ المفاوضات مع ابن سعود . وكان هذا آنذاك فى المدينة المنورة . وكان الهدف المنشود فى المفاوضات هو تسوية شاملة للامور الهامة المعلقة بين البلدين .

ولقد كان واضحا للجميع بان معاهدة القطيف القديمة المعقودة سنة ١٩١٥ ، لم تعد تعبر عن العلاقات الحقيقية القائمة بين بريطانيا العظمى والمملكة السعودية ، وان الحاجة ماسة الى معاهدة جديدة تتضمن اعتراف بريطانيا باستقلال ابن سعود وسيادته ، وأن له ملء الحرية فى اقامة علاقات مع الدول الاخرى ، والحق فى تزويد بلاده بالاسلحة والذخيرة من اى مصدر كان ، دون اية قيود . بينما لم يكن هنالك مجال للاعتراف بنظام الامتيازات التى نشأت تحت الحكم التركى واستمرت بشئ من التعديل خلال الحكم الشريفى الذى لم يدم طويلا .

اما الحكومة البريطانية فقد تمسكت ، بشدة ، بحقها القديم فى حماية العبيد الهاربين الذين يلجأون الى قنصليتها ،واما ابن سعود فلم يشأ ان يسجل ، رسمياً اعترافه بانتداب الحكومة البريطانية على العراق وفلسطين وشرق الاردن ما لم تعد اليه منطقة معان - العقبة، الحجازية . وقد اهتم الطرفان جل الاهتمام فى اعادة تسيير الخط الحجازى الذى حاولت الحكومة البريطانية جاهدة ان تدمره خلال الحرب . ان هذه المشكلة مازالت حتى يومنا هذا موضع اخذ ورد ومباحثات شتى .. دون اى احتمال لايجاد وسيلة عملية طالما إن الجزء الخارب المعنى يقع ضمن الحدود السعودية وقد رفضت الدول المنتدبة فى بادىء الامر أن توزع القاطرات الموجودة والعربات وما الى ذلك حسب عدد الكيلو مترات او اى اسس اخرى معقولة بينما لم تتوصل حكومات سوريا والاردن دون حكومة فلسطين وحكومة

السعودية الى اتفاقية مرضية بهذا الشأن الذى اصبح الان موضع البحث مرة اخرى .

كانت المباحثات بين ابن سعود والمبعوث البريطانى غير مجدية . فتوقف ابن سعود عن القيام باية مباحثات اخرى ان يقوم بزيارة الرياض ، عاصمته التى كان غائبا عنها طوال سنتين . فقد حان الوقت لتجديد الاتصال بشعبه وشيوخ القبائل والعلماء بشكل خاص . وكانت الشائعات عما يجرى فى الحجاز تصلهم ، فكانوا على ما يبدو قلقى الافكار خشية ان يعود الحجازيون بدورهم فيأسروا الفاتحين.

والحق انه كان لهم العذر فى هذه الشكوك . فالواقع ان لجنة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قد انشأت تعمل منذ البداية على تطهير اسطبلات الحجاز التى طهرها هرقل بنهر الفيس) فقد امحت الدعارة وكل ما يمت اليها بصلة، أو اصبحت تمارس سرا على الاقل. وكذلك اعتبرت معاقرة الخمر والتدخين من المخالفات التى تقترف، تحت وطأة العقوبات الشديدة بامر من اللجنة. وكانت يهمها ، بالطبع، أن تتأكد من ان كل فرد مواظب على تأدية الصلوات المفروضة فى الجوامع .

ولم يكن هنالك تساهل او حل وسط فى ذلك الزمن ، وتحت تلك الظروف اما فى قضية التدخين ، فان انسانية ابن سعود قد تبدت فى الامر الذى اصدره طالبا بموجبه مصادرة كل المخزون من الدخان فى الحجاز ، ثم حرقه وقد عرف التجار ان لاسبيل للاعتراض على

هذا الامر ، غير انهم قرروا الارتماء على اقدام الملك يطلبون منه الرحمة وادعوا بانه ، اذا وضع الامر موضع التنفيذ فسيؤدى ذلك الى خراب بيوتهم .

وقد اهتز ابن سعود وصدم عندما علم ان قيمة المخزون من هذه النبتة الشريرة يقدر بمائة الف جنيه . ولم يرض بان يصاب هؤلاء المدعون التعساء بمثل تلك الخسارة الفادحة . فامهلهم مدة كافية ليتخلصوا من بضاعتهم هذه ، بحسن تقدير وحكمة وبدون اخلال بالقانون ، على أن يعلموا انه لن يسمح لهم باستيراد التبغ فيما بعد.

ان تأخير تنفيذ الحكم كان كافيا للاخذ بالاعتبارات الاخرى . فالو اردات الهائلة من رسوم التبغ ادت الى النتيجة الراسخة بان الدخان ليس محرما فى نظر الشريعة . ومع ان عادة التدخين مكروهة ، فانه لا يمكن أعتباره احدى الكبائر ذلك لان التبغ لم يكن معروفا الا بعد الشريعة بزمن طويل . ومنذ ذلك الحين اخذت رسوم التبغ تشكل اهم موارد الدولة الوهابية .

وكان هناك نقاط اخرى اخذ الوهابى الحنيف يتحدى بها الوضع الجديد فقد كان سابقوه ينظرون الى السيارة شزرا باعتبار انها من اختراعات الكفار ان لم تكن من عمل الشيطان . هذا بالرغم من فوائدها الظاهرة . وحين اثبتت السيارة انها افضل من الجمل كوسيلة من وسائل النقل التجارى ، بوشر باستخدامها على نطاق واسع . وقد احرقت علنا وفى السوق العام ،و اول سيارة دخلت مدينة الحوطة المتعصبة ، وكاد سائقها يلقى مصيرها ذاته .

اما فيما يتعلق بالطائرات ، وقد بدىء في استعمالها بعد ذلك بكثير ، فكان الوهابيون المستقيمو الرأى يعتبرون ركابها اناسا يطيرون متحدين الههم الا انهم سرعان ما ادركوا الامر على حقيقيته وحينئذ وجدوا فيها اسرع وسيلة مناسبة للسفر من الرياض الى مكة ، وحتى الى سوريا ومصر .

ومن هذا القبيل نذكر ان احد الفقهاء البارزين الح على الحكومة المصرية بان تعفيه من وضع صورته على جواز سفره وذلك عند اجراء الترتيبات الخاصة بزيارته للقاهرة جوا .

غير أن جل اهتمام الوهابيين السلفيين والذين سارعوا للترحيب بمليكهم لدى وصوله من المدينة المنورة ، كان بالتلفون .. هذه الآلة التى سمعوا عنها الكثير ممن زاروا مكة بعد الاحتلال . لقد كان الجواب على اعتراضهم ان دعوا لتجربة هذه الالة بانفسهم . وشد ما دهشوا حين سمعوا صديقا معروفات لديهم يتلو بصوته آيات قرآنية كريمة .

ومن الغرابة بمكان أن يصدم هؤلاء الناس بفكرة استعمال التلفون للمكالمة عن بعد ، وهم الذين تعودوا طلية حياتهم استعمال المنظار الاجنبى فى رؤية الاشياء البعيدة.

اما الفونوغراف والسينما فبقيت ممنوعة . وكان استيرادها للبلاد غير مشروع . غير ان الزمن اخذ يخفف حدة كثير من هذه الصعوبات ، فكثر عدد الصناديق (الجرامافونات) والكشافات (البرجكتور) التى يملكها الافراد . ومن الغريب ان يظهر الراديو

فيطغى على الحجج التى سبق ان اخلت بها البدع الاخرى ، اما ابن سعود الذى كان شديد الشوق لسماع آخر الاخبار من اقصى بلاد العالم فاصبح من اعظم انصار الراديو . وفى سنة ١٩٣١ اخذ يقيم شبكة محطات لاسلكية فى البلاد لاعطائه اخر التطورات والاخبار مهما كان نوعها : فقد تكون سقوط المطر هنا ، أو حادثه قتل هناك، او موت رجل مشهور ، او حتى مولد حفيد له .

اما محبته فى الرياض فلم تكن شديدة .. فاذا سمع بالانتقادات الصريحة توجة الى البدع الموروثة من الحجاز والاجنبى المقيم فيها . كانت مهارته تتجلى فى مخاطبه الحضور بفصاحته ، التى لم تترك مجالا للشك فى أن سياسته ستلقى الموافقة عند المستمعين التواقين الى حديثه (فقد كان يخطب بفصاحة كلما دعت الضرورة الى ذلك) وكانت النتيجة الرئيسية لزيارته للرياض، أن طلب اليه ، كما طلب الى ابيه من قبل ان يعلن نفسه ملكا على نجد ، كى يرفع بلده الى نفس مستوى الحجاز المحتلة . فوافق على الطلب بلطف، وعاد الى الحجاز مهللا ، ليعلن ملكا عليها وعلى نجد وتوابعها.

وتقدمت بريطانيا وعرضت على ابن سعود تسوية المشاكل البارزة ، وعينت مرة اخرى السير جلبرت كلايتون للقيام بالمفاوضات . وسارت المفاوضات رخية بهدوء . فوقعت معاهدة جدة فى العشرين من ايار عام ١٩٢٧ وتبودلت الوثائق المصدقة فى السابع عشر من ايلول . وقد ألغت هذه المعاهدة التى كتب لها ان تدوم سبع سنوات ، اتفاقية سنة ١٩٠٥ بكاملها . كما اعترفت بالاستقلال الكامل لبلاد الملك الذى تعهد ان يسهل الحج لرعايا

الحكومة البريطانية المسلمين ونصت على احترام كافة المعاهدات المعقودة مع امارات الخليج الفارسى وعلى التعاون مع بريطانيا فى سبيل منع تجارة الرقيق .

كان هذا التطور مرضيا لجميع الاطراف المعنية . غير انه ما كاد الطرفان يتبادلان الوثائق المصدقة ، حتى وقعت حادثة عند الحدود العراقية القصية ، حادثة كان من نتيجتها ان تعكرت العلاقات بين البلدين لعدة سنوات قادمة .

لقد كان من النتائج العامة لمعاهدة المحمرة المعقودة سنة ١٩٢١ مع بروتوكول العقير فى السنة التالية ، ان قرنت تحديد الخط الفاصل بين العراق والدولة الوهابية بشرط ان لا تقام حصون أو اية منشآت عسكرية فى الاراضى المتاخمة للحدود .

ومع ذلك ففى الوقت الذى كانت تدور فيه المفاوضات من اجل معاهدة جدة ، قام السير هنرى دبس Sir Henry Dobbs المندوب السامى البريطانى فى العراق بالموافقة على اقامة سلسلة من الحصون على طول الحدود العراقية النجدية فخرجت جماعة من العمال الى آبار بسية Busaiya للمباشرة فى بناء حصن بالقرب منها . وهناك ظهرت جماعة من قبيلة مطير فى ذلك المكان فذبحت الذين كانوا يقومون بالمشروع . وكان ابن سعود قد اكد للقبائل النجدية ، وقت عقد المعاهدات ، ان حقوقهن فى الرعى على الجانبين من الحدود مكفولة تماما . كما اعلمهم عن منع الطرفين المتعاقدين من اقامة أية أبنية على الحدود أو القرب منها . ان البدو

اخطأوا عندما اخلو بالقانون بهذا الشكل المريع . فقامت طائرات السلاح الجوى الملكى البريطانى بمطاردة القبيلة البدوية عبر الحدود والقت القنابل على تحشداتهم ومخماتهم أنيما وجدتها ، متجاوزة بذلك على حقوق الطرف الذى لحقه الاذى .

واشتعلت النار على الحدود .. ونشب القتال واستمر قرابة الشهرين . وكان قتالا بالفعل لا بالاسم ، بين الدولتين الموقعتين على معاهدة صداقة مدتها سبع سنوات ، مع انه قد صُدِّقَ عليها منذ عهد قريب .

وقدردت القبائل النجدية على القصف الجوى البريطانى بالاغارة على الاراضى العراقية والكويتية : يقتلون وينهبون أثناء زحفهم .

وحين وُجهِّت الأسئلة فى مجلس العموم البريطانى عن الأسباب التى دعت إلى قصف الطائرات لأراضى السعودية، ذلك القصف الذى لا مبرر له على الإطلاق ، كان رد وزير المستعمرات غير صحيح . لقد ادعى ان ابن سعود اعلن بانه لم يعد يسيطر على رعاياه . والواقع ان كل ما قاله ابن سعود لا يعدو انه : اذا اصرت الحكومة البريطانية على أرضه ، فإنه لن يكون مسؤولا عن العواقب التى قد تترتب على ذلك .

وفى هذا الوقت عاد الملك الى الرياض ليكون على صلة قريبة بتطورات الوضع . وكان الذى اقترح على الحكومة البريطانية ايقاف جميع العمليات العسكرية على الجانبين ، وتحويل الامر الى مجلس استشارى .. فاتفق على هذا الطلب وعاد السير جلبرت كلايتون مرة اخرى فزار جدة للتشاور مع ابن سعود .

وصادف وصوله اخلال البريطانية باتفاقية الهدنة وقيام بعض طائراتهم بغارة جوية على البدو النازلين عن آبار الهازل Hazil ، فاضطرت احداها الى الهبوط وحرقت ، بعد أن أنقذت طائرة اخرى ملاحيها .

وكان كلايتون مفوضا البحث الشامل فى جميع القضايا التى تمس علاقات المملكة العربية السعودية مع جارتيها : العراق والاردن، وكان يرافقه فى هذه المرة الكولونيل ك. كرانواليس والميجرج. ب. جلوب، والسيد جورج انطونيوس . غير ان موسم الحج الذى كان قريبا لم يترك له وقتا كافيا لاتمام مهمته .

وبعد أن اصبح الاتفاق على جميع القضايا المتعددة الصغيرة المختلف عليها سهلا ، بان من الواضح ان تسوية النزاع حول حصن البسية Busaiya بشكل يرضى ابن سعود شرط لابد منه فى اية اتفاقية . وبالنظر لعدم احراز اى تقدم فى هذه النقطة فى ذلك الحين ، اتفق على تأجيل المحادثات الى ما بعد الحج ، ليتمكن كلايتون من العودة الى لندن واجراء مشاورات كافية مع حكومته.

وقد عاد كلايتون الى جدة فى آب وعقد اجتماعا فاشلا مع الملك الذى رفض الموافقة على أية اتفاقية بهدا الشأن ، راداً بذلك على رفض الجانب البريطانى تدمير الحصون التى اقاموها بصورة مخلة بالاتفاقيات المعقودة فرجع كلايتون إلى بلاده ليبلغ حكومته فشل مهمته . وعاد ابن سعود الى نجد فى عدد من السيارات السريعة ليعالج هذا الوضع المستهجن والباعث على اليأس .

لقد كان ابن سعود على اتم اتفاق مع رعاياه فى التنديد بمسلك الحكومة البريطانية اما رعاياه الذين زاد فى استعار تعصبهم ما وجهه اليهم الكفار من الاهانات والاضرار ، فكانوا على استعداد للقتال حتى الموت غير ان ابن سعود كان يعلم اكثر منهم ، بان الدخول فى حرب مع العراق فى تلك الظروف معناه الكارثة ولقد قرر بالا تكون مثل هذه الحرب مهما كان الثمن . فقد كان يعلم ان الصحراء تتمخض عن ثورة تتحدى سياسة التسوية التى اتبعها مع الكفار ، ولتأكيد حقها فى الدفاع عن عقيدتها ضد اعدائها. اما قادة هذه الحركة التى قام بها االاخوان فكانوا فيصل الدويش زعيم قبائل مطير ، وسلطان بن بجاد زعيم عتيبة ، وزعماء ارطاوية وغطغط على التوالى ، الذين كانوا يعتمدون على مساعدة قبائل العجمان وزعيمها ضيدان بن هذلين Dhaidan، كما يعتمدون على الاخوان من قبائل دولة بزعامة فرحان بن مشهور.

ومن اجل ان يعالج القضية ، وفقا لطريقة الشورى التقليدية ، عقد ابن سعود مؤتمرا فى الرياض . ولم يحضره زعماء الثورة بانفسهم ، وإن كانوا قد ارسلوا ابناءهم أو أقرباءهم ليمثلوهم فيه . وبحثوا كثيرا من البدع التى كان الوهابيون يزدرونها وينظرون اليها شزرا فساند الزعماء مليكهم فى جميع القضايا الرئيسية التى اثيرت فى المؤتمر . ذلك انهم كانوا يدركون مسؤولياتهم نحو الله ونحوه .

وقد عضدوه ودافعوا عن سياسته السلمية مع جميع جيرانه . وكان فى مقدوره الان أن يعمل وضميره مرتاح ، على أساس

القـرارات التى توصلوا اليهـا بالطـرق الديمـقراطيـة الصـحراويـة فـى المؤتمر.

اما زعمـاء المعارضة فقد ثاروا الان علانيـة على مليكهم ، فما كـان منه الا أن حشد قـواته لمواجهـة تحـديهم ، وسـارت العـمليـات الحـربيـة سـيرها المعـتـاد فى الحـروب البـدوية الغـير المنظمـة ، فكان يتخللها مداولات بين الطرفين. ولقد استمرت مدة اربعة اشهر (ربيع عام ١٩٢٩) ، وكلفت خزانة الدولة اربعين ألفا من الجنيهات. اما زعماء الثورة فرفضوا طلب الملك اليهم الاستسلام دون قيـد أو شرط كى يحاكموا امام محكمـة الشرع ، التى يمكن أن تدينهم بالخيـانة العظمى وتصدر حكمها عليهم بالاعدام . وإن كـانوا فى هذه الحالة يستطيعون أن يطلبوا رافة المليك الذى سيمنحهم اياها بكل تأكيد.

وربما كـان هؤلاء الزعـمـاء يدركـون أنهم أمـعنوا فى ثورتهم الى درجة لا يستطيعـون معـها المغـامرة .. فاسـتمر القتـال بكل قـوة وتمركزت القوات الثائرة فى مراكز محصنة فى سهل سبيلة Sibila بين زلفى وارطاوية Artawiya وكانت اوالجيوش الملكيـة مقسمة الى عدة فرق ، يقود كلا منها احد ابناء الملك او اشقاؤه .

وكـانت هذه الفـرق تتقـارب ببطئ وقـوة ونظام . ولقد أصدر ابن سعود امره بالهجوم بعد ان رفض الثوار طلبا اخيرا للاستسلام . ولم يرد الثوار على النار بالمثل ، الا بعـد أن اصبح الجيش على مقربة منهم فكانت النهـاية السريعة الفاصلة فقد كان الجيش الملكى يتفوق عـدديا على الثـوار فى المعركة التى نشبت وجها لوجه فـقتل منهم المئات.

وكان ابن فيصل بين القتلى بينما نقل فيصل الدويش نفسه الى ارطاوية مصابا بجرح مميت . اما سلطان بن بجاد ففر من ميدان المعركة ، الا أنه استسلم ولاقى حتفه بعد مدة قصيرة في زنزانته في احد سجون الرياض من شدة الوهن والضعف .

ودمر عبد الله شقيق الملك الاصغر ، مدينة غطغط تدميرا تاما تشهد به خرائبها حتى اليوم . وسار الملك الى أرطاوية ليطلب الى فيصل الدويش ان يستسلم ، بعد ان رفض الملك طلب نساء فيصل ان يسمح له ان يموت بسلام . وجئ به امام الملك على نقالة فنال عفو ابن سعود الذى خدمه فيصل طويلا ، وبقوة ، في سبيل دين الله ثم خان في النهاية . وكان بامكانه اذ ذاك أن يعش ويموت في سلام بين أهله .

وقعت معركة سبيلة في آذار عام ١٩٢٩ .

وبعد ذلك سارع ابن سعود في العودة الى الحجاز ليقوم بتأدية فريضة الحج مرة اخرى وهناك أخذتهم شخصيا بالقضايا الادارية العديدة الا أنه قطع اقامته في مكة بسبب حدوث تطور غير متوقع . ذلك ان فيصل الدويش لم يمت ، بل انه ما كادت جراحه تلتئم حتى شرع يضع الخطة للهجوم على الحدود العراقية كرة اخرى ولما كانت قضية الحصون لم تحل بعد ، مع ان ابن سعود اقترح بان تحال الى التحكيم ، فقد اضطرته اخبار نشاط فيصل الى أن يعود الى نجد . وهكذا انقلب ابن سعود الى الرياض في تموز في رتل من السيارات يبلغ عددها المائتين .

وكان في اثناء اقامته القصيرة في الحجاز قد تعاقد على شراء اربع طائرات من د . هـ ٩٠ بطياريها البريطانيين . وفي هذه الاثناء ايضا تم تصميم مشروع اقامة شبكة من المحطات اللاسلكية لربط المراكز الرئيسية في بلاده الواسعة القليلة السكان بمركز قيادته حيثما كانت . الا ان العقد الخاص بهذا المشروع لم يتحقق فعلا الا سنة ١٩٣٠ ، اذا وكل امر انجازه الى شركة ماركوني . اما الطائرات فقد كانت تصل في اوقاتها المعينة الى ساحل الاحساء قبل نهاية عام ١٩٢٩ ، مع ان الحاجة لم تكن ماسة لها لاستخدامها ضد الثوار .

وفي الوقت الذي وصل فيه الملك الى عاصمته، انتقل ثقل الثورة الى الاحساء حيث قامت عشيرة العجمان بازعاج حاكمها عبد الله بن جلوي ، بينما كان فيصل الدويش يقوم بحشد عشائره للقيام بهجوم على الحدود العراقية . بيد ان فهدا ابن الحاكم أخذ يراقب قبيلة العجمان مراقبة تامة ، وكان لديه قوة صغيرة يستخدمها في منع الغارات على الكويت او الحدود العراقية .

وقام زعيم العجمان ، ضيدان بن هذلين بزيارة لفهد ليؤكد له حسن نواياه ، فاعتقله فهد بصورة مؤقته ، على سبيل الاحتياط ، وارسل في الوقت نفسه رسولا يبلغ جماعته بان كل شيء على ما يرام . وكان من سوء الحظ ان ضل الرسول الطريق . وحينئذ ساور رجال القبائل الشك في تأخر زعيمهم لذا ساروا الى معسكر فهد للوقوف على جلية الامر . وارتاع فهد لدى رؤيته القوات الزاحفة

عليه فقتل ضيفه في الحال . وكان من نتائج هذا العمل البالغ الحمق، ان اسخط فهد العناصر الموالية له في القبيلة التي كانت في خدمته، فما كان منها الا ان انضمت الى عشيرتها ، واطلقوا النار على المعسكر ، فقتل فهد برصاصة طائشة . وهكذا حلت النقمة على مرتكب الجريمة.

لقد كان من نتائج ثورة الدويش الغير المباشرة ، ان تصالحت الاسرتان المتنافستان في الجزيرة العربية ، ولو في الظاهر فقط . ومنذ ذلك الحين احترم كل من رئيسيهما بلاد الاخر ، توصلا الى تسوية جميع حوادث الحدود بالمفاوضات بدلا من فض منازعاتهما بالسلاح.

ولكن من العبث ان نفترض أن قادة الاشراف في ذلك العصر، كانوا راضين عن خسارة مواطنهم في مكة. فبعد وفاة الملك فيصل، ملك العراق ، اخذ ملك الاردن فيما بعد، على عاتقه الدفاع عن حق آسرته . وكان من نتائج موت الملك عبد الله الذى اغتيل عام ١٩٥١ ان زالت آخر عقبة في سبيل تأسيس العلاقات العادية بين البلدان المعنية .

اما في الحجاز فقد نشأ جيل لم يكن يعرف شيئا عن يوسف(١) عائلة الاشراف المغترب ، وكان هذا الجيل مشغولا بالاستفادة من بحبوحة الثراء السعودى فلم يسفكر في السنوات العجاف التي عرفها اباؤهم .

لقد اوجدت المحادثات الودية ذات الطابع الرسمي التي جرت بين الملكين على ظهر سفينة صاحب الجلالة ، واسمها لوبن Lupim الاساس لمعاهدة صداقة

وحسن جوار بين بلديهما . ووقعها بالاحرف الاولى ممثلو المكلين في العاشر من آذار سنة ١٩٣٠ ، وفي هذه السنة عاد ابن سعود الى الحجاز ليؤدي فريضة الحج .

وبعد ذلك التاريخ كان حرا في ان يكرس وقته وجهده للمشاكل المحلية والدولية التي تركها جانبا يوم كان يقوم بمعالجة القضية الضرورية الملحة . الا وهي قضية الامن الداخلي . لقد أخذ على عاتقه مهمة اخضاع شعبه .. هذه القضية التي كانت كريهة الى نفسه . ومع ذلك فقد كان اسلوبه في معالجتها مؤيدا لما كان ابن سعود معروفا به من دهاء صحراوي وطول باع في السياسة.

كان قد قضى ثلاثين عاما في الميدان يقارع اعداءه إلى أن تمكن من اخضاعهم الواحد تلو الاخر . والان هو في ذروة النصر . ومن الغريب انه اضطر الى أن يخوض اخر معاركه ضد أصدقائه .. ولغرض واحد فقط : وهو ان يبين لهؤلاء الاصدقاء والعالم جميعه، انه كان سيدا على بيته ، وهو مصمم على أن يظل السيد المطاع فيه. ولم يذهب بعد ذلك الى الميدان بنفسه ، لا لعدم الحاجة الى معارك ، (فهذه يمكن تركها للجيل الصاعد الذي تمرس في العمليات العسكرية في العشر سنوات الماضية) بل لأن انتصارات السلام أخذت تشير اليه من عالم جديد غير مألوف لديه.

لقد كانت معركة سبيلة نهاية عهد أو حقبة من الزمن . فالعربية السعودية (لم يطلق عليها هذا الاسم الاعام ١٩٣٤) قد وصلت الى شكل من الاستقرار النهائى نتيجة للحروب المستمرة ضد المشركين . ومن ثم اصبح المشركون الآن حلفاء لهم قيمتهم فى قضايا التطور العامة . لقد كان قتل المشركين والكفار فى سبيل الله من قبل ، يعتبر فضيلة سامية . الا ان فيصل الدويش لقن فى معركة سبيلة أن عليه الا يمارس هذه الفضيلة دون موافقة السلطة العليا . ولذا اصبحت ممارستها ممنوعة منعا باتا لقد انتزعت الشركة من حركة الاخوان الذين لعبوا ادورا بارزا فى خلق النظام الجديد ، ولم يعد بامكانهم تأدية اية خدمة نافعة اخرى . لقد أخذ الناس يتناسون هذه الحركة شيئا فشيئا حتى هوت اخيرا فى مجاهل النسيان التام . اما هذه التحولات فقد جلبت تلك العناصر الغير المتجانسة فى الدولة الوهابية وحولتها الى مجتمع يستند على الدين الاسلامى والحضارة الاسلامية. لا أن هذا المجتمع كان اقل ادراكا من ذى قبل . لاهتمام الله العلى القدير بأعمال مخلوقاته اليومية . لقد كان خلق ابن سعود لحركة الاخوان فى سنة ١٩١٢ ضربة معلم عبقرى لا يوازنها غير تصفية لهذه الحركة بعد ثمانية عشر عاما ، حينما ثبت لديه انها لم تعد الا عقبة كأداء فى سبيل استقرار الاوضاع التى بناها بطول صبره وجهده فقد كان يمكن لهذه الحركة التى اوجدها ابن سعود من العدم ، أن تدمره وتهلكه ، ولم لم يبادر هو الى تدميرها بنفسه .

وفى عام ١٩٢٩ كانت الحكومة الروسية مرة اخرى فى الميدان ..

فرفعت تمثيلها السياسى فى جدة من قنصلية عامة الى درجة مفوضية . وكان كريم خان خاكموف المعروف ، اول سفير لها . فتبعتها الحكومة البريطانية بعد ذلك بمدة وجيزة بالرغم من التوتر الذى كان يسود الحدود العراقية . وكان السير اندرو ريان An-drew Ryan اول سفير لها . ووصل فى الوقت المناسب الى جدة لاستلام منصبه فى اوائل شهر ايار.

كان ابن سعود يزداد سروره للمركز الذى اخذ يحظى به فى المجالات الدولية كلما ازداد عدد الممثلين السياسيين ، وكلما ازدادت اهميتهم فى جدة ، المدينة التى حددت لاقامة جميع ممثلى الدول الاجنبية . غير ان شعور الملك بمسؤولية تسيير دفة علاقاته مع الدول الاجنبية بالاضافة الى كره طبيعى فى نفسه لقضاء اكثر من الوقت اللازم فى جدة ، جعلت مركز الممثلين الاجانب صعبا بعض الشىء.

وقد كان هنالك شيء من الحق فى قول السير اندرو ريان على سبيل النكتة: إن جميع الدول الكبرى ممثله فى جدة الا العربية السعودية ! غير أنه كان يتم اتخاذ الترتيبات الضرورية من حين لآخر . للاتصال بالمبعوثين الاجانب عند وجود قضايا هامة تستوجب البحث . هذا على الرغم من انه لم يتم تأسيس ما يشبه وزارة الخارجية فى جدة الا بعد مرور عدة سنوات فعين آنذاك موظف دائم للاشراف على القضايا السياسية الروتينية وكان الامير فيصل يقوم بزيارة جدة بصفته وزيرا للخارجية مرات عديدة ليقوم بتصريف الشؤون الهامة نيابة عن والده اما والده فقد كان يحضر

فى كل مناسبة يزور فيها الميناء . وهكذا نجد انه فى السنوات الاولى وقع عبء الاتصالات السياسية على عاتقى عبد الله الدمارجى وفؤاد حمزة .

وكان من سوء حظ ابن سعود ان الانتهاء من تغيير اسس حكومته تم فى بداية سنوات الجفاف التى خلقت تدهورا اقتصاديا شعرت به الجزيرة العربية ، على شكل تناقص مريع فى عدد الحجاج من وراء البحار فمنذ احتلال الحجاز ، كان حضور الحجاج مرضيا . وقد سجل فى احدى المرات رقما قياسيا . وان فى ذلك كسب للحكومة .. كانت واردات الماضى الضئيلة قد تضخمت فاصبحت ملايين . ولم تكن هذه الملايين مع ذلك كبيرة بالنسبة لحاجات الدولة. اما الان فقد توقفت فيض الذهب .. هذا بالاضافة الى توقع سنوات طويلة من الجفاف دون وجود اى احتياطى من سنوات الخير يكفى لمواجهة مصاريف الدولة التى زادت كثيرا إلى احتياطى من سنوات الخير يكفى لمواجهة مصاريف الدولة التى زادت كثيرا عن حاجات البلاد ، ولم يكن من السهل إنقاصها . لقد كانت العملية تدريجية ولكن بشكل متراكم ، اما عبد الله سليمان وزير المالية ، الذى شغل هذا المنصب زهاء ربع قرن، فقد استخدم جميع مواهبه ومهارته فى الابقاء على مستوى المصروفات العالمى الذى بلغه فى السابق مع ان موارد البلاد الان نقصت كثيرا .

اما كيف استطاع ان يحصل على الكيل من نصف الكيل فاعجوبة وسر نجده فى عالم الخيال لافى التاريخ الجدى .

لقد وقع جزء من هذا العبء على عاتق موظفى الحكومة ذوى

الرواتب القليلة إذ اسهموا فى فرض اجبارى يضاف الى مبلغ شهرى كبير . مرت فترة من الزمن تأخرت فيها رواتب هؤلاء الموظفين فلم تدفع لهم مدة ثمانية اشهر ، خصوصا فى الاقاليم البعيدة حيث اضطر الموظفون الى أن يشركوا التجار فى مصيبتهم اذ كانوا يبتاعون منهم ضروريات الحياة على الحساب ، واعدين اياهم ان يدفعوا لهم عند تناول رواتبهم . وهكذا اسندت موجه الضيق الاقتصادى واتسعت دائرته حتى شملت البلاد كلها وبالطبع لم يكن الضغط على الفقراء اعظم المزايا الادارية المالية سحرا !

واتجهت الانظار الى الاغنياء كمساهمين اقوياء فى تأمين حاجات الدولة . إذ كانت جميع ديون الحكومة الناتجة عن العقود والمشتريات تمثل ربحا وفيرا لحسابهم فأجل دفع هذه الديون وتوقف حتى وصلت الى الحد الاقص . ولم يكن بد من اعلان تأجيل الديون كى يتسنى للحكومة ابتياع الحاجات الضرورية بما لديها من مال ، دون اللجوء الكريه الى انقاص ميزان المصروفات . ولابد من القول بان الترتيبات التى وضعت بموجب تأجيل الديون وتصفيتها ودفع خمسة بالمائة لاكثر من بضع سنوات قد احترمتها الحكومة ودفعت فى حينها .

كل هذه التطورات التى أوضحناها بايجاز فى الفقرة السابقة طالت وامتدت عدة سنوات اى من سنة ١٩٣٠ وما بعدها .

وبعد ان انتهى ابن سعود من الحج فى شهت ايار ، نقل مركزه من مكة الى الطائف لقضاء فصل الصيف . وهناك تمكن لاول مرة منذ تسلمه عرش الحجاز من ان يكرس نفسه للتفكير فى حل جميع

المشاكل المحلية والاجنبية التى تراكمت اثناء غيابة ، وكان يقضى بعض الوقت فى الاستجمام فى صحراء رغبة ، حيث ينصب خيامة لعدة ايام ، وينطلق من مخيمه فى السيارات السريعة لمطاردة الغزلان وصيدها فى السهول . وكان معدل ما يصطاده منها يتراوح بين مائتى رأس وثلاثمائة كل يوم وهذه كارثة لثروة البلاد الحيوانية والغريب أنه من ذلك العهد حتى الان ، لم تبد الحكومة السعودية اى شعور بالمسؤولية للمحافظة على حيوانات البلاد البرية فلم تسن تشريعات تنظم الصيد فى مدى ربع القرن الماضى . وكذلك الامر فيما بعد بسن قوانين خاصة بالمحافظة على الاماكن الاثرية ، مع هذه المواقعالتى كانت منتشرة فى طول البلاد وعرضها فيما عدا الامتياز الذى منح سنة ١٩٥١ (بإذن خاص من الملك) لبعثة لوفان الاثرية التى يرأسها البرفسورج ركمانزC. Riekmans والتى تضم عددا قليلا من الخبراء البلجيكيين ويبدو أن دراسة الماضى الذى ادى الى قيام العربية السعودية كانت تعتبر غير جديرة بالاهتمام فى أعين شعب عملى يتطلع الى المستقبل اما الفضل فى معلوماتنا عن ماضى الجزيرة العربية السحيق فيعود الى البعثات الخاصة التى كانت تهدف الى هذه وغيرها من الغايات .

وقد تكررت اقامة الملك فى الطائف اربع مرات ،الحق انها اسهمت فى ارساء القواعد التى ستقوم عليها المملكة فى المستقبل . اذا كان اهتمامه آنذاك منصرفا الى تحسين المواصلات فى بلاده.

وفى نهاية السنة وقعت اتفاقية مع شركة ماركونى لاقامة محطة لاسلكية فى مكة والرياض ، قوتها خمسة كيلو واط ، هذا بالاضافة

الى محطات تقام فى عواصم الاقاليم قوتها نصف كيلو واط واخيرا اربعة اجهزة متنقلة مع الملك وحاشيته فى اثناء سفرهم بقوة نصف كيلو واط ، ولم يأت عام ١٩٣٢ حتى كانت هذه الشبكة اللاسلكية العظيمة قد ظهرت الى الوجود.

ولا مجال للشك فى الدور العظيم الهام الذى لعبته هذه الشبكة فى سيطرة الملك على سؤون البلاد وادارتها وتوجيهها .. لقد امتدت كثيرا وتطورت منذ تلك الايام حتى ان العربية السعودية اليوم يمكن مقارنتها من حيث التطور اللاسلكى مع اى من جاراتها فى الشرق الاوسط ان لم اقل مع كثير من الدول الاوروبية نفسها.

فلقد استمتع الملك منذ زمن طويل باستعمال تليفون لاسلكى عبر مسافات طويلة وقد وقعت اتفاقية منذ عهد قريب مع شركة المانية تعهدت بإنشاء شبكة من هذه التلفونات اللاسلكية تربط المراكز المهمة فى البلاد باقصى انحاء الارض . وقد كان هنالك محطة اذاعة تعمل منذ عدة سنوات فى جدة .. وكانت تربط مكة واماكن الحج الرئيسية مع محطات الارسال . وهناك تفكير فى مشروع اضخم لتوسيع نطاق العمل الى أن يشمل جميع البلدان الاسلامية .

وفى العربية السعودية كذلك عدد من الامراء والاعضاء الآخرين يعملون كهواة فى حقل اللاسلكى، أما مسألة تحسين الخطوط التليفونية والبرقية فى المناطق التى يناسب استعمالها فيها ، واقتراح ادخال الخدمات التلفونية الاتوماتيكية وتعميمها ، فيعود الفضل فيها إلى الأهمية التى يعلقونها فى الجزيرة العربية على

وسائل المواصلات الحديثة وفوائدها. وهنالك فرق شاسع جداً نسبياً بين أيامنا الحاضرة وبين الزمن الماضي الذى كان يعتبر رفع الصوت البشرى مكيدةً شيطانية يقصد منها إلى فساد عقيدة البشر وإزعاجهم وأقلاق راحتهم .

أما فى الحقل الطبى، الذى ذكرنا أثره عند الكلام على خدمات الحجاج، فقد كان لاهتمام الملك الشخصى ولتشجيعه نتائج لا يكاد يُتَصورٌ تحقيقها بين الوهابيين : أؤلئك الذين ورثوا النظام الصحى الذى أوجده الأتراك، ثم حسنّوه خلال القرون الماضية فى كفاحهم العديم الفائدة ضد المرض وسوء التنفيذ. ولقد كان ابن سعود يفاخر دائماً بميله الغريزى للطب وما شابهه من العلوم، هذا الميل الذى ورثه عن أبيه الذى كانت معلوماته فى أمراض العرب وعلاجها واسعةً جداً، والتى ورثها بدوره، حسب قول الناس، عن مقدرة جدة تركى ابن عبد الله الفائقة فى هذا المجال ، لكن التقاليد الشائعة فى الطب المحلى، لم تحمل ابن سعود على أن يقاوم الأساليب الطبية الأوروبية، وإن كان بعض الوقت قد انقضى قبل أن يدرك الناس هناك أن الطب يلائم المرأة أيضاً .

ومع الزمن تحطمت الحواجز الاجتماعية التى عزلت المرأة وحجبتها ليتمكن الأطباء الذكور من معالجة الأسرة الملكية والعائلات الأخرى التى استفادت كثيراً من تشخيص الأخصائيين وطرق معالجتهم. ولم يكن هذا مقصوراً على الأطباء العرب فقط، بل شمل الأخصائيين الأوروبيين وطبيبات البلاد الأخرى أيضاً. أما هيئة أطباء الدولة فقد نمت وكبرت منذ أوائل حكم أبن سعود. وكانت

تضم عدداً من السعوديين والأوروبيين، غير أن الميل فى الأيام الأخيرة أخذ يتجه نحو أستخدام الأطباء الألمان، وكانت النتائج مرضية .

أما المستشفيات القديمة القليلة العدد ، والتى كانت فيها معالجة المرضى سيئة للغاية، فقد أصبحت الآن مستشفيات حديثة لقد زودتها الحكومة وبعض الأفراد بأجهزة طبية حديثة، وبالأكفاء من الأطباء والممرضين والممرضات، وكان بعضها يتميز بطابع الاختصاص، وهى ممتازة لا تكاد تقل عن مثيلاتها فى البلدان الغربية. وقبل بضع سنوات كانت الرياض تفخر بحيازتها أفضل جهاز لأشعة أكس فى الشرق الأوسط، مع أن هذه التجهيزات الطبية أصبحت واسعة الانتشار الآن .

ولقد كانت البلاد السعودية منجماً حقيقياً من الذهب بالنسبة لمهنة الطب. ومع ذلك، ورغما عن عزم الملك على تعميم الخدمات الصحية فى كل أنحاء الدولة حتى مضارب البدو ومخيماتهم، فإنه من المؤسف حقاً أن نجد أن هذا المشروع جاء مخيباً للأمل، ويعود السبب فى ذلك إلى إحجام الأطباء عن العمل فى المناطق الريفية، وتفضيلهم العمل فى المدن الكبيرة، حيث فرص العمل الذهبية لأطباء الخصوصيين، وحيث يتوفر الوسط الإجتماعى الراقى لهم ولعائلاتهم. وكان من ذلك إن للأزداد ضغط طالبى العلاج القادمين من الأقاليم على المراكز الطبية فى المدن، وخاصة أن سيارات النقل متوفرة. كما كان لتوفر المعالجة الطبية فى المدن أثره فى إغراء البدو

الرحل والعناصر الأخرى، ودفعهم إلى الإقامة فى المناطق الحضرية أو ضواحيها .

إن الزيادة الهائلة فى سكان المدن خلال الثلاثين سنة الماضية، والتى تعود فى أكثرها إلى الشعور بالأمن والاستقرار، كانت من أبرز مزايا حكم ابن سعود. فقد ازداد عدد سكان كل من الرياض وجدة، أربعة أضعاف على الأقل، فأصبح بين المائة الألف المائة وخمسين ألف نسمة، أما سكان الطائف البالغ عددهم خمسة آلاف فى السابق، فقد تضاعفت عشر مرات، وأما سكان المدينة المنورة الذين قل عددهم من ثمانين ألف، زمن الأتراك، إلى عشرين الف نتيجة للدمار الناتج عن الحرب العالمية الأولى، فقد عوضّوا النقص، حتى بدون إعادة وسائل النقل الحديدية، والهفوف ضاعفت عدد سكانها الثلاثين الفا مرتين، وأصبحت موانئ خيبر Khubar والدمام مدناً كبيرة بعد أن كانت قرى صغيرةً لصيد الأسماك، وذلك بسبب مجاورها للظهران، المدينة الصناعية التى لم يكن يسكنها أى مخلوق، أما مكة التى كان عدد سكانها فى الماضى يبلغ مائة ألف فلا بد أنهم ازدادوا بنسبة خمسين بالمائة على الأقل، ولابد أن نذكر بأن جزءاً كبيراً من الزيادة فى عدد السكان قد جاء من بلاد أخرى خارج الحدود السعودية، مثل مصر وشرق البحر الأبيض المتوسط، ومن حضر موت واليمن، ولم يُعرَف أن المملكة السعودية حاولت إحصاء عدد سكانها، إلا أن التقدير المعقول لعدد السكان، هو ستة ملايين تقريباً .

وكانت المشكلة الخطيرة الأخرى الناتجة عن ازدياد سكان لمناطق

الحضرية هي تزويدهم بالماء، لقد كانت جدة بسكانها البالغ عددهم الثلاثين ألفاً تعتمد على جهاز لتقطير ماء البحر، ذي طاقة غير كافية يشتغل بتكاليف باهظة، كما كانت تعتمد على عدد من الآبار التى تم حفرها لتخزين مياه السيول المنحدرة عبر السهل الساحلي من سفوح التلال. هذا بالإضافة إلى بعض الآبار الآسنة المالحة المياه التى كانت الطبقات الفقيرة تستقى منها، أما مكة فقد كانت تسقى منذ زمن طويل من ساقية عين زبيدة، كما تستقى المدينة المنورة من عين الزرقا. وكانت كذلك تستقيان من آبار عدة لتزويد مواطنيهما وزوارهما بما يحتاجون إليه من الماء .

وكانت موارد المياه تعجز فى جميع هذه المناطق عند ازدياد عدد الحجاج، وكان هم الملك العظيم أن يزود السكان والحجاج بمزيد من المياه بقدر من المياه بقدر المستطاع، فى مثل هذه الظروف عُقدت اتفاقية لتزويد مدينة جدة بآلة تقطير جديدة أكبر بكثير من الآلة القديمة. بينما بدأ المختصون يتتبعون مجرى عين زبيدة حتى وصلوا إلى سفح الجبال.. فأزيلت المواد التى كانت تسد المجرى. وكانت النتيجة مرضية للمستقبل القريب. وقد أتخذت الخطوات المماثلة فى المدينة المنورة حيث نتشر أستعمال المضخات القديمة لرى الأراضى الزراعية، وقد شجع الملك نفسه والأمراء السعوديون استعمال هذه المضخات فى الرياض والأراضى الزراعية الواسعة وبدأوا هم أنفسهم بأستعمالها .

هكذا أعد المسرح للتطورات الفعّالة بعد أن عولجت المشكلة جزئياً بشكل اختبارى، فربطت مكة بينبوع عين جديدة غزيرة

المياه، بفضل خط من الأنابيب من مدخل وادي فاطمة. بينما أقيمت مشاريع مماثلة، ولا تزال تقام باستمرار، لتفي بحاجات السكان والحجاج المتزايدة، وبعد الفيضان العظيم الذي حدث في تموز سنة ١٩٥٠ عام يوبيل الملك الذهبي، أتخذت الإجراءات لانقاذ المدينة من مثل هذه الكوارث في المستقبل (فقد وصلت مياه الفيضان إلى الحرم وأصبح ارتفاع المياه سبعة أقدام حول الكعبة)، فبني سد في وادي إبراهيم، المصدَرِ الرئيسي لمثل هذه الأخطار، كما بُني سد آخر في وادي الزاهر الذي كانت مياه فيضانه تهدد ضاحية الشهداء، والطريق الرئيسي لجدة، ولقد أنجزت هذه الأعمال قبل نهاية سنة١٩٥٢ .

وعندما هبت العاصفة العظيمة في السنة التالية، في شهر تشرين الثاني، لم تسبب أية أضرار على الإطلاق في منطقة العاصمة، وفي عام ١٩٤٧ جمعت مياه مجموعة من الينابيع، بالقرب من أبي أروى، في أواسط وادي فاطمة، ومُدَّ خط أنابيب ذات قطر كبير طوله أربعين ميلاً لنقل كمية وافرة من المياه إلى جدة. غير أن اتساع المدينة المستمر واستعمال المياه في ري البساتين، أوضح بجلاء أن لا بد من زيادة كمية المياه التي كانت تعتبر أكثر من كافية آنذاك، فتم، منذ عهد قريب، مدُّ خط آخر من الأنابيب .

أما في الرياض ، التي لم تصل فيها مشكلة المياه إلى درجة الخطورة إلا عند استمرار الجفاف سنوات عديدة ، فازداد استعمال المضخات الميكانيكية، والمضخات الكهربائية التي كانت تعمل طوال

الأربع والعشرين ساعة فى اليوم، وكانت النتيجة أن هبط مستوى المياه الجوفية التى جعلت من الواحة أغنى واحة فى الجزيرة العربية فى الأيام السالفة، فعمد المسؤولون إلى جلب كميات أخرى من المياه إلى المدينة بواسطة أنابب تنقلها من منابع أخرى فى وادى حنيفة شمال، وجنوب العاصمة. بينما استخدموا عدداً من الصهاريج، سعتها خمسة الاف جالون لنقل المياه من عدة آبار قريبة، لتفى بحاجات السكان وحاجة بساتينهم .وهناك فى الواقع مياه وافرة فى الجزيرة العربية ، إلا أنه لا تزال هنالك مسألة تستوجب البحث على ضوء الاختبارات : وهى مسألة ما إذا كانت موارد المياه المائية تستطيع أن تصمد فى وجه الإفراط فى استعمال الما ء فى الوقت الحاضر .

كانت المواصلات والأمور الصحية والمياه، المشاكل الرئيسية المهمة التى واجهت ابن سعود خلال سنوات السلم الحقيقى فى الطائف، ولكن، كان واضحاً منذ البداية أن هذه جميعها تشكل عاملاً حيوياً بالنسبة لحكومة ترغب، مخلصةً، فى تأمين رفاهية رعيتها، وراحة الوافدين إليها من الحجاج من فجاج الأرض. وكانت جميع هذه المشاريع باهظة النفقات. وقد أتضح من سجلات مكاتب الحج، ومن البلدان الزراعية الفقيرة على الخصوص، مثل جاوة والملايو والهند، أن الأمل ضئيل فى الحصول على المبالغ الضرورية الكافية، وكانس هذا تحدياً لشخصٍ خبر فى حياته تقلب الزمن والأقدار .. فلم تكن هذه أول مرة يحتاج فيها إلى المال .. لم يعد بإمكانيته الاستيلاء على خزائن أعدائه كما كان يفعل فى السابق، كلما اقتضت الحاجة،

الآن لم يبقَ له أعداء ينهبهم، فيما عدا جهة واحدة، كان متردداً في الاتجاه إليها.. كانت اليمن هي البلد الوحيد المستقل في الجزيرة العربية بالرغم من اهتمام الإيطاليين بمستقبلها الاقتصادي، وبالرغم من قلق البريطانيين الغامض عليها خشْية أن تُدعى محمية عدن للاتحاد مع الدولة السعودية القوية، وكانت جميع البلدان الواقعة خارج الحدود الوهابية آمنة وراء حدود قوية لا يمكن اختراقها، بسبب وقوعها تحت الحماية البريطانية، أما الحدود بين اليمن ومملكة ابن سعود فقد كانت غامضة وغير مخططة، وكان كلٌ من الجانبين يدعي ملكية واحة نجران ويطالب بها، ولكن، دون أن يعمد أي منهما إلى احتلالها، أو الأاستحواذ على إمارة أشراف « أبو عريش» في جنوب عسير، فعلياً. ولم يكن ابن سعود هو الذي طلب تحديد المنطقة الحيادية، فقد كان راضياً عن أن تظل تتمتع باستقلالها الفعلي الغير المشروع، كما كان الحال بالنسبة للقسم الشمالي من واحة تيماء التي كانت ضمن حدوده حقاً، إلا أنها تركت في استقلالها الشاذ، تحت حكم أسرة ابن رمان، إلى أن اضطر ابن سعود لاستلام زمام السلطة فيها عند استفحال الطغيان فيها، واغتيال آخر أمرائها عام ١٩٥٠.

وكان الأمام يحيى هو الذي سعى إلى تسوية المشاكل القائمة بينه وبين الملك الوهابي حين دفع بجيوشة إلى المناطق التي كان يدعي ملكيتها بمساعدة عناصر في كلا المنطقتين ، كانت تفضل السلطة الزيدية الضعيفة على التقرب من الملك السعودي القوي، تماماً كما كانت الحال بالنسبة للنزاع حول ملكية واحة خُرمة، عندما

بدأ الملك حسين وأخذ زمام المبادرة فى إجراء عسكرى وفقاً لسياسة الأمر الواقع .

ووقع الصدام الذى كان لابد منه بين حرس الحدود عند قرية تسمى عرو Aru ١٩٣١. ولم يكن من السهل معرفة الجانب المعتدى، بسبب عدم وجود خرائط يُعتمد عليها، إلا أنه اتضح بعد فترة وجيزة أن اللوم يقع على القائد الوهابى الذى اعتدى سهواً على الأراضى اليمنية .

أما فى شتاء سنة ١٩٣١ - ١٩٣٢ فقد وقعت حادثة أكثر خطورة. وذلك عندما احتلت قوة يمنية نجران، ودمرت ممتلكات بعض العناصر المعادية للامام. واضطر ابن سعود للعمل تحت ضغط شكاوى أهلها. وفى خلال ربيع سنة ١٩٣٢ قاد خالد بن لؤى زعيم خرمة، جيشاً قوياً من الأخوان إلى نجران، ولم يجد صعوبة فى طرد الحامية اليمنية من الواحة واحتلالها باسم آان سعود، وهكذا سُويت مشكلة نجران بصورة نهائية .

غير أن مشكلة عسير الجبلية التى كانت آنذاك مسرحاً لعمليات حربية متفرقة وغير منظمة، لم يكن حلّها سهلاً ، لهذا أرسل ابن سعود وفداً إلى صنعاء، للبحث فى المشكلة برمتها ، على أمل التوصل إلى حل ودى لجميع المشاكل القائمة بين الدولتين، غير أن الإمام لم يكن مستعداً للعتراف بمطالب أبن سعود .

وقد عُقدت عدة مؤتمرات فى السعودية وفى اليمن بين الحين والآخر، إلا أنها أدت إلى مجرد إطالة المفاوضات حتى ربيع سنة

١٩٣٤، وحينئذ نفذ صبر ابن سعود من عناد جاره، فأرسل إليه إنذاراً نهائياً، ونفذ تهديده بحشد قواته لغزو اليمن، أما الوقت الذى حُدّد لقبول الأمام، فكان اليوم الخامس من نسيان سنة ١٩٣٤ .

وأصدرت التعليمات للطابورين الوهابيين بعبور الحدود فى التاريخ المحدّد فى حالة عدم صدور أوامر مخالفة. وثارت عاصفة رملية استمرت ثلاثة أيام متوالية، وكان من جرائها أن تعطلت المواصلات الاسلكية بين القائدين ، ولذا بدأ غزو اليمن فى التاريخ المقرر .

كان الأمير سعود يقود جيش الصحراء المتمركز فى أبها ونجران، وكان عليه أن يشق طريقه فى الجبال الواقعة فى قلب مرتفعات اليمن، غير أن تقدّمه كان بطيئاً بسبب طبيعة البلاد الوعرة، وضرورة السير مع قوافل التموين، التى كانت سيارات نقلها تُدَّلى بالجبال من فوق الصخور العالية فى أكثر من مناسبة .

ولقد كانت مقاومة العدو طفيفةً، حتى عند البوابة الحديدية التى كانت تحمى قرية باقِم ؛ أول قرية يمنية كبيرة على الطريق الرئيسى إلى صنعاء .

أما جيش تهامة الذى كان بقيادة الأمير فيصل، فقد واجه مقاومة شديدةً فى الأودية التى تربط ميناء ميدى Maidi بحصن حرض Haradh الجبلى. واستطاعت شدة الهجوم الوهابى أن تقذف بالعدو من طريقهم إلى البحر أو باتجاه الجبال، وكان الزحف التالى سهلاً .. فقد حُطمت الجهود الضعيفة التى بُذلت لصد هجمات

الجيش الوهابى وإيقاف تقدمه، فاحتل لُحيه Luhaiya أولاً، ثم سقطت الحديدة نفسها في يده بعد انتصار باهر .

ووصل الجيش حتى المشارف الواقعة جنوب الحديدة، وأصبح فيصل آنئذٍ في مركز قوى لاستمرار زحفه باتجاه تهامة، على الحدود العدنية، أو الزحف من خلال الجبال على صنعاء نفسها، أو القيام بكلتا العمليتين معاً، لعدم قدرة الامام على إبداء أية مقاومة فعالة بسبب إنهيار معنويات قواتة. فيما عدا الوقفة الأخيرة أمام العاصمة.

ولقد استغرق احتلال الحديدة ومنطقة تهامة الواقعة شمالها ثلاثة أسابيع فقط، وكانت ثلاثة أسابيع أخرى كافية لإضافة اليمن إلى الممتلكات الوهابية، غير أن ابن سعود اعتاد التزام الحذر في السير في بقية مشروعه. وصدرت الأوامر التى أسخطت فيصل، بألا يتقدم في أية حالة إلى ما وراء الحديدة، بينما أمر سعود بأن يبقى في المكان الذى اتفق عليه سابقاً كى يكون حداً بين السعودية واليمن .

وفى أثناء ذلك سارعت السفن الحربية الأنكليزية والإيطالية والفرنسية إلى الحديدة، منتحلة أعذاراً مختلفة، إلا أنها لم تكن تهدف إلى تهنئة القائد الوهابى المنتصر على فوزه، أو جعل مهام السلطة المحتلة أسهل من ذى قبل. وربما كان لهذا الأهتمام المفاجئ باليمن من جانب الدول الكبرى أثر كبير في منع الملك من انتهاج سياسة صريحة، غير أنه أصر على أن يستمر احتلال قواته للمناطق التى إستولت عليها إلى أن تجرى مفاوضات أخرى في الطائف، تحت

حمايته وإشرافه، فأعلنت الهدنة للتمكن من البدء فى هذه المحادثات، وعين الإمام يحيى أحد موظفيه البارزين السيد عبد الله ابن الوزير ليمثله فيها .

بدأ المؤتمر بلا ابطاء ، بينما شكلت لجنة للصلح ، تمثل الدول العربية المختلفة برئاسة هاشم باشا الاتاسى ممثل سوريا ، ومحمد على علوبة باشا ممثل مصر، فقامت بزيارة الطائف لمراقبة خطوات المفاوضة.وعقدت معاهدة الطائف، بالرغم من ممانعة الامام وتردده فى الموافقة على المسودة التى توصل اليها الطرفان المتفاوضان، حتى آخر لحظة ، وصدرت الاشارة الى القوات المحتلة بالاجلاء عن جميع المناطق التى احتلتها، على ان يدفع مبلغ مائة الف جنيه ذهباً كتعويض لابن سعود عن تكاليف هذه الحملة الكبيرة.

ومن ثم وضعت الترتيبات الفورية لاجتماع لجنة الحدود المشتركة، التى كانت مهمتها تخطيط الحدود بين البلدين على التو. وقد انجزت اللجنة مهمتها هذه فى السنة التالية، بينما رسم الخط المتفق عليه على الخريطة سنة ١٩٣٦. ومنذ ذلك الحين لم يقع اية حوادث تعجز السلطات المحلية عن تسويتها على الفور. والواقع أن المشكلة الوحيدة المحتمل قيامها بين الطرفين هى امكانية إنشاء تحصينات عسكرية، منعت اقامتها ، فى مساحة الخمس كليو مترات على كلا الجانبين. وقد حال دون اى سوء تفاهم، ما كان قائماً منذ البداية، من علاقات ممتازة بين محمد بن مهدى حاكم جيزان والسيد عبد الله بن الوزير الذى وقع المعاهدة

باسم اليمن، والذى عين فى منصب حاكم تهامة فجعل مركز ادارته فى الحديدة.

والآن وقد زالت جميع اسباب الاحتكاك بين البلدين، ونفذت بنود معاهدة الصداقة والاخوة خلال السنوات التى تلت. ولم تتوتر العلاقات، حتى بعد وقوع حادثة مفجعة اثناء الحج فى السنة التالية. وذلك عندما قام ثلاثة من اليمنيين بمحاولة اغتيال ابن سعود بالخناجر، اثناء طوافه بالكعبة. وكانوا قد وضعوا خطتهم هذه باحكام، مدفوعين اما بتعصبهم الدينى او من قبل شخص غير معروف. أما الملك فلم يصب بأذى بالغ. وأما الامير سعود الذى حماه من المهاجمين، فقد اصيب بعدة جراح فى ظهره وكتفه سببت له الماً وازعاجاً لمدة طويلة. اما المعتدون الثلاثة فقد أطلق الحرس الملكى النار عليهم، فقتلوا فى الحال. ومن ثم اتخذت اجراءات اعظم لحماية شخص الملك من تكرار مثل تلك المغامرات المدفوعة.

قبل ان نعود الى الوضع الذى واجهه الملك فى الطائف سنة ١٩٣٠ يجب ان نذكر ان الامير سعوداً عين وريثاً للعرش فى عام ١٩٣٣. وقد تقبل ولاء الشعب وخضوعه كولى عهدهم وملكهم فى المستقبل. وهكذا وضع ابن سعود حداً لجميع التكنهات المختلفة بشأن ولاية العرش.

وفى السنة التالية اصدر الملك مرسوماً بتغير اسم الدولة. واصبح اسمها المملكة العربية السعودية. ولم يكن هذا التطور اسمياً فقط، بل انه كان يعكس عزم ابن سعود على وضع جميع ممتكاته تحت

نظام اداری موحد متناسق، وعلى الاخص فى الحقل المالى ومراقبة الواردات. فقد كانت هذه، حتى ذلك الحين تحت رحمة حكام الاقاليم، مثل عبد الله بن جلوى حاكم الاحساء.

وقد استنكر الحكام تقييد سلطاتهم باقامة دوائر حكومية مستقلة، كما استنكروا ايضاً مراقبة حساباتهم. ولكن، سرعان ما اخذت النظم القديمة تخضع للنظم الجديدة غير ان ابن سعود كان عاقلاً وذكياً، اذعين مبالغ لزملائه القدامى المخلصين طوال مدة خدمتهم. وقد توفي عبد الله بن جلوى سنة١٩٣٨ فخلفه ابنه سعود الذى كان أقتنع بالحج التى بررت إقامة نظام إدارى موحد وصم على أن يقبله أما الذى كان يحمل المرء على ايثار النظم القديمة البدائية، فهو انه لم يسمع عنها اى فساد او سوء استعمال. فقد كان الحكام وموظفوهم يحيون حياة مكشوفة للعموم، ولم يكن هنالك مجال للتلاعب فى الخفاء.

وكان النظام بسيطاً للغاية، فالحاكم مسؤول عن جباية الضرائب فى اقليمه. ومنها كان يخصص نسبة محددة للخزانه المركزية. اما الباقى، فيخصصه لدفع راتبه والنفقات الاخرى. ومن هذه كانت جميع مصاريف ادارته.

ومن ناحية اخرى كان النظام الادارى الذى قام عليه النظام السعودى الجديد فى اول الامر نظاماً فاسداً عقيماً من اساسه، فلا يمكن القول بان اخطاءه استؤصلت على أيدى العرب.

ومع ذلك، وبالنسبة للدور الجديد الذى ستلعبه المملكة السعودية

فى المجالات الدولية والاقتصادية، كان من الواضح وجوب اصلاح نظمها الادارية كى تفى بحاجات العصر الحديث.

وكان من الواضح ايضاً انه: لتزويد البلاد بالموظفين الاكفاء لتنفيذ النظم الجديدة، لابد من تعديل النظم التعليمية المعمول بها لسد حاجات البلاد. وهكذا كان لابد من نشوب النزاع بين النظم القديمة والحديثة، وعلى اسس جد دقيقة بين الدين والمدنية. فحسب المفهوم القديم كان التعليم يهتم بالعلوم الشرعية والآداب العربية بالطبع.

وكان الدين هو الذى تتفرع منه جميع فروع المعرفة الواردة فى القرآن والحديث. ثم تطورت*هذه حتى باتت تشمل الآثار الادبية الضخمة التى تركها المفسرون والمؤرخون وعلماء الجغرافية والفلاسفة والعلماء وغيرهم، والتى طرقها شعراء ما قبل الاسلام فى عصر العرب الذهبى. ولا شك فى ان الشخص المسلم يلم الماماً جيداً بكل هذه الآثار الأدبية العربية، وجميع شروحها ومعانيها. ومثل هذا يعتبر الرجل المثقف ثقافة عالية جداً، وان كان لايعرف اية لغة ولم يدرس أية مؤلفات مترجمه عن مصادر اجنبية، وليس له اطلاع فنى على الاطلاق. كان هذا الرجل خبيراً فى مجاله، ويطلق عليه البدو، اسم العالم، او طالب العلم. وتاريخ نجد فى القرون الخمسة الماضية ملئ بمئات من هؤلاء الناس، الذين كرسوا حياتهم كلها للعلم والتعليم والكتابة.. غير ان موظفى الخدمات المدنية لم يكونوا من مثل هؤلاء. وقد اصبحت كلمة التمدن تعنى فى الجزيرة العربية،

ثقافة الغرب العلمانية التي كانت مهمتها اعداد الشباب للقيام بدورهم فى معركة الحياة المضطربة.

والواقع انه لم يكن هناك شعور بالحاجة الى الثقافة العصرية فى الدولة السعودية قبل احتلال الحجاز. فقد كانت معارضة الرغبة فى ادخالها الى البلاد وشرعيتها شديدة للغاية. ذلك على اساس انها تحول افكار الانسان عن الغرض الاساسى من الحياة.. اى إعداده الحياة الاخرى. غير ان احتلال الحجاز قد وضع حداً لمثل هذه الآراء الانطوائية المتشككة. ومن بعد ذلك اعتراف بالحاجة الماسة الى إدخال الثقافة العلمانية كنتيجة حتمية تتطلبها مهمة إنشاء الدولة. وكان من سوء الحظ، ان اضطر المتعلمون ان يبحثوا عنها فى الخارج بسبب قلة التسهيلات فى الجزيرة العربية. ولم يقيموا وزناً كبيراً الى التأثر المعنوى للبيئات المستنيرة على الاولاد الذين تخصلوا من الروابط التى تربطهم بمنازلهم كما شجعت هذه العملية. بمنحها الطلاب منحاً دراسية حكومية (ومنحاً شخصية للمتفوقين)، تمكنهم من تلقى العلم فى المدارس السورية والمصرية بادئ الامر، ثم يؤمون المعاهد العلمية فى انجترا وفرنسا وألمانيا والبلدان الاخرى، مثل اميركا بعد الحرب العالمية الثانية.

كان الشيخ حافظ وهبة، وهو اول مدير معارف عينه الملك، قد بدأ بداية صحيحة فى هذا النهج، وعمل جاهداً على ادخال النظم التعليمية المدنية الى المراكز الرئيسية فى البلاد. وذلك بتزويدها بالادوات المدرسية والاساتذة الأكفاء الذين استقدمهم من بلدان الشرق الاوسط المختلفة.

وقد كان فى قصر الملك فى الرياض مدرستخاصة بالامراء منذ سنوات عدة. كما ضرب الامير سعود، الذى اصبح ملكاً الآن، اروع الامثلة بالقيام ببناء مدرسة قرب قصره فى الرياض، جعلها على غرار المدارس الانجليزية العامة تقريباً، فهى داخلية تضم ابناءه، وابناء الخدم والعبيد الذين هم فى سنهم وفيها يتلقون تعليمهم على ايدى هيئة خاصة من المعلمين المصريين. ثم حذا حذوه، الامى عبد الله، شقيق الملك، ببناء مدرسة العائلة فى الرياض. وكذلك قام الامير فيصل ببناء مدرسة فى الطائف لتعليم ابناءه وابناء المواطنين الآخرين.

ولاشك فى ان الثقافة العلمانية فى نمو مطرد فى المملكة السعودية. فقد كان عدد المنح الدراسية فى بداية الامر، يتراوح بين المائتين والخمسين والثلاثمائة. وفى سنة ١٩٢٥ كان عددهم (٧٠٥) فى مصر و (٢٥٩) الى سوريا و (٤٦) الى اميركا والبلدان الاخرى، ومن ضمنها انكترا.

ولما طلب الى حافظ وهبة ان يقبل منصب سفير لبلاده فى انكترا سنة ١٩٣٠ خلفه الشيخ طاهر الدباغ مديراً للمعارف، وظل يشغل منصبه الى ان عين الشيخ محمد بن مانع، المدير الحالى، واحد علماء مكة، وان كان نجدياً فى الاصل.

ويمكن الحكم على ان السياسة التعلمية فى البلاد اليوم تسير فى الطريق المرسوم لها على ضوء الإحصاءات التى اجريت عام ١٩٥٢- ١٩٥٣. فقد كان عدد المدارس القروية ١٥٩ وعدد معلميها ٢٢١، وعدد طلابها ١٠٣٠١ طالباً، بمعدل ٦٥ طالباً لكل

مدرسة و٤٦طالباً لكل صف. اما المدارس الحكومية الابتدائية فقد كان عددها ١٧٠ مدرسة وعدد معلميها ١٢٤٠ معلماً، وتلاميذها ٣٠٨٤٦طالباً (١٨١طالباً في كل مدرسة و٢٥طالباً كل صف). وكان هنالك احدى عشر مدرسة خاصة تقوم بتعليم٣٥٦٨طالباً، على ايدى١٤٩معلماً (بمعدل٣٢٤ طالباً لكل مدرسة و٢٤طالباً لكل صف). اما المدارس الحكومية الثانوية فكان عددها احدى عشر، وعدد معلميها ١٥٠ معلماً، وعدد طلابها ١١٠٥٠، (بمعدل ١٠٠٠طالب لكل مدرسة و ٧٣ لكل صف). وكان هنالك ثلاث مدارس ثانوية خاصة عدد طلابها ٤٣٨ طالباً واساتذتها٢٦ استاذاً (بمعدل ١٤٦ طالباً لكل مدرسة و١٧ طالباً لكل صف). وهنالك هيئات مسؤولة عن ١٣ معهداً، عدد اساتذتها ١٠٠، وطلابها ١١٠٠ طالب. كما ان هنالك ثمانية معاهد اخرى عدد معلميها ١٥، وتعد ٢٦٣ مرشحاً لمهنة التدريس، و٦ معاهد اخرى عدد معلميها ٤٠ معلماً لاعطاء دروس مسائية في تعليم اللغة الانجليزية.

وبالاضافة الى هذا، قامت المدراس المختلفة التي افتتحتها شركة أرامكو في الظهر ان بتدريب عدد من مستخدميها على المهن المختلفة، واعطاء دروس عامة في المحاسبة ومسك الدفاتر والاعمال الكتابية بمعدل ١٣٧٤ طالباً في الشهر. وهكذا.. من الوجهة الثقافية، يبدو الوضع اليوم مدهشاً للغاية، اذا ما قورن بمثيله قبل عشرين عاماً فقط.

غير ان هذه كلها كانت باهظة التكاليف. فيجب ان نعود الآن الى

حيث تركنا ابن سعود في الطائف، يتساءل كيف يمكن ان يتدبر امره بالموارد الضئيلة التي في متناول يده، فيسد بها الحاجات الماسة على الاقل- ودن الحاجة الى ذكر المشاريع التحسينية والانشائية التي اخذ على نفسه رعايتها- اذا ما اراد ان يبرر احتلاله للديار المقدسة في عيون جيرانه، ويدفع الانتقاد الذي كانوا يوجهونه اليه.

وكما رأينا، كان عليه ان ينتظر عدة سنوات، قبل ان تساهم الحرب اليمنية، الامر الذي حاول جهده ان يتجنبه، مساهمة متواضعة في زيادة موارده. ولكنه في ذلك الحين، استطاع الحصول على خير بسيط غير منتظر ولم يكن يفكر فيه مطلقاً عندما كان يبحث ميزانيته في الطائف. لقد كان الوضع المالي مؤسفاً بالرغم من غزواته واحتلاله السابق لعدة بلدان، وكان واضحاً ان الملك أمسى مغموماً.

ونفس الوقت كانت هناك شائعات بين السكان عامة، حتى في الدوائر المسؤولة، عن موارد البلاد الهائلة التي تنتظر البحث والتنقيب والكشف عنها على الاقل. وكانت المعارضة الاساسية لها انه لابد من استخدام الاجانب وتعاونهم، فانهم هم الذين يملكون الخبرة اللازمة والمال الكافي لهذا الغرض مع العلم بان جميع طبقات الشعب ستمانع في وجودهم في البلاد.

وقد اختبر ابن سعود نفسه نتائج مغامرة من هذا النوع، فأدى فشلها الذريع الى تطبيق فكرة القيام بمغامرة اخرى . ففي سنة ١٩٢٣ وبتشجيع من السير برسي كوكس، منح امتيازاً للشركة العامة الشرقية للتنقيب عن البترول في جميع المناطق الشرقية،

بشروط سهلة للغاية. وكانت شروطه الوحيدة هي ان تدفع الشركة مقدماً مبلغ الفي جنيه اجرة سنوية، وان تتابع التنقيب الى ان تعثر على الزيت، والا فان امتيازها يعتبر لاغياً. الا ان السير برسي كوكس كان يفضل ان يبيع الامتياز الى شركة نصف حكومية في بلادها، خوفاً من ردود فعل سياسية.

وقد حصلت نفس الشركة التي يمثلها في كلتا الحالتين، الميجر فرانك هولمز، على امتياز مماثل في جزر البحرين، فحولته الى شركة الخليج المكسيكية، والتي بدورها تنازلت عنه لاسباب فنية لشركات فنية لشركات ستاندرد اويل كومباني اف كالفورنيا Standard Oil Company of California بعد ان عرضته على شركة البترول الانجلو ايرانية ولكنها رفضته.

اما بالنسبة لابن سعود فان كل ماحصل عليه من هذا، لايتعدى مبلغ أربعة آلاف جنيه على حساب أجرة سنتن، لأن الشركة توقفت عن التنقيب في المنطقة بعد فشل مجموعتين من علماء طبقات الارض البلجيكيين. فالغى الامتياز رسمياً سنة ١٩٢٨ بعد تبليغ الشركة الحائزة عليه وعدم ردها.

ومع ذلك، بعد تغيير الاحوال سنة ١٩٣٠، بدا ان في امكان احدى الشركات ان تدفع بعض الاموال مقابل الحق في اعادة التنقيب في شرق الجزيرة العربية. وخاصة، بعد أن ظهر الزيت في البحرين. وكانت حاجة الملك الرئيسية ماسة الى مبلغ حاضر، ليتمكن من مواجهة العاصفة الاقتصادية، الى ان يجرى تنظيم الحج على اسس

مريحة. ولم يكن ابن سعود يتطلع الى اكثر من ذلك. ولم تشعل اى شرارة تفاؤل حماسته لاحتمال تحقيق مثل هذا المشروع. اما وزير ماليته، فقد كان اكثر تفاؤلاً فى مشاريعه، بشئ من اليأس الشديد وافق الملك على اتخاذ الخطوة الاولى فى الاتجاه المرسوم.

وصدف ان حضر للقاهرة المليونير والمحسن الامريكى المستر شارلز كرين، الذى كان قد ابدى عطفه على القضايا العربية قبل عشر سنوات. وذلك عندما شرع الحلفاء فى تنفيذ مشروعهم الرامى الى وضع سوريا تحت الانتداب الفرنسى ضد رغبة اهلها. وكان قد قام قبل ذلك بزيارة لليمن، حيث قدم هبة سخية كمساعدة لحكومة الامام، لتحسين الميناء وانشاء الطريق. كما أنه قام سابقاً بزيارة جدة (سنة ١٩٢٦) على امل التعرف على الملك ابن سعود الذى كان موجوداً آنذاك فى المدينة المنورة. ولكنه لم يستطع مقابلته. وكان المستر كرين على استعداد الآن لزيارة جدة مرة اخرى اذا تأكد له وجود الملك فيها. فوافق الملك على الاجتماع به عد انتهاء الحج، الذى يصادف فى آخر نيسان سنة ١٩٣١ اذ كان مقرراً ان يمضى فيها زهاء أسبوعين.

وتم الاجتماع فى الوقت المحدد فى جو ودى للغاية. وقد بحثت الامكانيات الاقتصادية السعودية فى عدة اجتماعات، كان من نتيجتها ان عرض المستتر كرين على الملك خدمات السيد كارل.س. توتشل Karl S. Twitchell لمدة ستة اشهر، بدون اجر. وكان هذا مهندس مناجم ذا كفاءة. وكان يعمل لحسابه فى الحبشة واليمن.

وصل السيد توشل الى جدة فى صيف سنة ١٩٣١، ولم يحل

ربيع سنة ١٩٣٢ حتى قدم الى الملك تقريراً مفاده ان طبيعة تلال الظهران توحي بوجود الزيت، فمن الخير التنقيب فيها. كما اعلن منجم مهد القديم للذهب، الواقع في منتصف الطريق بين جدة والمدينة المنورة، لم يستفد من قبل القدماء. وكان تقريره يشير الى مناطق اخرى تبشر بالنتائج الحسنة. ولقد رفع ذلك التقرير ثم عاد الى اميركا على أمل ان يغرى عدة شركات باستثمار المعادن العربية. وكان عليه ان يقضي عدة سنوات بعد ذلك في العربية السعودية حيث عمل بجد ونشاط في مشاريع حكومية عديدة. وهو لايزال يقوم بزيارات متكررة للبلاد.

واسترعى ذلك التقرير انظار شركات ستاندرد اويل كومباني اف كالفورنيا فارسلت هذه ممثلها المستر لود هملتن Lloyd Homultin مع السيد توتشل كمستشار فني لاجراء مفاوضات مع ابن سعود بالنيابة عنها. وذلك بعد أن اجرت اتصالات تمهيدية عرفت بها مدى استعداد الحكومة السعودية لمنحها امتيازاً للتنقيب. وقد ابدت الحكومة عزمها على بحث منح امتياز التنقيب عن مصادرها المعدنية بصراحة، ولكن بشئ من الحذر. وتبع المستر هملتن الى جدة كل من المستر س.هـ. لو نجرج ممثلاً لشركة بنزول العراق، والميجر فرانك هولمز ممثلاً لشركة أسترن جنرال سنديكيت East. Gen. Syndicate التي كانت، كما ذكرنا، قد نالت امتياز التنقيب في السابق بثمن بخس.

اما شروط الحكومة الرئيسي فكان دفعس مبلغ مائة الف جنيه ذهباً عند توقيع الاتفاقية. وقد نصت هذه على التنقيب المستمر.

وكان من جراء انسحاب ايسترن سنديكيت ورفض شركة بترول العراق دفع مبلغ يزيد على اخذ ورد ومساومات، وقع على عقد الامتياز في الثالث من ايار سنة ١٩٣٣ : عبد الله سليمان وزير المالية عن السعوديين، ولويد هملتن الشركة. وبعد مدة وجيزة قام المستر توتشل بالمفاوضات بشأن امتياز التنقيب عن الذهب نيابة عن شركة انجلو امريكية.

اما بشأن التنقيب عن الذهب فقد اقتصر هذا، على منجم مهد الذهب. وذلك بعد القيام ببحث واسع. غير ان انتاج نفذ سنة ١٩٥٣ بعد ان ساهم مساهمة متواضعة في واردات الدولة، اذ عاد عليها بربح صاف مبلغ العشرة ملايين من الدولارات. وقد امتدح الخبراء منجماً آخر يدعى الظلم قرب مويح، فكلف الحكومة تكاليف باهظة، لكنه فشل فشلاًذريعاً. إذ كان مجموع انتاج هذا المشروع ما يساوي التسعمائة ليرة انجليزية (١٨٠ اونس من الذهب او ٣٦٠٠٠ ريال) مقابل نفقات بلغت ثلاثين مليون ريال.

والواقع ان سلسلة الجبال على الحدود الحجازية والمناطق الواقعة على جانبيها مليئة بمناجم الذهب القديمة. ولكن يبدو ان الباحثين القدامى عن الذهب في عهد الملك سليمان والخلفاء العباسين، قد التقطوا كل عرق من المعدن الثمين ولم يتركوا شيئاً لمن أتى بعدهم. وحتى الربح الناتج عن منجم مهد الذهب تم الحصول عليه بفضل الاساليب الحديثة في لتعدين، فقد أخذت العروق من بين ركام وحفريات هائلة لم يستطع الأقدمون استخراج كل الذهب منها.

اما قصة البترول فكانت حكاية مختلفة: انها قصة خيالية واقعية

تفـوق اعظم القـصص الخـرافـيـة فى الف ليلة وليلة فى تطورها المدهش، من الخطوات الامـريكيـة الجـيـولوجيـة الاولى المضـنيـة فى الصحراء الى اكتشاف واستخراج سائل مروج الذهب بعيداً فى باطن الارض. ويمكن من هذه الناحيـة تلخيـصهـا بايجاز، فنقـول: «لقد طلب منها ماء فأعطته حليباً وقدمت له زبداً فى طبق ملكى».

كان الملك راضيـاً عن الخير الذى لم يكن ينتظره. ولم يكن يبالغ فى مشاريعه المستقبلة. غير ان الشركة خرجت بعيـد أعظم. انها أخرجت كلابها للبحث عن الكنز الدفين.. ففى سنة ١٩٣٥ ثبت وجود البترول فى الظهران للاغراض التجارية، وتدفق البترول من احدى الآبار الاولى بكثرة. وكان من جراء ذلك شئ يفوق خيال المتفائلين، فقد بدأ الانتاج سنة ١٩٣٨، وفى غضون السنة التالية وصل الى معدل مليون طن فى السنة! وكان معنى ذلك واردت سنوية تقدر بمائتى الف جنية ذهباً (اى مليون جنيه استرلينى حسب السوق الحرة).

ولكن هذا الحظ السعيد لم يكتب له ان يدوم. فقد قرر الحلفاء الغربيون، بسبب نشوب الحرب، تجميد الانتاج وايقافه عند الحد الذى وصل اليه سابقاً. هذا كما لحقت اضرار اخرى بمصالح المملكة السعودية من جراء التوق الذى حدث فى قدوم الحجاج، عندما دخلت ايطاليا الحرب جانب الاعداء. صحيح ان الخسارة التى تكبدتها حكومة ابن سعود بسبب استراتيجية الحلفاء، قد عوضتها بسخاء كل من الحكومتين: البريطانية والامريكية (بقطع النظر عن المساعدات الفنية الامريكية فى تطوير المشاريع المختلفة ذات النفع

فيما عدا امريكا نفسها) ولكن المملكة العربية السعودية، بالطبع، كانت تمانع فى قرار قطع مواردها ما دام قد اتخذه طرف واحد. غير ان انسحاب ايطاليا من الحرب، ثم محاصرة المانيا فى الغرب جعلا استئناف الحج وازالة الحجر على انتاج البترول عام ١٩٤٤ ممكناً.

وكانت النتيجة باهرة ومدهشة: فقد ازداد الانتاج بصورة مبهجة. وفى سنة ١٩٥٢ اصبح المليون الذى كان ينتج زمن الحرب اربعين مليوناً. وحسب شروط الامتياز الاساسية، كان هذا يعنى دخلاً سنوياً مقداره اربعون مليون جنيه استرلينى. ولكن قانون ضريبة الدخل، والاتفاقية التى عقدت حديثاً، والمعمول بها فى جميع بلدان الشرق الاوسط، (وهى تنص على اقتسام عائدات البترول مناصفة بين الحكومة والشركة على اساس خمسين بالمائة) قد ضاعت هذه القيمة. وقد يظل الانتاج على هذه الصورة فى السنوات القادمة، وان كان لابد من الاخذ بعين الاعتبار اموراً اخرى، منها مقدرة السوق العالمية على شراء هذه الكميات، ووضع العملة المعقد فى العالم، الامر الذى جرد زيت العربية السعودية من ميزة كونه سلعة تشترى بالدولار.

وبالاضافة الى هذا، فإن الانتاج فى العراق والكويت (وقد اصبحت الاخيرة منتجة للبترول بصورة خيالية بالنسبة لحجمها) قد اخذ ينافس نفط السعودية. وكذلك ايران، وكانت خارجة عن سوق البترول بصورة مؤقته، فإنها ستعمل على نطاق واسع عما قريب وستنافس السعودية فى الاسواق. وقد اصبحت قطر ايضاً بلداً منتجاً للزيت، بينما اخذت البحرين هى الاخرى تحافظ على مركزها كمنتجة للزيت ومكررة له.

لقد عاش الوهابى العظيم حتى راى مبلغ الخمسين الف جنيه الضئيل فى اوائل عمره فى الرياض (من سنة ١٩٠٢- ١٩١٢) يتضاعف حتى يصبح مائة الف جنيه بعد احتلال الاحساء (١٩١٣- ١٩٢٥) ويرتفع هذا المبلغ كثيراً حتى يصبح من ٤ ملايين الى ٥ ملايين، بعد احتلال الحجاز سنة (١٩٢٦- ١٩٢٧). وقد ازداد هذا المبلغ مليوناً آخر من عوائد الزيت (١٩٣٨/ ١٩٤٤) دون اعتبار الهبات المالية الاميركية والبريطانية زمن الحرب.

ومن ذلك الوقت فصاعداً اصبح التقدم واسع الخطى جداً.. بات ابن سعود قرير العين فى اخر سنة من حكمة، وذلك لدى رؤيته الدخل الذى بدأ به حياته كملك مطلق، يتضاعف الفى مرة فيصبح مائة مليون جنية سنوياً.

ولم يكن دخله هذا يكفى فى اول حياته ولا اخرها، لمواجهة مسؤوليات الحكم واعبائه، حسب رأيه. ولكنه كان دائماً يذكر العقد الاول من حكمه كاحسن ايام حياته. اما فى اخرها فقد تآزر الضعف الجسمانى وهموم الثروة على احناء اكتافه العريضة.. تلك التى حملت عبء المسؤولية الثقيل خفيفاً فى سنوات الضيق والجهد.

كان التحول الاقتصادى والسياسى فى الجزيرة العربية فى خلال نصف قرن عملاً فذاً، يفخر به اى انسان. اما هو.. فقد كان يكره الابهة والرسميات التى جعلته بمعزل عن الايام الحلوة الماضية، وعن رفاق الصبا. وكذلك كان يكره الأصول الحديثة والرسميات الكثيرة التى اضطر أن يخضع لها، ثمناً لعظمته.

كان العالم انذاك يسير يحظى ثابتة نحو الحرب العالمية الثانية.. وشهدت ايام الطائف مفاوضات بين السعودية والمانيا من اجل عقد معاهدة صلح. فعين سفير المانيا فى بغداد سفيراً لها لدى البلاط السعودى ايضاً وقدم طلباً لعقد معاهدات مع ايطاليا وفرنسا. وكان ينتظر التوقيع عليها فى روما وباريس خلال رحلة الامير فيصل الى اوربا سنة ١٩٣١، وكانت هذه رحلته الثالثة الى دول الغرب. وقد شملت سفراته هذه بولونيا والاتحاد السوفيتى وتركيا. وكانت قد جاءت قبل ذلك بعثة بولونية يرأسها الكونت راكزينسكى، ومن من أعضائها المفتى الاكبر لسكان البلاد المسلمين.

وفى شهر ايلول قام ابن سعود بنفسه من الطائف لاستقبال السفينة البولونية التى احضرت معها شحنة من الاسلحة كانت الحكومة السعودية قد اوصت عليها. وكانت هذه احدى الصفقات التى تناولها قانون تأجيل الديون الحكومية. واستمر الامتناع عن دفع ثمن هذه الشحنة بسبب نشوب الحرب والتغير الذى طرأ على كيان بولونيا السياسى. وآخر الأمر لم يدفع الثمن مطلقاً.

اما روسيا فقد نشطت فى الثلاثين سنة الاولى، فى اقامة علاقات تجارية مع البلاد العربية، ومع السعودية العربية واليمن على الخصوص. وهبت لانقاذ حكومة ابن سعود عندما تأخرت بسداد ديونها فارسلت اليها شحنة من البترول وبضائع اخرى. وحين احتجت الهيئات التجارية فى جدة على تخفيض اسعار البضائع فى الاسواق من جراء ذلك، اضطرت الحكومة الى العمل على وضع حد لمثل هذه الاعمال فى المستقل.

وفى نسة ١٩٣٨ تحقق لدى السلطات السوفيتية أن آمالها فى تاسيس قاعدة لها للدعاية السياسية وعن طريق العلاقات التجارية الخاسرة، عبء ثقيل. فاستدعت موسكو هيئتها السياسية العامة فى الجزيرة العربية، لتقديم حساب عن اسباب الفشل. وطرد جميع الموظفين من وظائفهم لدى وصولهم الى روسياً. وكان من جملتهم حكيموف، وخلفه فى سفارة جدة تيموميشوف، مع نفر من سيدات كثيرات كن مستخدمات فى البعثتين التجارية والسياسية، فيما عدا طبيب السفارة الذى عصى الامر واسلم ليبقى طبيباً فى خدمة ابن سعود.

وكانت تركيا فى هذا الوقت قد اسست علاقات سياسية لها مع المملكة السعودية بالرغم من تحاملها الدفين الذى خلقته نظرتها الجديدة الى الدين. وكانت زيادة فيصل لتلك البلاد زيارة مجاملة. الا ان العلاقات بين البلدين عادت فأصبحت عادية بعد موت كمال اتاتورك سنة ١٩٣٨.

وكان من نتائج الحرب الايطالية الحبشية سنة ١٩٣٥- ١٩٣٦ ان بدأ ابن سعود يعتقد بمبدأ سياسة القوى، وكان يرفض بعناد وشدة الاعتقاد السائد بين الكثيرين بان بريطانية ستقف جانباً وتسمح بانهاء فصول المأساة الدامية فى الحبشة دون معارضة، حتى بعد سقوط أديس ابابا وضم الحبشة الى ايطاليا.

اما من ناحية هيئة الامم التى لم تكن المملكة السعودية عضواً فيها، فلم يكن ابن سعود ليعتقد بقدرتها على حماية حقوق الدول الصغرى، اوحتى الحيلولة دون الحرب، التى كان يعتبرها جزءاً

طبيعياً من انه كان يصل الى المملكة السودية كثير من نشرات هيئة الامم (تبحث مواضيع الرق وحقوق المرأة وغيرها).

ولقد تعلم العرب من اختباراتهم اثناء الحرب أن خلافات الدول الكبيرة قد تعود بالفائدة على الدول الضعيفة. ولم تضعف الحرب الثانية شيئاً من قوة هذا الاعتقاد، بل كان من نتيجتها اقتناع ابن سعود بانه لابد من وقوع الحرب الثالثة. وكان ينتقد الحلفاء لتأخيرهم فى الاتخاذ الاجراءات ضد العدو، خشية أن يصبح قوياً لدرجة يتعذر عليهم معها ان يهاجموه بلا نتائج وخيمة.

اما ابن سعود نفسه فكان يؤمن بالسياسة المثلى التى يجب اتباعها بالنسبة لمصاله ومصالح رعاياه فى المجال الدولى، مع ان الكثيرين من مستشاريه لم يوافقوه من كل على آرائه هذه، لأنهم كانوا يرمقون باهتمام، اضطراد النمو فى قوة دول المحور. ولم تكن بريطانيا فى نظره اعظم دول العالم فحسب، بل كانت الدولة الوحيدة التى تلتقى مصالحه ومصالحها فى اكثر من نقطة واحدة. ولذا كانت مصادقة بريطانيا حجر الزاوية فى سياسته. ولم يكن هنالك مجال لزعزعة اعتقاده هذا، فلم يؤثر فيه ما كان يعتقد الاخرون. وعلى الاخص اولئك الذين خرجوا ولو مثقال ذرة عن خط السير الذى رسم لهم فى مختلف مجالات نشاطهم.

وبالطبع لم تكن اميركا قد بدأت علاقاتها واعمالها السياسية فى السعودية العربية، فلم يؤسف لانسحاب البعثة السياسية السوفيتية من جده. اما رفض ابن سعود لان يسمح، او يسهل لاى دين، غير الاسلام، أن يمارس أى نشاط فى ارض الجزيرة، فكان

يقابله كرهه الشديد الظاهر للتعامل مع اية دولة تصرح بعدائها لاى دين من الاديان السماوية. ويمكننا القول بهذه المناسبة: بأن معظم ممثلى السوفييت فى جدة، إن لم يكن كلهم، كانوا من المسلمين .

وقد كان أبن سعود ينظر شزراً لتركيا تحت حكم أتاتورك من جراء السبب نفسه. أما تفضيله لبريطانيا فلم يكن ليؤثر بأى شكل من الأشكال على استقلاله التام فى إقامة علاقات ودية ومتينة مع الدول الغربية الأخرى: مثل فرنسا وإيطاليا وألمانيا وهولندا، ولم تكن الأخيره (هولندا) أقلها شأناً .. وذلك لأنها كانت تسيطر على الهند الشرقية التى يجئ منها (أو كان يجيئ) معظم الحجاج قبل التدهور الاقتصادى .

أما من ناحية العالم العربى، فقد عادت العلاقات مع مصر على أسس ودية منذ سنة ١٩٣٦ ، بينما كان مبدأ عدم التدخل فى شؤون البلدان المنتدبة، العامل الأساسى فى تعامل الملك مع الدول صاحبة الانتداب. وينطبق هذا بشكل خاص على شؤون فلسطين، وإن كان ابن سعود قد أعلن بالأشتراك مع قادة العرب الآخرين، إنه يعطف على هذه القضية العربية .

والواقع إنه كان يشعر بالأسى من ناحية قيادة الثورة وأساليبها فى سنة ١٩٣٥ ، كما رفض الاشتراك مع العرب الآخرين فى اعتبار مقترحات لجنة بيل Peel، القاضية بتقسيم فلسطين. وكذلك رفض الكتاب الأبيض البريطانى سنة ١٩٣٩ .

ويبدو أنه لم يُرد أن يكون البادئ فى الدعوة إلى حل لمشكلة

فلسطين، إلا إذا طلبت إليه ذلك الحكومة صاحبة الانتداب بشكل خاص، أما بريطانيا فلم توجِّه مثل هذه الدعوة إلى الرجل الذى، كان بحكم مركزه، يستطيع أن يتوصل إلى حل معقول لهذه المشكلة الشائكة العويصة: هذه المشكلة التى سُويّت فيما بعد بوسائل أخرى، بعد أن تخلت بريطانيا عن انتدابها لتفسح المجال إلى تقسيمها .

كان ابن سعود فى هذه المشكلة وغيرها كثيراً ما يختار فى مسلك بريطانيا نحوه ونحو حكومته، وكثيراً ما كان يصرح عن عدم أشتراكه مع الآخرين فى الكراهية الاجتماعية لبريطانيا، كما يصرح بتفضيله إياها على جميع الدول الكبرى الأجنبية. ولقد أثبت مشاعره هذه بمنحة إياها امتيازات مادية فى نواح عديدة. فوافق على احترام الحدود الفعلية القائمة بين بلاده وبين الأردن دون أن يتخلى عن مطالبته بمعان والعقبة. ووافق كذلك على الحدود الفاصلة بين بلاده والعراق، هذه الحدود التى لم تكن مضرّة بمصلحة رعاياه. ولم يتقدم باية مطالب فى منطقة الخليج الفارسى التى كانت تعتبرها بريطانيا داخله في منطقة نفوذها وتحت سلطتها. كما عقد معاهدة مع بريطانيا واتفق معها على التعاون فى منع تجارة العبيد - الأمر الذى رفض أن تتضمنه المعاهدات التى عقدها مع إيطاليا وفرنسا. ولم يتوخ أن يجنى ثمار إنتصاره فى اليمن. إلا أن بريطانيا، فيما يبدو، كانت دائماً تظهر له عدم الاكتراث، ولم يعرف لذلك سبباً ! ولم يدر كيف إن أصراره على تحقيق السيادة المطلقة

فى الحـقلين : الداخلى والخـارجى، يمكن أن يشكل حـاجـزاً لم تستطع عواطف بريطانيا التغلب عليه .

ومع هذا، فعندنا نشبت الحرب العالمية الثانية، لم يتردد ابن سعود لحظة فى عطفة على بريطانيا فى هذا النزاع، بالرغم من إعلانة الحياد، وقد كان بإمكانه أن يستفيد أكثر لو أنه أظهر مسلكاً مبْهماً ذا وجهين. وكان حياده لا غبار عليه من الوجهة الرسمية، ولم يسمح للسفير الألمانى الذى كان غائباً عن جدة حينما أعلنت الحرب، أن يعود إليها، خوفاً من حدوث مضاعفات مع عناصر السلك السياسى الأخرى الموجودة هناك .

وعندما دخلت إيطاليا الحرب، نَقل ممثليها وأعضا بعثتها إلى أماكن مريحة فى إحدى الجزر المخصصة للحجر الصحى لنفس السبب، إلا أنهم عوملوا بالاحترام اللائق بهم، وعندما لجأت بعض المدمرات إلى الشواطئ السعودية هرباً من هجوم الأسطول البريطانى عليها، اعتقل ابن سعود بحارتها فى الطائف ولم يسلمهم إلى أعدائهم وكذلك فعل حين لجأ رشيد عالى الكيلانى بعد الحرب، إلى الأراضى السعودية.. لقد استقبله بمظاهره الحفاوة، كضيف محترم، بالرغم من المساعى التى بذلتها بريطانيا لتسليمه إليها كمجرم حرب صدر بحقه حكم بالإعدام من محكمة عسكرية عراقية لقيادته ثورة سنة ١٩٤١ .

كان ابن سعود فى جميع هذه الأمور يتصرف وفقاً لشعور غريزى يدفعه للسير فى أفضل السبل، وكان يعمل بهذا الشعور

دونما خوف أو تحير أو محاباة. ولا شك فى أنه كان يرجو طوال سنى الحرب أن يكون النصر حليف الحلفاء، وكم أزعجته وأقضت مضجعه الكوارث التى ألمت بهم سنة ١٩٤٠ والسنة التى تلتها !

فى هذا الوقت بالذَات، أخذت أميركا تهتم بالجزيرة العربية، وبعد أن أسست لها مفوضية فى جدة، أرسل روزفلت ممثلين شخصيين عنه لزيارة ابن سعود فى الرياض، وبحث بعض الأمور معه ودراسة ما تحتاجه بلاده، وقد سبق أن ذكرنا المساعدات المالية النقدية التى قدمتها الحكومتان : الأمركية والبريطانية، لابن سعود ، فكان توطيد العلاقات الأمريكية مع الجزيرة العربية هو التطور البارز الذى حدث خلال سنوات الحرب، وكانت النتائج باهرة للغاية، فقد غيّرت البناءَ الأقتصادى والاجتماعى فى البلاد تغييراً كلياً فى غضون سنوات عشر فقط .

لقد احترم الحلفاء حياد ابن سعود تماماً، وكان واضحاً لهم أنهم لن يُفيدوا شيئاً من تغير موقفه، حتى لو كان أبن سعود على أستعداد للقيام بذلك، وكان روزفلت يدرك تماماً ذلك الدور الهام الذى ستلعبه السعودية فى عالم ما بعد الحرب،. وبعد ان بدأ الحلفاء يحققون انتصاراتهم لم يكن هنالك من سبب يحمل ابن سعود على إخفاء مشاعرة بالنسبة للصراع العالمى .

وكان الملك فاروق قد قام بزيارة له بالقرب من المدينة المنورة، فى نهاية الحرب تقريباً، ودعاه لزيارة مصر عندما تصبح الأمور ملائمة، إلا أن القدر كان يخبئ مفاجئات أخرى للوهابى العظيم، فقد ذهب إلى مصر سنة ١٩٤٥ ، لا ليزور فرعون ! الشاب، بل لمقابلة

مـهندسى النصـر المؤزّر. لقـد زار الرئيس روزفلت علـى ظهـر طراد أمريكى فـى البحيـرات المرّة، ومن هناك سافـر بالسيـارة إلى الفيّوم ليزور ونستن تشرشل، الذى حيـاه، واستـقبله كـصديق فى وقت الضـيق، وذلك لوقـوفه بجانب القـضيـة البـريطانيـة فى أحلك أيام الحرب .

كانت هذه لحظة هائلة من لحظات حياته، وكانت أول سفرة له إلى خارج بلاده منذ ذهابه إلى البصرة قبل ثلاثين سنة .. وكان أول لقاء له مع عظمـاء العـالم الحقـيقيـين، وكان هذا أول اختـبـاراته للعـالم الحديث وأساليبه. وكان عمره آنذاك خمسـة وستـين عـاماً، وقد بدأ يشعر بوطأة الآلام العصبية فى ركبته التى أصيبت بجرح فى معركة جرت منذ زمن طويل، ولكنه عاد إلى البلاد يحمل هدية من الرئيس روزفلت، هى عـبـارة عن كـرسى للمـقـعـدين مـثـل الكرسى الذى يستـعمله الرئيس نفسـه. ومن ذلك اليـوم فـصاعـداً تمسك ابن سعـود بالكرسى .. فقد وجد راحة كبيرة فى استعماله .

وفى خلال الاجتمـاعين اللذين عـقدهمـا أبن سعـود مع زعـمـاء الحرب، بحث معـهمـا المسائل المتعـلقة بمستـقبل بـلاده، ونظرته إلى مشـاكل العـالم بصورة عامة. ثم عـاد إلى الجزيرة العربيـة .. وطُلب إليه أن يبحث أمراً بالغ الخطورة وأن يتخذ قراراً بشأنه. فقد رغبت بريطانيا وأمريكا إليه أن يلعب دوره فى العالم الذى غيرته الحرب. وذلك بانضمامه إلى منظمة تهدف إلى المحـافظة على السلم العالمى. كمـا دُعـيت الدول العربيـة الأخرى للمساهمـة فيـها أيضاً، أما الشـرط السـابق الذى يجب توفـرهُ فى العـضـو المؤسس لمنظمـة الأمم المتـحدة

فهو: أن يكون عضواً في التحالف الأكبر المشترك في المراحل الأخيرة من إخضاع العدو. وحتى تنضم الدولة لذلك التحالف، ما عليها إلا أن تعلن الحرب على ألمانيا واليابان، العضوين الباقيين من المحور بصورة رسمية .

إلا أن ابن سعود أحجم عن إعلان الحرب بهذه الورة الشائنة السخيفة على دول اصبحت في حكم المنتهية ، وليس بينه وبينها اى خلاف او منازعة . لكنه خضع اخيرا للضغط السياسى من جانب اصدقائه ، وانضمت المملكة السعودية الى صفوف الدول المحاربة ، بالاسم ان لم يكن بالفعل ، فحضرت مؤتمر سان فرنسسكو كعضو مؤسس لهيئة الامم المتحدة . وتفضل الامير فيصل فحضر جلساتها بصفته وزير الخارجية وفى مناسبات اخرى كان يمثل ابن سعود فى حضور هذه الجلسات وزير السعودية العربية المفوض (السفير فيما بعد) فى واشنطن ، الشيخ اسعد الفقيه ، الذى كان فى السابق ممثلا لحكومته فى بغداد.

ولاسبيل الى ان يدعى اى انسان ان الدولة السعودية وجاراتها من الدول العربية لعبت دورا مؤثرا فعالا فى بحث ، أو تسوية المشاكل الرئيسية التى شغلت بال عالم ما بعد الحرب . ولكن تشكيل الجامعة العربية على صورة الهيئة الدولية العامة ، جعل اعضاءها ، ومنها المملكة السعودية بالطبع ، فى مركز قوى يمكنهم من التأثير فى الرأى العام العالمى ، فى جميع المشاكل التى تمس مصالح الشرق الاوسط والعالم الاسلامى فيما بعد .

هذا دون الحاجة الى ذكر المجموعة الكبرى من الدول العربية

والاسيوية التى كثيرا ما تعاونت فى نيويورك على حماية مصالح بلدان عدة كانت سابقا ، ولا تزال فى بعض الحالات ، تحت حكم الدول الغربية أو نفوذها . وليس هناك ادنى شك فى ان هذة الامم التى ثبت عدم تمكنها من انجاز الغابات الرئيسية التى أسست من اجلها ، لسبب الشقاق الذى ذر قرنه بين الدول الكبرى - كانت مسرحا استطاعت الدول الاسيوية والافريقية ان تبارز عليه ، على قدم المساواة ، عمالقة الغرب الامر الذى ربما أزعج بعض اعضائها .

لم تكن تلك المشكلة تهم السعودية العربية بصورة مباشرة ، وإن كان صوتها سيظل دائما فى خدمة الجناح الاسيوى من هيئة الامم فى اية قضية تمس مصالح الاسلام . اما الجامعة العربية نفسها فقد كانت فى بدء تأسسها منقسمة الى كتلتين، بسبب التنافس المحلى. وكانت المملكة السعودية بجانب مصر وسورية ضد دول الاشراف غير أن الزمن والاحداث ازالت الخلافات التى نشبت بين المجموعتين فرضى ابن سعود وارتاح ضميره اخيراً لان يرى ان الدول العربية قد توصلت الى شىء من التناسق والتوافق يبرر مساهمته بهبة ملكية مناسبة للدفاع عن الاردن ضد اعتداء اسرائيل . ومع ذلك، يمكننا القول بصورة عامة: إن ابن سعود لم يتطلع قط الى مركز القيادة فى الجامعة العربية ، ولا الى رئاسة ممثلى دولها فى منظمة الامم المتحدة ، أو الحصول على مقعد فى مجلس الامن . وكان من طبعه ان يتردد فى رفع الايدى الى جانب الغرب لهدم اى مشروع يتناول احدى القضايا التى تمسه . لقد ترك هذه المظاهر للايدى الاخرى المتمرسة اكثر منه بالاساليب الغريبة فى

العالم الجديد ! وكان في وسعه ان ينظر اليها من قمة طموحه العالمية ومجده الرفيع : ذلك المجد الذى بلغه بجهوده الخاصة دون اية معونة من احد ، ودون اية رغبة فى الفتح اوالنهب والسلب .

وكانت هنالك امور اخرى تشغل تفكيره ، امور حيوية تهم دولته التى اوجدتها ثم اصبح يحكمها بمفرده وسط تطورات غريبة لم يألفها من قبل . وقد لمس فى سنه المتقدمة حقيقة آلمته . فقد ادرك انه يعوزه الوقت الكافى لإنجاز كل ما تبقى ، وإقامة الادارة فى بلاده على اسس ثابتة تمكنها من مقاومة العواصف والشدائد فى المستقبل : تلك العواصف التى كان سيواجهها عالم ما كاد يتغلب على الطوفان (الحرب الثانية) الذى لم يعرف له مثيلا ، حتى بدأ يواجه انشقاقا اكثر خطورة . فلم يكن ابن سعود ذلك الرجل الذى ترعبه المصاعب ، بل واجهها بكل هدوء .. الهدوء الذى تميز به فى جميع المعارك التى خاضها فى السابق . اما الان فقد اصبح متقدما فى السن ومتعبا انهكه الالم . الا أن الشعور بالواجب، هذا الشعور الذى حذقه ابن سعود لطول ما تم تلقينه إياه ، كان يدفعه دائما إلى الامام : وكم كان يرفض ويزدرى مساعدة أبنائه له ، اولئك الأنباء الذين خبر معظمهم العالم ، كما يرفض مساعدة العدد الكبير من الموظفين الذين خدموه طويلا باخلاص.

صحيح ان الامير سعودا ، الذى كان وليا للعهد لاكثر من عشر سنوات ، كان يده اليمنى فى ادارة نجد ، وأن الامير فيصل كان قد عين فى الحجاز بالاضافة الى مسؤوليات وزارة الخارجية - الا أن ابن سعود لم يترك ايا من ولديه حرا فى انجاز المهام الموكولة

اليه . وربما كان وزير المالية عبد الله السليمان ، الموظف الوحيد بين موظفي الحكومة الذى كان يتمتع بسلطة مستقلة (خاضعة بالطبع لسلطة جلالته) في ادارة شؤون البلاد المالية . وكان عبد الله هو المشرف على نفقات معظم الدوائر الحكومية .

اما جميع موظفى الدولة الكبار، عدا هؤلاء الثلاثة فكانوا يلتفون حول الملك بصفة مستشارين له. بينما كان مجلس الشورى الذى استقر فى مكة هو الهيئة الوحيدة التى تعمل خارج دائرة البلاط السحرية. ويتألف هذا المجلس من اشخاص عينهم الملك ليمثلوا مناطق الحجاز ومدنها. وكانت هذه الهيئة كما يدل عليها اسمها، استشارية فقط. غير انها ظلت تقوم باعمال جد نافعة، طوال السنوات التى وجدت فيها. فقد كانت تعبر عن رأيها فى مختلف المشاريع والمقترحات المقدمة من وزير المالية والمصادر الاخرى .

ولقد قام الموظفون باعمال باهرة فى الظروف التى سبقت الحرب، والبسيطة نسبيا اذا كان بامكان الملك نفسه ان يهتم باية مشكلة تعذر حلها فى دوائر الحكومة الدنيا. ويعود الفضل فى ذلك بالطبع لابن سعود ، اذ انه لم يقطع الاتصال برعاياه مهما سبب له ذلك من ازعاج، لافرق بين الكبير والصغير والغنى والفقير.وكان يستمع الى شكاواهم ويساعدهم فى التغلب على مصاعبهم. وكان هذا طبيعة فيه تلازمه .

وانه لمن المدهش حقا انه استطاع، بالرغم من مشاغله العظيمة والمزعجة ان يجد متسعا من الوقت يقوم فيه بتأدية هذه الالاف المؤلفة من المساعدات البسيطة أو يفكر فيها - هذه المساعدات التى

حملت الكثيرين من الناس بعد وفاته على أن يمجدوا ذكراه ويترحموا عليه . فلقد كرس حياته لخدمه الاخرين . وربما كان هذا هو السبب الذى جعله لا يكل جزءا من هذه الاعباء التى حملها على عاتقه طول حياته ، لأخلص مستخدميه وموظيفه .

لقد تغيرت الاحوال فى بلاده بسرعة مخربة . ولقد ثبت عقم جميع الاجراءات التى اتخذت بموجب النظم القديمة لحماية الشعب من الطغيان والفساد وطوفان الثراء الذى غمر البلاد فجأة ، وأخذ يضغط بصورة متزايدة على كل ناحية من نواحى الحياة فى الجزيرة العربية . ومن الباطل ان يدعى المرء بانه لم يكن هنالك ظلم او فساد فى ظل النظم القديمة . فقد كان عدد المغامرين الاجانب من مثل السواقين والميكانيكيين وحتى الكتبة والتراجمة الذين تقاطرو على الحجاز بحثاً وراء الثروة والحظ احتلالها من قبل الوهابيين ، كافيا لدحض مثل هذه الادعاءات . الا ان مفاسد الفترة السابقة كانت بسيطة نسبيا . وكثيرا ما كان يتم اصلاحها بالشدة الملائمة عندما تبلغ مسامع الملك .

اما فترة ما بعد الحرب فكانت شيئا آخراً . وقد آن الآوان لأن تنتقد بشيء من التفصيل ، دون الاساءة الى الكثيرين من الذين وقع عليهم عبء اعادة الثقة العالمية الى العربية السعودية التى ظل اسمها ساميا فى أعين الامم . فليس فى المملكة السعودية وحدها من دول العالم العربى ، اوجد الثراء توأمى الشر : الفساد والتبذير. وهما الشران اللذان أثار نقمة زعماء الثورة فى بعض البلدان العربية لأن ثوراتهم قدرافقها التطهير العنيف واظهرت مفاسد الحكومات السابقة.

اما فيما يتعلق بالمملكة السعودية ، فنستطيع ان نتلمس العذر في ذلك فنقول : كان السبب هو هبوط هذا الثراء الخيالي الفجائي على جهاز اداري بدائي جل مهمته ايجاد التوازن بين موارد البلاد الضئيلة وحاجات الحكومة المتزايدة خصوصا وانها حكومة برزت الى الوجود في هذا العالم عن طريق الفتح والتوسع لقد كانت مستويات معيشتها وخدماتها العامة تختلف كثيرا عن اى مستوى آخر.خبرته الجزيرة العربية قبل ذلك الزمن . وكان الفضل لحكم ابن سعود ونظامه في رفع مستوى ازدهار البلاد وفعاليتها حتى نهاية الحرب . وكان ذلك على حساب عجز بسيط في الميزانية ، وعلى صورة دين عام يمكن دفعه ، متى شاء ابن سعود ، عن سبيل الاقتصاد في مصروفات سنة واحدة من الواردات العادية.

الا أن الثرورة جاءت معها بالمغريات ، سرعان ما أبدت ضعف النظام الذى يعتمد كليه على ارادة سلطان مطلق يفتقر كثيرا الى انظمة المحاسبة ، والمراقبة الفنية ، والاحتفاظ باحتياطي ،وشابه ذلك من الانظمة التي تمكن الحكومات الوطنية المستقرة والشركات التجارية الكبرى ، وحتى الاغنياء من ابناء الشعب - ان يتحملوا اعباء الديون المادية ، دون الحاق الضرر بسمعتهم في العالم ، فسرعان ما تحولت الدائرة المالية التي يشرف عليها عبد الله السليمان ، الى وكالة مهمتها ايجاد الامور اللازمة لهذا المشروع او ذاك ، دون اخذ حسنات المشاريع نفسها بعين الاعتبار او وجود المال اللازم لها .

كان رئيس كل دائرة آنذاك قانونا بنفسه ، خاضعا لمشيئة الملك

وسلطتـه فلم تكن هنالك حكومة تنسق عمل الدوائر واحتياجاتها فيما عدا الملك نفسه الذى كان ، كما يبدو يحمل فوق طاقته اعباء شؤون اخرى . فلم يكن حقا فى وضع يمكنه من تقدير امكانيات الخزينة وقدرتها على دفع جميع المطالب من وارداتها . وهكذا اخذت دائرة المالية تبرز شيئا فشيئا ، كصاحبة السلطة فى مراقبة جميع دوائر الدولة التى لم تكن تحت اشرافه المباشر . فقد كانت لمطالبة الاولوية على جميع المطالب الاخرى .

اما بقية الموارد فكانت فى متناول يد وزير المالية ، ينفق منها كما يشاء على المشاريع والحاجات الاخرى التى نادرا ما كانت المالية كافية لسدها . ولا عجب فى هذه الظروف ، وبعد عشر سنوات من الازدهار المدهش ، ان لا يكون لدى الحكومة السعودية مال احتياطى على الاطلاق ، وأن نجدها تتحمل ديونا تبلغ عشرات الملايين من الجنيهات . ان اصل المعضلة يكمن . لا ريب ، فى موجة الإسراف والتبذير التى غمرت البلاد بعد ارتفاع مد عوائد الزيت : هذا الاسراف الذى تسرب، بدون اية مقاومة ، الى كل طبقة من طبقات المجتمع ، هادما جميع حصون اقتصادى . وقد رافقه رد فعل طبيعى له ، ظهرت فى ارتفاع اسعار جميع الحاجيات الحياتية الضرورية ومطالب الترف والبذخ . فالتربة المشبعة ليس بوسعها الا أن تنز ماء الفساد الاجاج الذى تطرق الى كل ناحية من نواحى الحياة العامة فى البلاد محولا جميع امال الناس الدنيوية التى عمرت بها قلوبهم ، الى رماد .. وذلك الرزائل القديمة الضارة تنمو مره اخرى وتزهر – بعد ان داسها المتعصبون من اهل الصحراء

واستأصلوها - فى نفس المكان الذى شهد انتصاراتهم فيما وراء بضعة الافدنة من الاراضى التى آلت اليهم من اجدادهم .

ومن المدهش ، وربما من المهم ايضا ، أن نعرف أن انتشار هذه المفاسد والشرور فى بلاد قاومت اى شكل من اشكال التغلغل الاجنبى بعناد ، وخلال الاربعة او الخمسة الاف سنة فى تاريخها - يوافق ظهور الثورة الاجتماعية الشاملة المستندة الى النماذج والمثل الغربية ظاهرا وا لاميريكية فعلا ، والتى اوحى بها التعاون الاميريكى الفنى والاقتصادى تطوير موارد البلاد الطبيعية . ومهما كانت الاراء فى حسنات هذا التبدل الذى ادى الى هجر حضارة من اقدم الحضارات فى العالم فى سبيل تجسيد ناموس دنيوى آلى فقط - وإن كان العرب اليوم لايشكون فى افضليه الحضارة الاخيرة على الحضارة السابقة - فلا سبيل الى الانكار بان روح الانقلاب قد ازدهرت بسرعة وامتصت معها اكثر من مجرد امتصاص سطحى معظم التقاليد الحضارية الثمينة القديمة ، حيث نبذت هذه والقى بها فى وادى النسيان .

واذا كان ازديار سكان المدن ، وتطور الطبقة الصناعية الصغيرة، وتحقيق المشاريع العامة مثل السكك الحديدية و الطرق وتزويد السكان بالماء ، والكهرباء للإنارة ، وتكييف الهواء ، والطبخ وما الى ذلك - دلائل الازدهار فلاشك اذن، فى أن السعودية كانت فى نهاية حكم ابن سعود العظيم اعظم ازدهارا منها فى اى عصر آخر منذ بدء العالم . ولكن هذا التقدم ليس المقياس ، الوحيد ، وليس المقياس الرئيسى ايضا بالرغم من عظمته ، كما تعرف ذلك اميريكا

جـيدا . الا ان العـرب لم ينسوا انهم لم يكونوا فى يوم من الايام اعظم منهـم فى الزمن الماضى الذى ناضلوا فـيـه باخـلاص فى هذه المجـالات ، فـاوجـدوا للعـالم مـا يسـمى الآن بالابجـدية الرومـانيـة الانسانية ، وعقيدة التوحيد التى انتشرت فى معظم اقطار العالم .

والواقع انه ليس من الصـعب تشـخيص اسبـاب خـيبـة الآمـال العـريضـة التى كـانت مـعلقـة على دولة ابن سـعـود خـلال العـشـر السنوات الاخيرة . ويمكننا تلخيصها بقولنا : انها هنات مزايا رجل عظيم : رجل عظيم لا يضاهيه احد فى منطقته ، مخلص فى دينه وصادق ، وغيور على سمعته واسمه وخير شعبه . لهذا فانه لم يثق باى من مـوظـيفـه ورغبتـه فى أن يخدمـه بالغـيـرة والكفا ءة اللتين اظهرهما هو فى خدمتهم. وكثيرا ما كان يردد القول المعروف: (كبير القوم خادمهم) .

لقد كـان هو نفسـه ، خبيرا فى كل ناحيـة من نواحى الحيـاة فى السحرا ء ، فلم يكن يضـاهيه فى هذه الناحيـة اى مـتفقـه من علمـا ء الدين . وقـد تناول مـشـاكل السـاعـة كـهـاو لم ترهبـه مـسـؤوليـاته الضـخـمة، ودن وجود أى ادارى خبـيـر واحد بين افـراد الهيـئة التى كـانت تسـاعـده فى حـمل اعـبا ء الدولـة فى غضـون الاعـوام الماضـيـة الاخيـرة . وقد اضطر مع الايام الى الاعتـماد على نفسه فقط . فلم يشعـر بتسرب علل الشـيخومة الى جسمه ، تلك العلل التى جعلت من المتعـذر عليـه تحمل اعبا ء المسؤوليـة فى بعض الاحيـان . وقلما خطر له أنه سيجىء اليوم الذى يصبح فيـه غير قادر على الاحتمال.

وكانت غريزته تمنعه عن المجازفة بتحويل هذه الاعباء عن كاهله الى عاتق غيره.

كان الشيء الوحيد الذى تحتاج اليه البلاد منذ بدأ الثراء يزعزع اركانها ، حكومة مستقرة تؤمن الاخلاص فى الادارة المالية ، واستمرار السياسة الداخلية والخارجية فى الفترة الجديدة ريثما تتسلم الدفة ايد اخرى الا انه لم تشكل مثل هذه الحكومة مطلقا حتى اللحظة التى وقف فيها الموت على بابه يدعوه للمثول بين يدى ربه فى تلك الساعة الرهيبة . وصحيح ان الامير سعود ولى العهد والامير فيصل نائب أبيه فى الحجاز ووزير خارجيته ، كانا فى السنوات الاخيرة يتحملان قسطا كبيرا من المسؤولية واعباء الادارة فى مختلف المجالات الا أن المشاكل الرئيسية التى كانت تتطلب سياسة فعالة ، ومسؤولية تعود بالخير على الدولة كانت من اختصاص الملك وحده . كان تشكيل الحكومة فى اللحظة الاخيرة وتعيين ولى العهد رئيسا للوزراء ، والامير فيصل وزيرا للخارجية ونائبا للرئيس ، مثالا يحتذى فى المستقبل الا أن المؤقت كان قد فات على معالجة الامور فى حياة الملك ، وتخفيف العناء والاجهاد اللذين فرضهما الزمن على الجهاز الذى شكله بمفرده فى كفاحه طوال نصف قرن .

ولنعد من بحث الوضع الادار العام فى السنوات العشر الاخيرة من حياة ابن سعود الى فترة ما بعد الحرب:

لقد كانت اهم مشاغل الملك ، بعد أن اصبح العالم متحررا مرة

اخرى من كابوس الحرب ، زيارته الموعودة الى مصر ، ردا على دعوة الملك فاروق له بمناسبة الزيارة التى قام بها للمدينة المنورة وينبع وتمت تلك الزيارة فى كانون الثانى من سنة ١٩٤٦ ، وسط مظاهرات الحماس والحب التى مست اوتار قلب اسد الصحراء وهو لا يزال ينبض بالحرارة . اما العلاقات الطيبة التى قامت بينه وبين فرعون الشاب ووزرائه ، فقد عادت على مملكة ابن سعود بالخير والنفع . لقد اخذت بلاده تعتمد منذ ذلك الحين على المساعدات الفنية والمادية التى تقدمها جارتها مصر ، لتطوير خيرات الحجاز وتنمية اقتصاده فى سبيل مصلحة الحجاج والحفاظ على الاماكن المقدسة . وكان اغتيال رئيس وزراء مصر النقراشى باشا ، خسارة شخصية لابن سعود. الا أن ثورة تموز ١٩٥٢ وسقوط فاروق الغير المتوقع، بعثا الاسى والاسف فى نفسه لاسباب شخصية اكثر منها لاى رد فعل خاص بميزات هذا العهد . وفى خلال الحج سنة ١٩٥٣، استقبل الملك وولى عهده، رئيس جمهورية مصر اللواء محمد نجيب بكل مظاهر الحفاوة والاجلال اللائقة بحاكم اجنبى .

وبغض النظر عن المساعدات الفعلية القيمة التى قدمتها السلطات المصرية ، فقد تركت الحدائق الخضراء والابنية الضخمة الشاهقة فى القاهرة والتى لم يشاهد ابن سعود مثلها فى حياته ، اثرا بالغا فى نفسه . هذا بالاضافة الى أنه كان قد عاد منذ عهد قريب ، كل من لامير فيصل واخوته الامراء الاخرون ، من حفله افتتاح هيئة الامم المتحدة فى سان فرنسيسكو ، يملا نفوسهم الاعجاب والدهشة بما رأوه فى العالم الجديد . وجاء دور الامير

سعود ليقوم بعد مدة وجيزة بزيارة طويلة الى امريكا . فعاد منها باحلام عريضة عما يمكن عمله فى بلاده من ناحية الخبرة الزراعية والمشاريع الكهربائية ووسائل النقل وما الى ذلك .

ولم يكد يمضى وقت طويل حتى اخذت هذه الانطباعات تترك اثرها فى الجزيرة العربية حالما بدأت عوائد البترول تجرى بقوة واستمرار فانشئت الحدائق الغناء ، وشيدت القصور والدارات فى الرياض ، وزودت بكل مظاهر الترف والبذخ التى تميزت بها قصور الاثرياء من مواطنى الولايات المتحدة . وقد جلبت الغراس والبذور من العالم الجديد ، فغرست فى رمال الصحراء القديمة لتزين البيوت الريفية . كما استخدمت مضخات الديزل والكهرباء على نطاق واسع لتزويد البلاد بالمياه اللازمة للمشاريع الزراعية الناشطة . وكانت المزرعة النموذجية التى انشئت فى اقليم الخرج ، والتى كان يشرف عليها ويديرها الخبراء الامريكيون مثالا بارزا على ذلك . كما انشىء فى عسير تهامة مشروع للرى والزراعة ، وإن كان لايزال فى مراحل تطوره الاولى . واصبحت الطائف واقليم الخرج مراكز مهمة للتدريب العسكرى الذى يشرف عليه مدربون امريكيون حلوا محل بعثة بريطانية سابقة . واقيم مصنع جديد للذخيرة فى اقليم الخرج تديره شركة فرنسية .

اما حلم الملك الاكبر فى ربط ساحل الخليج الفارسى بالرياض فقد تحقق فى أواخر سنة ١٩٥١ . فأصدرت التعليمات للمنهدسين الامريكيين بان يقوموا بمسح وتخطيط الاراضى لتمديد هذا الخط، عن طريق اقليم القصيم والمدينة المنورة، ومكة. اما المدينة المنورة

ومكة فقد كانتا مرتبطتين بطريق معبدة واكلمت كذلك شركة انجليزية المائة كيلو متر الاولى من طريق يعتبر من الدرجة الاولى بين جدة والمدينة المنورة ، لمصلحة الحجاج ولتأمين النقليات الثقيلة المعتادة بين المدينتين .

وبالاختصار ، يمكننا القول بان الاتصال الوثيق بالعالم المتمدن واكتشاف الوسائل الضرورية للتقدم ، تعاونا فى اثناء السنوات العشر الاخيرة من حكم ابن سعود على خلق ثورة اجتماعية واقتصادية تفوق بكثير احلام اولئك الذين شهدوا الجيوش الوهابية تزحف على جدة قبل اكثر من ربع قرن بقليل . وبعد ذلك بعدة سنوات لم يشهد الناس الناحية العسكرية للاحتلال ، واخذ الرأى العام والموظفون يساندون انشاء جيش ثابت على النظام الاوروبى ليحل محل جيش ابن عبد الوهاب الثائر الذى سار بعلم آل سعود من نصر الى نصر حتى اقاصى انحاء البلاد .

وفى الواقع ، لم يحل هذا الجيش بالكلية ، بل ترك جانبا مؤقتا ليستجم ، حتى أعيد إلى الحياة على صورة فرقة صغيرة من الهجانة اطلق عليها اسم الجهاد ، تضم المجندين من مدن نجدومقاطعاتها كلما احتاجت الحكومة الى ذلك . وتشاهد مخيماتها هنا وهناك ، منتشرة فى الاماكن الملائمة حيث الكلا والماء لجمالهم. ثم أضيف آلى هذه الفرقة قسم الى لنقل المؤن والذخائر والعتاد . ويقود هذه الفرقة البدوية ماجد بن خشيله فى الوقت الحاضر . والمشهور عنه بانه من الغطغط . وكان جسمه رخوا وسمينا بسبب العيش المترف الذى حظى به نتيجة لازدهار البلاد العام . غير أنه

كان رجلا جبارا ذا شجاعه وخبره بالصحراء فبالإمكان الاستفادة منه ومن خدماته وخدمات امثاله فى بعض المناسبات .

كان هذا ما سيقع فى السنوات الاخيرة لو لم يحجم الملك فى شيخوخته عن العودة الى الاساليب القديمة التى أدت له اعظم الخدمات فى شبابه . لهذا وكل الى قواته النظامية امر حراسة حدوده المتاخمة للعالم المتحضر ، بطوابيرها الاليه وسياراتها المصفحة ومدفعيتها . وفى الواقع لم يكن لهؤلاء من العمل ما يكفيهم فواجباتهم بوليسية صرفة ، ومهتم ضبط المهربين . اما حاميات المدن الكبيرة والمناطق المأهولة ، فقد اخذت تكرس معظم وقتها للتدريب والقيام بالواجبات الرسمية ، بينما انتشرت الموسيقى العذبة التى تعزفها الفرق العسكرية لإزالة متاعب التمرينات واللاستعراضات العسكرية ولاجتذاب المجندين وتسلية السكان وإطرابهم .

اما المناسبة الوحيدة التى استخدمت فيها هذه القوة التى قيل بانها تتألف من اثنى عشر فرقة فكانت خلال الحرب الفلسطينية سنة ١٩٤٨ . إذ انضم طابور واحد منها الى القطاع المصرى من الجيش عربونا على المساهمة فى القوات العربية خلال العمليات الحربية ضد اليهود . وكان لهذا الطابور الشرف فى المساهمة فى مسيرة النصر فى شوارع القاهرة، احتفاء بالمناسبة التى كلما ذكرت، ارتعد الناس فى مكتبهم فرقا وخوفا ، واحمرت وجوههم خجلا من الخزى والعار اللذين لحقا بهم .

اما اخفاق الجيوش العربية فى استرجاع فلسطين من ايدى

اليهود ، فيعزوه العرب ، وهم يريدون ان يرثوا انفسهم ، الى مكائد بريطانيا التى تخلت فى الواقع عن جميع مسؤوليات الدولة المنتدبة على البلاد قبل بدء الصراع فيها ، وغادرتها كى تخلى الميدان لتسوية القضية بالاحتكام الى الحرب . ولكن السبب الحقيقى لفشل العرب وانهيار معركتهم التى بدا فيها نصرهم النهائى نتيجة محتومة ، فانه مع الأسف ، يعود ، جزئيا ، الى انقسام آراء الدول المعنية ، ويعود بصورة رئيسية الى الاطماع والرشوات وفساد السلطات المسؤلة عن تزويد الجيوش بالاسلحة والذخائر اللازمة للقوات المشتبكة فى القتال . اما الثورات التى وقعت حديثا فى كل من سوريا ومصر ، فتعود الى اعتراف العرب بعدالة حكم السيف فى قضية فلسطين ، ذلك الحكم الكريه الى النفس .

واذا كان لا يزال هنالك شك فى هذا الموضوع ، فالعبارات التالية المقتبسة من خطاب ألقاه احد قادة الثورة المصرية ، يكفى لازالة هذه الشكوك التى تساور بعض العقول الغير المتحيزة . فقد ذكر رئيس الجمهورية المصرية فى خطاب ألقاه فى الاسكندرية سنة ١٩٥٣ ونقلته صحافة البلاد العربية ومن جملتها الصحف السعودية ، ما معناه . اننا وحدنا المسؤولون عن ضياع فلسطين . وكان قادتناهم العامل الرئيسى فى ضياعها . إننا لم نقم باى عمل سوى القاء الخطب وعقد الاجتماعات والمؤتمرات . لقد كنا نقول باننا سنلقى باليهود الى البحر غير اننا لم نفعل ذلك» .

اما بالنسة للملكة السعودية فيمكننا القول بأنه: مهما كان

السكان سليمى النية فى عداوتهم لليهود ، وتقديسهم لفلسطين واستمساكهم بها كجزء من ارثهم العربى ، فان نظرة الحكومة كانت افلاطونية فلسفية . وكثيرا ما انتقد الملك نفسه، سياسة وقيادة الحركة العربية فى فترة الانتداب ، وفى فترة اللهو التى ادت الى خلق دولة اسرائيل . وهو لم يطمئن الى اخلاص احد للقضية الفلسطينية ، غير انه لم يتخل عن سياسته التى كانت تحتم عليه الابتعاد عن كل ما من شأنه ان يوقعه فى متاعب مع الدول المنتدبة التى برزت بعد الحرب العالمية الاولى .

وفى الطرف الاخر من شبه الجزيرة العربية ، كانت علاقات الملك مع اليمن وإمامها دائما ودية ومفيدة ، منذ التوقيع على معاهدة الطائف سنة ١٩٣٤ . وهنا ايضا نجده ينفى اية امكانية لحدوث النزاع على الاراضى والحدود المختلف عليها ، هذه الخلافات التى كثيرا ما عكرت صفو العلاقات الطيبة القائمة بين الامام يحيى والسلطات البريطانية فى عدن .

ومن ناحية اخرى لم يكن ابن سعود اى عطف على الحركات الديمقراطية الموجهة ضد حكم الامام الاستبدادى بقيادة الامير ابرهيم ابن الامام . هذا الامير الذى ملأ قلب والده بالحقد والكراهية والخوف بسبب ما يحيكه من مؤامرات ودسائس من ملجأه فيعدن. ونتيجة لذلك اخذ يتباهى بكفاءة الاستخبارات الامامية ومقدرتها بكشل مسرحى . وذلك عندما اكتشفت الاستخبارات فى السادس عشر من كانون الثانى سنة ١٩٤٨ ، تقريرا مكذوبا صادرا من عدن، عن طريق بغدادوالقاهرة ، يتحدث عن اغتيال الامام يحيى

وتأليف حكومة ديمقراطية برئاسة عبد الله بن الوزير والامير ابراهيم كرئيس للجمهورية .

اما بالنسبة للحوادث الاخيرة ، فقد ثبت فشل مؤامرة كان مقدرا تنفيذها فى هذا التاريخ ، وادعى المتآمرون فى عدن بانها نجحت .

الا أن الامام يحيى ، ورئيس وزرائه عبد الله العمرى اغتيلاً فى السابع عشر من شباط من نفس السنة وهما يقومان بنزهة فى السيارة . وعلم ابن سعود بالحادث المفجع بعد ساعة واحدة من حدوثه، وقبل اية وكالة اخبارية عالمية بيوم واحد. ولقد كان رد الفعل فى نفسه فذا: سكوت مطبق بالنسبة للبرقية التى وصلته فى اليوم التالى من عبد الله بن الوزير، يعلمه فيها بموت الامام وانتخابه اماما وملكا دستوريا على اليمن . وقد طلب ابن الوزير فى هذه الرسالة ، التى وجهت كذلك الى جميع الدول العربية ، إرسال طائرات للمساعدة على حفظ النظام اما الجامعة العربية فسارعت الى ارسال لجنة للبحث فى اسباب ونتائج الاضطرابات التى عمت البلاد . فطاردت بعثتها عن طريق جدة ولكنها قطعت رحلتها لتقوم بزيارة الملك فى الرياض فى نفس الوقت الذى كان يقوم فيه بزيارته ، وفد يمثل الغاصب اليمنى ، ويتألف من ابن اخته عبد الله ابن على ، والشيخ فاضل الورتلانى المراكشى الاصل، وغيرهما.

ووصل فى هذا الوقت بالذات وارث العرش الشرعى الى حجة من مركزه الادارى فى تعز ، ونجح فى اثارة القبائل وسكان المدن لمناصرته ، فاصبح مركز الغاصب حرجا ويائسا ، كما دل على ذلك

استنجاده اليائس بعدن والرياض والجامعة العربية وامريكا وبريطانيا وحتى روسيا .

قد لاقت نداءات عبد الله بن الوزير والامير ابراهيم ومحمد الكبسي اذنا صماء عند ابن سعود . فقد ابدى ابن الصحراء رأيه الصريح الى الوفد الذى قوبل فى الرياض بكل حفاوة . فكان يشير اليهم باصبعه ويقول (انتم قتلة . كيف تطلبون مني ان اوافق على جريمتكم او اصفح عنكم ؟)وانتهى كل شيء فى الثانى عشر من اذار ، عندما دخل الامير عباس الى صنعاء على رأس قواته واجبر عبد الله بن الوزير واصدقاءه على الاستسلام.

وقد غادر وفد الغاصب الرياض مطاطئ الرأس ذليلا ، ولم يعد لليمن . اما ممثلو الجامعة العربية ، فلم يعد هناك حاجة لأن يذهبوا الى اليمن ، فرجعوا الى مصر .

وفى الحادى والعشرين من آذار نقل عبد الله بن الوزير والمتآمرون معه ، مقيدين الى حجة مركز قيادة الملك الجديد وزج بهم فى السجون ، فى انتظار حكم المحكمة الشرعية وتنفيذ حكم الاعدام الذى لابد منه . فانتهت بذلك ازمة اليمن المؤسية فى الثامن من نيسان سنة ١٩٤٨.

اما ابن سعود ، الذى كان بمقدوره انتهاز فرصة الاضطرابات واحتلال اليمن لمصلحة السلام ، فقد اسرع الى مد يد العطف والصداقة للملك الجديد . ولهذا رأينا ابنه ووريثه محمد البدر ، يقوم بزيارة للسعودية فى اواخر سنة ١٩٥٣ ، ليقدم تعازى والده

وبلاده بوفاه الملك والصديق العظيم ، وكان اسم محمد البدر هذا ، قد زج فى المؤامرة التى قامت ضد جده.

كان ابن سعود فى هذا الوقت ، مقتنعا تماما بان الدول الكبرى تسير بخطى واسعة نحو حرب عالمية ثالثة ، فكان هو نفسه يرى ذلك واضحا ويرحب به كنتيجة حتمية للعداوة التى تكنها الدول الغربية للعالم الشيوعى . ومرة اخرى لم يخف التزامه جانب الغرب وعلى الاخص امريكا بريطانيا ، وإن كان لم يعرف سبباً لترددهما فى محاربة العدو فى الوقت الذى تتفوقان فيه تفوقا ساحقا فى الاسلحة الذرية . ولم يجد فى استخدام هذه الاسلحة الفتاكة فى قتل كافة السكان امرا يخالف الاخلاق. فقد قام الانسان بمثل هذه الاعمال والاجراءات الضرورية فى كافة عصور المدنية . واعتبر ظهور الشيوعية وادوات التدمير الجماعية دليلا على نهاية المدنية وتحذيرا إلهيا على اقتراب يوم الدينونة .

وقد عبر عن رغبتة فى أن تقوم الساعة فى حياته فى مناسبة اخرى جرت سنة ١٩٤٨ اذ كان يقول (من كان يظن بانى سأعيش حتى ارى انتشار المشروبات والعلاجات فى الرياض فى الوقت الذى كنا نحرم فيه التدخين) ثم قال بحرارة : (ليس الخطأ الآخرين بل خطأى . لو قدر لى أن أختار ، لاخترت قيام الساعة فى هذه اللحظة).

صحيح ان صرامة وخشونة طبع السلف وتزمتهم فى بعض النواهى اصبحت خفيفة ، الا أن عددا كبيرا من المباذل الخطيرة فى الاوساط العليا ، قد اضطرت الحكومة لأن تأخذ بالوضع الذى لا

تكاد تحمد الدولة الوهابية في بداية حكمها عليه .. كان المجتمع الاوروبي يتمتع بالامتيازات التي منحته اياها ديانته، فسمحت له الحكومة باستيراد المشروبات الروحية بكميات معقولة لاستعمالها . الا أن استيراد المسلمين لها ، كان ممنوعا منعاباتا .

والواقع أن إجراءات المنع هذه كانت حبرا على ورق منذ زمن طويل . اما الاجراءات التي اتخذتها الحكومة في سنة ١٩٥٢ لاعادة شرعية القانون الرسمية في هذا الموضوع فلايمكن اعتبارها معقولة او فعالة . ذلك ان منع استيراد جميع انواع المشروبات الروحية ، بدون سابق انذار ، لم يكد يؤثر على اوساط المجتمع المحلي التي اعتادت. منذ زمن طويل ، الحصول على المكيفات بطرق منحرفة .

ولم تجرد المجتمع الاوروبي أو تمنعه من الانغماس المشروع فيما تعوده . ومن الصعب أن نعتقد ان الداعين الاولين الى التحرير ، لم يدفعوا الا بعوامل واعتبارات كره الاجانب ، بينما نجد ان المشروبات الروحية لايزال يمكن الحصول عليها في مدن الدولة الرئيسية باسعار خيالية . وهذا دليل قاطع على ان المستوردين المحليين لهذه البضاعة الممنوعة لهم وسائلهم وطرقهم الخاصة للحصول على الكميات التي تؤمن لهم المكاسب الطائلة .

ولاريب في أن الحكومة لم تعمد الى التسامح مع المسلمين في السعودية في استهلاك المشروبات الروحية ، الا لأنه من غير المناسب ان تسمح لهم بذلك .

وبغض النظر عن بعض المشاكل المحلية - مثل انصراف (الآمرين بالمعروف) من حين لآخر الى تنفيذ الاوامر المتعلقة بانتظام حضور الناس الى الصلاة - وخصومات الدول الكبرى ، كان ابن سعود مهتما بصورة رئيسية بمتاعب جاراته .

ففى اوائل سنة ١٩٤٨ نشأ وضع دقيق فى العراق ، حيث قام الطلاب والعمال بمظاهرات صاخبة ضد المعاهدة الجديدة المقترحة مع بريطانيا العظمى ، ادت الى خسائر فادحة ، وسقوط رئيس الوزراء السيد صالح جبر وهروبه . واختفى كذلك نورى السعيد باشا عن انظار عامة الناس . الا انه عاد بعد بضعة اشهر الى العراق بعد ان هدأت العاصفة . وكان الامير عبد الاله ، الوصي على عرش العراق هو الذى اخذ يهدىء من روع الناس بان اعلن أنه لن يصادق على المعاهدة - التى وقعت على ظهر سفينة صاحب الجلالة فكتورى ، فى السادس عشر من كانون الثانى فى بورتسموث - مادام المواطنون لا يرغبون فى ذلك ، أو أنه لن يصادق على الفقرات التى تنص على استمرار الترتيبات السابقة التى تمنح البريطانيين الحق فى احتلال مختلف قواعد الطيران فى العراق .

وما دمنا قد اشرنا فى السابق الى الاضطرابات التى وقعت فى فلسطين ، فانه يحسن بنا ان نذكر ان الملك امر بجمع التبرعات للقضية الفلسطينية خلافا لمبدا «اتفاق كلمة العرب» فى مثل هذه الامور . وقد عين ابنه محمد ليرأس اللجنة التى انيط بها هذا الواجب ، كما بدأ الحملة بالاكتتاب بمبلغ خمسة آلاف جنيه تبرعت بها سيدات القصر .

ومما يدل على الثروات الطائلة التى جمعها التجار المحليون فى الايام الاولى من تدفق الزيت ، ثم فى فترة الحرب العالمية الثانية ، أن تاجرين من تجار جدة ، دفع كل منهما مبلغ خمسة وعشرين الف جنيه . بينما دفع تاجر آخر مبلغ عشرة الاف جنيه .

وبالاضافة الى المساعدات المالية للحرب الفلسطينية فقد اشار الملك كثيرا الى وجوب التجنيد للخدمة الفعلية فى فلسطين . وذلك عندما اصدر فى كانون الاول سنة ١٩٤٧ تعليماته الى جميع حكام الاقاليم النجدية - مستثنيا الديار الحجازية المقدسة من مفعول هذا المشروع - أن يفتحوا السجلات للمتطوعين بين سن العشرين والخمسين وأن يدعو ازعيمين من كل قبيلة لزيارة الرياض لتنسيق الجهود اللازمة .

وقد كان متوقعا ان تتألف بفضل هذا الاجراء قوة قوامها ثلاثمائة الف جندى ولكن كما ذكرنا آنفا كانت القوات السعودية الوحيدة التى قامت بالخدمة الفعلية فى فلسطين ، هى الطابور من الجند النظامى الذى انضم الى القوات المصرية . اما نظرة امريكا وبريطانيا للمشكلة بكاملها ، ومحاولات الحصول على اصوات الدول اثناء القضية فى الامم المتحدة ، واصرار الملك عبد الله ، الذى اصبح بعد حين ملكا على الاردن ، على أن يتزعم القضية العربية ، وان يحتل من فلسطين ما يمكنه احتلاله ويضمه الى مملكته فقد بحثت بشىء من التذمر فى البلاط الملكى فى الرياض .

وكانت نظرة الملك تختلف باختلاف مزاجه آنذاك : بين اعتقاده الراسخ بان البريطانيين لن يغادروا فلسطين فى نهاية الامر، وذلك

بسبب مصالحهم البترولية واستراتيجيتهم الحربية في الشرق الاوسط، وخشيته من ان يعمدوا الى تسليم الجزء العربى من فلسطين الى الملك عبد الله ، أو أن يرسلوا حاميتهم في فلسطين الى الاردن، للحيلولة دون هجوم عربي على اليهود . الا أن وضعه لم يتغير قط ، وكان يقول بانه ما لم يدع على مستوى دولى عال، ويعنى بذلك ان تدعوه بريطانيا ، لان يتدخل فى النزاع الفلسطينى ، فلن يأخذ بزمام المبادرة ، وإن كان يبارك كل حركة عربية ضد اليهود ، على شرط الا تكون اعلان حرب على بريطانيا او امريكا .

وفى هذه الظروف الدولية المضطربة ، احتفل ابن سعود فى الثامن عشر من تموز ١٩٥٠ باليوبيل الذهبى القمرى لحكمه كملك مسيطر . ولقد جرى الاحتفال بهذه المناسبة فى جميع البلدان التى كان للمملكة السعودية علاقات ساسية معها ، وذلك باقامة حفلات الاستقبال اللائقة والثناء والاطراء من محطات الاذاعة . وكانت هذه الاحتفالات تعكس الود والاعجاب اللذين فرضهما جهاد رجل فذ قاد شعبه من الصحراء الى المجتمع الدولى . وقامت فى الجزيرة العربية استعدادات رائعة للاحتفال باليوبيل الذهبى للحكم الباهر، ومظاهر لائقة تعبر عن الولاء والاخلاص وعرفان بالجميل. اما الملك نفسه فقد كان حريصا على الا يفسد على شعبه بهجته ، الا انه كان قلقا من ناحية شرعية هذه الاحتفالات من الوجهة الدينية . ولذا عمد ابن سعود الى استشارة مفتى الرياض الاكبر ، الشخ محمد بن ابراهيم وزملائه من الائمة وعلماء الدين .

لقد كانت الفتوى واضحة وفاصلة : اى أن فكرة اليوبيل الذهبى غير مشروعه حسب تعاليم النبى وسنته، وأنها من وصنع اليهود والمسيحيين واختراعهم ، ولذا فان الاحتفال بمثل هذه المناسبة مخالفة للشرع. لقد صدرت هذه الفتوى فى الثالث عشر من تموز وسمعها الملك وهو مجتمع الى وزرائه حسب عادته من كل يوم خميس . غير أن الاستعدادات كانت قد تمت منذ مدة طويلة ، ومنها اقامة حفله كبرى فى جده ، دعى اليها اعضاء السلك السياسى وموظفو الحكومة البارزون والاعيان . لكن الاوامر صدرت بالغاء الاحتفالات المتفق عليها وتوزيع الطعام المخصص للحفله على الفقراء والمعوزين فى جدة وما جاورها .

ويجدر بنا ان نذكر ان اليوبيل الذهبى الذى صادف فى الرابع عشر من كانون الثانى سنة ١٩٥٢ الشمسية قد اهمل ، لا فى السعودية وحدها بل فى جميع انحاء العالم .

كان قد مضى آنذاك على الحرب الكورية قرابة الثمانية عشر شهرا ، وكان الوضع فى منطقة القتال فى مصر آخذا فى التأزم ، مع ان الثورة العسكرية التى حدثت فى ٢٣ تموز ، وسقوط الملك فاروق وقعا بعد ذلك بستة اشهر . اما المملكة السعودية فلم تتأثر قط باى من هذه الثورات ، مع ان علاقاتها الودية الوتيدة مع مصر ، والتى دامت زمنا طويلا احدثت فى بادىء الامر رد فعل بسيط يتمثل فى العطف على الاسرة المالكة المطرودة وعلى اعضائها البارزين الذين كانوا على صلة وثيقة بالملك وحكومته . غير أن استقرار الثورة العسكرية ورسوخ اقدامها وتعبيرها عن حسن نواياها نحو الجزيرة

العربية ، اكتسبت موافقة السعوديين واعترافهم بسياسة الامر الواقع.

وكانت المملكة السعودية على اتفاق مع الدول العربية الاخرى لمساندة مصر فى طلبها اخلاء منطقة القنال . اما الاعتداءات التى حدثت فى السادس والعشرين من كانون الثانى سنة ١٩٥٢ والنواحي الاخرى فى سياسة حكومة الوفد ، فاثارت النقد والاستنكار اللطيف . واما من ناحية كوريا فقد اعتبرت الحرب فيها مجرد مقدمة للصراع الاكبر الذى لن يحدث فى حياة الملك . لذا لم يحظ باهتمام لديه ، وخصوصا بعد الوقوف عند خط عرض ٣٨ ، الذى حدث بعد الاندفاع الشيوعى ورد الامريكيين عليه . اما الدول العربية الاخرى فلم تساهم فى طلب الامم المتحدة التعاون مع القوات الامريكية المشتبكة فى القتال الدائر فى كوريا ، والذى كان بمثابة اختبار للثبات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى .

وحدث تطور بالغ الخطورة بسبب اتفاقية التعويضات المعقودة بين المانيا الاتحادية واسرائيل . فقبل هذا الحدث ، كان هنالك ميل ظاهر من جانب المملكة السعودية للتفاهم والتعاون فى المجال الاقتصادى مع الحكومة الالمانية ، يكفل لها مصالحها فيما اذا وجد توازن فعلى مع الامتيازات الامريكية . وكان للاسعار والاعتبارات السياسية وبعض المشاريع الغير الناجحة التى انيطت بالشركات البريطانية ، اثرها الوقتى فى اخراج التعاون البريطانى من الميدان .

وكانت الدائرة المالية التى يسيطر عليها عبد الله السليمان وعائلته قد قطعت شوطاً بعيدا فى طريق التفاهم مع عدة شركات

المانيـة ، منهـا شـركة فـيلى هولتـزمان المعـروفـة باسم شـركـة الـسكة الحديدية البرلـينية البـغدادية بخصوص عدد من المشـاريع الهامـة . ونشأت عند ذلك عقبـة عقد المعاهدة . وكـانت هذه الشـركة المذكـورة قد أعدت دراسات مستفيضه لتحسين مرفا الدمام، كما كانت آنذاك تقـوم بدراسـة مشـاريع اخـرى بالخطـوط الحديدية والطرق . وعندمـا قـررت الجـامعـة العربيـة مقـاطعة المانيـا تجاريا وصناعيـا ، تجـاوبت المملكة الـسـعـودية مع الجـامـعـة فى قـرارها ، عـلى الرغم مـن عـدم اعتقادها بفائدته او فعاليته .

امـا حكومـة بون فـقـد صـادقت على اتفـاقـيـة الـتـعـويضـات مع اسرائيل واستطاعت أن تخفف مـن نقـمـة العـرب بـالكلمـات المعسـولة والاستـقبـالات البـاهرة التى كـانت تحظى بهـا الوفـود العـربيـة الموفـدة للاحتجاج لدى الحكومة الالمانية ، وشيئا فشيئا بدا ان مقاطعة المانيا قد فقدت فعاليتها .

وفى نهـايـة سنة ١٩٥٢ ، كـانت المملكة السعـودية مـرة اخـرى تمد يدها لـلتـرحـيب بالـصناعـيـين والاطبـاء والطبـيـبـات وغـيـرهم من اخصائيى الالمان. وكان بعض الوقت قد ضاع فى اعداد المشاريع. الا كـان امام الجزيرة العـربيـة متـسع من الوقت للوصـول الى وضع ثابت من الاستقرار والتطور. لقد. كان فى بعض الامور كثير من العجلة وعدم الروية فى معـالجة مشـاكل الحاضر والمستـقبل . ولقد احدثت وفاة الملك توقفا فى نشاط الحكومة، هذا النشاط الذى كان سيساعد الحكومـة الجديدة على تقييـم الوضع الذى ورثتـه عن الماضى، وعلى أن تضع خططهـا للمستـقبل ، واثقـة من انها ستستـقبل فترة طويلة

من السلم والازدهار . فلم يكن هنالك اى ميل للصلح مع اسرائيل ولا يمكن ان يكون فى المستقبل كذلك اى ميل للصلح او تسوية اية مشكلة ، سياسية كانت ام اقتصادية فالقائمة السودا ء التى تسجل فيها جميع الشركات اليهودية فى جميع انحاء العالم والتى يمنع الاتجار معها منعا باتا فى السعودية العربية قد وصلت الى نسبة مؤثرة . ومن غير المحتمل أن ينجح بن غوريون باخر اغنياته السلمية وبغصن الزيتون ، فى التخفيف من العداوة المريرة التى تفصل اسرائيل عن جيرانها العرب .

وبقطع النظر عن كون ابن سعود قد اختط لبلاده بشكل عام ، سياسة الود والتعاون مع الجامعة العربية منذ تأسيسها ، وفى جميع الامور ذات الاهمية الدولية العامة منها والخاصة بالنسبة للدول العربية مجتمعة ومنفردة - فانه يصعب علينا تقدير مدى اهتمامه ونشاطه فى مثل هذه الامور خلال السنوات الاخيرة التى وجه اهتمامه فيها الى امور بلاده الداخلية . ففى كل الامور المتعلقة بالمحافظة على الامن والنظام والحقول الشخصية والمخالفات والمشاريع التى تهمه بشكل خاص من مثل بناء خط حديد الدمام-الرياض ، لم يتاخر ابن سعود عن ممارسة الاشراف الحاسم على ادارة شؤون البلاد ، بالرغم من جميع الاعتراضات التى قدمها الاقتصاديون الكثيرو الحذر . ويمكن الاعتراف الان دون الدخول فى التفاصيل بانه كان مصيبا وان له ما يبرره فى الازدهار الاقتصادى المدهش الذى ترتع فيه المدن والمناطق المستفيدة من الخط الحديد. اما فى مجال مصالح البلاد المتعددة الانواع ، فقد اصبح

قانعا جدا بان يترك توجيه جميع الامور الخاصة بها ، لولى عهده النشيط الذى ازداد قوة وطولا فى السنوات الاخيرة ، خصوصا بعد عودته من زيارته الطويلة للولايات المتحدة ، واصبح عاملا فعالا فى حكم البلاد.

وقد كان ظل والده يلازمه فيرشده ويشجعه ويساعده فى الازمات كما حد الاشرار ومنعهم من القيام باى عمل شرير فكروا فيه . وكان واضحا منذ سنوات عديدة قبل النهاية بان رمال السنين قد اوشكت على النهاية بالنسبة لرجل قضى حياته فى الانتصار على الشدائد ، وليس بوسعه الان ان يفعل شيئا غير ان يرقب بقلق بالغ عميق ، الغيوم السوداء التى اخذت تتجمع فى افق العالم المضطرب والذى اصبح مستقبل بلاده المحبوبة منوطا فيها بايد غير يديه : ايد تقل خبره ومهارة الا أنه دربها على المهنة التى ورثها عن اسلافه ومارسها بامتياز تام . وكان هنالك خطر وحيد لم يستطع خلال السنوات الخمسين من الجهد الكثير ان يطرد شبحه وذلك باقناع اقدم اصدقائه انه مخلص فى صداقته . ففى اقصى الجنوب الشرقى من بلاده تقع واحة البريمى الصغيرة التى أجتذبت أنظار البريطانيين الطامعين فقد قضت حامية.

ابن سعود الصغيرة السيئة التسليح بقيادة حاكمها المحلى تركى بن عطيشان قرابة الاثنى عشر شهرا فى حصار فرضته عليها بريطانيا مستخدمة فى ذلك جميع فرسان الملكة ، تسندها الطائرات والمصفحات . وقد برز اسم البريمى فى هذا الكتاب كوحدة من الدولة الوهابية ، ولسنا نهدف فى كتابنا هذا الى الدخول فى

تفاصيل النزاع الحالى الذى ما كان لينشأ لولا إمكانية ظهور البترول فى رمال تلك الصحراء . فالحكومة البريطانية تدعى ملكية المنطقة باسم سلطان مسقط وشيخ ابو ظبى، فكلاهما يمتلك بساتين نخيل فى الواحة ، ولا خلاف بينهما وبين ابن سعود فى ملكيتها. اما الحقيقة التاريخية التى لا تقبل الشك فهى ان احدا منهما ما مارس السلطة والسيادة على الاراضى المتنازع عليها ، كما يتضح ذلك من احداث مرجع موثوق فى هذا الموضوع كما اشرنا اليه فى مقدمة هذا الكتاب . ومن المؤسف حقا ان يكون السير ونستن تشرتشل ، بنفسه دون جميع الناس ، الداعى الى الاعتداء الذى لامبرر له على رجل رحب به واستقبله فى الايام الخوالى ، كاعظم صديق فى وقت الضيق خلال احلك ايام الحرب.

لقد اظلم هذا النزاع ايام الملك الشيخ . فقد عاش فى عزلة وراحة فى الرياض منذ اخر حج قام به ، تحت وطأة حر صيف مكة سنة ١٩٥١ . فلقد اخذت الشيخوخة وسوء الصحة تظهران عليه . فاضطر بسبب عاهة ركبته أن يستعمل الكرسى ذا العجلات فى انتقاله . واصر بقدر استطاعه على الاحتفاظ بالنظام الذى درسه ووضعه طوال حياته فى امر الاتصال بمرؤوسيه فى الوقت المعين. ولكنه قلما غادر دائرة قصر المربع ، وإن قضى جزءا من صيف سنة ١٩٥٢ فى قصر البديعه Al Badia قصر ولى العهد الريفى الواقع فى وادي حنيفه. وكان آخر اعماله العامة العظيمة فى الرياض، ظهوره ليفتتح الخط الحديدى فى تشرين الاول من سنة ١٩٥١، كما حضر بعض الحفلات الرسمية فى الطائف، فى اواخر صيف سنة

١٩٥٣ . وكان قد سافر اليها فى طائرة (سكاى ماستر) طائرته الخاصة لقضاء آخر شهور من حياته. وفى النصف من تشرين الاول اصيب بنوبة قلبية خطيرة احدثت قلقا بالغا بين صفوف شعبه. وتواردت عليه البرقيات الكثيرة التى يتمنى له مرسلوها فيها الشفاء. وكانت احداها مرسلة من ملكة انجلترا. وعندما شفى، الح على حضور الاجتماعات العامة المعتادة بنفسه ، وان كانت هذه قد حددت واقتصرت على واحد بعد الظهر لاجتماعه بابناء شعبه . غير ان عودة المرض اضطرته ان يلازم غرفته . وهناك فى الساعة العاشرة والنصف صباحا وفى التاسع من تشرين الثانى سنة ١٩٥٣ وفى حضور عدد من افراد عائلته الكبيرة اسلم الملك العظيم الروح. فقرئت الصلاة على روح الفقيد فى عصر ذلك اليوم فى مصلى الطائف الكبير بحضور جمهور عظيم من الشعب المخزون . ونقل جثمانه الى الرياض على متن طائرة ، يرافقه الامير فيصل وبعض ابنائه. وفى تلك الامسية بالذات وبعد قراءة الصلوات المعتادة على جثمانه، دفن فى الرياض ليخلد الى الراحة بجانب ابيه . لقد انتهى حكم عظيم .. وبانتهائه ينتهى تاريخ هذه الاعمال العظيمة والمنجزات الباهرة التى قامت بها هذه الاسرة المالكة العظيمة التى حكمت الجزيرة العربية خمسة قرون. يبدو ان الحكم سيستتب لها اجيالا عديدة اخرى. لقد قضى الملك العظيم نحبه ، ولكن اسمه سيظل خالدا على الدهر.

شكر وعرفان

اطلع أحد العلماء المؤرخين من أبناء نجد على هذه الترجمة والكتاب لا يزال تحت الطبع فأثر التفضل بتصويب بعض اسماء الامكنة والاعلام فيه .. اذ انه لما كان المؤلف قد استعمل اللفظ باللهجة البدوية فقد صعب ضبط ذلك بالحروف الافرنجية ، هذا علاوة على ان اسماء الامكنة هي دائما عرضة للالتباس..

وإننا هنا نعترف بأن الله وحده هو المنزه عن التقصير ، كما نتقدم بمزيد الشكر لذلك الفاضل الجليل الذى لم يرد الاشارة الى اسمه تواضعا .

وهنالك اختلاف فى «حرف التأنيث» فى اسماء القرى ، فى المصادر العربية ، وادخال أل التعريف على الاعلام وسوف نذكر وجه الصواب

قبائل البادية

بنى ملخم : ملهم

بنى ظافر ، الظافر : الظفير

بدو السمده : الصمدة

آل ، عشيرة أسامة : العصمة

بنى قبائل كاثر : كثير

بنى مرة : مرأة

المواقع

عشقير : أشقير

عثيثة : أثيثية

الحارق : الحريق

طنحة : تنهاة

بصل : بسل

الدخيلة : الداخلة

الفارعة : الفرعه

كحفة : كهفة

صفوان : سفوان

الأعلام

أبى نعمى : أبى نمى

مظهر بن ادريس : معضادبن ريس

البحوطى : البهوتى

الخالوطى : الخلوتى

رشيد الدريبى : راشد الدريبى

على عزان : أزن

الخزانى : الهزانى

العيضى : العايذى

هذلين : حثلين

فهرس الكتاب